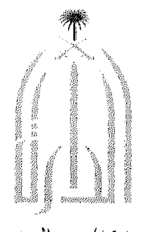
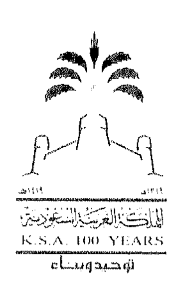
مكتبة الدارة المئوية





صفحات من تاريخ مكة المكرمة



تأليف
ك: سنوك هورخرونيه
نقله إلى العربية
الدكتور علي عودة الشيوخ

أعاد صياغته وعلق عليه
الدكتور محمد محمود السرياني
الدكتور معراج نواب مرزا

الجزء الأول

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

صفحات من تاريخ مكة المكرمة

الجزء الأول

© دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هورخرونيه، ك. سنوك

صفحات من تاريخ مكة المكرمة/ ترجمة علي عودة الشيوخ؛ محمد محمود السرياني، معراج نواب مرزا، مراجعة محمد إبراهيم علي - الرياض.

٣٠٨ ص ؛ ٢٠×٢٧ سم.

ردمك:١ - ٣٤ -٦٩٣- ٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٤٠-٦٩٣-٩٩٦٠ (ج١)

١ - مكة المكرمة - تاريخ ٢ - مكة المكرمة - الأحوال الإجتماعية

أ - الشيوخ، علي عودة(مترجم) ب - السرياني، محمد محمود (مترجم)

ج - مرزا، معراج نواب (مترجم) د - العنوان

ديوي ٩٥٣,١٢١ ١٩/٣٠٧٣

رقم الإيداع:١٩/٣٠٧٣

ردمك:١ - ٣٤ -٦٩٣- ٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٤٠-٦٩٣-٩٩٦٠ (ج١)





صفحات من تاريخ مكة المكرمة

تأليف المستشرق: ك. سنوك هورخرونيه

الجزء الأول

دراسة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية
من البعثة النبوية الشريفة
وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري

نقله إلى العربية

الدكتور علي عودة الشيوخ

أعاد صياغته وعلق عليه

د. محمد محمود السرياني   د. معراج نواب مرزا

راجعه

د. محمد إبراهيم علي

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

(١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله،

أما بعد،

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها. ولقد أدرك الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه، فجعل الإسلام نبراسًا له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار.

ولقد كان استرداد الملك عبد العزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس إلى أكثر من مائتين واثنين وستين عامًا، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود رحمه الله والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبد العزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله ـ عز وجل ـ وبسنة رسوله ﷺ. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم.

وجاءت عهود بنيه من بعده: سعود رحمه الله وفيصل رحمه الله وخالد رحمه الله، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز يحفظه الله امتدادًا لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ/ ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز رحمه الله الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق الله تعالى وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيمانًا وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية.

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد التي قامت فيها الدعوة والدولة معًا لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه.

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس رحمه الله وأبناؤه من بعده؛ عرفانًا بفضلهم ووفاء لحقهم؛ وإيضاحًا لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبد العزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله ـ عز وجل ـ على هذه البلاد وأهلها من تقدم علمي، ومن نهضة زاهرة. وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة **«مكتبة الدارة المئوية»** التي تقوم دارة الملك عبد العزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة.

في الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه، وأن يوزعنا شكرها، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سلمان بن عبد العزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد:

فقد وفقنا الله تعالى إلى ترجمة هذا الكتاب إلى لغتنا الحبيبة ـ لغة الضاد ـ وقد لاقى الجزء الثاني حين صدوره عام ١٤١١هـ، عن نادي مكة الثقافي الأدبي استحساناً وقبولاً من جمهور القراء. وها نحن الآن نقدم الجزء الأول من هذا الكتاب، ذلك الجزء الذي يحوي التاريخ السياسي للبلد الأمين منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري وقد وضع المؤلف هذا الجزء توطئة للجزء الثاني الذي بحث فيه الأوضاع الاجتماعية للمدينة المقدسة خلال الفترة التي وُجد فيها بمكة المكرمة.

ولقد وفقنا الله (عز وجل) إلى إخراج الكتاب بجزأيه، تعميماً للفائدة، وإننا لنعتذر لجمهور القراء عن التأخير في الإيفاء بالوعد الذي قطعناه بإخراج الجزء الأول في أقرب فرصة ممكنة، فقد حال دون إخراجه في وقت أبكر من هذا ظروف وملابسات أفضت إلى هذا التأخير.

لقد لاقت الطبعة الأولى استحساناً وقبولاً مميزاً عبرت عنه الرسائل التي وردتنا بهذا الخصوص. كما أظهرته المقالات العديدة التي نُشرت حوله في الصحف والمجلات. ومن الجدير بالذكر أننا أدرجنا معظم ما وردنا من ملحوظات في ثنايا هذه الطبعة مشيرين إلى أسماء وتعليقات من تفضلوا بإرسالها في حواشي هذه الطبعة بالرغم من مخالفة بعضها لوجهات نظرنا حرصاً منا على الأمانة العلمية.

وقد نشرت جريدة الندوة بتاريخ ٢٩/٢/١٤١٢هـ مقالاً بقلم الأستاذ تميم الحكيم عن هذا الكتاب حيث قال:

«صفحات من تاريخ مكة: كتاب عام ١٤١١هـ، لماذا؟».

أرجو أن أكون منصفاً، إذا قلت إن كتاب (صفحات من تاريخ مكة) للمستشرق ك. سنوك هورخرونيه، الذي أصدره (نادي مكة الثقافي الأدبي) في العام الماضي، هو أفضل ما أصدرته الأندية الأدبية عام ١٤١١هـ، إن لم يكن أفضل كتاب ظهر على الساحة الثقافية السعودية في هذه الفترة...

وإذا كنت راغباً في إثبات صحة مقولتي، فعليّ أن أقدم لهذا الحكم بعض المبررات، وأبين ما دفعني إليه من المسوغات.. ومنها:

أولاً: يتناول الكتاب حقبة من تاريخ مكة المكرمة، مهبط الوحي، ومنبع الرسالات، وقبلة المسلمين.

ثانياً: يبحث الكتاب في الحياة الاجتماعية لأهل مكة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.. ومما يستعرضه العادات والتقاليد، والأنظمة الأسرية، والتدريس والإعلام، وديموغرافية المجتمع، ومثل هذه الكتب تستهوي الجميع، فيقبل عليها الخاصة ويتقبلها العامة.. خاصة إذا كتبت بأسلوب مبسط بعيد عن التعقيدات وخال من الاصطلاحات..

ثالثاً: الكتاب يعرض ما كتبه المستشرق هورخرونيه عن مجتمع مكة المكرمة، خلال إقامته فيها، بسلبه وإيجابه.. في محاولة موضوعية من المترجم والناشر، لكشف غث ما كتب من سمينه، وكشف النافع وإظهاره، والرد على المغرض الحاقد وإبعاده.

رابعاً: الكتاب مزود بخرائط وصور مختارة لمكة المكرمة والمشاعر، وللصناعات التقليدية بأم القرى في تلك الفترة، مع فهارس للأعلام والمواقع والأمكنة والمصطلحات المكية.

خامساً: مما يدل على أهمية هذا الكتاب احتفاء الإعلام السعودي به، فقد ورد ذكره في أكثر من برنامج إذاعي، كما كتبت عنه مختلف الصحف والمجلات السعودية.. ومنها (الشرق الأوسط) التي أوردت ذكره في الصفحة الأولى منها، واستعرضته في نصف صفحة داخلية.

سادساً: لم يقتصر الاهتمام بالكتاب على داخل المملكة، بل تعداه إلى الوطن العربي، حيث كتبت عنه بعض المجلات العربية، ومنها (الثقافة) الدمشقية.. وتلقى النادي رغبات عدد من العلماء والأدباء في الوطن العربي لاقتناء الكتاب.

سابعاً: كتب عن هذا الإصدار، وعلق عليه وحلله مجموعة من الكتاب المعروفين، والأساتذة الجامعيين، والنقاد الأكاديميين.

ثامناً: رغم أن معالي الدكتور راشد الراجح، رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي، أهدى هذا الكتاب لعدد كبير من أصحاب السمو الملكي الأمراء، والمعالي الوزراء، والسادة المفكرين والعلماء، والإعلاميين والأدباء، وإلى جهات رسمية وخاصة في مختلف مدن المملكة والأرجاء.. إلا أن الطلبات التي انهالت على النادي لاقتناء (الصفحات) لم يسبق للنادي أن تلقى مثلها في بقية الإصدارات.

تاسعاً: يعتبر هذا الكتاب أكثر إصدارات نادي مكة الثقافي مبيعاً، بعد كتاب تاريخ مكة للأديب الراحل أحمد السباعي.

عاشراً: الكتاب يجسد أحد أهداف الأندية الأدبية في ضرورة تأريخ إصدارات الأندية للمناطق التي تقع فيها.

تلك هي أهم الأسباب، التي جعلتني أرشح هذا الكتاب، لكي يكون له على غيره السبق والغلاب.. فهل أنا محق أم جانبت الصواب؟

لا نملك نحن الجواب عن سؤال الأستاذ تميم الحكيم أنه محق في ترشيح الكتاب لكي يكون له على غيره قصب السبق فهذا الحكم هو للقراء وللنقاد. غير أننا نذكر بعض من كتب من النقاد والكتاب والأساتذة الجامعيين حول هذا الكتاب، فقد كتب علاّمة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر في سلسلة من المقالات نشرت في مجلة البلد الأمين والمجلة العربية حول هذا الكتاب، وقد أورد العديد من الملحوظات حول بعض الأمور، وقد أدرجنا جميع ملحوظاته ـ حفظه الله ـ في مواضعها من الكتاب وخاصة ما يتعلق بإسلام المؤلف وقصة سرقة نقش تيماء وارتباط المؤلف بها. أما الملحوظات الأخرى فقد أوردناها في حواشي الكتاب مذيلة باسم الشيخ الجاسر. وكذلك فعلنا مع جميع من وصلت إلينا منهم ملحوظات. ومن الجدير بالذكر أننا نعتز بالإطراء الذي ذكره الشيخ بهذا الكتاب حين قال في معرض تعليقاته في المجلة العربية:

«ولقد قرأت هذا الجزء فاتضح لي أنه من أمتع ما قرأته مما نشرته نوادينا الأدبية من المؤلفات، إن لم يكن أمتعها، وهو يجلو صورة واضحة للمدينة الكريمة في ذلك العصر، بصرف النظر عما قد يبدو من ملحوظات مؤلفه وأفكاره التي لا تتفق مع أفكار

كل قارئ عربي مسلم، ولكنه مع ذلك حاول ما استطاع إبراز ما شاهد أو سمع كما اتضح له، ومن هنا برزت جوانب الإمتاع فيه، ولعل من أظهرها: أن القارئ يسترسل في القراءة دون أن يحس بضجر أو ملل، فهو يعرض مشاهد يتلذذ المرء بمعرفة الكثير عنها، يضاف إلى هذا أن أسلوب المعرّبين الكريمين على جانب من السهولة والوضوح. ولا ينبغي تجاهل ما لهما من تعليقات قيمة استدركا فيها على بعض ما وقع فيه المؤلف من أخطاء. وقد سبق الحديث مستوفى عن عملهما من جميع جوانبه، وإذن فيستحسن عرض هذا الجزء».

وقد ذكر الشيخ الجاسر في مجلة البلد الأمين التي يصدرها نادي مكة الثقافي الأدبي ما يلي:

«هذا العمل لا ينكر فضله، ولا يغمط قدر القائمين به سوى جاهل بما نحن بأشد الحاجة إليه بما يقال عنّا، وما توصف به بلادنا، وبما ينطبع في أذهان الآخرين وأفكارهم عن مختلف أحوالنا، إنْ حقاً أو باطلاً، لنتخذ الموقف الملائم له على هُدى وبصيرة من أمرنا ولا يذهب بنا سوء الظن، أو الغرور، بأن كل ذلك مما لا نحتاج إليه، وأنه جميعه سيئ، فما دمنا لا نزال عالة على الغربيين بجميع ما تقوم عليه من أسس حياتنا الحاضرة، فما المانع في أن نجد فيما يعرضون لمعالجته من أحوالنا بآرائهم، وبطريقتهم في المعالجة ما يجمل بنا أن نستفيد به، وأن نسير عليه حين نتصدى للدراسة والبحث، مما نستزيد به علماً ومعرفة لنصل إلى حقائق الأمور، فيما لا يؤثر في أفكارنا بما لا يتفق مع معتقداتنا.

إن المعربيْن الفاضلين قدّما لجميع الباحثين في الأحوال العامة لبلدة (أم القرى) من اجتماعية واقتصادية وثقافية وتاريخية وغيرها خلال الفترة التي تصدى المؤلف للكتابة عنها، ولغير الباحثين من القراء ممن لا يحسن لغة الكتاب، مصدراً حافلاً بالمعلومات التي لا توجد في المؤلفات الأخرى، تفصيلاً وشمولاً وعمق دراسة، بأسلوب واضح جذّاب، يستهوي القارئ ويحبب إليه الاسترسال في القراءة، ولم يكتفيا ـ وفقهم الله ـ بتقديم النص على علاته، بل أضافا ـ في الهوامش ـ ما قد يزيده إيضاحاً، أو يُقوّم معوجّه، أو يصحح خطأه، أو يلفت النظر للوقوف عنده، لملاحظة ما بحسب إدراك القارئ غير متأثر بالنص!». ولقد ذكر الكتاب الأديب المكي محمد عبد الله مليباري رَحِمَهُ اللَّهُ في زاويته (ومضات) التي كان يكتبها في جريدة الندوة فقال: «قد كان نقل هذا الكتاب إلى العربية عملاً له أثره الساطع في ثقافتنا السعودية خاصة، وفي ثقافتنا

التاريخية العربية عامة، فللمترجمين والمراجع ورئيس نادي مكة الثقافي شكري المتطلع دائماً إلى المزيد من أمثال هذه الأعمال الأدبية المفيدة».

ومما وصلنا من ملحوظات قيمة من الدكتور حسن مختار من كلية التربية بجامعة أم القرى حيث نشر مقالاً بجريدة عكاظ بتاريخ ٢١ شوال ١٤١١هـ، تحت عنوان تاريخ مكة بين الهوى والموضوعية، اقترح فيه «أنه لما كان هذا الكتاب يشمل وصفاً دقيقاً للكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري سواء العادات والتقاليد أو الأنظمة الاجتماعية والتدريسية والإعلام وديموغرافية المجتمع المكي بطريقة تجعلني أقول بأن الكتاب عبارة عن دراسة إثنوغرافية وليس كتاباً في التاريخ؛ لأن المؤلف لم يذكر شيئاً عن أحداث ووقائع وما يمكن أن نطلق عليه تاريخاً، بل وصف ما رآه وما سمعه في جوانب الحياة العامة والخاصة بطريقة إثنوغرافية للمجتمع المكي في تلك الفترة»، ومع احترامنا لوجهة نظر الكاتب إلا أن كل ما دوّنه هورخرونيه في هذا المجال يعد مادة تاريخية تنوع أسماؤها بين التاريخ السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الإثنوغرافي، وقصر الأمر على الجانب الإثنوغرافي يجعل الموضوع في حدوده الضيقة ولا سيما أن الكاتب قد ختم مقالته بالاعتراف بأن موضوعات هذا الكتاب هي أشمل من الإثنوغرافيا حيث قال: «وفي النهاية أقدر للمترجمين جهودهما في إنجاز هذا العمل الثقافي والمشاركة في تأصيل الفكر الاجتماعي الثقافي للبلد الحرام في حقبة تاريخية مضت، وما ذكرته من ملحوظات لا يقلل من قيمة الكتاب لمن يهتم بالدراسات التاريخية والاجتماعية».

لقد كتب الدكتور أحمد مصطفى الريس في جريدة المدينة المنورة خلال شهر شوال وذي القعدة في عام ١٤١١هـ عدداً من الحلقات تحت عنوان «رحلة في عمق كتاب»، استعرض فيها محتويات الكتاب مع تعليقات وافية تشيد بهذا الجهد وتدعم بعض الشبهات، وكان مما قاله الكاتب: (وكلما تعمق إبحارنا في تلك الصفحات المطوية من تاريخ مكة في القرن الثالث عشر الهجري.. نزداد تصميماً على إكمال الرحلة في عمق ذلك الكتاب.. الذي خرج إلى «التداول» وهو يضم بين جنباته في بعض السطور «دسا» غير خفي على المجتمع الإسلامي مارسه المؤلف (ك. سنوك هورخرونيه) الهولندي كلما غلبته النزعة الاستشراقية.. مما يدفعنا إلى تنقيح ما سجّله من رصد تناوله بمنظوره الاستشراقي

البحث. . وتنقية تلك الصفحات من بعض «الدس» الذي لم يكن له وجود في المجتمع الإسلامي من قريب أو بعيد بالصورة التي أراد بها ذلك المستشرق عرض بعض جوانب من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة في تلك الحقبة التاريخية. .).

وقد شاركت جريدة الشرق الأوسط في مجال التعليق على الكتاب، فقد عرض الأستاذ حاتم صادق ـ بتاريخ ١٤١١/١٢/٢٩هـ، تحت عنوان «كتاب مهم للمستشرق الهولندي هورخرونيه يصدره نادي مكة الأدبي» ـ موضوعات الكتاب مفصلاً مع بعض التعليقات حولها، وكان مما قاله: «إن الجزء الثاني من كتاب صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري من كتب التاريخ المهمة التي تتحدث عن فترة محددة من تاريخ مكة المكرمة وتتمثل أهميته في جانبين هما: شخصية المؤلف، ومضمون الكتاب».

وكذلك وصلتنا مناولة من الدكتور عبد الله بن صالح شاووش، وهو أحد المهتمين بالدراسات المكية والأستاذ بجامعة أم القرى، ملحوظات وتفسيرات دقيقة ومهمة جداً تنم عن مراجعة واعية للكتاب، فقد تم الأخذ بها في الأغلب والأعم، فله منا الشكر والتقدير.

وبعد: فهذه مختارات مما كتب ونشر حول هذا الكتاب نسوقها لإبراز الأهمية والنجاح الذي لاقاه الكتاب من قبل قطاع عريض من المفكرين والقراء. وإننا لنعتز ونرحب بالآراء التي تردنا حول أي من موضوعات الكتاب؛ لأن هدفنا هو إبراز الحقيقة بصورة موضوعية. سائلين المولى ـ عزّ وجل ـ أن يهبنا السداد والرشاد، وأن يجعل ذلك في ميزان عملنا.

ولا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير لدارة الملك عبد العزيز، ولسعادة الدكتور فهد بن عبد الله السماري، الأمين العام، على نشر هذه الطبعة وتقديم كافة أنواع الدعم لإخراجها بالصورة المناسبة. وليس هذا بغريب على مؤسسة علمية مثل دارة الملك عبد العزيز التي من أهدافها خدمة تاريخ الجزيرة العربية وتراثها وذلك بإشراف مباشر وتوجيه كريم من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، رئيس مجلس إدارة الدارة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. . .

مقدمة المؤلف

إن تدوين نتاج رحلتي، التي استمرت عاماً كاملاً لمدينتي جدة ومكة (١٨٨٤ - ١٨٨٥)م[١] قد واجه تأخيراً غير مرغوب فيه. وقد كانت الأسباب وراء هذا التأخير مردها إلى إبعادي المفاجئ عن المدينة المقدسة، وشعوري بضرورة وضع صورة شاملة لتاريخ المدينة المقدسة، قبل أن أضع ملحوظاتي حول حياة المكيين اليومية، في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وبالرغم من أن البحث بدأ نسبياً تحت ظروف جيدة نتيجة جلب جميع ما جمعته من وثائق، دون أن يمسها أي تلف، إلا أن مثل هذا العمل، إذا أريد له ألا يكون سطحياً، فإنه يتطلب الوقت الكثير.

إن تعرفي على مصادر تاريخ المدينة المقدسة، والتي تحوي معلومات عن مجريات الأحداث خلال القرنين الماضيين، قد جعلت معالجة تلك الحقبة، التي لا يعرف عنها الأوروبيون إلا القليل، أمراً مرغوباً فيه[٢].

أما بالنسبة للفترات التاريخية السابقة، فإننا نملك في اللغات الأوروبية، لمحات تاريخية، تبرز القوى الرئيسة للحياة السياسية في منطقة مكة، وبذا نتمكن من استخدام الماضي لفهم الحاضر. وفي العديد من المكتبات الأوروبية، يوجد مخطوطات لأشهر المراجع عن تاريخ مكة. وبعض هذه المخطوطات، يعالج بالدرجة الأولى، تاريخ

---

(١) يوجد تقرير موجز عن رحلتي في جريدة Munchener Allgemenine Zeiturg بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٨٥م وبعض النتائج في Verhandlungen der Gesellschaft Fur Eedkunde su Berlin, Bd. xiv,s. 138 ff (المؤلف).

(٢) المؤلف A. Zehme في كتابه البلاد العربية والعرب منذ عام (arabien und die Araber) الصادر في مدينة Halle عام ١٨٧٥م قد عالج بمهارة أهم كتب الرحالة الأوروبيين، وعلى أيّ حال فالكتاب الذي يحوي الجديد عن الظروف السياسية في الحجاز هو كتاب Burck hardt المعنون بـ Travels in Arabia 1: 405 FF، ومع كل ذلك فقد بقيت المنابع الرئيسة مقفلة أمام هذا البحاثة الفذ، ودليلنا على ذلك قوله لا يوجد فرد في هذا البلد (مكة) يفكر بأن يضع على الورق حوادث زمانه (مجلد رقم (١) صفحة ٤١١ - ٤١٢) مع العلم بأنه حتى هذه الأيام (١٨٨٥) لم يكن ينقص تلك المدينة المقدسة مؤرخون (المؤلف).

المقدسات والمؤسسات الخيرية، وبعضها الآخر يضيف إلى ذلك سيرة حياة مشاهير المكيين، أو يضيف معلومات عن تاريخ الإدارة هناك. ومن المعلوم أن كتَّاب التاريخ المتأخرين في الشرق الإسلامي يقتبسون معلومات أسلافهم، ويدونون إضافة إلى ذلك، ما مارسوه أو رأوه من أحداث.

إن مثل هذه المصادر يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة للمعرفة الأوروبية وذلك عن طريق نشر النصوص الدقيقة، التي تمكن الباحثين في التاريخ من غير المستشرقين، أن ينهلوا منها، لذا وجب أن تكون هذه التراجم موثوقاً بها وغير مختصرة. إن البروفسور F. Wustenfeld في كتابه «أخبار مكة المشرّفة» والمكون من أربعة أجزاء Die Chroniken der stadt mekka (Cm) والصادر في مدينة Gottingen عام ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م، قد وضع تحت تصرفنا، بعض المصادر الرئيسة في نصها الأصلي بالعربية، والتي تقودنا حتى عام (١٠٠٠) للهجرة[١]. وقد وضع المؤلف في الجزء الرابع من هذا الكتاب لمحات عابرة عن محتوى تلك التواريخ باللغة الألمانية لفائدة القراء من غير المستشرقين. وقد نشر العلامة نفسه قبل فترة وجيزة باللغة الألمانية مخطوطات تعالج بعض حقائق التاريخ المكي في القرن الحادي عشر الهجري[٢]. هذه المراجع الضخمة وما شابهها، هي في الواقع مادة مهمّة، تساعدنا في فهم التطورات

---

(١) لقد جمع البروفسور وستنفيلد في الكتاب المعنون «أخبار مكة المشرفة» مقتطفات ومختارات من خمسة مصادر تاريخية تحدثت عن المدينة المقدسة هي:

١ ـ أخبار مكة شرّفها الله وما جاء فيها من الآثار لأبي الوليد الأزرقي (المتوفى عام ٢٥٠هـ).

٢ ـ تاريخ مكة للإمام أبي إسحاق الفاكهي (المتوفى عام ٢٨٠هـ).

٣ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للشيخ تقي الدين الفاسي (المتوفى عام ٨٣٢هـ).

٤ ـ الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف للشيخ جمال الدين ابن ظهيرة القرشي المتوفى عام ٩٨٦هـ.

٥ ـ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للشيخ قطب الدين النهروالي (المتوفى عام ٩٩٠هـ).

وقد ظهر كتاب وستنفيلد في أربعة أجزاء، شمل الجزء الأول مقتطفات من كتاب الأزرقي، وحوى الجزء الثاني مقتطفات من كتب الفاكهي والفاسي وابن ظهيرة، أما الجزء الثالث فهو مقتطفات من كتاب النهروالي. وخصص المؤلف الجزء الرابع الذي كتبه بالألمانية لاستعراض لمحات موجزة عما حوته هذه المصادر التاريخية، لفائدة القراء من غير المستشرقين، كما ورد في المتن، وقد اعتمد سنوك على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً. ورجع إليه في معظم كتاباته في الجزء الأول. وقد حرصنا على الرجوع إلى هذا الكتاب لإثبات ما نقله منه، وذلك مراعاة للدقة العلمية في الموضوع وجارٍ الآن ترجمته من قبلنا.

(٢) أشراف مكة في القرن الحادي عشر الهجري أو السابع عشر الميلادي الصادر في Gottengen عام ١٨٨٥م.

التاريخية لمكة المكرمة، وهي مفيدة فقط عند دراستها بتمحيص وتدقيق، ومقارنتها بوثائق أخرى في أماكن أخرى، وربما يحالفني الحظ في أن أضع أمام زملائي تلك النصوص العربية التي أحضرتها معي مطبوعة، أو أنشر على الأقل تلك الأجزاء المتعلقة بتاريخ مكة الحديث، والتي تحتوي فعلاً على مواضيع جديدة أو غير منشورة حتى الآن.

لم يكن الهدف من هذا الكتاب، نشر جميع التفاصيل الخاصة بتلك المراجع، حتى ولو كانت مهمة. والهدف الذي نريده هو إعطاء القارئ لمحة عن الحياة العامة للمدينة المقدسة منذ فجر الإسلام وحتى أيامنا هذه (١٨٨٥م).

أما نشر التفاصيل الكاملة عن تلك الرحلة، التي أكملت بعد صبر طويل، فهو هدف بعيد يحول دون تحقيقه كثرة المراجع المتوفرة، وجهد المؤلف المحدود، في استيفاء مثل هذه الدراسات. فأهمية مكة، التي ولد فيها الإسلام لكونها مركزاً روحيّاً، وهدف الحج للمسلمين عبر الأزمان، تجعل من المستحيل على المرء قراءة الآلاف العديدة من الإنتاج الأدبي العربي، الذي سطّر حول هذه المدينة، وتجعل المرء يلجأ إلى ما لجأت إليه من الاكتفاء بالنظرة العامة، دون الدخول في التفاصيل، مع إضافة أشياء كثيرة تتناسب مع تشخيصنا للأمور، وخاصة مما تحويه كتب التاريخ والسير ووصف الرحلات، وآمل ألّا أكون أغفلت أشياء أساساً حول الموضوع، كما آمل أن يحصل القارئ على صورة متكاملة وحقيقية عن ذلك المجتمع، خاصة وأنه قد سمح لي أن أقيم بين المكيين ما يزيد على ستة أشهر، وأن أعيش معهم بصفتي فرداً منهم، وأن أكون في موضع، يسهل معه، جمع الكثير من التقارير عن الماضي، مما مكنني من الكتابة بصورة أفضل من الكتابة من خلال غرفة الدراسة.

عليّ أن أعترف منذ البداية، بأن كتابي هذا لم يكتب لأولئك الذين يجدون في مراجع Wustenfeld[١] المنقحة التقارير الوافية عن الفيضانات التي تجتاح المدينة المقدسة، أو عن المعلومات الخاصة بترميم الكعبة وإصلاحها، وهي أمور ذات أهمية عامة، تجتذب المرء أكثر مما تجتذبه الأبحاث التي تعالج شخصيات الحكام القاطنين في هذه المدينة المقدسة.

سيلحظ المرء من خلال الفصل الأول من هذا الكتاب، أن إصلاح الكعبة مستمر، طالما أن السيول تجتاحها كلّ سنتين أو ثلاث بصورة مستمرة، وتسبب، بغض النظر عن بعض

---

(١) E (Berhard) N (estle) in litterarischen centralblatt, 11 september, 1886, 1314, sp.

الاختلافات، الأثر التدميري نفسه الذي يصاحب هذه السيول، كذلك نجد في تاريخ حكام المدينة المقدسة خلال القرن الثالث عشر، أن الكثير من الظواهر تعيد نفسها أحياناً، ولذا فإننا لتجنب التكرار ألمحنا إلى التفاصيل أكثر مما وصفناها، وإنني أرى أنّ في هذه الحقبة من الزمن، قطعة من تاريخ البشرية، تستحق التدوين، والمؤلف لديه اعتقاد جازم بأن الناس أهم له بكثير من سيول جارفة تتكون في تلك البقعة من الأرض.

إن الكثير من المصادر التي استعملتها لا يحتاج إلى ذكر خاص؛ لأن الإشارة إليها في الحواشي، ستكون كافية للزملاء المتخصصين، وخاصة تاريخ الطبري وابن الأثير. وقد استعنت بكتب (دي غوية) و (وستنفيلد) وأشرت إليها حين الاقتباس منها باسم المؤلف، غير أن هناك ثلاثة كتب معطاءة بالنسبة لتصويرنا للأحداث، وتستحق أن نصفها وصفاً موجزاً.

إن كتابين منهما يعتبران من طراز الكتب التاريخية، التي نشرها ويستنفيلد، وقد تمت مناقشتها في كتابي لسيرة عميد جامعة مكة المتوفى عام ١٨٨٦م[١].

وأحد هذين الكتابين هو «منائح الكرم بأخبار مكة والحرم» الذي تم تأليفه حسب ما تقوله المقدمة عام ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) من قبل السنجاري، الذي ينتسب إلى عائلة سكنت مكة المكرمة، منذ زمن طويل. وهو نفسه، ومن قبله والده وجده، كانوا أصدقاء لحكام المدينة المقدسة، وقد شاركوا جميعاً في الحياة السياسية، وكانوا ينظمون القصائد المطولة لإلقائها في مناسبات تولي هؤلاء الأمراء، ونرى الكثير من هذه القصائد يرويها المؤلف نفسه، ووجود مثل هذه القصائد الكثيرة، يعطي الانطباع أنه في الوقت الذي كان يجري فيه الصراع الحاد بين الإخوة على السلطة، كان الشاعر يعمل جاهداً لنظم قصيدة يحيي فيها المنتصر منهما، حينما تجري مراسيم مقاليد تسلمه الحكم، ويخبرنا السنجاري ـ إضافة إلى ما ذكر ـ عن أشياء أكثر أهمية مما سبق ذكره، ويشير المؤلف، إلى أنه اعتمد مصادر غير منشورة للفترة القديمة، في حين أنه كان على اطلاع واسع في أمور القرن الذي عاش فيه، حيث كتب معلومات وافية عمن ذكرهم، وربما لم يكمل المؤلف كتابه؛ لأن النسخة التي بحوزتي، تحتوي على ملحوظات تستمر حتى عام ١١٢٤هـ (١٧١٢م)، ثم تنقطع بدون نهاية فعلية، والكاتب يميل إلى الاختصار علماً بأن الجزء الأساس من

---

(١) Bijdragen van het koninkl. jk Nederlandsch-indisch instituut 11: 344 ff., Vorguglich 370 ff.

الكتاب مكتوب بأسلوب جيد، إلا أن الصفحات الأخيرة من الكتاب تحوي كتابات باللغة العامية[1]. ومن المحتمل أنه لم يكن لدى المؤلف العجوز، الوقت الكافي لتدوين الحوادث، في سنينه الأخيرة، فقد ترك إنجازه غير مكتمل، كما فعل أيضاً تلميذه أحمد دحلان، وإنني أمتلك نسخة رديئة من ذلك الكتاب، الذي كان من ممتلكات العميد المذكور أعلاه، وهي لا تصلح للإصدار، ولكنها قدمت خدمات جليلة لإخراج هذا الكتاب[2].

أما كتاب التاريخ الآخر فهو كتاب «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام» لمؤلفه السيد أحمد بن زيني دحلان. وفي مقالتي المذكورة سابقاً ذكرت مقتطفات منه في النصوص في اللغة الهولندية، وهذا الكتاب فيما يخص الحقبة القديمة لا يحتوي على أكثر من مقتطفات من السنجاري، وأكثر من نصف هذا الكتاب يعالج القرنين الماضيين. وبعض نصوصه مأخوذة عن أفضل المصادر، بينما بعضها الآخر كان نتيجة تجارب هذا العجوز الذي نيف على الثمانين عاماً. لقد أخذ الدحلان معلومات عن النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي من كتاب ذكره باسم مؤلفه وهو تاريخ الرضي[3] الذي يظهر أنه كان شاهد عيان. وهذه المعلومات تختلف عما جاء في كتاب السنجاري. ومن الجدير بالذكر أن (خلاصة الكلام) يقترن بعد فترة وجيزة بتاريخ شخص يدعى عبد الله

(١) على سبيل المثال يوجد في ص٤٤٥ من نسختي: (الباشا حق جده) وهذا ليس من كلام المؤلف، ويبدو من المحتمل أن بعض مخطوطات هذا الكتاب قد كتبت بريشة ابن عم المؤلف، ومن الجدير بالذكر أن أحمد دحلان قد اقتبس من هذا الكتاب (المؤلف).

(٢) هذا الكتاب يعرف بمنائح الكرم في أخبار مكة والحرم وأحياناً يسمى منائح الكرم في أخبار البيت وولاة الحرم لمؤلفه علي بن تاج الدين بن تقي الدين بن يحيى السنجاري المكي الحنفي، وهو شاعر وأديب ومؤرخ مكي توفي عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م. ويتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء، ولا يزال مخطوطاً وتوجد نسخة كاملة منه في مكتبة الحرم المكي وقد عهد إلى طالبتين من جامعة أم القرى بتحقيق جزأين منهما الثاني والثالث وتولى أحد أساتذة قسم التاريخ تحقيق الجزء الأول وسيخرج الكتاب إلى النور كأحد إصدارات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.

(٣) يعرف تاريخ الرضي باسم «تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية» وهو تاريخ لأشراف مكة من عهد قتادة إلى القرن الثاني عشر الهجري. وهو مخطوط موجود بخزانة يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد. أما المؤلف فهو رضي الدين بن محمد بن حيدر الموسوي العاملي المكي المتوفى ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م. وهو شيعي ولد بمكة ونشأ بها، وهو أديب وعالم لا يُعرف تاريخ ولادته (انظر محمد الحبيب الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٩٩٤ ص٤٠٠.

عبد الشكور الذي كتب عن النصف الثاني للقرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر[١]، ولكون هذا المؤلف شاهد عيان للحركة الوهابية (الدعوة السلفية) فإنه جدير بالاعتبار. ولا يوجد لكتاب عبد الشكور هذا، إلا عدد قليل من النسخ في مكة، وإنني لآمل أن يحالفني الحظ قريباً في الحصول على نسخة من هذا الكتاب.

أما الفترة التي تبدأ بإعادة فتح الحجاز، من قبل محمد علي، لم يحتج الشيخ المسن إلا لتدوين ذكرياته وتجاربه الخاصة. وقد كتب ملحوظاته حتى عام ١٨٨٤م ومنذ ذلك الحين، فقد كرس وقته، للمشاكل السياسية في بلده، وإنه لحظ نادر أنني تمكنت من الحصول على نسخه من هذه المخطوطة[٢]. هناك معلومات مهمة عن العائلات العلوية التي وصلت إلى الحكم في غرب الجزيرة العربية، مذكورة في كتاب يبحث في أصول هؤلاء. وقد تتبعت كتاباً عن أنساب العلويين بقصد التعرف عن قرب على الأخيرين منهم. وبناء على طلبي وضع السيد الدكتور Pertsch تحت تصرفي النسخة الوحيدة المعروفة في أوروبا رقم ١٧٥٣ من كتلوج مكتبة غوتا الأميرية[٣]. وللأسف فإن هذه المخطوطة المسماة (عمدة الطالب) والتي توفي مؤلفها عام ٨٢٨هـ في كرمان، موجودة في حالة سيئة، حيث إن ناسخاً جاهلاً قد جهزها، بموجب نسخة مجلدة تجليداً خاطئاً، بحيث يتطلب إنشاء الملحقات منها بحثاً طويلاً. وبعد أن اقتبست بعض الملحوظات المهمة من هذه النسخة تمكنت في مدينة Lacknau لكناو في الهند من الحصول على نسخة جيدة، مطبوعة بالطريقة الحجرية، لهذا الكتاب، الذي يحتوي على مصادر قيمة عن تاريخ العلويين وأحزابهم، وخاصة الفرع الحسني ومواطنهم في غرب الجزيرة العربية.

---

(١) عبد الله الشكور بن محمد الهندي المكي الحنفي توفي عام ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م. ولد بمكة وتوفي بها وله تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، وقد عرض فيه وجهة نظر الأشراف والعثمانيين من ظهور الدولة السعودية الأولى، في أسلوب يعتمد المزايدات السياسية والأخطاء اللغوية، والسجع المتكلف، يتناول تراجم السياسيين وأهل العلم، والكتاب لا يزال مخطوطاً. وتوجد منه ثلاث نسخ بمكتبة الحرم المكي الشريف. وقد نشر الشيخ حمد الجاسر مقتطفات من الكتاب المذكور في مجلة العرب س (١٠) ص (٨٠١/ ٨٦٨). وانظر أيضاً محمد الحبيب الهيلة ص٤١٣.

(٢) إن ذكر الصفحات في الحاشية لهذا الكتاب ليس له أي أهمية طالما أن الكتاب لم ينشر لكنني مستعد لإرسال المخطوطة لأولئك المختصين الذين لديهم اهتمام خاص بها (المؤلف). ومن الجدير بالذكر أن كتاب (خلاصة الكلام) طبع بعد مغادرة المؤلف مكة المكرمة في عام ١٣٠٥هـ بمصر.

(٣) .BRILL, CATALLIGUE PERIIDIQUE NO. 7,585

وهناك مجموعة من الصور التي لن يستغربها ذوو الاختصاص، وستقابل بالترحاب من قبل جمهور القراء. وقد أخذت جميعها في مكة، وباستثناء الصورة رقم (١)[١]، والصورة رقم (٤) الموجودة في الأطلس المرفق، قد طبعت إما عن صور التقطتها بنفسي أو من قبل أحد العرب الذي علمته كيفية التقاط الصور[٢].

وهناك أربع لوحات ملونة تخص الجزء الثاني من هذا الكتاب سوف تنشر مع وصف مختصر في دار المحفوظات العالمية لوصف السلالات البشرية.

Internatialen Archiv Fur Ethnographi للناشر السيد J. D. E Schmelts ولأن هذه الصورة الملونة مكلفة بالنسبة لـ (Koniklijk Fnstituut) فإن السيد P. W. m. (trap) الناشر المشهور لدار المحفوظات قد عرض على المعهد تجهيز تلك اللوحات بدون مقابل إذا عرضت اللوحات نفسها في جريدته أولاً.

---

(١) صورة رقم (١) ورقم (٣) أخذت من قبل صادق بك (باشا)، وقد أضفت على الصورة الأولى بعض الإضافات في الجزء الأمامي منها (المؤلف).

(٢) لقد كتب الدكتور حسن مختار من جامعة أم القرى إثر صدور الجزء الثاني من هذا الكتاب عام ١٤١١هـ تعليقاً في جريدة عكاظ عدد ٩٠٥٢ تاريخ ٢١ شوال ١٤١١هـ ما يلي:

فمن الملحوظات التي وجدتها ما ذكره المؤلف عن بعض الشخصيات المكية وتنكره لبعضها الآخر، منهم السيد عبد الغفار بن عبد الرحمن بن عبد الغفار الطبيب المكي المشهور، حيث أشار المترجم بأن سنوك لم يعترف بجهود الطبيب المكي في بعض ما جمعه من صور وأدوات عن مكة، وما يجدر ذكره هنا أن المؤلف سنوك لم يكن الوحيد الذي تنكر لوجود السيد عبد الغفار على الرغم من تناول العديد من المؤلفات لجهود الطبيب، حيث لا تزال أعماله وشهرته معروضة في متحف مجلس الوزراء بتركيا، ومتحف جامعة ليدن بهولندا، التي زودت أكاديمية الملك فهد بالعديد من هذه الأعمال، وأود أن أشير أن الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله في كتابه تاريخ مكة من الذين تناسوا السيد عبد الغفار وابنه السيد حسين عندما كتب عن أشهر العائلات في مكة المكرمة ولم يذكر شيئاً عن هذه الأسرة التي يقول عنها السيد محمد حسن فقي بأن عبد الغفار من أسرة جليلة مشهورة يعود نسبها إلى الرسول الأعظم ﷺ، وما زلت أتذكر أن الأستاذ أحمد السباعي كان يعتاد ارتياد مجلس والدي كل ليلة في مكة بالشامية - يرحمهما الله جميعاً - حين نبهه والدي عندما أهداه نسخة من الطبعة الأولى من الكتاب بأنه لم يذكر شيئاً عن السيد عبد الغفار، وكان السيد حسين عبد الغفار حاضراً ذلك المجلس. فأجاب الأستاذ السباعي بأنه سوف يضيف هذه المعلومات في الطبعة الجديدة التالية، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. ويشارك الأستاذ محمد علي مغربي مؤلف كتاب «أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة» هذا التناسي مما دفعني أن أتصل بصفة شخصية بالسيد الدكتور هاشم عبد الغفار وكيل وزارة الصحة الأسبق واستشاري طب الأسنان بالرياض وحفيد هذه الأسرة الكريمة، حيث اهتم بالموضوع وزودني بالعديد من الكتب والمراجع التي تتحدث عن الطب في مكة، وتشير إلى جهود هذه الأسرة في مجال الطب وخدمة المجتمع المكي منذ مئات السنين.

إن النتيجة الرئيسة لرحلتي لم تكن إنتاج هذا الكتاب فحسب، بل كان لإقامتي في المركز الروحي لعالم الإسلام أثره المستمر في دراساتي المستقبلية عن الإسلام. لقد كان الدافع لرغبتي في العيش لبعض الوقت في العالم الإسلامي، هو ذلك الشعور الحيوي بالحاجة للعيش كلياً ولو لبعض الوقت في هذه البلاد؛ لأنه بالنسبة لأي مستشرق في أوروبا يدرس اللغات ستكون تصوراته عن الحياة الفكرية والاجتماعية للشرقيين مليئة بالفجوات ما دام سيستخدم الكتب فقط كشاهد عيان لتلك البلاد، ومما يشرح الصدر بأن المهتمين في موضوع الاستشراق ـ كما هو الحال في باريس وبرلين ـ قد بدؤوا يؤسسون مدارس للاستشراق بمساعدة معلمين شرقيين لسد الفجوات في هذا المضمار.

ومن الجدير بالذكر أنه لا شيء يحل محل التأمل الذاتي، مع إدراك أن تأثيره المستمر مشروط بدراسة جادة للمصادر. وأن إقامة سنة في الشرق بحد ذاتها غير كافية لجعل الفرد قادراً على إصدار الأحكام حول تلك الظروف. ولقد استطعت في ذلك البلد (مكة) الذي قلما يزوره الأوروبيون، أن أجمع الوثائق في أكثر من اتجاه. ولكنَّ هدفي بقي دائماً منصباً على مراقبة حياة الإسلام. ولقد استعملت كل شيء كعامل مساعد لتحقيق هذا الهدف. ولذلك فإن تقييم مشاهداتي سيتم تدريجاً ما بقي الإسلام موضوع بحثي الرئيس. وإنني إذ أذكر ذلك لأعترف بالجميل لأولئك الذين ساعدوني على القيام بتلك الرحلة. وإن عرفاني لهؤلاء سيستمر حتى بعد إتمام هذا الكتاب. وإنه لولا الدعم المادي السخي من معهد Koninklijk Nederlandsch-indisch Instituut خاصة وأنه تحمل تكاليف هذه الطبعة، بالإضافة إلى تكاليف نشراتي اللغوية السابقة، لكان تنفيذ خطتي قد أصبح صعباً للغاية، كذلك فإن كلاً من:

1- Hollandsche Maatschappy der wetenschappen in Haarlem.
2- Utrechtsch Genootschap voor kunsten en wetenschappen.

قد سهلتا أيضاً مهمتي في المشرق، وذلك بتقديمهما الدعم المادي. وكذلك فإن بلدية Leiden قد منحتني الإجازة لهذا الخصوص، وكان استغلالها سيكون صعباً لولا أنَّ البروفسور P. a. van derdith قد تعهد بأنْ يتحمل مسؤولياتي بصفتي معلماً في المدرسة الهندية أثناء فترة غيابي. وقد كان هذا الصديق يعرض عليّ خدماته حتى قبل أن أفكر في حل مشكلة انقطاعي عن المدرسة. وقد شجعني ذلك على المضي قدماً في خطتي بالسفر إلى ديار الإسلام.

إن السادة j. A. kruyt قنصل هولندا العام في Pinang حالياً (١٨٨٨م) وفي جدة حتى بداية عام ١٨٨٥م و (P. N. van der chijs) قنصل السويد ونائب قنصل هولندا في جدة، قد أسهما إسهاماً عظيماً في نجاح مهمتي، بحيث إن أسماءهم يجب أن توضع على صفحة عنوان هذا الكتاب بدلاً من المقدمة، فلولاهما لربما لم تحقق الرحلة هدفها. وإن أصدقائي في الوطن الأم لا يستطيعون أن يعملوا لي شيئاً في الجزيرة العربية. وكل من يعرف الظروف المحلية ـ ولو معرفة بسيطة ـ يدرك تماماً كم هي العقبات التي يجب أن يتغلب عليها الباحث هناك حتى يقف هادئاً أمام موضوع دراسته، ويقول: الآن يبدأ عملي.

ومنذ البداية لم ألق تشجيعاً ومساعدة، من أي جهة، بقدر ما لقيت من السيد Kruyt، الذي كان في إجازته في هولندا، عندما قررت البدء في الرحلة. ولقد كان من حسن حظي أن أشارك السيد Kruyt الرحلة إلى جدة: ولم يقتصر الأمر على ذلك بل استمرت مساعدته خلال نصف العام الذي تلا حتى تم نقله إلى بينانج Pinang، وقد وجدت منه إضافة إلى كرم الضيافة غير المحدود استعداده الدائم للمساعدة وبأي شكل. وقد حذا حذو السيد Kruyt السيد Van der chijs بهذا الخصوص، وقد حل محله في تقديم العون، وكان يقوم أثناء وجودي في المدينة المقدسة بحلقة الوصل بيني وبين العالم الخارجي، وعندما تم إبعادي المفاجئ كان المذكور الملجأ الذي قصدته.

وبعد عودتي إلى الوطن كان عليّ أن أستفيد من طيبة صديقي في تتبع التطورات المستمرة لتاريخ الحجاز. وعليّ أن أعترف أنه بدون ظرافة السيد Van der chijs لم أكن لأستطيع أن أحصل على أغراضي الخاصة عند خروجي من مكة، حيث كان الخروج مفاجئاً بالنسبة لي. وقد جعل هذا الرجل من شؤوني شؤونه، فإنه منذ ثلاثة أعوام لم يخيب لي رجاء عنده، ولم يترك لي سؤالاً بدون جواب. ولا شك أن له معرفة في أحوال الناس هنالك، وهو يعرف أكثر من غيره أن ما يقدمه لي سيكون له فوائد جمة.

إن كثيراً من أبناء بلدي سيتساءلون بلهجة فيها نوع من التوبيخ عن السبب الذي جعلني أصدر كتابي هذا بلغة أجنبية (اللغة الألمانية). وبعضهم قد أعرب فعلاً عن تحفظاته في هذا الصدد. وعلي أن أقول منذ البداية، إنني لم أرتكب هذا الانتحار الأدبي من أجل التسلية الذاتية، لأنني أعرف جيداً بأن المرء الذي يستطيع أن يكتب بلغة أجنبية، بالقدرة نفسها التي يكتب بها بلغته الأم، فإنه يكتب اللغتين بصورة سيئة. وعلي أن أقول إنني لا أشعر

بأيّ التزامات نحو أولئك المنتقدين المفرطين في الوطنية. خاصة وأن الأكثرية من القراء هم من أولئك النفر الذين سيتحولون بدون شك بعد نظرتهم الأولى إلى العنوان باللغة الهولندية إلى جدول أعمالهم اليومي.

إن الإنسان يكتب لكي يكون مقروءًا. وإنه لمن الغباء أن نطلب من أولئك المعنيين بالعلم أن يتعلموا لغة كل أمة حيث إن تخصصهم يجد عدداً قليلاً من الممثلين له. لقد كتب آباؤنا باللغة اللاتينية، أما نحن فنستعمل وسائل اتصال حديثة. والطريقتان لهما الهدف نفسه.

إن استعمال اللغة اللاتينية قد أثبت مع مرور الزمن، عدم قدرتها على التعبير عن الأشياء الحديثة، بالرغم من محاسنها غير الملحوظة، وهي أن المخالفات النحوية والقواعدية لا تلحظ إلا من قبل القليل من الأفراد، أما في اللغات الحديثة فإن على المرء أن يتصرف بحذر ليتفادى الأخطاء اللغوية. ولقد كانت طيبة أستاذي المحبوب السيد البروفسور Noldeke في مدينة شتراسبورج Strassburg قد ساعدتني في التغلب على تلك المشكلة، فقد أخضع مسودة كتابي هذا إلى إعادة في الأسلوب، وبعد ذلك قرأها من أجل التصحيح.

ولما كان هذا الكتاب يعطي لمحة عن التطورات التاريخية، فقد فضلت أن أسهل الرجوع إليه، عن طريق إعطاء محتوى مفصل للكتاب، بدلاً من استعمال الفهارس، وقد استعملت التقويم الأوروبي، أما في الجداول الأصلية فقد تركت المعلومات حول مدة الحكم على حالها بالطريقة الإسلامية.

ليدن

مايو ـ ١٨٨٨م ـ رمضان ١٣٠٥هـ

توطئة

إن ثقافة الأمة هي مجموع الجوانب الفكرية والروحية والسلوكية والأخلاقية لها، ومدنيتها هي مجموع الجوانب المادية لها، والحضارة هي جَمَاع الثقافة والمدنية معاً، والنتاج الحضاري يكون عادة حصيلة امتزاج الجانب المادي بالجانب الثقافي، والحضارة هي من أنفس وأخلد ما للأمة من تراث في جماع علومها وآدابها وفنونها.

لقد كان للعرب والمستعربين؛ الذين دخلوا في الإسلام ثقافات ومدنيات، وبالتالي كان لهم حضارات، ولما مد الإسلام فتوحاته من مكة المكرمة إلى الشرق والغرب استقر في بعض بلدانها وجاور بعضها الآخر، ودخل فيه أبناء البلاد المفتوحة، وشملت سماحته من بقي على دينه من هؤلاء، واتخذ هؤلاء وأولئك العربية لغة القرآن الكريم أداة لثقافتهم وحضارتهم حلت محل اللغات الأخرى، فاستوعبت العربية تراث الإسلام، وأصبحت لغة الثقافة والحضارة، وشاركت بالحضارة الإنسانية متأثرة ومبدعة ومؤثرة.

لقد كانت الحضارة الإسلامية في مركز متانة وقوة منبعهما العقيدة الإسلامية الراسخة، والتعاليم الروحية الخالصة، وقد منحت هذه القوة الذاتية الحضارة الإسلامية مرونة فكرية، فاتصلت بالحضارات الأخرى ونقلت عنها جميعاً، ويمكن القول إن المسلمين تفاعلوا مع ثقافات أمم كثيرة كالإغريق والرومان والفرس والهنود والصينيين وغيرهم من الأمم، وهكذا نرى الحضارة الإسلامية أخذت وأعطت، ووافقت على أشياء ورفضت أشياء أخرى، ولم تندفع في حركة تقليد أعمى للأفكار الواردة إليها من الحضارات الأخرى.

ولنا في قول بعض المفكرين دليل على الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية. يقول المفكران لافيس ورامبو: «إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العلم، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة في أفريقيا وآسيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل

مكان، ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي جمعت فتمازجت تمازجاً متجانساً، أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم، وهي ذات وحدة خاصة وصفات قائمة»[1].

لم تستمر هذه الإشراقة الحضارية طويلاً فقد أخذت عوامل التحلل تتسلل إلى كيان الأمة الإسلامية، وتعظم وتنتشر وتقوى شيئاً فشيئاً، حتى مزقت هذا الكيان وقضت عليه، إذ دبّت الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه. وسادت الخلافات الدينية والمذهبية، وانصرف الناس عن الدين بصفته عقيدة وشريعة إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وأهمل كتاب الله وسنة رسوله، واقتصر الأمر على التعصب للآراء والولع بالجدال والمناظرات، ثم مال المسلمون إلى الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات، وكان حصاد ذلك كله إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات في فلسفات نظرية وعلوم خيالية[2].

وتوالت الضربات على الدولة الإسلامية، فانحدر المغول والتتار وقضوا على النفوذ السياسي، وقذفت أوروبا الشرق المسلم في آسيا وأفريقيا بكتائبها في تسع حملات صليبية، واطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها واستنامت له وغفلت عن كل ما يدور حولها، ولكن أوروبا التي اتصلت بأضواء الإسلام غرباً بالأندلس وشرقاً بالحملات الصليبية لم تضع الفرصة ولم تغفل عن الاستفادة بهذه الدروس، فأخذت تتقوى وتوحد صفوفها وتفكر وتتعلم وتجوب البلاد وتكشف الأقطار، حتى كان كشف أمريكا عملاً من أعمال إسبانيا، وكشف طريق الهند عملاً من أعمال البرتغال، وتوالت فيها صيحات الإصلاح ونبغ بها كثير من المصلحين، وأقبلت على العلم الكوني والمعرفة المنتجة المثمرة، وقامت فيها دول قوية، أرادت التوسع واكتساب المزيد من الأرض خارج حدودها، وقد جندت لذلك العمل، الكثير من الوسائل والأمور، كان من بينها ما عرف باسم الاستشراق.

والاستشراق مصطلح في غاية الغموض والإبهام؛ لأن الشرق هو اصطلاح ابتدعته أوروبا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقاً إلى اليابان، بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون

(١) د. علي السكري ـ العرب وعلوم الأرض ـ منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٧٣ ص٧٨.
(٢) الإمام حسن البنا ـ رسالة بين الأمس واليوم ـ المؤسسة الإسلامية للطباعة والنشر ـ بيروت، ط٢، ١٩٨١ ص٩٦ ـ ٩٩ «بتصرف».

ليقتصر في مفهومه العام على الشرق الأوسط وما في هذا الشرق من أديان (عدا النصرانية؛ لأنّ الفكر الأوروبي لا يحب ربطها بالشرق) وثقافات أو حضارات مختلفة.

والباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى (مستشرق). ودلالة المصطلح عند العرب أو عند المسلمين لا تخرج عن مفهوم «دراسة الإسلام ديناً وما يتبعه من لغات أهله وتواريخهم ومظاهر حياتهم»[1].

لقد تناول المستشرقون تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة، ولم يقفوا منه عند هذا، بل عمدوا إلى دراسته وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه، واقفين عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم وأغراضهم وأهدافهم الظاهرة منها والباطنة، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات، حتى بلغوا فيه مبلغاً عظيماً[2].

هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها، أو التغاضي عنها، غير أن الدوافع وراء هذا العمل الضخم بحاجة إلى وقفة تأمل وروية، لقد كان للقوم دوافع عديدة تخدم مصالحهم، لقد كانت دوائر الاستشراق لها صلاتها القوية مع وزارات الخارجية وشؤون المستعمرات في الدول الأوروبية؛ بهدف تسهيل مهمة المستعمر في البلاد المستعمرة، وكان لها صلات قوية بحركات التنصير في العالم الإسلامي، ولا يكون ذلك إلا بدراسة ماضي الأمم وتاريخها، لمحاولة الوصول إليها من أقرب الطرق وضربها في المكان الموجع لها.

وفي الجانب الآخر كان من بين هؤلاء من يدرس الاستشراق لمعرفة تطور فروع المعرفة - باعتبار ما كتبه المسلمون يمثل قمتها في العصور الوسطى - حتى يتسنى لهم ربط ماضي العلم بحاضره، والانطلاق به نحو المستقبل المشرق الذي أوصلوه إليه.

ولسنا نريد هنا أن نبين المثالب والمحاسن؛ لأن ذلك ليس في مقدورنا في مثل هذه العجالة، التي كان القصد منها إبراز الحقيقة التالية:

إن هناك جهداً بذله المستشرقون بغض النظر عن دوافعه، فإنْ نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية، مع أن نشره لا يتضمن الموافقة

---

(١) قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض ١٤٠٣هـ ص١٠٧ - ١٠٨.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ص٧ - ٨.

عليه والرضا عنه جميعه، إن تراثنا جزء من الحضارة الإنسانية التي هي ملك لنا كما هي ملك لغيرنا، ولهذا لا نستطيع أن نمنع أحداً أن يكتب في هذا التراث أو عنه، كما أننا لا نستطيع أن نضع لهؤلاء الخطوط العريضة التي نرتئيها لأنفسنا عند بحثنا في تراثنا، فهم لهم منطلقات تفكيرية مختلفة تماماً عن منطلقاتنا، والخطورة تكمن في تبنينا لهذه المنطلقات «خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب».

لقد آن لنا أن ندرس ما كتبه هؤلاء دراسة علمية موضوعية، لإظهار النافع المفيد وإبرازه، وكشف الزائف الحاقد وإبعاده، ولا يتحقق ذلك إلا بأمرين اثنين: أن نرد على ما كتبوه بلغاتهم لتبيان وجهة نظرنا فيما كتبوه، أو أن ننقل ما كتبوه إلى لغتنا مع إظهار الغث والسمين فيه، وإنه لمن المفيد أحياناً أن يتعرف المرء على نفسه، من خلال النظر عبر عيون الآخرين، في سبيل مزيد من الرؤية الواضحة، تلك التي تفترضها مسلمات البحث العلمي، فيما يطلق عليه بصورة أو أخرى عبارة الموضوعية، بمعنى وضع الذات كموضوع خارج الذات ومعاملتها كذلك، إذ غني عن البيان مدى خطورة سلوك النعامة السمينة حين تخفي رأسها في الرمل.

لقد اخترنا أن ننقل بعض نتائج التفكير الاستشراقي إلى لغتنا العربية، من خلال ما كتبه أحد كبار المستشرقين، عن مركز الإسلام الروحي، مكة المكرمة، **أما المستشرق فهو الدكتور كريستيان سنوك هورخرونيه**[1]، **وأما الكتاب فهو مكة.**

وسنعالج فيما يلي حياة المؤلف وآثاره، ثم نتبعه بدراسة عن الكتاب، على هيئة مقدمة تعريفية بحقيقته وأهميته وإظهار غثه وسمينه وكشف النافع وإظهاره، والرد على المغرض الحاقد وإبعاده، مدركين أن الكمال لله وحده، مستلهمين العون والسداد منه، سائلين الله السداد والرشاد في القول والعمل.

والله من وراء القصد.

---

(١) هناك اختلاف كبير في رسم الاسم الأخير للدكتور سنوك بالعربية، فقد ورد في المراجع المختلفة بصور شتى منها: هرجرونيه، وهربرونجه، وهرغرونيه، وقد أثبت صاحب الأعلام الرسم هرخرونيه؛ لأنه سمع الهولنديين ينطقونه بهذه الصورة، وقد اعتمدنا الصورة التي أثبتها الدكتور قاسم السامرائي وهو هورخرونيه؛ لأنه كما يبدو يعرف الهولندية وعاش في ليدن وله صلة قوية بتلاميذ هورخرونيه.

المؤلف وآثاره وآراؤه الاستشراقية

١ ـ حياته:

ولد الدكتور كرستيان سنوك هورخرونيه (عبد الغفار) في شمال برابانت Brabant في هولندا في ٨ فبراير عام ١٨٥٧م، وقد تعلم في بردا Breda، ثم التحق بجامعة ليدن لدراسة اللاهوت عام ١٨٧٤م، وبعد عام ١٨٧٨م كرّس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، ولقد كان موضوع رسالته للدكتوراه في عام ١٨٨٠م (الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي)، وفي عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م انتقل إلى ستراتسبرج حيث عمل تحت إشراف الألماني نولدكه. وفي السنة التي تلتها عين محاضراً في الدراسات الإسلامية في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية التابعة لجامعة ليدن، وفي عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ حصل على إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية، ليتعرف من خلالها على حياة المسلمين، وحقيقة الدين الإسلامي، وقد تحقق له ذلك، فقد تمكن من الوصول إلى مدينة جدة فمكث بها مدة ثم دخل إلى مكة المكرمة، تحت اسم مستعار، حيث سمى نفسه (عبد الغفار)، وقد بقي في مكة حتى أغسطس عام ١٨٨٥م على النحو الذي سنفصله لاحقاً[١].

لقد أكمل هورخرونيه خلال إقامته بمكة كتابه عن مكة في جزأين، الجزء الأول: لتاريخها. والثاني: وصف فيه حياة أهلها الاجتماعية وصفاً دقيقاً. ومن أعماله في مكة أنه جمع عدداً كبيراً من الأمثال العربية والكلمات الدارجة ونشرها مع ترجمتها وتفسيرها، وبحث لغوي على هيئة مقدمة لها، كما استطاع أن يدرك مدى تأثير مكة المكرمة بوصفها

---

(١) عبد اللطيف بن دهيش: دراسة موجزة لبعض مؤلفات هرغروني عن تاريخ الجزيرة العربية ـ العرب: العدد (١١، ١٢) السنة (١١) ١٣٩٧هـ، ص٩٤٢ ـ ٩٤٨ وانظر أيضاً: Ralli A., «Christians at Mecca» . William Hienemann, London, 1909, pp. 223 - 243

مركزاً للإسلام في العالم الإسلامي، وتطورات المسائل الدينية والعادات وتداخل هذه في تلك. وبهذه الميزات فاق هورخرونيه جميع زوار مكة من الغربيين ممن كتبوا عنها[1].

وبعد خروجه من مكة ذاعت شهرته، وخاصة بعد صدور كتابه المذكور عام ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م (١٣٠٥هـ) فقد عرضت عليه جامعة كمبردج كرسي أستاذ اللغة العربية خلفاً للأستاذ روبرتسن سمث، غير أنه رفض ذلك. وكذلك رفض ما عرض عليه من هذا القبيل في ألمانيا وليدن. مفضلاً أن يمضي في دراساته الإسلامية في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندا. إذ عين في عام ١٨٨٩م مستشاراً للشؤون الشرقية والإسلامية هناك[2]، فانتقل إلى جاوة، وأقام فيها سبع عشرة سنة، لم يخرج في أثنائها إلى أي جهة أخرى. وكانت أكثر إقامته في مقاطعة آتشي. وألف عنها كتاباً كبيراً، لم يترك فيه صغيرة ولا كبيرة عن هذه البلاد إلا وذكرها، وقد تعرف في جاوة بكثير من العزب الحضارم، وأخذ منهم معلومات مستفيضة عن حضرموت كانت أساساً لإحدى دراساته في هذا المجال[3].

وبعد إحالة دي غوية إلى التقاعد في عام ١٩٠٦م عين أستاذاً للدراسات العربية في جامعة ليدن، وقد بقي في هذا المنصب حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٢٧م، حيث خلفه البروفسور فينسينك مؤلف «فهرس الأحاديث النبوية»[4]، وفي أثناء عمله في ليدن قام برحلة إلى تركيا، جدد بها ذكريات رحلته الأولى إلى الشرق، وقد تتبع الدعوة السلفية في الجزيرة العربية باهتمام، وكان يعدها حركة سياسية تحاول الجمع بين المبادئ الإسلامية الخالصة وضروريات العصر. وكان يعد الشيخ محمد عبده مصلحاً مصرياً، ويجب الاطلاع على آرائه وغيره من الكتاب الاجتماعيين، الذين كانوا يعملون لرفع مستوى المسلمين الثقافي والعلمي[5].

لقد أسهم هورخرونيه في جعل الدراسات الإسلامية تستقل عن اللغة والتاريخ، وقد عد عميد العربية من المستشرقين بعد جولدزيهر. وفي طليعة رواد الدراسات عن الفقه الإسلامي

---

(١) دروز: جامعة ليدن والدراسات العربية: ملخص بحث نشره المؤلف في مجلة Islamic Review بلندن وترجمه عن الإنجليزية السيد أحمد علي (انظر مجلة الحج: العدد ١٢ السنة ١٣٧١هـ ص٣٤ ـ ٤٠).

(٢) الرسالة: العدد ١٥٨ السنة الرابعة، ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) ص١١٦٠.

(٣) دروز: مرجع سابق ص٣٩ ـ ٤٠.

(٤) عبد اللطيف بن دهيش: مرجع سابق ص٩٤٣.

(٥) دروز: مرجع سابق ص٤٠.

والأصول والحديث والتفسير في أوروبا[1]، وقد وافته المنية في الرابع من يوليه عام ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاماً[2].

٢ ـ مؤلفاته:

لقد كتب هورخرونيه العديد من الكتب من أهمها:

أ ـ الحج إلى مكة ـ وقد كتبه بالهولندية وهو الأطروحة التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة ليدن[3].

ب ـ مكة Mekka وقد كتبه باللغة الألمانية في مجلدين كبيرين طبعا في مدينة لاهاي بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م[4].

جـ ـ مقالات وأبحاث لسنوك هورخرونيه: Verspreiae Geschriften Ven c. Snouk-Horgronje.

وقد صدرت هذه المجموعة في ستة مجلدات طبعت في مدينتي بون وليدن، في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧م. تحمل عناوين «الإسلام وتاريخه» و«الشريعة الإسلامية» و«بلاد العرب وتركيا» و«الإسلام في المهاجر الهولندية» و«اللغة والأدب» و«ملحوظات في الكتب» ذكر فيه بعض المخطوطات وتواريخ كتابتها و«فهارس الأجزاء السابقة كلها»[5].

وأحد مجلدات هذا الكتاب يحتوي على دراسة الأمثال والحكم الحجازية، وقد جمعها هورخرونيه خلال إقامته في الحجاز، وأضاف إليها إضافات عديدة، ويعتبر هذا الكتاب دراسة جيدة للأمثال واللهجات في منطقة الحجاز عامة وفي مكة خاصة. وقد طبع هذا الكتاب في ليدن عام ١٩٢٥م[6] تحت اسم: Mekkenische Sprich Worter Un F Bedensurten.

---

(١) عبد اللطيف بن دهيش: مرجع سابق، ص٩٤٣.

(٢) الرسالة: مرجع سابق ص١١٥٩.

(٣) نجيب العقيقي: «المستشرقون» الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ص٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٤) عبد اللطيف بن دهيش، دراسة موجزة لبعض مؤلفات هروغرنيه عن تاريخ الجزيرة العربية ـ العرب العدد ١١، ١٢ لسنة ١١ ص٩٤٢ ـ ٩٤٨.

(٥) الأعلام: ج٦ ص١٧٦ (الطبعة الثالثة).

(٦) عبد اللطيف بن دهيش: مرجع سابق ص٩٤٨.

د ـ مختارات من كتابات سنوك هورخرونيه ـ كتبت باللغتين الإنجليزية والفرنسية أصدرها كل من بوسكويت وشخت (ليدن ١٩٥٧م)[١].

وكذلك مقترحات سنوك هورخرونيه الرسمية من ١٨٨٩ ـ ١٩٣٦م نشرها جوبه وادربانزن (ليدن ١٩٥٧م)[٢].

هـ ـ كتب العديد من المقالات في دوريات الاستشراق التالية:

١ ـ مجلة تاريخ الأديان نشر فيها الأبحاث التالية: محمد (١٨٩٣م)، والقانون الإسلامي (١٨٩٨م)، والجزيرة العربية والهند (١٩٠٨م).

٢ ـ مجلة العالم الإسلامي نشر فيها: طابع الإسلام (١٩١١م)، وهولندا ومسلموها (١٩١١م)، وانتشار الإسلام ولا سيما في الهند الشرقية (١٩١١م)، وإبراهيم في القرآن (١٩١٢م)، ودار الإسلام والمشكلة العنصرية (١٩٢٢م).

٣ ـ مجلة الإسلام نشر فيها: الاستشراق في هولندا (١٩١٣م).

٤ ـ المجلة الإفريقية نشر فيها سياسة النبي محمد الدينية (١٩١٥م).

٥ ـ مجلة المعهد الشرقي نشر فيها: إلى حضرموت (١٩١٢م).

٦ ـ نشر مقالاً عن عزلة الحجاز في حفل تكريم براون (١٩٢٢م).

٧ ـ أربع محاضرات عن الإسلام ألقاها في الولايات المتحدة من سنة (١٩١٢ ـ ١٩١٦م) منشورة في نيويورك (١٩١٦م)[٣].

٣ ـ رحلته إلى بلاد الحجاز:

لقد أراد هورخرونيه بعد حصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة ليدن السفر إلى الجزيرة العربية ليتعرف من خلالها على حياة المسلمين وحقيقة الدين الإسلامي. ولقد كان هدفه دراسة أثر الإسلام في الحياة السياسية والاجتماعية في مجتمع لم يعرف الأوروبيون عنه الشيء الكثير. ولقد دعاه إلى ذلك قصر نظر المستشرقين الأوروبيين الذين يعتمدون في

(١) المرجع السابق ص٩٤٤.

(٢) المستشرقون: مرجع سابق، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

معارفهم على ما ينقلونه من الكتب، وهذا الأمر هو الذي دعاه إلى السفر والإقامة في مركز الإسلام الروحي.

لقد كان هورخرونيه يتقن العربية قبل ذهابه إلى الشرق. وبالرغم من ذلك فقد أمضى خمسة أشهر في جدة يتعلم اللهجة المحلية. وكان في تلك الفترة يسكن في مبنى القنصلية الهولندية بجدة. وفي مساء يوم الحادي والعشرين من شباط (فبراير) عام ١٨٨٥م (٦/ ٥/ ١٣٠٢هـ) غادر جدة على أربعة جمال متوجّهاً إلى مكة بصحبة أحد رجال الجاوي. وقد دخل مكة في الثاني والعشرين من شهر شباط. وقد أعلن أن هدفه دراسة القرآن الكريم وليس من الواضح كما يقول رالي كيفية دخوله إلى مكة. فهل قدّم نفسه للوسط المكي على أنه أوروبي اعتنق الإسلام؟[1]، أو أنه أخفى حقيقة كونه أوروبياً واعتبر نفسه من طلاب العلم الجاوي؟

ويلقي الدكتور قاسم السامرائي[2] الضوء على ذلك، ويروي حادثة يشم منها أن ترتيبات زيارته إلى مكة قد أعدّ لها مسبقاً، إذ يقول: «لما عقد مؤتمر المستشرقين في ليدن سنة ١٨٨٣م حضره أمين المدني الحلواني وأحضر معه مجموعة نفيسة من المخطوطات فباعها في برل، واشترت جامعة برنستون بأمريكا قسماً منها، والقسم الآخر اشترته جامعة ليدن. وفي المؤتمر تعرف عليه سنوك هورخرونيه. ولما نشر أمين المدني انطباعاته عن المؤتمر، سارع سنوك فترجمها عن جريدة البرهان القاهرية .ويظهر أن أمين بن حسن الحلواني المدني سافر إلى الهند بعد انتهاء المؤتمر، حيث عمل هناك على طبع كتاب (القرب في محبة العرب) لعبد الرحيم العراقي (شهر صفر ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م). وقد وصف نفسه بـ (المدرس بالروضة المطهرة)، وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة، سافر سنوك هورخرونيه بصحبة القنصل الهولندي (كروات) (Kruyt) إلى جدة. والسؤال الذي يبرز: هل من علاقة بين تعرف سنوك هورخرونيه على أمين المدني ورحلة سنوك هورخرونيه إلى جدة، ومن ثم إظهاره الإسلام ودخوله إلى مكة المكرمة؟

(١) رالي: مرجع سابق، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) الاستشراق: مرجع سابق، ص١١١ ـ ١١٢.

إن أكثر المراسلات الشخصية الخاصة بعلاقاته ما تزال مقفلة أمام الباحثين بموجب وصية ابنته حتى عام ١٩٩٤م[١]؛ لذا فإن الإجابة عن هذا السؤال تبقى معلقة لغيرنا. ومع هذا فمن المحتمل جداً أن أمين المدني قد أبان الطريق لسنوك هورخرونيه لدخول مكة المكرمة، والثابت تاريخياً أن سنوك هورخرونيه أظهر الإسلام على رؤوس الأشهاد والملأ احتيالاً، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في أندونيسيا طول حياته ا.هـ».

مكث سنوك ستة أشهر ونصف في مكة المكرمة. فقد دخلها في ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٨٥م، وبقي بها حتى آب (أغسطس) من العام نفسه. وقد تسمى باسم عبد الغفار، وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم، فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء جاوة وسومطرة وآتشى ممن كان يعيش في مكة، ويصف هورخرونيه مقامه في مكة حيث يقول: «لقد أقمت علاقات ومعارف مع علية القوم من أفراد المجتمع المكي، ولقد سمعت بأذني ما يتعلمه سكان المدينة العالمية وما يعلمونه لطلابهم، وكيف يتحدثون في أمور السياسة وأمور الفكر والثقافة. لقد درست النظم المثالية والحياة الواقعية، كما درست أصول العقيدة الإسلامية والصراع من أجل البقاء، درست ذلك كله وخبرته وتعلمته في المسجد، والديوان، والمقهى ومن واقع الحياة اليومية»[٢].

لقد ارتبط خروج سنوك هورخرونيه من مكة بقصة مشهورة لدى المستشرقين تلك هي قصة نقش تيماء أو حجر تيماء Teima Stone التي يرويها رالي[٣] في كتابه المذكور سابقاً عام ١٩٠٩م، حيث يقول: «في عام ١٨٧٨م اتفقت وزارة المعارف العمومية بفرنسا مع عالم في منطقة الإلزاس، يدعى شارل هوبر (Huber) ليقدم تقريراً عن منطقة نجد. وفي العام التالي وصل هوبر إلى تيماء. ولقد شاهد أثناء تجواله حجراً أثرياً مكتوباً عليه بعض النقوش والكتابات، ولقد ذكر دوتي السائح الإنجليزي أنه سمع عن هذا الحجر، ولكنه لم يتمكن من رؤيته، ولقد كان هذا الحجر موجوداً ضمن سياج يحيط بأحد الآبار القديمة، وقد تراءى لهوبر أن الحجر ذو قيمة أثرية مهمة جداً».

---

(١) قد فتحت هذه الوصية في عام ١٩٩٧م، أما ما يخص مراسلاته الشخصية ومذكراته اليومية فقد تكونت لجنة من جامعة ليدن، لنشر هذه الرسائل والمذكرات برئاسة البروفسور ويتكم WITKAM تحت اسم مشروع الحجاز Hijaz Project.

(٢) رالي: مرجع سابق ص٣٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٧ ـ ٣٤٣.

عاد هوبر في عام ١٨٨٣م إلى تيماء بصحبة مستشرق ألماني من شتراسبورغ، يدعى جوليوس يوتنج Julius Euting في محاولة للحصول على الحجر، وقد تبين أن الحجر يقدم معطيات جديدة عن وجود دين قديم خاص في منطقة تيماء، ويشاهد على الحجر صورة أحد الآلهة، يقف أمام أحد الكهنة، وقد أخذ العالمان ملحوظات عن الحجر، ثم قاما بإرساله إلى حائل بواسطة بعض أصحابهما وافترق العالمان، فقصد يوتنج القدس، أما هوبر فقد عاد إلى حائل ثم غادرها إلى جدة، عاد بعدها ثانية إلى حائل، وفي الطريق اغتيل من قبل الأدلاء الذين كانوا بصحبته.

ويبدو من ذهاب هوبر وعودته إلى حائل، أنه كان قلقاً على مصير الحجر، وربما أوجس خيفة من يوتنج بهذا الخصوص، وكان هوبر قد أرسل صورة الحجر وملحوظاته حولها إلى المستشرق رينان في باريس، أما يوتنج فقد أرسل ملحوظاته هو الآخر إلى المستشرق نولدكه في برلين. ضمنها رسالة قال فيها إنه هو الذي اكتشف الحجر، وإنه سوف يقوم بإرساله إلى ألمانيا.

إثر موت هوبر كُلّف القنصل الفرنسي بجدة، واسمه فيلكس دي لوستالوت (Felix de Lostalot) من قبل حكومته، بالمطالبة بإعدام قاتلي هوبر، وإحضار الحجر، فكتب القنصل الفرنسي رسالة إلى والي الحجاز بهذا الخصوص. ولما كان هوبر قد قام برحلته رغم معارضة السلطات التركية، فقد أثار ذلك ضجة كبيرة لدى الحكومة التركية الأمر الذي دعا القنصل الفرنسي للاعتذار عن تصرفه السابق، غير أنه عمد إلى الحيلة لإحضار حجر (نقش) تيماء، وقد قدم أحد الجزائريين المنفيين في بلاد الحجاز واسمه سي عزيز خدماته للقنصل الفرنسي، واعداً بإحضار الحجر، وممتلكات هوبر الشخصية، وقد طلب مبلغ ٥٠٠٠ فرنك مقابل ذلك، زاعماً أن هناك شخصاً آخر قد دفع ضعف هذا المبلغ ليحضر له الحجر، وربما ذكر أن هورخرونيه هو ذلك الشخص؛ لأن هورخرونيه كان في تلك الأثناء موجوداً بجدة، وعلى الرغم من أن هورخرونيه ينفي علاقته بذلك إلا أنه يعترف بأنه أرسل خطاباً إلى أستاذه يوتنج مؤكداً له أن حجر تيماء يمكن أن يصل سالماً إلى جدة.

لقد اعتقد دي لوستالوت أن هورخرونيه يحاول إرسال الحجر إلى ألمانيا، فما كان من هورخرونيه إلا أن أرسل رسالة إلى القنصل الفرنسي مؤكداً أنه لا ينوي الحصول على الحجر، وليس لديه أي نية في إرساله إلى ألمانيا.

لقد قام سي عزيز بالمهمة، فأعاد الممتلكات الخاصة بهوبر إلى القنصلية الفرنسية، فقد كانت حاجات هوبر بما فيها الحجر مودعة أمانة عند ابن رشيد أمير حائل، وقد تسلمها سي عزيز باعتباره مندوباً عن القنصلية الفرنسية، فنقلت إلى جدة ومنها إلى باريس حيث وجد حجر تيماء طريقه إلى متحف «اللوفر».

لقد كانت قصة الحجر سبباً في إبعاد سنوك (عبد الغفار) عن المدينة المقدسة، فقد ظهرت في ٥ تموز (يوليه) مقالة في جريدة الزمان الفرنسية (Le Temps) تناولت مقتل هوبر، كما تناولت محاولة سرقة الحجر من قبل هورخرونيه، وقد زود لوستالوت الجريدة بهذه الأخبار، وقد نقلت الخبر جريدة إسطنبول العثمانية، وفيها ظهر أن هناك هولندياً تحت اسم عبد الغفار، يحاول الحصول على نقوش أثرية، وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بإبعاد سنوك هورخرونيه دون أن تخبر واليها بالسبب؛ لأن الوالي لم يعرف بأمر الجريدة إلا من رسالة أرسلها سنوك نفسه إلى الوالي العثماني، ويؤكد القنصل الهولندي في جدة برسالة كتبها بتاريخ ٣ آب (أغسطس) ١٨٨٥م إلى سنوك مخبراً إياه أن جريدة إسطنبول قد أعادت نشر تقرير الجريدة الفرنسية، وأن اسمك قد ظهر فيها[١].

لقد علّق الشيخ حمد الجاسر على هذه الرواية بقوله[٢]: «تختلف هذه الرواية عما أورده (هوبر) في مذكراته التي نشرت بعد وفاته[٣] من جوانب كثيرة، وعما ذكره (فيلبي)[٤] عنه في كتابه (أرض مدين) مما يوضح تلفيقها، بل اختلاقها بتلك الصورة، ومن أوجه الاختلاف:

١ ـ أن (هوبر) أوضح أن الحجر وجد في حائط قصر، مما اضطره لإرضاء صاحبه، بعد إرضاء أمير تيماء عبد العزيز بن رمان، بما بذل من نقود، وليس الحجر في سياج بئر، وقد سمى (فيلبي) ذلك القصر بأنه (بيت الطليحان).

٢ ـ أن الحجر لثقله البالغ (١٥٠ كيلاً) وللحفاظ على ما يحويه من كتابة وصور استلزم استئجار أربع من الإبل لنقله من (تيماء) إلى (العلا)، حيث (محطة سكة الحديد)، التي نقل

---

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص١١٧.

(٢) مجلة البلد الأمين: مجلة نادي مكة الثقافي الأدبي، العدد الأول رجب ١٤١٥هـ. ص٧ ـ ١٦.

(٣) نشرت هذه المذكرات في (باريس في 1883 - 1884) (Journal d'un voyage en Arabia) Puble par la societe Asiatique et la societe de Geographie sous les auspices du Ministere de L'eintruction Publique. Paris 189.

(٤) The Land of Midian.

بها إلى (دمشق) ف (باريس) حين العثور عليه بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٨٨٤م[١]، ولم ينقل إلى (حائل).

٣ ـ ليس نقل ذلك الحجر بالأمر السهل لثقله، حتى يقدر عليه ذلك الجزائري من (حائل) إلى (جدة)، ولم تكن مخلفات (هوبر) الأخرى لدى ابن رشيد ليسلمها للجزائري مع الحجر، وإنما كان (هوبر) بعد عثوره على الحجر، أودع في (جدة) جميع تسجيلاته قبل رحلته الأخيرة للعودة إلى (تيماء)، كما ذكر (فيلبي)[٢].

٤ ـ كان (هوبر) بعد أن توسطت (فرنسا) لدى الحكومة التركية لتسعى لدى الأمير محمد بن رشيد للسماح له بزيارة بلاده، فتم ذلك، قابل الأمير في (حائل) وأهدى له سيوفاً وأسلحة وغيرها، وأرسل معه مرافقين لزيارة ما يرغب زيارته من البلاد التي تحت نفوذه، وكان من هؤلاء شخص يدعى حمود بن مجراد، وما زال أهل (حائل) يذكرون (السيوف الهوبرية)، فكان مما زار بلدة (تيماء)، وتمكن من نقل الحجر الذي عثر عليه إلى باريس، ثم عاد مرة أخرى إلى حائل، لاستكمال تنقيبه عن الآثار، وحدثني الأستاذ فهد المارك أن الأمير محمد بن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى (ابن شميلان) من قرية (الحليفة) من شيوخ بني رشيد، حين أوجس في نفسه أن تصرفات (هوبر) لها غايات سيئة، فأمر (ابن شميلان) إذا بلغ بلدة (العلا) خارج حدود بلاد ابن رشيد، منهياً رحلته، أن يقتله، وأن يحرق كل أوراقه، وما معه، ما عدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس فهي لابن شميلان نفسه، فنفذ أمر سيده، ولم يقف سوء ظن ابن رشيد بتصرف (هوبر) إلى هذا الحد، بل أرسل أناساً يتتبعون المواضع الأثرية التي صورها، فيزيلون كتاباتها وصورها، توهماً أنها من فعل (هوبر). إذ ظن مرافقوه، وهم يرونه يحاول نقلها أنه يقوم بكتابتها.

---

(١) تعليق على تعليق الشيخ حمد الجاسر، في هذا التاريخ لم يكن خط سكة الحديد قد أنشئ بعد، لهذا وجب التنويه.

(٢) ونص كلامه: وقد جمع (هوبر) كمية من النقوش قبل مصرعه بشهر واحد على يد مرافقه العربي، ولكنه لحسن الحظ كان قادراً على إيداع جميع تسجيلاته في (جدة) وذلك قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء. انتهى.
ولمعرفة جميع ما يتعلق بآثار تيماء وخاصة ما كتب فوق هذا الحجر يحسن الرجوع إلى كتاب «في شمال غرب الجزيرة» ص٣٥٠ وما بعدها تأليف حمد الجاسر.

وما أراني بحاجة إلى الاسترسال في الكلام على جوانب التلفيق لمحاولة إيجاد صلة بين قصة (هوبر) وبإخراج (هورخرونيه) من (مكة) مما يكاد يجزم من أدرك ما يتصف به من براعة في التكتم في أموره، وأنه لما أحس بانكشاف أمره في دعواه الإسلام، قبل أن يحقق ما يطمح إليه من غايات، حاول إبراز ذلك بما لا يؤثر في مستقبله، بالربط بينه وبين صلته بـ (هوبر) فحور قصته، وسعى لنشرها في الصحيفتين على ذلك النحو.

وذكر الجاسر أن الزركلي في الأعلام أورد سبباً آخر ونصه: أنه دخل مكة متسمياً بـ (عبد الغفار)، ومكث بها في (سوق الليل) خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة قبل حلول موسم الحج لانكشاف أمره، ولكلمات تفوه بها وكيل قنصل فرنسا في (جدة) في بعض المجالس، ورحل إلى بلاد جاوة فأقام بها ١٧ سنة.

أما الدكتور قاسم السامرائي فنص كلامه: «وحاول القنصل الفرنسي في (جدة) الحصول على ما خلفه (هوبر) من متاع ونقوش وجدها، وهنا بدأ الصراع على المسلوب بين (فرنسا) و (هولندا)، فدار شك الفرنسيين حول (هورخرونيه) من أن له يداً في قتل (هوبر) للحصول على نقوشه، وظهر هذا الاتهام في جريدة (الزمان) الفرنسية» على النحو الذي ورد في السابق ا.هـ.

وأياً كان السبب فقد استدعي هورخرونيه من قبل القائم مقام العثماني؛ لأن الوالي العثماني كان موجوداً في الطائف، وطلب إليه مغادرة مكة حالاً. وقد أعطي بضع ساعات ليحمل أمتعته وأرسل مخفوراً بجنديين من الأتراك إلى جدة، غادرها بعد ذلك إلى هولندا.

٤ ـ إسلامه:

لقد أفاض الباحث المحقق الدكتور قاسم السامرائي في هذا الموضوع[١]، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها، ولا سيما أنه على علم بلغة هذا المستشرق، ولبث في ليدن فترة من الزمن، وزامل بعض المهتمين بشؤون الاستشراق بهولندا، وسنذكر في هذا الصدد طرفاً مما ذكره الأستاذ الفاضل بهذا الخصوص: «يتحاشى الكثير ممن كتب عن سنوك هورخرونيه الاعتراف بأنه استطاع الولوج إلى مكة المكرمة؛ لأنه أعلن إسلامه رسمياً، وقد حاول بعض منهم أن يسبغ عليه ثوب البطولات والجرأة النادرة في قدرته على التوغل إلى معقل الإسلام الحصين.

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق ١١٧.

ويؤخذ مما كتبه سنوك نفسه في مقال نشره في إحدى الجرائد الألمانية الصادرة في ١٦/ ١١/ ١٨٨٥م وفي مقال آخر نشر في روتردام في ١٦ و ٢٧/ ١١/ ١٨٨٥م أن سنوك دخل مكة ليس متنكراً، بل دخل عالماً مسلماً هولندياً، جاء لتلقي العلم وتأدية الحج»[١].

إن ما عمله سنوك أثناء وجوده في جدة، يدل دلالة واضحة على اعتناقه الإسلام - ظاهراً على الأقل - وينفي السامرائي مزاعم أحد المستشرقين، الذي ذكر أن الطريق إلى مكة فتحت لسنوك نتيجة العلاقات التي كانت تربط القنصل الهولندي ووكيل النقل البحري الهولندي مع المطوفين، وقد استغلها القنصل في دعوة بعض علماء مكة للحضور إلى جدة، لأن متعلماً هولندياً شاباً درس الإسلام يود مقابلتهم، وقد حدث اللقاء بالفعل. وفي هذا اللقاء جرى الحديث حول بعض الموضوعات الدينية. وقد أعطي المجال لسنوك ليتحدث عن نفسه وكتبه. وبعد أن تعرفوا على وجهة نظره في الإسلام أعلن الزوار المكيون: أننا نشعر بأنك واحد منا. وبهذا أصبح الطريق له مفتوحاً إلى مكة.

ويورد الدكتور السامرائي بعض المذكرات التي كتبها سنوك بخط يده، وهي موجودة في مكتبة جامعة ليدن، بدفتر مذكرات هورخرونيه:

- في يوم ٦ كانون ثاني (يناير) ١٨٨٥م حضر الوالي من مكة إلى جدة، وحل في بيت وحدنة (من أثرياء جدة).

- زارني إسماعيل آغا، قاضي جدة، في بيت رادن أبو بكر، حيث كنت أقيم منذ ١ يناير ١٨٨٥م حتى ١٦ يناير، وكان بصحبته رجلان من جانب الوالي.

- وفي اليوم التالي ١٧ كانون ثاني جاء القاضي مع ترجمان الوالي مع آخرين لتحية سنوك هورخرونيه نيابة عن الوالي وليقولوا له: إن الباشا سوف يتشرف بزيارة سنوك هورخرونيه للوالي.

- وفي يوم الأحد ١٨ يناير (١ ربيع الآخر ١٣٠٢هـ) زار سنوك الوالي، وكان لطيفاً جداً معي، وقد دعاني لأعدّ نفسي ضيفاً عليه، إن أردت السفر إلى مكة.

---

(١) الاستشراق ص١١٤ - ١٣٧.

ـ وفي ٢١ يناير جاء الباشا إلى داري (دار رادن أبو بكر) لإعادة زيارتي وبعدها ذهبنا إلى حديقة القنصلية لأخذ الصور.

ومن هذه المعلومات التي سجلها سنوك هورخرونيه نفسه، يظهر بوضوح أن عملية إشهار إسلامه الرسمية على يد القاضي وبشهادة شاهدين جاءت بعد أن سمع القاضي رغبة سنوك في اعتناق الإسلام من فيه، وبحضور شاهدين عدلين لهما صفة رسمية أيضاً، فشهدا على ما سمعا وبلّغا الوالي. وفي اليوم التالي مباشرة جاء القاضي مع ترجمان الوالي وآخرين للتهنئة بإسلامه نيابة عن الوالي وليقولوا له: إن الوالي يتشرف بزيارة سنوك هورخرونيه المسلم طبعاً؛ لأن هذا الإجلال الذي أغدقه الوالي على سنوك لم يكن لأنه أعجب بعلم سنوك هورخرونيه، بل لأنه أشهر إسلامه.

أما رادن أبو بكر (وهو نبيل أندونيسي)، الذي أقام سنوك هورخرونيه في بيته، بعد انتقاله من القنصلية الهولندية، فقد استمر على الاتصال بسنوك سنين طويلة، ولا بد أنه شاهد عملية اعتناق سنوك هورخرونيه الرسمية للإسلام في داره. وإلا فمن غير المقبول عقلاً ومنطقاً أن يدعوه في رسائله: إلى الأخ في الله الشيخ المحترم الأمجد. . عبد الغفار، ومن غير المقبول عقلاً أن يكتب له سعادة الأديب الحميد الشيخ محبنا ومولانا عبد الغفار سهل له مطالبه وبلغه مناه في الدارين، دون أن تكون عنده القناعة بأنه أشهر إسلامه. وأخيراً من غير المنطقي أن يدعو الباشا سنوك لزيارة مكة وهو على غير دين الإسلام فهذا محرم شرعاً، ولم تأت دعوة الوالي لزيارة مكة إلا بعد أن سمع شهادة قاضي جدة وشهادة رجاله على إسلام سنوك هورخرونيه.

والشيء الذي يسترعي الانتباه أن سنوك لم يعلن ارتداده عن الإسلام بعد خروجه من مكة، وقد استمر بادعاء الإسلام أثناء وجوده في أندونيسيا، ولمدة سبعة عشر عاماً، وقد تزوج امرأة مسلمة في أندونيسيا، أنجبت منه عدداً من الأولاد، الأمر الذي جعل بعضهم لا يميل إلى ردته عن الإسلام بعد خروجه من مكة.

غير أن السامرائي ينفي ذلك قائلاً: «الثابت تاريخياً أن سنوك هورخرونيه أظهر الإسلام على رؤوس الملأ والشهود احتيالاً، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في أندونيسيا طيلة حياته. وقد أخبرني ثقة أندونيسيا أن سنوك هورخرونيه خدع أحد الأمراء بإسلامه وتزوج ابنته وله منها أولاد، أكبرهم يشغل منصباً كبيراً في الشرطة في أندونيسيا، وقد

تأكدت من هذه المعلومات حين قابلت حفيد سنوك شخصياً بصحبة زميلي المستشرق شوردفان لونكزفيلد في ليدن. ومما لا شك فيه أن سنوك هورخرونيه كان بارعاً في تمثيل الدور على زوجته وأولاده كبراعته في تمثيل الدور على كثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم. اهـ».

ويشارك السامرائي في هذا الرأي علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، الذي تعرض للحديث بالتفصيل عن سنوك هورخرونيه في أمرين مهمّين هما: إسلامه، وإخراجه قسراً من مكة. كما عقّب على بعض موضوعات الكتاب بعد صدور الطبعة الأولى من الجزء الثاني منه عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) فقال حفظه الله[1]:

«لن أتعرض للحديث عن (سنوك هورخرونيه) إلا من ناحيتين: إسلامه، وإخراجه قسراً من (مكة)، فالأستاذان الفاضلان محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، اللذان قاما بنقل كتابه إلى اللغة العربية، وتولى (نادي مكة الثقافي الأدبي) نشره - عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) - بطباعة أنيقة واضحة الحروف وجيدة الورق حسنة الترتيب، مزدانة بالصور الجميلة لبعض معالم هذا البلد الكريم زمن تأليف الكتاب، في (٥٦٤) من الصحفات - قد أوفيا المؤلف حقه فيما تحدثا به من ترجمته في نحو ثلاثين صفحة من المقدمة، وإن كانا - وفقهما الله - توقفا حيال موقفه من الإسلام، حتى يتضح ما في أوراقه التي لم يسمح بنشرها، ولم يتم الاطلاع على ما فيها بعد، مع إيرادهما رأي الدكتور قاسم السامرائي في هذا الأمر في كتابه «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» (بأن اعتناقه الإسلام كان ظاهراً على الأقل). ولا أعتقد أن الأخوين الكريمين يريان أي غضاضة في إبداء ملحوظات يسيرة حول ما قرأت فيما كتبا في مقدمته الضافية، مع الاعتراف لهما بالفضل إزاء هذا العمل الجليل، واطلاعهما على مصادر عن حياة المؤلف قد لا يتسنى لكثيرين الاطلاع عليها، ولا سيما من يجهل اللغة الإنجليزية، ومن كان محدود المعرفة بما كتب حول المستشرقين. ومع أنني حرصت على نقل كتاب (مكة) فدفعته لمن قام بتعريبه لأنشره ولم أبادر بذلك حتى أثق بصحة الترجمة، ولكن حدث ما حال بيني وبين ما أردت. وكان مما قرأت عن المؤلف البحث الذي كتبه الدكتور عبد اللطيف ابن

---

(١) مجلة البلد الأمين العدد الأول رجب ١٤١٥هـ ص٧ - ١٦. وكذلك مجموعة مقالات نشرت في المجلة العربية تحت عنوان «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» في الأعداد جمادى الآخرة - ذي الحجة عام ١٤١٦هـ، وما بعدها.

عبد الله بن دهيش ونشرته مجلة (العرب)، وما كتبه الدكتور السامرائي حوله إلا أنني كنت متأثراً قبل ذلك بما كان يكرره أستاذنا الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة رحمه الله على طلابه في المعهد في مكة، وأنا أحدهم، عام ١٣٥٢هـ عن حيل الرحالين من الغربيين للتوغل في البلاد العربية، ومقدرتهم في تلك الحيل بطرق مختلفة، بحيث تنطلي على كثير من الناس، ويمثل لأولئك بصاحبنا الذي استطاع أن يخدع علماء البلد الأمين ووجهاءه وأكثر المسلمين في بلاد (جاوة) وغيرهم ـ بالتظاهر بدعوى الإسلام فترة من الزمن، استمرت حتى بعد موته، بل خدع بذلك أقرب الناس إليه كزوجته، وقبلها أبوها أحد أمراء الجاوى، فقد كان بارعاً في تمثيل هذا الدور من الخداع والتضليل.

ومهما كنا حسني الظن حيال ادعائه الإسلام ـ بالدرجة التي تجعلنا نتطلع إلى ما تحتويه أوراقه ـ فإننا لن نستطيع أن نوفق بين هذا وما اتضح من أفعاله وما انكشف، مما اعترف به هو، وأوضحه مترجموه من بني جلدته وألصق الناس به، من اتصافه بصفات تنافي ما ادعى من صدق إسلامه، كعرافته وممارسته للتبشير واشتغاله في التجسس طيلة سبعة عشر عاماً في بلاد (الجاوة) مستشاراً للشؤون الدينية في وزارة المستعمرات الهولندية وتحريضه على استعمال الشدة إلى درجة القتل للمتمسكين بدينهم من علماء المسلمين ومحاولة خداع السذج منهم بتظاهره بالإسلام، حتى كان يضفي عليه بعضهم لقب (مفتي بتافيا) و (شيخ الإسلام) مما لا يتسع المقام لتفصيله. اهـ».

في عام ١٩٩٧م تم الكشف عن الوثائق والرسائل الخاصة بسنوك هورخرونيه في ليدن، وعقد مؤتمر علمي عن سنوك بهذه المناسبة بتاريخ ١٤ نوفمبر عام ١٩٩٧م (١٤/٧/١٤١٨هـ) وكان ممن حضر هذا المؤتمر معالي الشيخ أحمد زكي يماني، والدكتور معراج مرزا، كما حضره من أندونيسيا حفيد سنوك (المسلم) من زوجته الأندونيسية خديجة (H. Josef). وكان من الذين اطلعوا على الرسائل الخاصة بجده، (سنوك هورخرونيه). وقد أكد أن من ضمن الرسائل التي فتحت رسالة يعلن فيها الرجل أنه مسلم. وقد رأت اللجنة المكلفة بالإشراف على فتح الوصية من جامعة ليدن تمزيق هذه الرسالة وعدم إظهارها؛ لأن ذلك سيكون مخيباً لآمال الكثيرين من عشاق هذا المستشرق الكبير، كما سيكون له مردود سلبي على جامعة ليدن نفسها، التي اعتبرت من أوائل معاهد الاستشراق في أوروبا. وقد شهد على هذا القول وسمعه من فم الحفيد كل من معالي الشيخ أحمد زكي يماني والدكتور معراج مرزا.

هذه الشهادة تضع حداً لموضوع إسلام الرجل، وأنه كان يخفي إسلامه على الأقل على أبناء جلدته ولا يسعه إلا أن يفعل ذلك، فهو ممثل لحكومته ورجل استخبارات وعالم في معهد تبشيري يناهض الإسلام؛ ولهذا فهو يظهر غير ما يبطن. ومن الجدير بالذكر أن حفيد سنوك يبرز ذلك بقوله: إن سنوك كان فيما يبدو يفرق بين المصلحة الوطنية التي يرى أن التصدي لما يضر بها أمر واجب، وبين اعتناق الدين باعتباره أمراً شخصياً خاصاً بالفرد، وهذا هو المفهوم الأوروبي للتدين، وفي ضوء ذلك، لا يرى بأساً من محاربة كل من يتصدى للإساءة للمصالح القومية الهولندية أو يسيء إلى سمعة هولندا في جزر الهند الشرقية. ولعل ذلك يفسر نظريته في الترابط الثقافي بين أمم الشرق وأمم الغرب، حيث يرى أن الاتحاد في الدين ليس شرطاً في اتحاد الوطنية. فقد تتعايش الأديان المختلفة في المكان الواحد.

وأخيراً إن رجلاً بحث في الكثير من جوانب الدين الإسلامي، لا بد أن لامست بعض جوانبه حياة هذا الرجل، فاستجاب لنداء هذا الدين، غير أن الظروف المحيطة به لم تمكنه من الالتزام الكامل بالإسلام. ولئن كان أكثر المستشرقين في السابق قد عكفوا على اعتناق الإسلام ليصلوا إلى أهدافهم الخاصة فإن البعض منهم قد رأى بثاقب فكره أن هذا الدين جدير بالاعتناق، وليس أدل على ذلك ما يرويه معالي الشيخ أحمد زكي يماني أن فيلبي الذي عاش لفترة طويلة في ربوع الجزيرة العربية كان ينظر إليه كغيره من المستشرقين باعتباره ممثلاً معتمداً لبلده وأنه كان يتظاهر بزي المسلمين ويظهر اعتناقه للإسلام خدمة لمصالح بريطانيا، وكان هذا الاعتقاد لدى العرب والإنجليز على السواء. غير أن أسرته فوجئت بأنه يخبر ابنه أنه مسلم ويوصي بدفن جثمانه في مقابر المسلمين، ويروي الابن للشيخ اليماني مظهر امتعاضه من تصرف أبيه ووصيته هذه التي لم يسمعها إلا قبيل الوفاة.

وبعد، فإن سنوك وإن كان قد أفضى إلى ربه، فسيبقى أمر إسلامه مشكلة تثير الجدل بين الباحثين بين مؤيد ومعارض.

٥ ـ هورخرونيه في الميزان:

إذا أردنا الحكم على هورخرونيه، لا بد أن ننظر للوسط العلمي الذي عاش في رحابه، كما ننظر إلى معطيات الفترة التاريخية التي عاش فيها، والإنسان ابن عصره كما أنه ابن بيئته.

لقد عاش هورخرونيه بصفته تلميذاً ومدرّساً في جامعة ليدن، وهي أولى جامعات أوروبا وأكثرها أهمية وعراقة، وقد بدأ الاستشراق الهولندي منها، وتبعتها بقية الجامعات التي أنشئت فيما بعد. ولقد نشر الأستاذ دروز أستاذ اللغات الأندونيسية في هذه الجامعة، مقالاً في مجلة (Islamic Review) بلندن حدد فيه مهام هذه الجامعة فيما يخص الدراسات الشرقية بثلاث نقاط هي:

ـ أنها كانت ترمي إلى نشر المسيحية، ولذلك اهتمت بترجمة الإنجيل والتعاليم النصرانية إلى العربية، ليسهل استعمالها من قبل البعثات التبشيرية في البلاد العربية.

ـ كانت لهولندا مع معظم الدول الإسلامية مصالح اقتصادية وعلاقات بحرية وسياسية. وكانت هولندا تستعين بمستشرقي جامعة ليدن في كل ما يحتاج إلى الترجمة من العربية وإليها، الأمر الذي أدى إلى زيادة الاهتمام باللغة العربية ودراساتها.

ـ صلة هولندا بمستعمراتها في أندونيسيا، ومعظم سكان هذه المستعمرات مسلمون، وكان عملاء الشركة الشرقية الهولندية ينقلون كل ما يجدون من المخطوطات الإسلامية في هذه المستعمرات إلى جامعة ليدن[١].

ومن هنا نجد أن مرامي جامعة ليدن تنحصر بالدافع التبشيري والدافع الاستعماري والدافع العلمي الصرف. ولقد أشار بعض الباحثين إلى أن سنوك هورخرونيه قد جمع في دراساته الاستشراقية بين هذه الدوافع الثلاثة[٢]. وسنلقي الضوء على هذا الدوافع الثلاثة من خلال شخصية هورخرونيه نفسه.

٥: ١ ـ الدافع التبشيري:

تشير سجلات البلدية المحفوظة في دار الوثائق بمدينة ليدن أن هورخرونيه كان (بلا دين)، حيث كتب بجانب حقل الدين في هذا السجل (بلا دين)[٣]. ولعل ذلك يظهر لنا أنه لم يتحمس للتبشير كثيراً في المناطق الإسلامية. فقد كان يرى أن سياسة الترابط الثقافي بين هولندا ومستعمراتها هي أنجح من سياسة التبشير في هذا المجال. وهذه السياسة يمكن بواسطتها دمج المستعمرات مع الوطن الأم بروابط ثقافية وحضارية مشتركة

(١) أحمد علي: جامعة ليدن والدراسات العربية، مجلة الحج ع١٢ س٥، ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) مكة المكرمة.
(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق ص١٠٨.
(٣) المصدر السابق: ١٣٤.

بالرغم من اختلاف الديانات؛ لذلك نراه يحذر الحكومة الهولندية من خطر الانقياد إلى جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية المسلمين الدينية.

وقد اعترف هورخرونيه بأن حزباً هولندياً ممالئاً لجمعيات التبشير يحث الحكومة على أن تحمل مسلمي الجاوى على النصرانية قسراً، فبيّن الخطر العظيم من ممالاة جمعيات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين، وطعن في مزاعم النواب في الندوة الهولندية كون إسلام أكثر أهل الجاوى لا يزال اسمياً، فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون. قال: «إن هذا القول هو في منتهى الحماقة، وإنه يجب على كل وطني هولندي يهمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتاً، ويحذر الحكومة من سوء عواقبه. وهو ينبه إلى كون الضغط يورث الانفجار. وأن حكومة هولندا كما أنها متهمة عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين؟ فهي متهمة لدى المسلمين باضطهاد الإسلام، فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك. ا.هـ»[1].

ومن رأي هورخرونيه أن الحكومة الهولندية تخطئ إذا أقامت عقبات في طريق الحج، لا سيما أن مسلمي الجاوى هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الإسلام. وأن تصعيب الحج عليهم لا يجلب لهولندا غير إثارة الخواطر وقلق الأفكار. وهو يرد على بعض النواب الهولنديين الذين يسترسلون إلى الخيالات من أمر الحج، ويظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعاً في حمل الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله. يقول: إن على الحكومة الهولندية أن تسلك سبيلاً وسطاً فلا تحث على فريضة إسلامية ولا تنهى عنها، وقد أحسنت صنعاً في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة، فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل أحداً عليها بالقوة ولا تمنعها بالقوة[2].

غير أننا يجب أن نسارع إلى القول بأن هورخرونيه نفسه يحذر الحكومة الهولندية من خطر آخر، ألا وهو انتشار الإسلام بين صفوف الوثنيين بأندونيسيا بواسطة الموظفين المحليين المسلمين، الذين يعملون في الإدارة الهولندية في تلك المناطق. ويرى أن مصلحة هولندا وأوروبا كلها تقضي بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين.

---

(١) شكيب أرسلان: عدو عاقل لكنه شديد الخطر (سنوك هورخرونيه)، مجلة الفتح، العدد ٢٤٣، السنة الخامسة ١٣٤٩، ص١ - ٣.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، المجلد الأول، الطبعة الثالثة، دار الفكر ١٩٧١م، ص٣٤١ - ٣٤٢.

والسبب في ذلك كما يقول أمير البيان العربي (شكيب أرسلان): إن الإسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد. وإن الشريعة قد ضمنت لمعتنقها كل شروط الحرية والاستقلال؛ فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبي والميل إلى الإسلام في قلب واحد؛ لأن المستعمرين يعلمون ما وراء الأكمة، ولذلك أهم شيء تناصبه الدولة المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الإسلامية والأخذ بعزائم الإسلام.

إن رأي هورخرونيه الذي ينصح فيه الحكومة الهولندية بإعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم هو من خوفهم الثورة والانقضاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر، فالاعتدال هنا بعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين، ويبدو أن مبدأ هورخرونيه يفيد بأن مقاومة الإسلام في الأمور السياسية علنية لا مراء فيها، وأما الأمور الدينية فهي خفية بحيث لا تدعو إلى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض.

٥: ٢ ــ الدافع الاستعماري:

إن العصر الذي عاش فيه سنوك هورخرونيه كان عصر الحمّى: حمّى التوسع الاستعماري، وحمّى التبشير في حماية السلطة المستعمرة، وحمّى الاكتشاف والريادة، وذلك باكتشاف أي مجهول عند الأوروبيين للفوز بالشهرة كالنقوش الكتابية والآثار وغيرها[١].

ولم يكن سنوك استثناء من القاعدة، فقد شارك في أحداث عصره، وأسهم فيها بنصيب كبير. لقد استخدم علمه وثقافته في سبيل مصلحة بلده. ومن مصلحة بلده كان الاستعمار والسيطرة وضم الأراضي فيما وراء البحار إلى الوطن الأم، ولقد قضى سبعة عشر عاماً في أندونيسيا يعمل مستشاراً في وزارة المستعمرات الهولندية في المسائل الإسلامية والعربية، وكان يقوم بالعديد من المهمات، من أبرزها: وضع الخطط والتوصيات اللازمة للقضاء على الحركات المناهضة لهولندا بأندونيسيا، كما ظهر من رسالة كتبها سنوك إلى أحد الجنرالات الهولنديين، والتي ذكر فيها طريقة دخوله إلى إقليم آتشى وسبب هذا الدخول[٢]، وكذلك توصياته السرية التي أوصى بها الحكومة الهولندية باتباع سياسة العنف

(١) السامرائي: مرجع سابق ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) السامرائي: المصدر نفسه ص١٢٥ ـ ١٢٦.

والإفناء للعلماء الذي يديرون الثورة ويشعلونها في آتشى «إن العدو الحقيقي والنشط هم العلماء المغامرون، الذين نظموا العصابات القوية، وبالرغم من قلة عددهم الذي يتجدد من بين مستويات السكان المختلفة، فإنه يمكن أن يضاف إليهم قسم من السكان والرؤساء. ولا يمكن أن تكون هناك فائدة في المفاوضة مع هذا الحزب العدائي؛ لأن عقيدتهم (؟!!) ومصلحتهم الشخصية تفرض عليهم ألا يخضعوا إلا باستعمال العنف ضدهم»[1].

إن هذا الجانب من توصيات سنوك يمثل الجانب الاستعماري، الذي كان جزءًا من مهمته الرسمية، أثناء إقامته الدائمة في أرخبيل الملايو الهولندي، أما الجانب الآخر فيتمثل بنظريته في العلاقة بين المستعمرات والوطن الأم، تلك العلاقة التي أوحت له بنظريته المشهورة في هذا السبيل وهي «نظرية الترابط الثقافي»، وهي سياسة استعمارية ترمي إلى صهر المستعمرات في بوتقة الدولة المستعمرة بحيث تكون جزءًا منها.

والظاهر أن السياسة الاستعمارية كانت تسير على نظام واحد، وإن تعددت الدول المستعمرة، إذ نجد تشابهاً تاماً في الطريقة التي اتبعها الإنجليز والفرنسيون مع ما رسمه سنوك من تصدير الثقافة الأوروبية إلى المستعمرات الأوروبية فيما وراء البحار.

ويقول سنوك إن سلامة المستعمرات الهولندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافية الهولندية في مسلمي تلك الجزائر (جزائر الهند الشرقية) إلى أن يصيروا في هذا الباب كالهولنديين أنفسهم، فيكون هولنديون في الشرق، كما يكون هولنديون في الغرب. ولا يرى ذلك مستحيلاً، ولا يجد الاتحاد في الدين شرطاً في اتحاد الوطنية، بل يقول: إنه كما لم يمنع اختلاف الهولنديين البروتستانت مع الهولنديين الكاثوليك، والهولنديين اليهود مع الملاحدة الهولنديين أن يكونوا جميعاً أمة هولندية. فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمي الجاوى وسومطرة أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولنديين، وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين[2].

إن الترابط الثقافي في نظر سنوك أقوى من روابط الهيمنة بالقوة وأقوى على ربط المستعمرات بالوطن الأم. ولو قدر لهذه السياسة أن تنجح لرأينا أندونيسيا ترفض

---

(١) المصدر السابق ص١٢٧.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، مرجع سابق ٢٤٣.

الاستقلال كما ترفضه الآن مستعمرات هولندا في سورينام وجزائر الأنتيل. والسبب واضح وهو أن أندونيسيا لم تكن خالية من الأصول الثقافية التي وفرها الإسلام، كخلو مستعمرات هولندا في أمريكا الجنوبية، ولذلك لم تنجح سياسة سنوك في أندونيسيا[1].

ولم يكن سنوك متحمساً للتبشير بصفتها أداة سيطرة، بقدر ما كان متحمساً لتصدير المثل الأوروبية، التي تعمل على المدى البعيد في إضعاف الوازع الديني وحصره في المساجد. وكأنه يعلم أن مهاجمة المسلمين من جهة العقيدة أمر عقيم لا يأتي بأدنى فائدة ولا يعود على هولندا إلا بالضرر، ولا يألو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب، مستبدلاً إياه بسلاح قوي هو صبغ الأمة الأندونيسية بالصبغة الهولندية من طريق العلم والتربية[2]. وانتشار المدارس على النمط الأوروبي هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق حلمه في الترابط الثقافي.

لذلك لا يألو هورخرونيه جهداً في أن يقطع كل صلة تربط البلاد الأندونيسية بالعالم الإسلامي. فنراه دائماً ينبه جهاراً وبدون أدنى محاباة إلى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الإسلامية؛ لأنه يقول إن الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية، من أراد الاعتصام بها من المسلمين، فإنها لا تمكنه من طاعة حكومة مسيحية، ونجده في موضع آخر يتأسف من كون مسلمي تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمي مصر وحضرموت وجزيرة العرب، عاكفين على مطالعة التآليف التي تحرر في البلاد العربية، وأنه إلى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قوية تناهض هذه النزعة الدينية العربية.

يظهر من هنا اتفاق الأوروبيين على بث روح القومية بين أمم الإسلام أملاً بكسر عصا الجامعة الإسلامية. وهو يرى أن خطر القومية أخف من خطر تلك الجامعة، لذلك هو يرى أن لا هوادة مع المسلمين الجاويين، فيما لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمورة، ومن توصياته منع قناصل تركيا، الذين يمثلون وكلاء دولة الخلافة، من أي مداخلة مع الأهالي. وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الإعانات لسكة حديد الحجاز، وعدم إباحة أي إعانات أخرى لجرحى العساكر العثمانية،

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق ١٣١.

ولأرامل جنود الأتراك وأيتامهم، ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة، وعلى مراقبة التعليم الديني، حتى لا يقع فيه شيء من الدعوة إلى اتحاد الإسلام - وكأنه يريد للإسلام أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة، وذكر نواقض الوضوء مثلاً - ويطلب حذف باب الجهاد. وبالاختصار فهو - مع ما اتصف به من الاعتدال - يريد أن يمحو أثر كل تضامن إسلامي مع المسلمين التابعين لهولندا، وأن ينسخ من التعليم الإسلامي كل ما فيه رائحة الدفاع عن الأمة، وفي هاتين النقطتين لا يرعى في الملام خليلاً[1].

إن آراء سنوك السابقة، والتي اعتمدت بوصفها سياسة لهولندا في الشرق، تبين الوجه الاستعماري الذي يمثله الفكر الاستشراقي، والذي كان يحرص دائماً على الاستيثاق من المستعمرات، وذلك بقطع كل صلة تربطها بغير الوطن الأم، تحقيقاً لمبدأ وجود امتداد حضاري للدول المستعمرة في مستعمراتها فيما وراء البحار.

٥: ٣ ـ الدافع العلمي:

لقد ذكرنا سابقاً أن المستشرقين تناولوا تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة. وعمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه، وقد وقفوا عليه مواهبهم ومناهجهم مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف، حتى بلغوا فيه شأواً بعيداً.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا كله؟ ونجد الجواب عند سنوك هورخرونيه حيث يقول: «لقد احتفظت الشريعة بتأثير واسع المدى على حياة المسلمين الفكرية، لذلك كانت ولم تزل أيضاً موضوعاً مهماً للدراسة، لا لمجرد الأسباب المتعلقة بتاريخ الشريعة والحضارة والدين، ولكن لأغراض عملية. وكلما ازدادت صلات أوروبا الودية مع الشرق الإسلامي، وازداد معها وقوع الأقطار الإسلامية تحت سيطرة أوروبا، أصبح الأمر مهماً لنا - نحن الأوروبيين - أن نكون على معرفة بالحياة الفكرية ومفاهيم الإسلام وشريعته الدينية». ويعلق أحد الباحثين على ذلك قائلاً: «إن معرفة الشرق تزيد أو تحقق أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السيادة الأوروبية أن تمتد على آسيا»[2].

---

(١) شكيب أرسلان: المصدر السابق ص٣٤٣.

(٢) قاسم السامرائي: مرجع سابق ص١١٠ ـ ١١١.

بهذا المنظار الذي به ينظر الأوروبيون لدراساتهم الاستشراقية يجب أن ننظر. فدراساتهم كلها ـ أو جلها ـ هي لأغراض عملية، منها: الاستعمار والسيطرة، ومنها التنصير، ومنها الترابط الثقافي، وغير ذلك.

غير أن هذه الأغراض العملية قد أفرزت إنتاجاً علمياً كبيراً، ولئن كان من بين المستشرقين من بلغ به الهوس التبشيري حد السفه مثل كريمر (الدافع التبشيري والاستعماري)، كان بينهم من بلغ ذروة التفاني في نشر النصوص العربية مثل دي غويه (الدافع العلمي). وبين هذا وذاك تقع الكثرة الكاثرة من المستشرقين. ومن هذه الكثرة يبرز سنوك هورخرونيه بوصفه أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين. وقد عده عميد العربية بعد جولد زيهر وفي طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا. وبالرغم من مسحة الغلو في هذا القول فإن أثر هذا العالم على الاستشراق الهولندي كان شاملاً وعميقاً حتى يومنا هذا. وعمق هذا الأثر وشموله يتجلى في مكانته بين المستشرقين الهولنديين اليوم وطموحهم العميق في تقليده ومحاكاته[١].

إن معظم من كتب عن هورخرونيه من المستشرقين كال له المديح وغرف له الثناء، فهذا دريفس يقول: «إن دراسته الرائدة للشريعة الإسلامية، وما يعنيه الإسلام في حياة أتباعه، جعلته واحداً من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث»، ويقول فرانك شردور: «لقد صار خبيراً بالشريعة الإسلامية: الموضوع الذي لم يدرس إلا هواية إذا درس إطلاقاً. وقد أخذ على عاتقه مهمة تصحيح الآراء الخاطئة»[٢]، ويقول عنه شكيب أرسلان: «هذا الرجل معدود في أوروبا من فحول المستشرقين، وفي هولندا هو المستشرق الأكبر والنقريس الأخبر بأمور المسلمين. وقد سمعت عن هذا الرجل كثيراً ولم يقسم لي الاجتماع معه»[٣]. ويصفه نجيب العقيقي بأنه «أسهم في جعل الدراسات الإسلامية تستقل عن اللغة العربية والتاريخ، لتنبهه إلى غلبة الطابع الديني على الحضارة الشرقية»[٤].

---

(١) قاسم السامرائي: مرجع سابق ص١٠٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مجلة الفتح، مرجع سابق ص١.

(٤) المستشرقون: ص٦٦٦.

لقد وصف دروز سنوك هورخرونيه ـ وهو أحد العلماء البارزين في جامعة ليدن ـ بقوله: «إذا شاء المرء أن يعرف هورخرونيه عليه أن يقرأ عن عمله وإنتاجه، إذ إن إنتاجه وحياته أمران متلازمان تلازماً تاماً، لقد كان من ملحوظات هورخرونيه الدقيقة على الحركات الفكرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في عموم أوروبا والشرق، أنها في أوروبا كانت بعيدة عن الروح الدينية، وأن روح الشرق وحضارته لم تقم إلا على الدين، وأن الغربيين سادت فيهم معلومات خاطئة عن الإسلام وحقيقته، وبناء عليه بذل هورخرونيه جهوداً متواصلة لدراسة الإسلام، وفهم حقيقته بتوسع، وفهم تطوراته على مرور القرون، وتمكن بعد نجاحه في مجهوداته من الرد على كثير من الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام»[1].

إن الناظر فيما كتبه سنوك من مؤلفات ومقالات يرى أنه كان خصب الإنتاج، كتب في كافة المعارف الإسلامية والعربية بلا استثناء، ولقد مكنته حياته في الشرق أن يكون أكثر دقة في الكثير من أحكامه، ويعالج الموضوعات بعمق وروية، وقد ساعده على ذلك معرفته الضليعة باللغة العربية وبعض اللغات الأندونيسية، ولقد عقب في كثير من أبحاثه على آراء المستشرقين وانتقدها. فعلى سبيل المثال رد على مزاعم سبرنغر من أن ما كان يصيب الرسول الكريم في أثناء نزول الوحي إنما كان نوبات هستيرية، وكذلك رد على مزاعم غريم الذي يقول إن مبادئ محمد اشتراكية لا دينية، وإنما جعل لها صفة دينية لأجل تمكينها، ومما قاله سنوك: إن مدار نبوة محمد ﷺ هو البعث واليوم الآخر[2].

وقد انتقد بمرارة أولئك الرحالة الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق أياماً معدودة ويصدرون أحكاماً سطحية وساذجة، لا تعتمد على المشاهدة، وإنما على ما هو موجود في بطون كتب المستشرقين ممن سبقهم، وبهذا تتوالى الأخطاء باستمرار في كتب هؤلاء، ولعل سنوك أول من أظهر للغرب حقيقة الرق في الإسلام.

فقد وجد في عصر كانت بريطانيا والدول الأوروبية تشن حملة لتحرير الرقيق، وقد أظهر لهؤلاء أن الرقيق في الشرق يعامل معاملة الأب والأم والأخ والأخت، ولو أن مفهوم الرق

---

(١) أحمد علي: مجلة الحج ـ مرجع سابق ص٣٩.

(٢) انظر تفصيل تلك الردود في كتاب حاضر العالم الإسلامي تحت عنوان: البعثة المحمدية ج١ ص٣٤ وما بعدها.

الغربي كما هو عليه الأمر عند المسلمين لما احتاجت أوروبا إلى كل هذا العناء بهذه الخطوة التي خطتها[1].

إن هذه الأمور التي بدا فيها صاحبنا موضوعياً منصفاً منافحاً، يقابلها أمور أخرى بدا فيها متحاملاً ومتجنياً وغير منصف، مما حدا ببعض المؤلفين إلى القول عنه: «عدو عاقل لكنه شديد الخطر»[2].

لقد رأينا طرفاً مما وصف به العلماء في آتشي، وكذلك نظرته الخاصة بما يجب أن يكون عليه الدين الإسلامي، مقصوراً على العبادات فقط، مجرداً من الجهاد والتطبيق، معزولاً عن واقع المسلمين العملي، ومن اتهاماته الخطيرة قوله: «إن الشريعة الإسلامية المستندة على القرآن والسنة موجودة في الكتب النظرية، أما عملياً فإنها لا تصلح لإقامة نظام سياسي يقوم عليهما».

هذا هو سنوك هورخرونيه كما يصفه الأصدقاء والخصوم، نضعه بين يدي قارئنا، قبل أن نبسط القول في كتابه عن مكة.

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر الفصل الأول من الجزء الثاني.

(٢) الفتح: مرجع سابق ص١.

كتاب مكة

١ ــ محتويات الكتاب:

إن الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب مكة، وقد كتبه باللغة الألمانية في مجلدين كبيرين، وقد طبع في مدينة لاهاي بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م.

ويشمل **المجلد الأول** دراسة مفصلة لتاريخ مكة المكرمة وحكامها، وقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام:

١ ـ الموقع الجغرافي لمكة المكرمة: وفيه استعرض المؤلف موقع مكة الجغرافي وتضاريسها وأوضاعها الطبوغرافية.

٢ ـ مكة في العهد الإسلامي الأول: وقد بحث فيه المؤلف انتشار الإسلام، وحكومة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والنظم الإسلامية الجديدة للنواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية ونشأة العلوم الإسلامية.

٣ ـ تسلسل لأهم الأحداث التاريخية بمكة: منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي (السادس إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري).

٤ ـ مكة خلال القرن التاسع عشر الميلادي (١٧٨٨ ـ ١٨٨٧م) الثالث عشر الهجري، ويحوي هذا المجلد خمسة ملاحق، أربعة منها باللغة العربية مع ترجمتها بالألمانية، والخامس باللغة الألمانية، كما يحوي خريطتين: إحداهما طبوغرافية أخذها عن بيركهارت وأضاف إليها بعض التصحيحات، والثانية خريطة للمسجد الحرام في تلك الفترة.

أما **المجلد الثاني** فقد قسّمه المؤلف إلى أربعة أقسام أيضاً، وهي:

١ ـ الحياة اليومية في مكة: وتشمل الإدارة وحياة السكان وما يزاولونه من أعمال تجارية وحرف متنوعة، أو ما يقدمونه لخدمة الحجاج. ويسهب في دراسة الأمور المتعلقة بالحج كالطوافة وأعمال الزمازمة والخدمات التي تقدمها المدينة المقدسة لزوارها وغير ذلك.

٢ ـ **الحياة العائلية وبناء الأسرة**: ويشمل ذلك مراسيم الزواج من خطبة ومهر، ومراسيم التسمية والختان، ويتطرق إلى الأعياد والاحتفالات الدينية والاجتماعية وغيرها.

٣ ـ **الناحية العلمية**: ويبسط القول هنا عن الكتاتيب وطرق التدريس في الحرم، وموضوعات الدراسة، والمدارس الفكرية في العالم الإسلامي والمذاهب المختلفة، ويبين خصائص التعليم في المؤسسة التعليمية الكبرى، ألا وهي المسجد الحرام، حيث يتحدث عن نظام التدريس ومركز شيخ العلماء والإعانات المخصصة للمدرسين من الدولة.

٤ ـ **السكان في مكة**: وفي هذا الفصل يتحدث الكاتب عن سكان المدينة المقدسة، ويخص بالذكر منهم السكان القادمين من جزر الهند الشرقية الهولندية (أندونيسيا حالياً) حيث يتحدث عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأثر هؤلاء في الوطن الأم، والعلاقات المتبادلة بين مكة وتلك الديار.

لقد ألحق سنوك هورخرونيه مع المجلدين الكبيرين أطلساً فريداً، وضع فيه الكثير من الصور، التي تظهر نواحي شتى من مظاهر حياة المدينة المقدسة في الفترة التي وجد بها بمكة، ويحوي الأطلس أربعين لوحة تتضمن صوراً لأشخاص مختلفين، يمثلون قطاعات الشعب المكي وسكانه ابتداء من الأشراف والسادة، ومروراً بسكان الجاوة والأفريقيين والهنود والبدو وسكان وسط آسيا وانتهاء بالمتسولين، كما يحوي عدداً من اللوحات تمثل مناظر عامة لمدينة مكة المكرمة والحرم المكي، وبعض المباني المهمة، وفي نهاية الأطلس هناك أربع لوحات تحوي رسوماً بالألوان الطبيعية لبعض الأدوات والحاجيات المستعملة في مكة، مثل: الأواني الفخارية (الشربة، الدورق)، والزنابيل، والشيشة، وأنواع الحلي المختلفة، وغيرها.

ويذكر سنوك أنه أخذ معظم هذه الصور من خلال جهاز تصوير (كاميرا) كانت معه، وقد استعان في التقاط بعض الصور بأحد المكيين صديقه الطبيب، المدعو عبد الغفار، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه في الجزء الأول، ولكنه لم يشر إلى اسمه صراحة، ولكن الأوراق والرسائل التي وجدت بحوزة المؤلف وسمح بالاطلاع عليها، أبرزت الجهد الكبير الذي قام به الطبيب المكي في التقاط هذه الصور، دون أن يحظى بكلمة شكر بسيطة من المؤلف.

لقد تعهدت إحدى دور النشر بطباعة هذا الأطلس وتحملت تكاليف نشره بشرط أن تنشر ما تريد من هذه الصور، في صدر صفحات جريدتها، وقد كان ذلك، وظهر الأطلس جزءًا متمماً للمجلدين المذكورين.

لقد كتب سنوك هورخرونيه كتابه عن مكة باللغة الألمانية كما أسلفنا، على الرغم من أن لغته الأم هي اللغة الهولندية، وقد برر ذلك بقوله: «إن الكثيرين من أبناء وطني سيتساءلون موجهين لي اللوم بدرجات متفاوتة، عن السبب الذي جعلني أصدر هذا الكتاب باللغة الألمانية، ولقد أعرب بعض هؤلاء عن تحفظاته فعلاً، ويجب أن أقول بادئ ذي بدء إنني لم أرتكب مثل هذا الانتحار الأدبي، من أجل التسلية الذاتية، لأنني أعرف جيداً بأن المرء الذي يكتب بلغة أجنبية بالقدرة والكفاءة نفسها التي يكتب بها بلغته الأم، إذا أراد أن يكتب باللغتين معاً، فإنه يكتب بصورة سيئة.. ومن ثم كان عليّ أن اختار لغة واحدة فقط، وكان اختياري للألمانية؛ لأن الإنسان يكتب كي يكون مقروءًا من قطاعات كبيرة من الناس، وإنه لمن الغباوة بمكان أن نطلب من أولئك المعنيين بالعلم، أن يتعلموا لغة كل أمة، لقد كتب آباؤنا باللغة اللاتينية، ليقرأ لهم قطاع أكبر من الناس، وقد عملت ما عمله الأجداد لذات الغرض»[1].

لقد جاء الكتاب بجزأيه سفراً كبيراً، يلقي الضوء على تاريخ مكة المكرمة وعلى أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية خلال الفترة التي عاشها المؤلف، ومن الجدير بالذكر أن هناك نقطة كانت تشغل بالنا أثناء ترجمة الكتاب.

فقد عاش المؤلف نصف سنة في مكة، غير أننا نجده يصف الحياة اليومية والاجتماعية في مكة خلال اثني عشر شهراً، متتبعاً جميع ما يحدث في المدينة المقدسة يوماً بيوم، فمن أين حصل على المعلومات للفترة التي لم يكن موجوداً بها؟ الأمر الذي يؤكد أنه اعتمد في كتابه على السماع دون المشاهدة خلال هذه الفترة، وقد برر ذلك في مقدمة كتابه، بأنه اعتمد على كروات قنصل هولندا في جدة ونائبه Van Derchus من بعده، في تتبع التطورات المستمرة في الحجاز عموماً، وفي مكة على وجه الخصوص، غير أن نائب القنصل مهما أوتي من سعة المعرفة، لا يستطيع تزويد الكاتب بتفصيلات دقيقة وتواريخ محددة لكافة المناسبات المكية ولا سيما أن مكة محظور دخولها على أمثال هؤلاء.

---

(١) مقدمة المؤلف.

وقد كشف النقاب الدكتور قاسم السامرائي[1] عن حقيقة من زود سنوك بهذه المعلومات الدقيقة فقال: «ولعل أعجب ما في علاقة رادن أبو بكر بسنوك هورخرونيه أنه زوده بكل تفاصيل المعلومات عن احتفالات مكة المكرمة من زواج وأفراح وتراجم علمائها فأدخلها سنوك في كتابه عن مكة موحياً للقارئ أنه شاهدها بنفسه، وسجلها من غير أن يعترف بجميل هذا الرجل عليه بكلمة واحدة، وهذه المعلومات موجودة بخط رادن أبو بكر باللغة العربية، ومحفوظة مع مخطوط كتاب سنوك هورخرونيه عن مكة، مع رسالة من رادن يصف فيها سنوك بـ «الأخ في الله» ا.هـ».

لقد أثار كتاب مكة اهتماماً كبيراً في دوائر الاستشراق في العالم الغربي، فكتب في تقريظه الكثير من علماء الاستشراق، باعتباره الكتاب الوحيد، الذي اعتمد فيه المؤلف على السماع المباشر من أفواه الناس، وعلى المشاهدة الحية، فلم يكن الكتاب كغيره من كتب الرحالة؛ الذين وجدوا في مكة لبضعة أيام خلال موسم الحج فدونوا ملحوظات عابرة وسطحية، اعتمدوا في أكثرها على ما هو موجود في بطون الكتب فجاءت هشة ينقصها العمق.

يقول رالي: إن باديا وبيركهارت وبيرتون وهورخرونيه هم القمم الأربعة الذين عرفوا مكة، وكتبوا عنها للعالم الغربي، ويأتي على رأس هؤلاء هورخرونيه في أبحاثه الاجتماعية عن سكان المدينة المقدسة[2].

ولقد كتبت مجلة الرسالة إثر وفاة سنوك هورخرونيه، «توفي في ليدن المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه يوم السبت ٤ يوليو ١٩٣٦م في الحادية والثمانين من عمره، وقد ولد في ٨ فبراير ١٨٥٧م وبعد ما أتم دراسته العالية رحل إلى بلاد العرب، وكانت رحلته إليها متأخرة عن رحلة السير ريتشرد بيرتون المشهورة نحو ثلاثين سنة، فتمم بالمعلومات التي جمعها معلومات بيرتون ومباحثه.

ولقد أصدر في سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م كتابه (مكة) في مجلدين، وقد جاء وصفه لمدينة الكعبة مؤيداً لدقة وصف بيركهارت، أما وصفه للمجتمع العربي في مكة، فكان دقيقاً ومسهباً، وصف الأسواق والعبيد والأماكن المقدسة وحراسها والبيوت والأعياد والولائم

---

(١) الاستشراق: ص١٣٠.

(٢) رالي: مرجع سابق ص٢٢٣.

والفضائل والنقائص، وكان بحثه في حياة المدن ببلاد العرب مدققاً، ولكن يقال إنه كان يعوزه شيء من العطف، مكنت بالجريف ودوتي من الامتياز والتفوق فيما كتباه عن حياة الجزيرة»[1].

وإزاء الشهرة التي ذاع صيتها لهذا المؤلف القيم، قام قنصل بريطانيا في جدة المستر هـ. موناهان Monahan بترجمة الجزء الثاني من الكتاب والمتعلق بالحياة الاجتماعية للمدينة المقدسة إلى اللغة الإنجليزية، وظهر بعنوان (مكة في نهاية القرن التاسع عشر)، وقد طبعت الترجمة لأول مرة في عام ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) في مدينة ليدن، ولقد نالت الترجمة شهرة واسعة في أوائل القرن العشرين بين قراء الإنجليزية، مماثلة للشهرة التي نالها الكتاب بالألمانية عند صدوره، واعتمد عليها أكثر من كتب عن تاريخ مكة في العصر الحديث.

ولقد ذيل المترجم النسخة الإنجليزية بفهرس كامل للأعلام والأماكن المشهورة التي وردت في الطبعة الإنجليزية، وهذا كان من مجهودات المترجم نفسه، كما أضيف إلى الكتاب مجموعة منتقاة من الصور الفوتوغرافية واللوحات، اختارها المترجم من الأطلس السابق ذكره، لبعض مباني مكة والمسجد الحرام وأعيان مكة، وبعض مظاهر حياة السكان اليومية بالإضافة إلى صور الحجاج وغيرهم.

٢ ــ قصة تعريب هذا الكتاب:

لقد عرفت هذا الكتاب عام ١٩٦٨م (١٣٨٨هـ) فقد كنت يومها أحضر دورة تدريبية في مركز تطوير التعليم لما وراء البحار (cedo) بلندن، وقد دعي أحد مدرسي مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، التابعة لجامعة لندن، ليلقي محاضرة عن التعليم وتطوره ومشاكله في دول العالم النامية (المتخلفة)، وبعد انتهاء المحاضرة وعلى مائدة الشاي، تصادف وجودي بجانب المحاضر، وعلى الطريقة الإنجليزية في التعارف، بدأ الحديث عن الطقس، ثم تطور، وسألني عن بلدي وعملي وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث في أمور كثيرة ومتنوعة.

ولقد سألني: هل استمعت إلى تلفاز الـ BBC ليلة أمس، فقد كان فيه فيلماً وثائقياً عن دول النفط، وكنت قد شاهدت الفيلم، وكان فيه مغالطات كثيرة، فقلت له: أتعتقد أنه وثائقي؟ فأدرك معنى كلامي، وقال: هي وجهة النظر الغربية عن العالم غير الغربي،

---

(١) الرسالة: العدد ١٥٨ السنة الرابعة، ١٣٥٥هـ (١٩٣٦) ص١١٥٩ ـ ١١٦٠.

فقلت له: ألا يمكن أن تكون هي وجهة النظر الغربية عن العالم العربي والإسلامي فقط، فكثير من أمور الدول غير العربية، تعرض من خلال وسائل الإعلام، بصورة أفضل مما يعرض به العرب والمسلمون، ولما كان الجو ليس جو نقاش، أدرك كل منا ضرورة تغيير مسار الحديث، فقلت له مجاملاً: لقد كانت المحاضرة ممتازة، وقد أفدت منها كثيراً، وبادرني بالسؤال، لقد تعرضت المحاضرة إلى العديد من الموضوعات، فأيها الذي أعجبك؟ فقلت له: لقد استعرضت تطور التعليم في دول العالم الثالث من وجهة نظر تاريخية، تمثل ما كان عليه التعليم في العالم الإسلامي، قال: لقد أصبت، ولقد اعتمدت في ذلك على ما كتبه المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه، وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع بها بذكر هذا الاسم، وطلبت منه أن يدون لي اسم المرجع ومؤلفه، وقد استطعت الحصول على الكتاب بواسطة زميل لنا في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، فتصفحته سريعاً، فوجدت فيه الممتع والمفيد، غير أني لم أقرأه كاملاً، فقد كنت مشغولاً بأمر العودة إلى الوطن.

وشاءت الظروف أن أصبح نزيل مكة المكرمة، وتابعت ما قيل وما كتب من بحوث في مؤتمر مصادر تاريخ الجزيرة، الذي عقد في الرياض، في الفترة الواقعة بين ٥ ـ ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ، وكان من جملة البحوث التي عرضت في المؤتمر المذكور البحث القيم الذي كتبه الدكتور عبد اللطيف بن دهيش عن مؤلفات سنوك هورخرونيه عن تاريخ الجزيرة العربية، فأعاد إلى ذاكرتي موضوع كتابه عن مكة، وقد بحثت عنه في مكتبة جامعة أم القرى فلم أوفق في الحصول عليه، وسافرت في نهاية العام إلى الولايات المتحدة لقضاء شهر في جامعة متشغن/آن آربر بصفتي أستاذاً زائراً، وقد كانت مكتبة الجامعة تحوي نفائس عديدة من الكتب العربية، وقد وقع في يدي كتاب مكة في نهاية القرن التاسع عشر بالإنجليزية، فقرأته قراءة دقيقة، فوجدت فيه الكثير الممتع والنافع، فجال بذهني ما اقترحه الدكتور ابن دهيش من أمر نقله إلى العربية، وكان مما قاله الدكتور ابن دهيش أن كتاب سنوك هورخرونيه هذا هو دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية لمكة المكرمة، كما أن ما كتبه من الناحية الثقافية في مكة يعتبر فريداً من نوعه، حيث أظهر أن المسجد الحرام كان بعد جامعة، يفد إليها المسلمون من كل حدب وصوب، لتعلم الدين الإسلامي واللغة العربية، على أيدي علماء أفاضل، كان لهم الفضل في المحافظة على مكانة مكة المكرمة، بوصفها مركز إشعاع تشع منه مختلف الدراسات

الإسلامية والعربية إلى كافة أنحاء المعمورة، كما أنه على الرغم من أن كثيراً من الكتب التي كتبها عدد من الكتاب المستشرقين وغيرهم قد ترجم بعضها إلى اللغة العربية، وخاصة خلال السنوات العشرين الماضية، مما مكن كثير من الكتاب من الاستفادة منها، حيث إن كتاب سنوك هورخرونيه عن تاريخ مكة بالذات، قد ترجم الجزء الثاني منه إلى اللغة الإنجليزية، وحبذا لو ترجم في المستقبل القريب إلى اللغة العربية؛ لأن هذه الترجمة سوف تعطي دراسة مفيدة لتاريخ المنطقة في تلك الفترة، وبخاصة ما يتعلق منها بالناحية الثقافية في مكة المكرمة.

على أنه يجب أن نضع بالاعتبار أننا عندما ندرس هذا الكتاب، فإنه لا يخلو من الدس على الإسلام وعدم فهمه الصحيح والعميق، ويجب أيضاً أن نكون حذرين في قبول كل ما يسجله لنا من معلومات عن منطقة الحجاز، إن هذا لا يمنع من دراسة الكتاب واعتباره من المصادر التي كتبت عن هذه المنطقة، ومحاولة تصحيح ما لا يتفق مع الحقيقة أو ما سجل من غير فهم؛ لأنّ رسالة ندوة تاريخ الجزيرة العربية رسالة عظيمة تهدف إلى تقديم دراسة سليمة وصحيحة عن تاريخ الجزيرة العربية بصفتها موطناً للعروبة ومنبعاً لرسالة الإسلام الخالدة[١].

وقد صادف في تلك الأثناء حضور أخي وزميلي الأستاذ معراج مرزا من أمريكا لقضاء الإجازة، وكان يومها مبتعثاً للدراسات العليا، وكنت أعرف الأخ معراج وحبه لجميع ما يتعلق بمكة من تراث ومخطوطات وصور وخرائط وشرائح، فمكتبته عامرة بذلك كله، فعرضت عليه فكرة ترجمة الكتاب فتحمس للموضوع، وكنت قد أحضرت معي صورة من النسخة الإنجليزية، وبدأنا على الفور في نقل القسم الأول من الكتاب، غير أن عودة الأخ معراج إلى بلاد العم سام، جعلتنا نقتسم العمل بحيث يترجم جزءًا وأترجم أنا الجزء الباقي، وقد أنهيت الجزء المخصص بي في صيف عام ١٤٠٢هـ. وحالت ظروف أخينا دون إكمال الترجمة الأولية في أمريكا، وما إن عاد حتى شمر عن ساعد الجد ونقل الجزء الخاص به، وقد أصبحنا نلتقي سوياً لإعادة الصياغة النهائية للموضوع بحيث خرج الكتاب بأسلوب واحد وبفكر اثنين معاً وجهودهما.

وقد اتصلنا بأخينا الدكتور علي عودة شيوخ، وكان قد أقام في ألمانيا مدة خمسة عشر عاماً لطلب العلم والعمل، وعرضنا عليه أمر ترجمة الجزء الأول من الكتاب المتعلق بالتاريخ

---

(١) العرب: مرجع سابق ص٩٤٧ ـ ٩٤٨.

السياسي لمكة المكرمة، فرحب بالفكرة وعكف على نقل الكتاب إلى العربية من اللغة الألمانية.

وفي هذه الأثناء علم الشيخ إبراهيم فودة رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي آنذاك رحمه الله بما كنا نعمل فسارع بأخذ الجزء الثاني من الكتاب، واستصدر أمراً بطباعته في نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، ولم يكن العمل في الجزء الأول قد انتهى، فقد كان بحاجة إلى إعادة صياغته وتحقيق بعض موضوعاته.

أما الآن وقد تسنى لنا إكمال الجزء الأول، فقد بادرنا إلى جمع الجزأين معاً، وإظهارهما معاً في مجلد واحد، يؤرخ للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المدينة المقدسة.

٣ ـ منهجنا في تعريب هذا الكتاب:

٣: ١ ـ يتألف هذا الكتاب من مجموعة دراسات تتعلق بالمدينة المقدسة كما أسلفنا، ففي المجلد الأول ألقى الضوء بصورة مكثفة على تاريخ المدينة المقدسة، من خلال استعراض موجز لتاريخ الإسلام، بحيث ربط المؤلف تاريخ مكة بأوضاع العالم الإسلامي بأسره (الفصل الثاني والثالث)، وجعل ذلك توطئة لدراسة تاريخ مكة بشكل خاص، وتاريخ الجزيرة بشكل عام خلال القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر الهجري.

لقد كان الجزء الأول عبارة عن مقدمة للجزء الثاني، الذي ناقش فيه بإسهاب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لسكان بلد الله الحرام، ولما كان المؤلف معروفاً بدراساته العميقة لأحوال العالم الإسلامي، نراه يعطي القارئ الكثير من التفصيلات، التي لا تخص مكة وحدها، بل تخص جميع بقاع العالم الإسلامي. ونجد هذا الاتجاه بارزاً في جميع فصول الجزء الأول، وكذلك في الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثاني، فعلى سبيل المثال ناقش في الفصل الثاني من الجزء الأول (مكة في عصر الخلفاء) موضوع نشوء الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد الديلم، كما تحدث بإسهاب عن نشوء وانتشار وتوسع حركة القرامطة في العالم الإسلامي، وتحدث بكثير من التفصيل عن ثورات العلويين ضد الدولة العباسية، وعن مجريات الأمور في عاصمة الخلافة بغداد وحواضر العالم الإسلامي الأخرى، زد على ذلك أنه مع حديثه عن مجريات الأمور في مكة لا ينسى ذكر حوادث المدينة المنورة واليمن وبقاع الجزيرة الأخرى.

أما في الفصل الثالث من الجزء الثاني فنراه يتحدث عن تطور العلوم والمعارف عند المسلمين، منذ بداية الإسلام حتى العصر الحاضر، معرجاً على المدارس الفكرية المختلفة والاتجاهات المذهبية التي تطورت خلال تاريخ الإسلام، سواء ما كان منها في مكة أو مختلف بقاع العالم الإسلامي، حتى إننا لنجد أن باب التعليم تضيع فيه حقائق الحركة العلمية في مكة بين ثنايا الاستطرادات الكثيرة في هذا الباب.

أما في الفصل الرابع، فالمؤلف يفيض في شرح كثير من التفصيلات عن السكان في جزر الهند الشرقية، حتى لكأنك تشعر وكأنه يتحدث عن أندونيسيا وما حولها أكثر مما يتحدث عن مسلمي هذه الديار الموجودين في مكة.

لقد اقتضانا ذلك الخروج عن النسق الذي جاءت به المعلومات في الأصل في بعض الأحيان فقد اضطررنا إلى تقديم بعض الفقرات أو تأخيرها ليتسق النص، مع المحافظة على مضمون النص ومعناه.

٣ : ٢ ـ إن مشكلة الترجمة تكمن في التأرجح بين الأمانة في نقل الكلمات، والرغبة في اتساقها في جمل لها معنى، لا يخرج عن النص أو يهمل القصد، وقد كان هدفنا أن نتقيد بنقل المعنى المراد، دون أن نبتعد كثيراً عن عبارات المؤلف وتفاسيره، غير أنه في بعض المواضع يظهر جلياً أن في النقل الحرفي تصلباً يقصي المعنى عن الذهن، والحقيقة عن الإدراك، الأمر الذي كان لا بد معه من إعادة صياغة بعض الفقرات، فرضتها ضرورة أمانة نقل المعاني. ويجب أن نسارع إلى القول بأن هذا كان في مواضع قليلة ومحدودة في الكتاب.

٣ : ٣ ـ لقد راعينا في الترجمة أن نرجع بالنصوص المقتبسة من المؤلفات العربية إلى لسانها الأصيل بقدر الإمكان، وأن نرجع بالاصطلاحات العربية إلى أصولها الجارية في المصطلح المكي، وقد ساعدنا على ذلك أن المؤلف كان يذكرها بلفظها العربي مكتوباً بالحروف اللاتينية، وقد تحرينا تحقيق أسماء الأعلام والمعالم، وجرينا على إثبات ما رأينا لزومه من إيضاحات أو نصوص في حواشي الصفحات التي هي من إضافاتنا وتعليقاتنا، أما تعليقات المؤلف في الحواشي فقد أشير إليها في نهايتها بكلمة (المؤلف).

وكان عمدتنا في الحواشي، الكتب المؤلفة في موضوعات الكتاب نفسها، وخاصة المؤلفات التي تبحث في تاريخ البلد الحرام، فضلاً عن كتب التراجم والبلدان، وكتب التاريخ الإسلامي، وقد أشير إلى أسمائها ومؤلفيها في مظانها من البحث.

٣: ٤ ـ إن هذا الكتاب ـ كما سبقت الإشارة ـ هو مجموعة من أبحاث، قام المؤلف بكتابتها عن المدينة المقدسة، ولا تخلو هذه الأبحاث من نظرة خاصة، وتلك الخصوصية تكاد تسم المنطق الغربي في محاولاته لتفهم الوقائع الحضارية في العالم الإسلامي.

إن هذه النظرة الخاصة، هي إحدى التعبيرات عن فهم الغرب لهذه المنطقة من العالم، أو عدم الفهم، الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى حد قلب الحقائق، برغم كل ادعاءات الموضوعية والمنهجية العلمية، إن الذي بين أيدينا وجهة تفكير عالم أوروبي كبير، وهي وإن خالفت بعض آرائنا فهي قمينة بأن تقرأ بعناية فائقة. فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال، إذ ليس من حقنا أن ننتظر من باحث غير مسلم أن يتبنى كل معتقداتنا.

وغني عن البيان أن حقنا في تبيان صحة أو زيف ما يكتب عنا فرض علينا محاورة الكاتب حول بعض القضايا، فالكاتب يكتب عنا، وله الحق فيما يكتب، ولنا الحق فيما نقبل وفيما نرفض مما يكتب. وقد أبقينا على ما لا نوافق المؤلف عليه في المتن، واستدركنا عليه في الحاشية، التي يمكن للقارئ أن يلحظها في ذيل صفحات الكتاب.

وهنا يجب أن نؤكد أن تلك الاستدراكات هي آراء شخصية، وليست إلا مجرد الإشارة لتبين اختلافنا مع وجهة نظره، وبلغت هذه الاستدراكات حداً من الإيجاز جعلنا نكتفي في بعضها بوضع إشارتي تعجب واستفهام؟! فقط في نهاية عبارة المؤلف.

٣: ٥ ـ من الجدير بالذكر أننا التزمنا بالصلاة والسلام على الرسول الكريم حيثما ورد اسمه، وكذلك الترضي عن الخلفاء الراشدين، وأضفنا صفتي المكرمة والمنورة للمدينتين المقدستين مكة والمدينة في معظم مواطن ورودهما، كما وضعنا تعبير الدعوة السلفية بديلاً للحركة الوهابية.

ونود أن نستميح القارئ العربي عذراً أننا حذفنا بعض الجمل والعبارات التي لا تليق بمكانة المدينة المقدسة، أو التي لا تتفق مع الذوق العربي، أو التي تمس خصوصيات بعض الأسر المكية، وهي على العموم مواطن قليلة.

٣: ٦ ـ لقد وضع المؤلف جميع التواريخ بحسب التقويم الميلادي، ونحن بدورنا أضفنا التقويم الهجري حيثما ورد التقويم الميلادي، ويجب أن نشير إلى أن بعض السنوات الميلادية تقع أحداثها ضمن سنتين من السنوات الماضية أو العكس، ولما كنا في بعض الأحيان لا

نستطيع تحديد الشهر الذي وقعت به، فربما يكون هناك زيادة أو نقص، مقداره سنة واحدة في التاريخ الهجري المثبت، وعلى العموم فقد وقع ذلك في مواطن قليلة، لأننا كنا باستمرار نرجع إلى المصادر العربية للتحقق من تاريخ وقوع الحوادث.

٣ : ٧ ـ لقد أطلق المؤلف على كتابه حينما وضعه اسم **(مكة)** كعنوان رئيس للكتاب، وقد آثرنا أن يكون العنوان بلغة الضاد **(صفحات من تاريخ مكة المكرمة)**، وكما ذكرنا سابقاً فقد ناقش الجزء الأول منه الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمدينة المقدسة منذ البعثة النبوية الشريفة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، أما الجزء الثاني فقد ناقش الأوضاع الاجتماعية في المدينة المقدسة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

وحين ترجم الجزء الثاني إلى الإنجليزية كان عنوانه (مكة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي)، وعندما ظهرت الطبعة العربية الأولى للجزء الثاني، حملت اسم **«صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري»**، وقد دعانا إلى هذه التسمية كون الفترة التي تحدث عنها المؤلف، ووصف دقائق أحداثها وتفصيلاتها، كانت تمثل ما كانت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية في مكة، في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، لذا آثرنا أن تربط هذه الوقائع والأحداث بتاريخ حدوثها، لقد كتب هورخرونيه كتابه في السنتين الأوليين من القرن الرابع عشر الهجري، غير أن ما كتبه كان يمثل طراز الحياة ونسقها في القرن السابق، وهو القرن الثالث عشر الهجري، ومن الجدير بالذكر أن قسماً كبيراً من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية التي تطرق إليها المؤلف أصبحت الآن طي النسيان، إن ما بقي قد تغير هو الآخر، وأصابه تعديل كبير ليتلاءم ومقتضيات العصر، وإذا أردنا أن نعرف كيف كنا؟ وإلى أين وصلنا؟ وأين نحن الآن؟ نفتح هذه الصفحات للنظر فيها، فالتاريخ للعبرة والخبرة، وأظن لو أننا قلبنا هذه الصفحات المطوية، لحمدنا الله على ما آلت إليه أمورنا، وما نحن فيه من موفور النعمة، وسلامة العقيدة، والسير في الطريق الصحيح.

ويعد هذا هو كتاب مكة لـ (هورخرونيه) بما له وما عليه، نضعه أمام القارئ العربي، وهي تجربة لعالم غربي سبر الحياة في المشرق، فقد كانت له اهتمامات علمية في الموضوعات الإسلامية، وخبرات عملية واسعة في الشرق الإسلامي، سواء في مكة المكرمة أو جزر الهند الشرقية، وكان له هدف سياسي بجانب هدفه العلمي الذي برع

فيه.. ألا وهو خدمة بلده هولندا وتقديم المشورة لها في السبل التي تمكنها من البقاء أطول فترة ممكنة في بلاد الإسلام، وهي تجربة لا شك أنها فريدة، غير أن وجهة نظر المؤلف في الأحداث وجهة خاصة، وربما لا تتفق مع وجهات نظر الآخرين، ونحن ندعو المؤرخين والباحثين، وسكان مكة المكرمة ممن عرفوا طرفاً من هذه الأحداث أن يدلوا بدلوهم في مناقشة آراء الباحث وأفكاره؛ لأن ذلك سيساعد على تبيان الأحداث الحقيقية وتأصيلها.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ. د. محمد محمود السرياني   د. معراج نواب مرزا

مكة المكرمة ـ العزيزية

غرة رمضان ١٤١٨هـ

صفحات من تاريخ مكة المكرمة

الجزء الأول

دراسة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية
من البعثة النبوية الشريفة
وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري

الفصل الأول

مدينة مكة المكرّمة

الموقع

تقع مكة المكرمة في وادٍ ضيق قاحل، وصفه القرآن الكريم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٧]. وقد دخل هذا الوادي سجل التاريخ العالمي عن طريق الرسول الكريم محمد ﷺ[١].

حظي هذا الوادي بوصف دقيق في كتب الرحلات العربية منذ ما يزيد على ألف عام، وقد سهل هذا للرحالة الأوربيين، الذين دخلوا متنكرين إلى مكة المكرمة، مهمة كتابة الوصف الطبوغرافي للمدينة المقدسة، ولولا ذلك لما تسنى لبيركهارت المشهور[٢] أن يرسم عام ١٨١٤م مخططاً لهذه المدينة.

---

(١) مكة المكرمة مدينة الإسلام الأولى تقع على بعد ٨٠ كم من ميناء جدة على خط طول ٣٩ درجة و ٤٩ دقيقة و٢٥ ثانية شرقاً ودائرة عرض ٢١ درجة و٢٥ دقيقة و٣٠ ثانية شمالاً. ويزيد عدد سكانها على المليون نسمة. وقد قامت المدينة في الأصل على وادي إبراهيم حول الكعبة المشرفة ثم انتشرت على سفوح الجبال والشعاب المطلة عليه.
وقد عرفت منذ أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم عليه السلام، إلا أن هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يمكن اعتبارها البداية الجلية لتاريخ مكة المكرمة. كانت مركزاً مهمّاً لتجارة القوافل منذ ما قبل الإسلام، كما كانت الكعبة البيت الذي رفع قواعده إبراهيم للتوحيد مهداً للأوثان في زمن الجاهلية، ولد بها الرسول ﷺ ومن بطاحها انتشر الإسلام. ومنذ ذلك الوقت فهي قبلة المسلمين الأولى، حيث تحوي المسجد الحرام الذي يضم الكعبة المشرفة والحجر الأسود ومقام إبراهيم وبئر زمزم، وبجانبها المشاعر المقدسة (منى، مزدلفة، عرفات). ويقصدها في كل عام ما يزيد على مليوني نسمة من مختلف بقاع العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام.

(٢) يوهن لودفيك بيركهارت ١١٩٩ ـ ١٢٣٢هـ (١٧٨٤ ـ ١٨١٧م) ويسميه الإنجليز «جون لويس»: مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان، ودرس في ليبسيك وغوتنجن في ألمانيا. وزار إنجلترا سنة ١٨٠٦م ودرّس في لندن وكمبردج. وتجنس بالجنسية الإنجليزية. ورحل إلى حلب (بسورية)، فتعلم العربية، وقرأ القرآن، وتفقه بالدين =

إن مخطط بيركهارت لا يزال يعتبر حتى الآن (١٨٨٥م/١٣٠٣هـ) دليلاً دقيقاً للقارئ الأوربي المغلقة أمامه أبواب المراجع العربية. وقد تبنيته في كتابي هذا بعد إجراء بعض التصحيحات عليه[1]. (انظر شكل رقم ١).

التصوير الفوتوغرافي

في السنوات الأخيرة دخل التصوير الفوتوغرافي، حيث ساعد على توضيح بعض المعالم المهمة في المدينة المقدسة، وخاصة معالم المسجد الحرام. إذ أخذ ضابط تركي[2] قبل ثمان سنوات ١٨٨٠م (١٢٩٨هـ)، بعض الصور الفوتوغرافية لمعالم المدينة. وقد قمت أنا بأخذ عدد من الصور بواسطة آلة تصوير كانت لدي. وقد ساعدت هذه الصور في إخراج

= الإسلامي. وزار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمالي السودان، ثم مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام وتسمى بإبراهيم بن عبد الله، فأدى مناسك الحج وقضى بمكة ثلاثة شهور، ثم عاد إلى القاهرة سنة ١٨١٥م، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في يونيه ١٨١٦م، وكان يعتزم السفر إلى فزان، ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة، موصياً بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كمبردج. وكتاباته كلها تدور حول رحلاته. كرحلته للشام والأراضي المقدسة، و«رحلة لجزيرة العرب» و«معلومات عن البدو والوهابيين» و«رحلة للجزيرة مع مذكرات عن حياة البدو». وقد تولت الجمعية الإفريقية بإنجلترة نشرها. وله بالعربية «أمثال عربية ـ ط» مع ترجمتها إلى الإنجليزية. (الأعلام، ج٨، ص٢٦٤).

(١) إن الشكل رقم (١) يمثل التصحيح الذي أجراه سنوك هورخرونيه عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) على الخريطة التي رسمها بيركهارت في عام ١٨١٤م (١٢٣٠هـ)، والتي تعتبر أول خريطة لمكة المكرمة، وكان قد أخذ أبعادها بالخطوة، وهي من أفضل الخرائط للمدينة المقدسة حتى عام ١٩٤٧م (١٣٦٧هـ). وقد استعملها كل من سنوك، ومعظم من جاء بعده، وكتب عن المدينة المقدسة من الرحالة والمستشرقين.

(٢) هذا الضابط هو محمد باشا صادق، وكان من ضباط الأركان في الحكومة العثمانية، وقد ألف كتاب «دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج»، والكتاب مطبوع بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣١٣هـ. وقد عمل في مكة بصفته مهندساً للحرم الشريف، ويبدو أنه وفد إلى مكة بطلب من عثمان نوري باشا والي الحجاز، وقد أسهم في عدد من الإصلاحات في المسجد الحرام، حيث أمر بهدم قبة السقاية وقبة الساعات، كما زحزح مكان المقام الحنبلي، وأصلح محراب المقام الحنفي، وذلك لأن هذه المباني كانت تعيق حركة المصلين. (مغربي، ١٤١٠هـ، ص١٢١).

كثير من الأشكال الموجودة في الأطلس المرفق مع كتابي هذا. وقد نوهت إلى ذلك في محاضرتي التي ألقيتها في برلين عام ١٨٨٧م[١].

مداخل مكة وأسوارها

هناك ثلاثة مداخل للمدينة المقدسة، الأول من الشمال، والثاني من الشمال الغربي، والثالث من الجنوب. ولقد كانت مكة المكرمة في القرن التاسع الهجري محاطة بالأسوار المزودة بالبوابات، غير أن هذه الأسوار كانت كثيراً ما تتداعى نتيجة للصراعات الداخلية في المدينة، ثم يعاد بناؤها من جديد[٢].

وممن اهتم بإعادة بناء هذه الأسوار الشريف أبو نمي (٩٤٧ ـ ٩٧٤هـ)، الذي قام بتحصين المدينة وإعادة بناء أسوارها. وفي بداية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) كان دور هذه الأسوار مهماً، غير أنها قد فقدت أهميتها في نهاية هذا القرن. وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) لم يكن ليوجد من هذه الأسوار سوى بقاياها المهدمة.

إن وجود البندقية والمدفع كبديل للقوس والرمح والحربة، قد جعل من وجود الأسوار، وإغلاق الأبواب، أمرا لا ضرورة له، بيد أن هناك ثلاثة[٣] حصون على الجبال المحيطة بمكة، تحميها ضد أي هجوم قد تتعرض له.

---

(١) انظر:

Verhand Lungen der Geselschaft Fur Erdkunde Zu Berlin, Band xiv, no 3, 5, 143 ft.

(٢) كانت مكة المكرمة في قديم الزمان مسورة، بجهة المعلاة، وكان بها جدار عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر إلى الجبل المقابل له، وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد... وكان في جهة الشبيكة أيضاً سور ما بين جبلين متقاربين، بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة، وكان ذلك السور فيه بابان بعقدين... وكان سور في جهة المسفلة في درب اليمن (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣ وانظر أيضاً الجزء الثاني ص٢٧٢ ـ ٢٧٣، ٢٣٠، ٢٩٨، ٣٠٩) والباب الذي في السور الشمالي يعرف بباب المعلاة، أما الثاني في جهة الشمال الغربي فيعرف بباب الشبيكة، ولا تزال المنطقة هنا تعرف بحارة الباب، أما الباب الثالث فهو في أسفل مكة من الجهة الجنوبية، ويعرف بباب المسفلة.

(٣) هذه الحصون هي القلعة التي على جبل خليفة بأجياد، مقابل المسجد الحرام من الجهة الجنوبية، أمام باب الملك عبد العزيز الحالي، وقد بناها الشريف سرور عام ١١٩٦هـ، والقلعة التي على جبل هندي وكانت بالقرب من مكان مدرسة عرفات المتوسطة الحالية ثم أزيلت، وقد بناها الشريف غالب بن مساعد عام ١٢٢١هـ، والثالثة هي قلعة جبل لعلع (قلعة فلفل) وهي بالقرارة، وقد بناها الشريف غالب بن مساعد عام ١٢١٥هـ.

المسجد الحرام

يقع المسجد الحرام وسط أعرض منطقة في الوادي[1]. ومكان هذا المسجد لا يجوز تغييره، وهو غير قابل للتوسعة ولا يحتاج اليها[2] .ولقد قامت حول هذا المكان الحياة منذ زمن بعيد. وتتوسط الكعبة المشرفة المسجد الحرام (طولها ١٢متراً، وعرضها ١٠ أمتار، وارتفاعها ١٥ متراً) وهي مبنية بحجارة غير مصقولة، أخذت من جبال مكة المكرمة[3]. وفي الزاوية الشرقية يوجد الحجر الأسود. أما في الجهة الجنوبية فيوجد الركن اليماني، على ارتفاع خمسة أقدام. ويستطيع الفرد اثناء الطواف حول الكعبة أن يلمسهما باليد، أو أن يقبل أكثرها قدسية، وهو الحجر الأسود.

الكعبة المشرفة

في بداية حياة الرسول محمد ﷺ كان يعتبر هذا المكان المقدس بناءً قديماً، ولايعرف الكثير عن نشأته، غير أن الرواية التي كشف النقاب عنها

---

(١) يعرف الوادي بوادي إبراهيم.

(٢) في زمن المؤلف كانت معظم مساكن مكة تقع بجوار الحرم المكي الشريف وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم، ولم يكن هناك إمكانية لتوسعة المسجد إلا بهدم معظم هذه المباني التي تشكل قلب المدينة المقدسة. أما في عصرنا الحاضر فقد جرت توسعات متعاقبة للحرم المكي الشريف، منها توسعة الملك عبد العزيز رحمه الله في عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. وكذلك التوسعة الثانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز التي بدأت عام ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. وقد أصبح الحرم بعد هذه التوسعة يستوعب أكثر من مليون مصلٍ، كما عملت ساحات إضافية حول جهات الحرم المختلفة لزيادة الاستيعاب.

(٣) نشر مركز أبحاث الحج مخططاً تفصيلياً لأبعاد الكعبة المشرفة، وجاء في هذا المخطط، أن ذرع الكعبة هو على النحو التالي:

١ ـ الضلع الممتد من الحجر الأسود إلى الركن اليماني يبلغ طوله ١٠م و ١٨سم.

٢ ـ والضلع المقابل له المطل على الحطيم الذي فيه الميزاب يعادل ٩م و ٩٠سم.

٣ ـ أما الضلع الممتد من الحجر الأسود مروراً بباب الكعبة وانتهاءً بالركن العراقي، فيبلغ طوله ١١م و ٦٨سم.

٤ ـ ويبلغ طول الضلع المقابل له، الممتد بين الركن اليماني والركن الشامي ١٢ متراً و٤سم وهذه القياسات لا تشمل الشاذروان.

أما ارتفاع الكعبة فيبلغ ١٣ متراً من مستوى المطاف (جامعة أم القرى، مركز أبحاث الحج، دراسة الحركة بالمطاف، محرم ١٤٠٨هـ، ص٥٩).

لأول مرة، من قبل الرسول محمد ﷺ، يوم عقد العزم على أن يعيد هذا البيت (الذي كان مقراً للأوثان) إلى حظيرة الإسلام، أظهرت أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا هذا المكان[1].

بناء الكعبة في عهد ابن الزبير

اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في القرن الأول الهجري حول الشكل العام الذي يجب أن تكون عليه الكعبة. إذ أراد الأمويون إبقاء شكل الكعبة على ما كانت عليه، في حين كانت المعارضة بقيادة عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه قد عارضت ذلك، معتمدة على أحاديث نبوية. وحسب رأي ابن الزبير كان يجب بناء بابين للكعبة بدلاً من باب واحد، أحدهما في الشمال الشرقي، والآخر في الجنوب الغربي، على مستوى سطح الأرض. لا كتلك الأبواب المرتفعة التي يصعد إليها المرء بواسطة درج. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من رأيه أن يضاف جزء من حجر إسماعيل إلى بناء الكعبة.

وفي عام ٦٨٤م (٦٥هـ) عندما أصبحت مكة عاصمة الخلافة المعارضة، تحت قيادة عبد الله بن الزبير، نفذ خطته فيما يجب أن تكون عليه الكعبة، حيث أعاد بناءها على قواعد إبراهيم. غير أن هذا البناء قد أحرق أثناء محاصرة مكة بواسطة القائد الأموي الحجاج بن يوسف، الذي قضى على ابن الزبير، وأعطى الكعبة عام ٧٠٣م شكلها الذي كانت عليه في السابق[2].

---

(١) إن تاريخ الكعبة كان معروفاً بكل تفاصيله لدى عرب الجاهلية. والرواية التي كانت تقول إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا الكعبة المشرفة لم يأت بها النبي محمد ﷺ، بل وردت في القرآن الكريم، وكانت معروفة لدى العرب آنذاك. ولو كانت الرواية القرآنية على خلاف ما يعهده العرب، لاستنكرها هؤلاء. وهذا مما يدل على أن العرب كانت لهم سابق معرفة بتأسيس البيت على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على خلاف ما يقوله المؤلف.

(٢) يبدو أن تاريخ ٧٠٣م ليس صحيحاً؛ لأن الحجاج أمر بهدم إضافات ابن الزبير بعد وفاته مباشرة، ومن المعروف أن ابن الزبير قتل في ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، ويذكر الذهبي أن إعادة بناء الكعبة كان عام ٧٣هـ، أما ابن الأثير فقد جعله ٧٤هـ، وهذا التاريخ يوافق ٦٩٢ ـ ٦٩٣م (انظر إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام ص١٥٩).

ومنذ ذلك التاريخ فقد عُدّ الحِجْر تابعاً للكعبة. غير أنه ليس جزءًا من بنائها. ولم يتجرأ أحد من الأمراء أن يهدم الكعبة لإعادة بنائها من جديد، بل اقتصر العمل فيها على التحسينات الضرورية[1].

إصلاح وترميم الكعبة المشرفة

وفي عام ١٦١١م (١٠١٩هـ) وضعت تقوية لجدران الكعبة، عبارة عن حزام من النحاس المذهب لمنع انهيار الجدران. أما في عام ١٦٣٠م (١٠٣٩هـ) فقد انهارت بعض جدران الكعبة نتيجة مياه السيول[2]، فأعيد بناء الكعبة كلياً مع مراعاة استعمال أقل عدد ممكن من الحجارة الجديدة،

---

(١) حول تاريخ بناء الكعبة في العصر الإسلامي انظر الطبري ج٢ ص٥٣٨، ٥٩٧، وكذلك انظر تاريخ الكعبة المعظمة ـ عمارتها وكسوتها وسدانتها ـ لحسين عبد الله باسلامة ١٤٠٢هـ، وكذلك إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام لمحمد صالح الشيبي تحقيق إسماعيل أحمد حافظ، ١٤٠٥هـ.

(٢) تعرضت الكعبة للسيول وبخاصة جداراها الشرقي والغربي قبل سيل ١٠٣٩هـ، الذي أدى إلى عمارة مراد الرابع، وذلك أنه في أول القرن الحادي عشر الهجري تشقق الجدار الشامي، وزاد تشققه اتساعاً على إثر سيل دخل المسجد سنة ١٠١٩هـ، وقد دخلت المياه إلى جوف الكعبة نفاذاً من سطحها، وتصدع بذلك جدار الحِجْر، وكذا الجداران الشرقي والغربي، فقرر السلطان أحمد هدم البيت، وأن يجعل بدل حجارته المتصدعة حجارة، ملبساً واحداً منها بالذهب والآخر بالفضة، فمنعه علماء الحرم، وأشاروا بنطاق يلم ما تصدع، فصنع نطاقاً من نحاس أصفر مغلفاً بالذهب، تكلف ٨٠ ألف دينار، وركب سنة ١٠٢١هـ.
أما سيل ١٠٣٩هـ الذي نحن بصدد الحديث عنه، حدث يوم الأربعاء ١٩ شعبان من ذلك العام، ودخل السيل المسجد من جهة باب الزيادة، حيث بلغ ارتفاعه أطواق قناديل المطاف. وعلا الكعبة بارتفاع ذراعين عن قفل بابها (بذراع العمل)، ومات بسببه نحو ألف فرد، أكثرهم من الأطفال، الذين يقرؤون القرآن مع فقهائهم، ورغم تعلق أكثرهم بالأماكن المرتفعة وسلالم الحرم إلا أن الماء وصل إليهم وأغرقهم.
وفي آخر نهار اليوم التالي من دخول السيل انهار الجدار الشامي، ومن بعده جزء من الجدار الشرقي، ولم يبق منه سوى حده الشامي وعليه قوام الباب، وبعض من وجهي الجدار الغربي، وجزء من السقف فيما يتصل بالجدار الشامي، وكذلك سقطت درجة السطح. فأمر الشريف برفع الميزاب والمعاليق، وتم التحفظ عليها. كما تم تسوير ما حول الكعبة بجذوع النخيل لاقتراب موسم الحج.
أرسل شريف مكة إلى والي مصر من قبل السلطنة العثمانية «محمد علي الألباني» بخبر السيل الذي داهم مكة والكعبة، فكلف الوالي «رضوان آغا» في سرعة مباشرة الإصلاح، دون انتظار تعليمات الباب العالي. فتوجه إلى مكة وباشر الإصلاح بعد الأخذ بمشورة العلماء وفتاويهم. (إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، ص١٦٣ ـ ١٦٤).

ومنذ ذلك التاريخ بقيت الكعبة على ما هي عليه، إذ تعد واحدة من أبرز المعالم الأثرية المحفوظة بعناية في الجزيرة العربية[1].

---

(١) في العهد السعودي الزاهر جرت عدة إصلاحات وترميمات على الكعبة المشرفة منها:
أ ـ في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله جرى تغيير باب الكعبة المشرفة، وذلك في عام ١٣٦٣هـ.
ب ـ في عهد الملك سعود رحمه الله صدر أمر ملكي في آخر محرم ١٣٧٧هـ يقضي بعمارة وتجديد سقفي الكعبة المطهرة وترميمها وإصلاحها وخلاصة الأمر ما يلي:
١ ـ نقض السقف الأعلى للكعبة المشرفة بتاتاً وتجديد عمارته.
٢ ـ تجديد السقف الأدنى لقدم أخشابه وتآكلها.
٣ ـ عمل قاعدة (ميدة) ـ بكسر الميم ـ بين السقفين تحيط بجميع جدرانها.
٤ ـ ترميم الجدران الأصلية ترميماً جيداً.
٥ ـ إصلاح الرخام المحيط بجدران الكعبة من باطنها.
٦ ـ ترميم الدرج الذي في باطن الكعبة المؤدي إلى سطحها وإصلاحه.
٧ ـ يجب مراعاة عدم بروز أي شيء من التعمير والإصلاح عن الكعبة المشرفة وجدرانها وأطرافها.
٨ ـ عدم تذهيب أو تفضيض أو تمويه سقف الكعبة المطهرة.
٩ ـ جميع الترميم والتعمير يكون بالمواد البلدية (المحلية).
١٠ ـ جميع ما يصرف على الكعبة المشرفة يكون من الكسب الحلال الطيب. (الكردي، ١٣٨٥هـ، ج٤ ص٦٨).
وقد تم تنفيذ الأمر السامي المذكور خلال الفترة من ٢١/٦/١٣٧٧هـ إلى ١١/٨/١٣٧٧هـ حيث قام الملك سعود رحمه الله بوضع آخر حجر من الرخام في جدار الكعبة المشرفة من الداخل. وهو الحجر الذي نقش فيه اسمه وتاريخ هذه العمارة.
جـ ـ في عهد الملك فيصل رحمه الله جرى تغيير عضادتي (الحلق) باب الكعبة المشرفة ١٣٩١هـ.
د ـ في عهد الملك خالد رحمه الله تم تغيير باب الكعبة المشرفة القديم ببابها الحالي وذلك في عام ١٣٩٩هـ.
هـ ـ بناءً على توجيهات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز عام ١٤١٦هـ تم ترميم شامل لجدار الكعبة المشرفة من الخارج حيث تم تشذيب الحجارة وتسويتها وإزالة النتوءات منها، إضافة إلى تعبئة بعض الفراغات التي فيها، وتمت إزالة المادة اللاحمة (النورة) من بين الحجارة الخارجية، ووضع بدلها مادة إسمنتية خاصة قوية، وكحلت على هيئة خطوط بارزة بيضاء رأسية وأفقية.
و ـ وفي عهد خادم الحرمين الشريفين، في عام ١٤١٧هـ جرى التجديد الشامل للكعبة المشرفة، شمل سقفي الكعبة والأعمدة الثلاثة، وحوائط الكعبة من الداخل، والأرضيات ورخام السطح والحوائط والسلم الداخلي، والشاذروان، وجدار حجر سيدنا إسماعيل، =

هدايا الكعبة

لقد كان تجميل الكعبة وتزيينها وزخرفتها أمراً جديراً بالإطراء، ومنذ العهد الجاهلي كانت الهدايا تمنح إلى الكعبة، حيث تعلق بداخلها، ومع قدوم الإسلام خَفَّت هذه العادة. وكان بنو شيبة سدنة الكعبة في الجاهلية والإسلام، يظهرون للناس أن الاستفادة من هذه الهدايا من قبل الناس، أكثر أهمية من بقائها بداخل الكعبة. ومع هذا فقد استمر الإهداء ولم ينقطع. وقد حدث في التاريخ الإسلامي أن تجرأ بعض العصاة على سرقة كنوز الكعبة. كما قام بعض الأمراء بسك النقود من هذه المحفوظات في أوقات الأزمات. ولم تنقطع عادة إهداء المصابيح التي تعلق في الكعبة حتى عهد قريب. ولقد كان حكام العالم الإسلامي الذين يبسطون سيطرتهم الاسمية على الحجاز، يقومون بالتجديدات الضرورية، كتجديد بلاط الأرضية، أو تغيير الأبواب، ونحو ذلك. وغالباً ما كان يغطى الباب إضافة إلى الميزاب بصفائح الذهب والفضة، علماً بأن هذه الصفائح الذهبية كانت تتعرض أحياناً إلى السرقة.

كسوة الكعبة

لقد بقيت كسوة الكعبة مستمرة منذ الجاهلية، فقد كسا الخلفاء الأولون الكعبة بأقمشة مصرية فاخرة بدل الأقمشة اليمانية، كما كسيت الكعبة بأقمشة حريرية حمراء وصفراء وخضراء أو بيضاء طوال العهود الإسلامية المختلفة. وكان الأمراء وحكام العالم الإسلامي يتنافسون على هذا الشرف الكبير[1].

وفي بداية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) كان الخليفة يرسل ثلاث كسوات في كل عام، غير أنه في عصر ضعف الخلافة العباسية، لم تكن الكسوة تصل بانتظام، وفي عهد سلاطين المماليك الشراكسة الذين

= وميزاب الكعبة المشرفة.

وقد بدأ العمل في ١١/١/١٤١٧هـ، وانتهى فجر يوم الأربعاء ٢/٧/١٤١٧هـ. وقد تشرف ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبد الله بن عبد العزيز صباح يوم الثلاثاء ٨/٧/١٤١٧هـ بغسيل الكعبة المشرفة وتعطيرها إيذاناً بانتهاء جميع أعمال التجديد والترميم في الكعبة المشرفة.

(١) انظر أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣١، ٦٠، ١٠٤، ١٤٠ ـ ١٤٦، ١٧٣. وكذلك ج٢ ص٥٤، ٢٥١، ج٣ ص٦٧، ٩٩، ١٧٣، ٢١٢، ٢٢١.

حكموا مصر حتى عام ١٥١٦م (٩٢٢هـ) كانت ترسل كسوة جديدة حينما يتسلم أحد السلاطين مقاليد السلطة في البلاد. ومنذ أن حل العثمانيون في السلطة أصبحت الكسوة تأتي سنوياً من مصر، وهي عبارة عن ثوب من القماش الأسود المقصب، مع حزام منسوج من خيوط الذهب، على ارتفاع ثلثي الارتفاع الكلي. وكانت التكاليف تسدد من ريع أراضٍ موقوفة في وادي النيل لهذا الغرض[١].

---

(١) استمر قدوم كسوة الكعبة المشرفة من مصر سنوياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى في عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م، حيث دخلت الحكومة العثمانية في تحالف مع ألمانيا ضد إنجلترا وحلفائها، وخشيت الحكومة العثمانية ألا ترد الكسوة من مصر؛ لأن إنجلترا كان لها وجود كبير في مصر آنذاك. فعملت كسوة خاصة وأرسلتها بالسكة الحديدية براً من إسطنبول إلى المدينة المنورة. غير أن الحكومة المصرية لم تمنع إرسال الكسوة المعتادة واستمرت في إرسالها حتى عام ١٣٤١هـ. فبقيت تلك الكسوة العثمانية بالمدينة المنورة.
وفي عام ١٣٤١هـ وقع خلاف بين الحكومة المصرية والشريف حسين ملك الحجاز آنذاك، عقب إعلانه الثورة على الحكومة العثمانية، حيث منع الشريف حسين البعثة الطبية المرافقة للمحمل من دخول مكة المكرمة، فرجع المحمل من جدة وذلك في أواخر شهر ذي القعدة، من عام ١٣٤١هـ، فلما رأى ذلك الشريف أحضر الكسوة التي كانت موجودة بالمدينة عن طريق رابغ، ومنها إلى جدة، وكسيت بها الكعبة المشرفة سنة ١٣٤١هـ.
وفي عام ١٣٤٢هـ احتاط الشريف حسين للأمر، فعمل كسوة في العراق من قبيل الاحتياط، غير أن الكسوة جاءت كالعادة من مصر، فبقيت تلك الكسوة الاحتياطية محفوظة، فلما دخل الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ مكة، امتنعت الحكومة المصرية من إرسال الكسوة، فكساها الملك عبد العزيز بالكسوة الاحتياطية التي صنعت في العراق. ولما استتب الأمر للملك عبد العزيز في الحجاز أرسلت الكسوة من مصر في عام ١٣٤٤هـ. غير أنه صاحب تلك الكسوة وقوع بعض الأحداث من حرس المحمل في موسم حج ذلك العام.
وفي عام ١٣٤٥هـ امتنعت الحكومة المصرية من إرسال الكسوة فصدرت تعليمات الملك عبد العزيز رحمه الله بعمل كسوة سريعة محلية في ذلك العام. وأصدر أوامره إلى وزير المالية لإنشاء دار خاصة لعمل كسوة الكعبة في مكة المكرمة. وفي نهاية شهر ذي القعدة ١٣٤٦هـ تم عمل الكسوة الشريفة في مكة المكرمة على شكل الكسوة التي كانت تأتي من مصر. واستمرت الكسوة تصنع في مكة المكرمة حتى عام ١٣٥٧هـ. وفي تلك الأثناء رغبت الحكومة المصرية في إرسال الكسوة مرة ثانية، ولا سيما أن هناك أوقافاً خاصة في مصر ينفق منها على كسوة الكعبة. فاستجابت الحكومة السعودية لذلك الطلب، واستمر الحال حتى عام ١٣٨٢هـ، حين أعيد العمل في المصنع الموجود في مكة مرة ثانية، ومنذ ذلك التاريخ تصنع الكسوة في مصنع خاص بها في مكة المكرمة.

أما الكسوة القديمة فتؤول إلى سدنة الكعبة بني شيبة الذين يتاجرون بها، فيبيعون بعضها، ويهدون بعضها الآخر، لقاء أعطيات وفيرة[١].

بـئـر زمـزم

لقد كان وجود بئر زمزم بجوار الكعبة الحافز الأول لاستيطان القبائل حول البيت الحرام منذ زمن قديم. وإذا كان تركيب ماء زمزم القديم هو نفسه تركيب ماء زمزم اليوم، فمن الممكن أن تأثيره المسهل قد جعل منه مقدساً[٢]. ومنذ زمن الرسول ﷺ تؤكد الروايات بأن طعم ماء زمزم كما هو عليه الآن.

وقد وردت روايات تاريخية تتحدث أن ماء زمزم ماء عسر، وطعمه غير مستساغ[٣]، ولدينا روايات تاريخية حول التغير المستمر في الطعم[٤]، وهذا ما أثبتته التحاليل التي قام بها الدكتور P.van Romburgh لعينات أخذت في أوقات مختلفة. ويبين التركيب الكيميائي عدم تجانس سببه غير معروف حتى الآن. لقد كان يعتقد البعض ـ قديماً وحديثاً ـ بأن ماء زمزم يجري، وأن البئر تحصل

---

(١) في الوقت الراهن تقدم الحكومة السعودية مبلغاً سنوياً لسدنة الكعبة من بني شيبة، ولم يعد آل الشيبي يتاجرون بالثوب القديم، على النحو الوارد في النص. بل إن الدولة تتسلم الثوب القديم وتتصرف به كهدايا للزوار وكبار الضيوف.

(٢) لا ترتبط قدسية ماء زمزم بتأثيره المسهل. فانه بالرغم من أن ماء زمزم ملين للمعدة، نظراً لوجود عناصر المغنسيوم والعناصر المعدنية الأخرى فيه. فإن قدسية الماء جاءت من قول الرسول ﷺ «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم». وكذلك «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»، «وزمزم لما شرب له». لمزيد من التفصيل (انظر يحيى حمزة كوشك: زمزم طعام طعم وشفاء سقم، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ).

(٣) كانت آبار مكة جميعها في العصر الجاهلي شديدة الملوحة. بما في ذلك بئر زمزم، ولذلك كان سكان مكة يلقون الزبيب والتمر في أحواض الماء، كي يخفف من غلظ الماء (ملوحتها). وتروي كتب التاريخ أن عبد المطلب في موسم الحج كان يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم، ويسقيه الحاج حتى يكسر غلظ ماء زمزم. وكانت إذ ذاك غليظة جداً (أخبار مكة المشرفة ج١/ ٧٠ و ٢٨٩).

(٤) جاء في كتاب أخبار مكة المشرفة ج١ ص٢٩٣ وما بعدها: أن محمداً الخزاعي ذكر في سنة (٢٨١هـ) أنه أصاب مكة أمطار كثيرة، فسال واديها بأسيال عظام في سنة (٢٧٩هـ)، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى كان قارب رأسها [رأس البئر] فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبعة أذرع أو نحوها، وما رأيتها قط كذلك. وعذبت جداً حتى كان ماؤها أعذب من مياه مكة التي يشربها أهلها. وكنت أنا وكثير من أهل مكة نختار الشرب منها لعذوبته وأنا رأيناه أعذب من مياه العيون ولم أسمع أحداً من المشايخ يذكر أنه رآها بهذه العذوبة، ثم غلظت بعد ذلك في سنة ٢٨٣هـ وما بعدها.

على مواردها من الماء من عدة ينابيع، وهذه القضية غير معروفة حتى هذه الآونة ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)[١].

إن الروايات السخيفة التي يتبادلها الأوربيون عن زمزم قد دحضتها في محاضرتي في برلين التي أشرت اليها سابقاً، وفي اعتقادي أن هذا الماء ذو طعم لذيذ وفيه شفاء.

السقاية

لقد كانت السقاية في آل العباس. وقد أقر لهم الرسول ﷺ بهذا الامتياز وهذا الشرف. ومركزهم في هذا أشبه بمركز بني شيبة. ومنذ أن أصبحت الخلافة العباسية بأيديهم شغلتهم عن السقاية، التي تضاءلت تدريجياً، حتى أصبحت خدمة بئر زمزم كأي مصلحة أخرى من مصالح المسجد الحرام.

الزمازمة

إن الزمازمة في مكة لهم نقابة خاصة. وهم يطلبون أجراً على عملهم، أو استعمال أوانيهم الخاصة. غير أن الدخول إلى البئر واستعمال الماء مسموح به لكل فرد مجاناً. وطوال إقامتي في مكة لم يكن بئر زمزم يزود كل سكان مكة بالماء. ولايوجد في مكة سوى عدد قليل من الآبار المحفورة التي تحوي ماءً صالحاً للشرب[٢]. ومنذ القديم كان الموسرون يحضرون حاجتهم من الماء من خارج المدينة[٣].

تزويد مكة بالمياه

وسنقف قليلاً لنستعرض الجهود المبذولة على مر السنين لتزويد مكة بالماء اللازم للشرب[٤]. ففي زمن معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠م)

---

(١) إن التغير في التركيب الكيميائي لماء زمزم مردّه إلى المصادر الطبيعية التي تزود البئر بالماء، حيث تتأثر هذه المصادر بمواسم الأمطار والجفاف. ويسير هذا الماء عبر الشقوق والصدوع الأرضية، وما تحويه هذه الصخور من مواد كيميائية ومعدنية متنوعة. وقد ثبت من الدراسات التي أجريت في عام ١٤٠٠هـ أن مصادر البئر تأتي من جهة أبي قبيس كما تأتي من جهة الحجر الأسود، وقد تم تصويرها وتوثيقها من قبل المهندس يحيى كوشك، وقد ذكر ذلك في كتابه عن زمزم المذكور آنفاً.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٣٦ وما بعدها.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٦٩ - ٧٠، ج٣ ص٤٦.

(٤) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٤٢، ج٢ ص٣٣، ٥٢، ١١٩، ٣١٤، ج٣ ص١٢٩، ١٩٨، ٢٢٤، ٣٣٥، ٣٩٢.

(٤١ ـ ٦٠هـ) استفاد كثير من سكان مكة المكرمة من المياه التي استنبطها وجرها لسقاية مزارعه في ظاهر مكة[١]. فقد جعل جزءًا من هذه المياه سبيلاً من أجل الاستعمال العام. وفي عام ٧١٠م (٩٣هـ) تمكن خالد القسري أمير مكة من قبل الأمويين من سحب الماء العذب بواسطة أنابيب من الرصاص من منطقة منى على بعد ساعتين شرقي المسجد. ويرى بعضهم أنه أراد أن يخفف من مكانة بئر زمزم في نفوس الناس. ومن هنا فقد كان تدمير هذا المرفق من أول الأعمال التي قام بها العباسيون بعد أن استولوا على مقاليد الخلافة عام ٧٥٠م (١٣٢هـ)[٢]. ومع مرور الزمن لم تعد المياه التي استنبطها معاوية تكفي نتيجة ما اعترى القنوات من الإهمال. وقد قام هارون الرشيد ببعض الاصلاحات، حيث جمع كافة مجاري المياه في مجرى رئيس واحد، ومع هذا فقد كان هناك شح في الماء[٣]. وقد

---

(١) عندما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة، اهتم بأمر توفير المياه في مكة وأمر واليه على مكة بحفر الآبار وإجراء عين الأرين إلى مكة. ويعتبر هذا العمل أول عمل من نوعه لإمداد المساكن المجاورة للحرم بالمياه، حتى لا يجد الحجاج وسكان مكة صعوبة في الحصول عليها. (انظر الفاكهي جـ٤ ص١٢١ وما بعدها، والأزرقي جـ٢ ص٢٢٧ وما بعدها، والفاسي جـ١ ص٥٥٢، وإبراهيم رفعت جـ١ ص٢١٠).

(٢) في خلافة سليمان بن عبد الملك كتب الخليفة إلى خالد بن عبد الله القسري عامله على مكة بإجراء عين له من (الثقبة) يخرج ماؤها بين زمزم والمقام، فأجرى خالد القسري هذه العين من الثقبة في قنوات من الرصاص مدها حتى أظهرها من فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام، ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص، يخرج من بركة عملها في السوق عند باب الصفا، ويبدو أن إجراء ماء هذه العين وإظهارها بين زمزم والمقام أمر سياسي يستهدف صرف أهل مكة عن شرب ماء زمزم، إذ إنه عندما أفضت الخلافة إلى العباسيين هدم داود بن علي تلك الفوارة بوصفه أول عمل بعد قدومه مكة، وكسر الفسقية وصرف العين إلى البركة المذكورة. (انظر الفاكهي جـ٣ ص١٤٩ وما بعدها، الأزرقي جـ٢ ص١٠٧. ابن فهد جـ٢ ص١٢٣).

(٣) انقطع الماء في أواخر دولة بني أمية، وأصاب الناس شدة، حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار، فصاروا يجلبون الماء إلى مكة من خارجها، واستمر الحال كذلك في أوائل دولة بني العباس، حتى وفق الله أمير المؤمنين هارون الرشيد، فأمر بإجراء عيون من تلك العيون التي كان معاوية قد أجراها فأصلحت وصرفت في عين واحدة يقال لها (الرشا) تسكب في الماجلين اللذين أحدهما لأمير المؤمنين الرشيد في المعلى، ثم تسكب في =

عين زبيدة

تولت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد عام ٨١٠م (١٩٥هـ) مهمة تزويد سكان مكة وجموع الحجيج بالماء اللازم لذلك. فقد أمرت وبتكاليف باهظة ببناء مورد مائي دائم سحبته من جهة الشرق، حيث توجد منطقة غنية بالماء ترتفع شرقي مكة باتجاه الطائف. ثم اشترت عين حنين الغنية نسبياً بالماء، والتي كانت تروي حقول القمح في المنطقة، ووصلت تمديداتها المائية، وربطت قنواتها المعطاءة بالماء، بالمجرى الرئيس الذي عرف باسم عين زبيدة. وكذلك أمرت بحفر قنوات في الجبال المحيطة من أجل الاستفادة من مياه الأمطار، التي تعتبر نادرة في تلك البلاد، ولكنها غزيرة جداً.

وهكذا أصبحت عين حنين وعين زبيدة وعين المشاش وعيون وادي نعمان، التي تبعد عدة أميال شرقي عرفات، تجري بواسطة الأقنية على طول سهل عرفات الواسع، حيث تملأ عدة خزانات فيه لسقيا الحجيج، ثم تواصل الأقنية جريانها حتى وادي منى، حيث تنتهي في بئر زبيدة، حيث يتزود الحجاج منها أيام التشريق الثلاثة[1]. وفي عام ٨٢٦م (٢١١هـ) زاد

= البركة عند المسجد الحرام فتوسع الناس بعد ذلك بعض السعة، (الفاكهي جـ٣ ص١٥٢ الأزرقي جـ٢ ص٢٣١ ابن فهد جـ٢ ص٢٤٨ إبراهيم رفعت جـ١ ص٢١٠).

(١) وفي عام ١٩٣هـ الذي حجت فيه السيدة زبيدة نقصت المياه في المشاعر، وأصاب الحجاج عطش شديد، وبيعت راوية الماء بعشرة دراهم أو أكثر. وحينما أخبرت السيدة زبيدة بما عاناه الحجاج من العطش الشديد والمشقة العظيمة والجهد في الحصول على الماء في المشاعر المقدسة أمرت بإجراء عين وادي «النعمان» إلى جبل الرحمة بعرفة، وهي عين منبعها في ذيل جبل كرا، وتنحدر المياه من ذيل هذا الجبل في قناة إلى موضع يقال له «الأوجر» بوادي النعمان، ثم يجري منه الماء إلى موضع بين جبلين شاهقين في علو أرض عرفات، ثم أجري الماء في قنوات إلى عرفات، ثم أديرت القنوات في سفح جبل الرحمة، وجعلت منها طرق إلى البرك والأحواض التي عملت بأرض عرفات فتمتلئ ماءً يشرب منه الحجاج يوم عرفة، ثم سيرت القناة من عرفة نحو الشمال، وعلى بعد ١٣٧٨ متراً عمل بازان (بئر) اسمه«فقير الذئب الأعلى»، ثم سيرت قناة وعلى بعد ٤٠٥ أمتار من البازان الأول عمل بازان ثان اسمه «فقير الذئب الثاني» ثم تنعطف القناه نحو الغرب داخلة في وادي المغمس، وتنتهي إلى «حوض البقر الأول» على بعد ١٤٢٠ متراً من البازان الثاني، وأقيمت على القناة فيما بين عرفة وحوض البقر هذا خمس وعشرون خرزة لأجل سقاية الحجاج عند صعودهم ونزولهم، ثم تسير القناة في باطن الجبل إلى موضع يقال له «الخاصرة» ثم ترجع منه يميناً إلى بازان المعترضة، وبعد ذلك تسير القناة في سفح =

المأمون من راحة المكيين في الحصول على الماء، فقد مدد القناة التي كانت تقف في الجهة العليا الشمالية الشرقية من مكة، إلى المنطقة السفلى من مكة، وبذلك وصلت المياه إلى مختلف أجزاء المدينة[1].

شح المياه في مكة

بالرغم من الخدمات الجليلة التي قدمتها السيدة زبيدة، إلا أن ذلك لم يكن كافياً، حيث نرى أن كل مؤرخ مكي يتحدث عن نقص الماء في أيامه، لفترات تستمر عشرات السنين. والسبب في ذلك إهمال أعمال الصيانة المستمرة للأقنية. وكان المكيون يكتفون أثناء أداء فريضة الحج بالشكوى للأمراء والأثرياء القادمين للحج بضرورة إصلاح مرافق المياه. غير أن أحداً من المكيين لم يرغب في دفع أي تكاليف إضافية، أو القيام بأي إشراف منظم، أو عمل أي إصلاح سريع، للأضرار التي تنجم عن انسداد القنوات، والتي تكون في بدايتها سهلة وقابلة للإصلاح.

ولقد كان مؤرخو مكة يسهبون في المديح والثناء على الهبات والأعطيات التي كانت تتكرر من الأمراء والوزراء، بهدف

= المأزمين على يسار القادم من عرفات، ثم تسير إلى مزدلفة، وتتجه منها في وادي النار، وفيه عند رأس جبل على يسار الذاهب إلى مكة بازان يقال له «دقم الوبر» ومنه يكون المجرى متعلقاً في الجبل إلى «المفجر» خلف منى، ثم يتوجه المجرى منحدراً خلف جبل منى إلى فتحات موازية لمدرج منى، بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب يسمى «حوض البقر الثاني». ومنه تسير القناة تحت الأرض إلى بئر عظيمة طويت بأحجار كبيرة جداً تسمى «بئر زبيدة» إليها تنتهي القناة. [وهذه البئر أو الخزان عرف فيما بعد باسم محبس الجن].

انتهى عمل السيدة زبيدة عند هذه البئر، ولم تصل مياه وادي النعمان إلى مكة، لصعوبة حفر القناة في هذه المنطقة الجبلية من هذه البئر إلى مكة، وصارت عين وادي النعمان خاصة بعرفة ومزدلفة ومنى في ذلك الزمن، يشرب منها الحجاج وأهالي مكة بمختلف طبقاتهم وأجناسهم، بواسطة نقل الماء في قرب على ظهور الدواب، وصارت عين حنين خاصة بمكة لسقاية أهلها وحجاج بيت الله الحرام. (أونال وزميله: دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة من وجهة نظر الحجاج عام ١٤٠٨هـ، مركز أبحاث الحج، ١٤١٣هـ مكة).

(١) وفي سنة ٢١٠هـ كتب أمير مكة إلى الخليفة المأمون يشكو نقص الماء، ويستأذن الخليفة في بناء بعض البرك، في مختلف مناطق المدينة، كي يتمكن جميع السكان من الحصول على الماء من المواقع القريبة منهم، فأذن الخليفة ببناء خمس برك في مواضع مختلفة من مكة (انظر الفاكهي جـ٣ ص١٥٥، والفاسي جـ٥ ص٢٨، وابن فهد جـ٢ ص٢٨٤).

إجراء التحسينات لمرافق المياه. وكان هذا يشجع أمراء آخرين على حذو المنهاج نفسه في التبرع والعطاء. غير أن سادة مكة وامراءها كانوا يحاولون دائماً، وكلما سنحت لهم الفرصة، أن يأخذوا لأنفسهم الكثير من هذه الأعطيات، التي تخصص لصيانة القنوات المائية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إيصال عين زبيده إلى مكة

إن جزءًا كبيراً من شبكة المياه داخل المدينة وجنوبها حتى بركة ماجن (ماجل) تسمى «عين بازان» على اسم موظف اسمه بازان، كان قد ارسله أحد أمراء المغول في العراق عام ١٣٢٦م (٧٢٧هـ) لإعادة إصلاح خط المياه المدمر[١]. وفي عام ١٥٦٢م (٩٦٩هـ)، وعندما زارت زوجة السلطان العثماني سليمان مكة المكرمة، أمرت بإصلاح الخط المهمل على حسابها الخاص. وقد ضاع عام كامل من العمل والنقود دون جدوى؛ لأن أحداً لم يكن يعرف بأن الخط المذكور أعلاه لا يصل إلا من عرفات إلى مقربة من منى، أي أنه يختلف عن الخط الذي يزود المدينة بالمياه. وبعد عام تم اكتشاف ذلك، وكان لابد من وصل عين عرفات مع الخط الآخر وهو خط زبيدة، وهذا يستدعي حفر قناة عمقها خمسون ياردة في أقسى الصخور. وعن طريق نار الخشب الضخمة، التي أكلت كل الأخشاب الموجودة في المنطقة، لينت الطبقة العليا للصخر قبل حفرها[٢]. وفي عام ١٥٧٢م

(١) نظراً لشح المياه في مكة المكرمة في الفترة التي سبقت عام ٧٢٦هـ فقد كان الماء يحمل إلى مكة من وادي مر (وادي فاطمة)، وقد علل الفاسي سبب ذلك بقلة الأمطار المتساقطة على مكة لسنين متتالية، ونتيجة لذلك فقد عمل أحد كبار شيوخ العجم المقيمين في مكة على الاتصال بالأمير جوبان، نائب السلطنة بالعراقين، وحثه على إيصال الماء إلى مكة المكرمة، فأصدر الأمير أمراً بإجراء ماء عين حنين وكان قد تعطل جريانها إلى مكة على يد أحد الصناع الذي أرسله الأمير جوبان، ويدعى بازان، الذي عمل على إجراء الماء وإيصاله بين الصفا والمروة، وكان ذلك في عام ٧٢٦هـ. وقد استغرق العمل أربعة أشهر، وقد كثر النفع بهذه العين، واستخدم أهل مكة الفائض منها في الزراعة (الفاسي جـ١ ص٣٤٧، ابن فهد جـ٣ ص١٨١ ـ ١٨٢).

(٢) حصل جفاف في معظم العيون التي تزود مكة المكرمة بالماء. وبعد أن قامت لجنة بتفحص هذه العيون ومصادرها، رفعت توصية إلى الباب العالي بإسطنبول، بضرورة توفير مزيد من الماء إلى مكة المكرمة، عن طريق صيانة شبكة القنوات التي تصل إلى مكة من عرفات. =

(٩٧٩هـ) انتهى العمل بعد أن صرفت أموال وجهود كبيرة، نتيجة الطريقة العقيمة المتبعة. غير أنه منذ ذلك الوقت أصبحت الأمور تسير بصورة أفضل مما كانت عليه في السابق.

لقد كان مجرى (دبل) عين زبيدة عرضة للكوارث الطبيعية المتكررة، التي غالباً ما تنجم عن السيول المدمرة. إضافة إلى ذلك، كان المجرى يتعرض للتخريب المتعمد بأيد بشرية، وذلك في الصراعات السياسية التي كانت تحدث في المنطقة، وأحدثها كان عام ١٨٠٥م (١٢٢٠هـ).

جهود عثمان باشا في توفير المياه

لقد كان لجهود الحاكم العام عثمان باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٦م) (١٢٣٨ ـ ١٣٠٤هـ) أثر واضح في إزالة آثار الوضع السيئ لمرافق المياه، فقد كان يأمر باستمرار بجمع الهبات الطوعية والقسرية، من الزوار وسكان مكة الأصليين، لصيانة مشاريع المياه في المدينة. ومع أن هذه المبالغ لم تكن تصرف بكاملها على المشاريع المائية، إلا أن هذا هو الحل الوحيد الذي يمكن عمله، في بلد لاتوجد فيه ضرائب ولاتدفع فيه أجور الموظفين

= وقدروا لذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهباً. فوافق الباب العالي على ذلك، غير أن السلطانة فاطمة خانم، كريمة السلطان سليمان، عرضت أن يكون ذلك الإصلاح والترميم على نفقتها، تأسياً بزبيدة التي كان لها الفضل الأول في إيصال الماء إلى مكة. وبدأ العمل في ترميم وإصلاح وصيانة دبول وأقنية عين زبيدة عام ٩٦٩هـ. ولما فرغوا من كافة أعمال الصيانة اكتشفوا أن عين زبيدة القادمة من عرفات، ليست موصولة بعين حنين القادمة من أعالي وادي عرنة، وأن وصلها يستلزم حفر قناة بطول ألفي ذراع، بذراع البنائين، على ما يرويه القطبي في الأعلام (ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وهذه القناة المقترحة لا بد أن تكون منخفضة بعمق ٥٠ ذراعاً تحت الأرض. ومن الجدير بالذكر أن هذه المنطقة صخرية شديدة الصلابة. مما استلزم إيقاد النار على الصخور لتليينها قبل حفرها. وقد قدر القطبي أن مقدار ما يوقد يومياً على الصخور بمائة حمل من الحطب الجزل، توقد على مساحة طولها ٧ × ٥ أذرع، لحفر ما مقداره قيراطان، من أربعة وعشرين قيراطاً من طول الذراع. وقد استلزم ذلك كما قال القطبي (عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب). وقد أتت هذه العملية على كل الحطب الموجود في المناطق المحيطة بمكة، واستمر العمل بتلك الطريقة المضنية عشر سنوات حتى عام ٩٧٩هـ، فوصلت عين عرفات بعين حنين، ووصل الماء إلى مكة المكرمة بعد أن أنشئت قنوات جديدة، أوصلت المياه إلى مختلف أحياء مكة المكرمة (انظر أونال وزميله: دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة من وجهة نظر الحجاج عام ١٤٠٨هـ بحث تاريخي ميداني، مركز أبحاث الحج ١٤١٣هـ، مكة).

أحياناً. وقد ساعد ذلك على جعل مرافق المياه في عرفات ومكة صالحة لاستعمال الحجاج وسكان مكة الأصليين. إن خزانات المياه (بازانات) متوفرة حاليا (١٣٠٣هـ) (١٨٨٥م) في مكة، ولايحتاج الفرد المكي لدفع أي ثمن مقابل هذه الخدمات المهمة للحياة. وقد بنى الوالي المذكور مرفقاً للمياه اسمه «الوزيرية» لمدينة جدة، حيث يشرب الناس هناك من آبار لجمع مياه الأمطار. ومن المؤمل به، أن يولي خلفه بعض الاهتمام لهذا العمل، الذي جعل اسم زبيدة في مكة حياً على مدى الدهور والأزمان.

بناية زمزم يعلوها مقام الشافعي

لنعد الآن إلى ساحة المسجد، وبالذات إلى بناية زمزم. هذه البناية اقيمت منذ البداية في العصر الإسلامي، لحفظ معدات النضح من جهة، وتسهيل العمل على خدمة البئر من جهة أخرى. وقد كان الطابق العلوي منذ زمن طويل أشبه بمكتب الرئيس أو كبير المؤذنين، الذي ينادي للصلاة خمس مرات يومياً. ويؤدي صلاة الجمعة في هذا المكان الموظفون الأتراك ذوو المراتب العالية، حيث يكونون قريبين من الكعبة، إضافة إلى أن المكان يحميهم من حر الشمس في صحن المسجد.

وهناك سلّمان جميلان مجهزان (بعجلات)، يوضع كل واحد منهما أمام باب الكعبة، (انظر شكل (٢) رقم ٤، ٥)، وذلك عند فتحها للجمهور. هذان السلمان هما هدية من أمير هندي وصلا حديثاً. وقد حلا محل آخرين عفا عليهما الزمن. ومن الجدير بالذكر أن باب الكعبة مرتفع عن الأرض، ويقتضي وجود سُلَّم للصعود إليه منذ القدم.

مقام ابراهيم

وبالقرب من بناية زمزم (مقام الشافعي) هناك مقام إبراهيم[1]، الذي ترجعه الروايات التاريخية إلى إبراهيم عليه السلام الأب الذي ينتسب إليه

(١) مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام في أثناء بناء الكعبة. والمقام آية من آيات الله حول البيت، ذلك أن أثر قدم إبراهيم عليه السلام ظاهرة في الحجر، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران، الآية: ٩٧]. ويقع المقام في الجهة الشمالية الشرقية للكعبة، وقد تعرض إلى السيول في عصور مضت (البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ١٤٠٣هـ ص٢٨٦).

العرب[١]. وقد كان المقام مقدساً حتى في أيام الجاهلية. وهناك روايات تاريخية كثيرة حول موضع هذا المقام في المسجد. فهناك روايات تدل على أن هذا الحجر احتفظ به مرة في داخل الكعبة، ومرة أخرى بجوارها، بالقرب من باب الكعبة، غير أن أرجح الآراء أنه بقي في مكانه الذي هو فيه الآن ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) داخل المقصورة التي تحيط به. حيث تعلوها قبة عمرها حوالي (٧٠٠) عام. وهذه المقصورة نصفها الأمامي محاط بشبك كثيف من الجهات الأربعة، يحيط بالمقام، المغطى بستارة من القماش. أما النصف الخلفي من المقصورة فهو مفتوح، ويستعمله الإمام أثناء أداء الصلاة (انظر شكل (٣)) وعندما استحدثت المقامات في المسجد الحرام، أصبح هذا المكان مخصص لإمام الشافعية[٢].

المنبر

إن استعمال المنبر بالنسبة للخطيب يعتبر من الترف المجلوب، الذي أدخله الأمويون لأول مرة[٣]. وقد أهدى الأمراء الذين تلوهم منابر أفضل. والمنبر الحالي (شكل (٢) رقم ٧) قد تبرع به السلطان سليمان عام ١٥٤٩م (٩٥٦هـ)[٤].

باب بني شيبة

أما الباب الصغير المفتوح (باب بني شيبة) (شكل (٢) رقم ١) فيظهر حدود مساحة المسجد في عهد الرسول ﷺ، حيث يقال إن الحرم آنذاك كان يمتد من الكعبة على جميع الجهات بالبعد نفسه[٥]. والمسجد في عهد

---

(١) العرب الباقية على ما يرويه النسّابون العرب ـ فرعان هما: العرب العاربة والعرب المستعربة. والعرب المستعربة هم الذين ينتسبون إلى عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

(٢) لقد أزيلت المقصورة التي كانت تحوي مقام إبراهيم، وكذلك القبة التي كانت تعلوه، وذلك أثناء التوسعة السعودية الأولى للمسجد، بتاريخ ١٢ رجب ١٣٨٧هـ. وقد استبدلت المقصورة بقبة من زجاج بلوري سميك، يرى المقام من خلالها، ثم أحيطت القبة بشبك حديدي مطلي بالذهب. وقد ساعد ذلك على توسيع المطاف أكثر من ذي قبل.

(٣) لقد استعمل الرسول ﷺ المنبر في المدينة المنورة. ولذا لم يكن المنبر من الأمور التي استحدثها الأمويون، بل كان موجوداً إبان عهد الرسول ﷺ وأصحابه الكرام.

(٤) أزيل هذا المبنى ووضع في متحف المسجد الحرام أثناء مشروع توسعة المطاف عام ١٣٩٩هـ.

(٥) باب بني شيبة كان على هيئة عقد، يرتكز على عمودين مربعين، خلف مقام إبراهيم عليه السلام، وقد أزيل أثناء مشروع توسعة المطاف.

الرسول ﷺ، لم يكن سوى الساحة التي تحيط بالكعبة. وجدران المسجد لم تكن سوى البيوت المجاورة، وأبوابه هي الممرات الموجودة بين هذا المجمع السكني.

توسعات المسجد الحرام

وفي عهد الخليفتين الراشدين عمر[1] وعثمان[2] رضي الله عنهما، كان لا بد من توسيع مساحة المسجد، الذي أصبح مكاناً عالمياً مقدساً. فقد اشتريت البيوت المجاورة وأدخلت في التوسعة، وأصبح للحرم منذ ذلك الحين سور

---

(١) في عام ١٧هـ، حينما قدم إلى مكة، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على إثر سماعه بسيل أم نهشل، وقد شاهد أمير المؤمنين بنفسه رضي الله عنه ضيق المسجد الحرام بالمصلين، وما يعانونه لكثرتهم وضيق مساحته، فأمر عمر بن الخطاب بشراء الدور المجاورة حول المسجد وهدمها وضم مساحتها إلى المسجد الحرام، ولكن هذه المساحة لم تكن تكفي، لذا فقد احتاجت التوسعة في الحرم المكي إلى زيادة عدد آخر من الدور المحيطة به، فحاول عمر بن الخطاب مع أصحاب هذه الدور لشرائها وضمها للتوسعة، إلا أن هؤلاء أبوا وتمنعوا عن ذلك، فقال لهم أمير المؤمنين رضي الله عنه: «أنتم نزلتم بفناء الكعبة وبنيتم به دوراً، ولا تملكون فضاء الكعبة. وما نزلت الكعبة في سوحكم وفنائكم» ثم قومت تلك الدور ووضع أمير المؤمنين ثمنها في خزانة الكعبة، وبذلك أصبح الحرم أكثر سعة واستيعاباً لأعداد أكبر من المصلين والحجاج، وهذه أول توسعة في التاريخ للمسجد الحرام. وقد بلغت مساحته بعد التوسعة ٣٦١٣ متراً بزيادة ١٤٨٧ متراً مربعاً، وبنسبة زائدة تساوي ٧٠٪ (حامد عباس: قصة التوسعة الكبرى، مجموعة ابن لادن، ١٤١٦ ص١٩٢).

(٢) في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، تمت زيادة للمسجد الحرام، وهي الزيادة الثانية، وتمت بعد تسع سنوات من الزيادة الأولى، وهو ما يدل على زيادة عدد السكان في مكة المكرمة، وزيادة عدد المسلمين، وظهر من ذلك ضيق المسجد الحرام على المصلين والطائفين، فاشترى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الدور المجاورة للمسجد الحرام لإدخالها فيه، إلا أن بعض أصحابها امتنعوا كما فعل من قبلهم، ولكنه تصرف معهم بحزم مثل ما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فهدم الدور وأدخلها في المسجد الحرام.
وقد اتخذ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه للمسجد الحرام أروقة، فكانت هذه من أولياته، وكان من قبل متسعاً فسيحاً مثل الحصوة، وليس له رواق، ولا سقف يظل المصلين.
وقد أضاف عثمان بن عفان بهذه الزيادة (٨٦٩) متراً مربعاً لتصبح سعة المسجد الحرام بعدها (٤٤٨٢) متراً مربعاً بنسبة زيادة تقدر بـ ٢٤٪، وقد حدثت هذه الزيادة سنة (٢٦هـ ـ ٦٤٦م). (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٢).

خاص به. وأثناء حكم ابن الزبير تم إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، كما تمت توسعة أخرى للمسجد، وعمل سقفاً (رواقاً) للمنطقة التي تمت توسعتها، لتوفير الظل في المسجد الحرام. ومن لم يكن معتاداً على حر مكة الشديد، لا يستطيع أن يزور المسجد حين ترتفع الشمس.

ولقد مارس الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي اشتهر ببناء المساجد في عصره[١] هوايته، عن طريق تجميل المسجد الحرام وتوسيعه[٢].

توسعة الخليفة المهدي

ومن بين الخلفاء العباسيين، فإن المنصور[٣] هو الذي بدأ العمل بالإصلاح والتوسعة، غير أن هناك توسعتين، على درجة كبيرة من الأهمية، تمتا بأمر من المهدي[٤] عامي ٧٧٧م (١٦٠هـ) و ٧٨١م (١٦٤هـ). فقد

---

(١) قام الوليد ببناء المسجد الأموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس الشريف والمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة.

(٢) زاد الوليد بن عبد الملك بن مروان (٢٨٠٥) أمتار مربعة في سعة المسجد الحرام، بنسبة زيادة ٣٨٪، لتصبح سعته الإجمالية (١٠٢٧٠) متراً مربعاً، ومع هذه الزيادة نقض الوليد عمل أبيه عبد الملك، وعمّره عمارة متينة محكمة، وهو أول من أتى بالأساطين الرخام من مصر والشام، وسقفه بالخشب الساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وجعل لجدران المسجد الحرام وزرة في أسفلها، ثم كسا أرضية الحرم المكي بالرخام الأحمر والأخضر والأبيض. ومن أعمال الوليد بن عبد الملك بن مروان الشرفات التي جعلها تتوج جدران المسجد الحرام، كما جعل في وجوه النوافذ من أعلاها الفسيفساء. وقد تمت هذه الزيادة والعمارة سنة (٩١هـ - ٧٠٩م). (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٣)

(٣) كانت الزيادة التي أضافها أبو جعفر المنصور تصل إلى ٥١٪ من المساحة الإجمالية لمساحة المسجد الحرام، وقدرها (٥٢٢١م^2) لتصبح المساحة الكلية (١٥٤٩١) متراً مربعاً، وكانت زيادته من الجهة الشمالية، وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة، وعمل منارة في الركن الغربي من الجانب الشمالي، واتصل عمله في أعلى المسجد بزيادة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأنشأ أبو جعفر رواقاً واحداً بأساطين رخام دائراً على صحن المسجد (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٣)

(٤) زيادة المهدي العباسي: وهي زيادة كبيرة تقارب مساحة المسجد الحرام، قد زاد فيه (١٢٥١٢) متراً مربعاً، أي ما نسبته ٨١٪ من مساحة الحرم المكي الشريف، فأصبحت المساحة الكلية (٢٨٠٠٣) أمتار مربعة، وقد أنفق عليها بسعة على مقياس ذلك العصر، وقد تمت التوسعة على مرحلتين: الأولى (١٦٠هـ - ٧٧٦م)، والثانية عام (١٦٤هـ - ٧٨٠م)، وشملت المرحلة الأولى من توسعة المهدي توسعة المسجد الحرام من أعلاه، =

أضيف جزء من مجرى الوادي (وادي إبراهيم)، وكذلك جزء من المنطقة القريبة من المسعى إلى المسجد. وتوسع المسعى في المكان الذي نتج عن هدم البيوت في الجهة المقابلة. كذلك فإن المهدي قد زاد في الجهتين الشمالية والغربية من المسجد. وأحاط صحن المسجد بأروقة تقوم على أعمدة من رخام جلبت مخصصةً من سورية ومن مصر في المقام الأول. وقد غطيت هذه الأروقة بسقف جميل من خشب التيك.

وهناك توسعتان أقل حجماً أعطتا للمسجد مساحته الحالية والبالغة اثنين ونصف هكتار. ففي عام ٨٩٤م (٢٨١هـ) أدخل الخليفة المعتضد[١] دار الندوة وضمها إلى المسجد الحرام. ويقال إن هذا المبنى كان يبدأ من مقام الحنفية (شكل (٣) رقم ٨) ويمتد نحو الشمال. وفي عام ٩١٨م (٣٠٦هـ) وسع الخليفة المقتدر[٢] المسجد من الجهة الغربية.

= وتمت الاستعانة بأساطين من رخام جلبت من الشام، وأضاف خمسة أبواب.
أما المرحلة الثانية فقد حدثت بعد دراسات استمرت ثلاث سنوات، لمعالجة تحويل مجرى سيل وادي إبراهيم لتربيع المسجد الحرام، وبدأت التوسعة الثانية عام ١٦٤هـ، وتوفي الخليفة العباسي قبل أن تكتمل، فأكملها خليفته ابنه موسى الهادي عام (١٦٩هـ ـ ١٧٠هـ) وقد كانت توسعة المهدي وعمارته أعظم العمارات حتى تاريخه، فقد ضمت العمارة (٤٨٤) عموداً رخامياً، موزعة على جهات المسجد الأربع، وارتفاع كل عمود (٤,٨) أمتار، وسمك محيطه (١,٤٤) متراً، وارتفاع جدار المسجد كان (٩,٦) أمتار. (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٤).

(١) زيادة الخليفة المعتضد: في عام (٢٨١هـ ـ ٨٩٤م) تمت توسعتان، تعتبران زيادتين خارجتين عن تربيع المسجد الحرام، إحداهما في الجهة الشمالية وهي دار «الندوة» حيث هدمت، وجعلت مسجداً، وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب، وأصبحت رواقاً من أروقة المسجد الحرام، وأقيمت فيها الأعمدة، وسقفت بخشب الساج، وجعل السقف مسامتاً لسقف المسجد الحرام، كما جعل لها اثنا عشر باباً من الداخل، وثلاثة أبواب من الخارج، واستغرقت هذه الزيادة ثلاث سنوات. وتمت في سنة (٢٨٤هـ)، وهي الزيادة السابعة للحرم (حامد عباس: مرجع سابق، ص١٩٤).

(٢) زيادة الخليفة المقتدر: في عصر الخليفة العباسي المقتدر، وبالتحديد عام (٣٠٦هـ) حدثت زيادة ثامنة في الحرم المكي، وهي التي يطلق عليها زيادة باب إبراهيم، وشملت دارين للسيدة زبيدة، فأدخلت مساحتهما في المسجد الحرام، وجُعل لها باب كبير هو باب إبراهيم، وقد استمر العمل في هذه الزيادة ما بين عامي ٣٠٦ ـ ٣٠٧هـ (٩١٨ ـ ٩١٩م). =

ومنذ ذلك الوقت أدخلت الكثير من التجديدات التي جعلت من المسجد مثار إعجاب الحجاج والزوار من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

منائر الحرم

لقد أقيمت المنارات التي أصبح المؤذنون ينادون بالأذان منها، بعد أن كان الأذان من على سطح المسجد. وقد زاد عدد هذه المآذن تدريجياً حتى بلغ عددها سبعاً[١]. وتحيط بصحن المسجد أعمدة نحاسية صغيرة، والتي أقيمت منذ مدة، وهي موصولة بقضبان معدنية تحمل المصابيح، لإنارة المطاف أمام من يريد الطواف في المساء والليل[٢].

المقامات الأربعة

يعدّ بناء المقامات الأربعة من أهم التغييرات التي أضيفت إلى المسجد منذ آخر توسعة له. وهذه المقامات تمثل المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة. ومع أن الشرع يلزم الشخص الذي يتبع مذهباً ما بالصلاة مع الجماعة، إذا كان خلف إمام ليس على مذهبه، ومع هذا فقد وجدت هذه المقامات. وفي الأصل

= وبهذه الزيادة انتهى دور العباسيين في توسعة المسجد الحرام، وإن كانت توسعة المهدي تعتبر درة في جباههم، فقد ظلت هذه التوسعة إلى أن بدأ العمل في التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧٥م. (حامد عباس: مرجع سابق ص١٩٥).

(١) يبدو أن أول من أحدث منارة في المسجد الحرام كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فقد أنشأ منارة بباب العمرة، وكان ذلك في عمارة أبي جعفر للحرم المكي، وليست هناك مواصفات لهذه المنارة، أو ارتفاعها، ثم أنشأ الخليفة محمد المهدي ثلاث منائر، إحداها على باب السلام، والثانية على باب علي، والثالثة على باب الوداع، ثم أنشأ المعتضد العباسي منارة خامسة في زيادة دار الندوة، بين باب الزيادة وباب القطبي، ثم أنشأ الملك الأشرف قايتباي منارة سادسة، بين باب النبي وباب السلام، ثم أنشأ السلطان سليمان منارة سابعة بين مدارسه الأربعة، وقد جددت هذه المنائر خلال فترات مختلفة إلى ما قبل العهد السعودي (باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٤٠ ـ ٢٤١). وفي التوسعة السعودية الأولى التي بدأ العمل بها عام ١٣٧٥هـ تم هدم جميع المنائر القديمة واستبدلت بسبع منائر عالية بارتفاع ٩٠ متر تقريباً. بنيت على الطراز الحديث، لتتلاءم مع العمارة السعودية الجديدة. وهي على النحو التالي: منارة على باب الصفا، ومنارتان على باب الفتح، ومنارتان على باب العمرة، ومنارتان على باب الملك عبد العزيز. وفي التوسعة السعودية الثانية التي بدأ العمل بها عام ١٤٠٩هـ، تمت إضافة منارتين على باب الملك فهد، لتصبح في مجموعها تسع منائر.

(٢) يوجد بين كل عمودين من هذه الأعمدة النحاسية سبعة مصابيح زيت زجاجية معلقة (انظر صورة ٣).

كان المكان الوحيد للامام هو خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولما كان معظم سكان مكة ينتمون إلى المذهب الشافعي، الذي كان ينتسب إليه الخلفاء العباسيون، فإن هذا المكان لم يشغل إلا من قبل الأئمة الشافعية، ولا يزال حتى الآن (١٨٨٥م/ ١٣٠٣هـ) هو مكان إمام الشافعية. ولا نستغرب وجود بعض الروايات التي تشير إلى أن أتباع المذهب الزيدي قد أقاموا صلاتهم في الحرم وحدهم، ولو أنه لا توجد دلائل على وجود مقام للزيدية داخل الحرم[١]. ومن الجدير بالذكر أن هذه الطائفة من الشيعة لها آراؤها الخاصة بالتشريع ـ ولا نستغرب وجود ذلك ـ فقد كان معظم الأشراف العلويين في غرب الجزيرة العربية، قد بلغوا قمة مجدهم في الأماكن المقدسة في تلك الفترة التي اعتنقوا فيها المذهب الزيدي.

تعاظم نفوذ الوافدين إلى مكة من مختلف بقاع العالم الإسلامي مع مرور الزمن. ولم يقتصر هذا النفوذ على الحجاج القادمين من هذه الدول فحسب، بل إن كل دولة أصبح لها جالية مستوطنة ومقيمة في مكة من المجاورين لبيت الله الحرام. وقد كان هناك نوع من التنافس بين هذه الجاليات، يذكيه الصراع الدائم بين حكام العالم الإسلامي حول السيادة على الأماكن المقدسة. ومن هنا فقد كان كل واحد من هؤلاء الحكام يريد أن يضمن لنفسه ولرعاياه المكان اللائق في المدينة المقدسة. وقد وصلت الأمور إلى الحد الذي لم يرد فيه أي حاكم أن يرى مذهب بلاده، غير ممثل رسمياً في هذا المكان العالمي. ولعل ذلك هو السبب الذي أدى إلى ظهور المقامات الأربعة.

إن تاريخ إنشاء هذه المقامات غير محدد، غير أنه ربما كان ذلك في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي[٢] (السادس الهجري).

---

(١) وصف ابن جبير في رحلته الموسومة باسمه، المقامات الأربعة، وصلاة الأئمة الأربعة فيها، ومعهم إمام الزيدية الذي كان أشراف البلدة على مذهبهم. وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن «حي على الفلاح» ولا يجمعون مع الناس، إنما يصلون الظهر أربعاً، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتهم. (ابن جبير ١٣٨٤هـ، ص٧٨).

(٢) ذكر حسين عبد الله باسلامة في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام (ص٢٢٤) عن الملابسات التي أحاطت بإنشاء المقامات الأربعة داخل الحرم المكي الشريف. وقد استنتج أن التاريخ =

لقد غضب العلماء من هذه التجديدات غير الشرعية، خاصة أن هذه الإضافات، قد أدت إلى فوضى عارمة اثناء التطبيق. فإذا بدأ الأئمة الأربعة الصلاة في الوقت نفسه، وقعت الجماعة في الشكوك عن طريق اختلاط الأصوات(1). ولو أراد المرء أن يتخلص من هذا الوضع السيئ لكل الفرائض الخمس اليومية، عن طريق ترتيب دوري لكل من هذه المذاهب الأربعة، لاضطر إلى التخلي عن مذهبين في تأدية صلاة المغرب لضيق الوقت، ناهيك عن اختلاف أئمة المذاهب الأربعة في تحديد ميعاد الصلوات الأربعة الأخرى. وحتى هذه الأيام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) لا يزال هذا الترتيب محيراً للسلطات، ويخضع إلى تبديل مستمر. ويلعب المالكيون والحنابلة دوراً أقل أهمية؛ نظراً لأهميتهم السياسية المحدودة في المدينة المقدسة. لكن الأحناف الذين ينتسب إليهم الأمراء الشراكسة في مصر،

= التقريبي لبناء هذه المقامات كان فيما بين القرن الرابع الهجري والخامس. وقد استند في رأيه إلى أن المؤرخ الأندلسي ابن عبد ربه، حينما وصف المسجد الحرام، في كتابه العقد الفريد، لم يأت على ذكر المقامات الأربعة، وقد توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨هـ، فدل ذلك على عدم وجودها في عصره. وقد ذكر ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨هـ المقامات الأربعة ووصفها، فدل ذلك على أنها أحدثت قبل ذلك التاريخ، وقد استنتج باسلامة أن حدوثها كان في القرن الرابع أو الخامس.

(١) وصف ابن بطوطة ما يحدث من تشويش أثناء أداء الصلوات من خلال أئمة المذاهب الأربعة، فقال: (فمن عاداتهم (يعني أهل مكة) أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية فإذا صلى صلى بعده إمام المالكية ومعه إمام الحنابلة في وقت واحد، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفة، ويدخل الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي) وقد ذكر الناس أن بعض فقهاء المالكية أفتوا بمنع الصلاة بأئمة متعددة، وجماعات مرتبة بحرم الله، وقالوا بعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة. وتوالت الفتاوى في عدم جواز ذلك، لا سيما وأنه من مظاهر الاختلاف والفرقة، وقد نهى الإسلام عن تفريق الجماعات في الصلوات، الذي يبدو وكأنه يمثل أهل أديان مختلفة، وشرائع غير مؤتلفة، وقد وفق الله الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراه إلى إبطال تعدد الجماعات في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وجمع المصلين على إمام واحد في الصلوات الخمس والتراويح، وذلك من ابتداء توليته على الحجاز سنة ١٣٤٣هـ، ولا يزال الحال إلى يومنا هذا (باسلامة مرجع سابق ١٤٠٠هـ، ص٢٢٤ ـ ٢٣٣).

والسلاطين العثمانيون في إسطنبول ينظرون بنوع من الحسد إلى مقام الشافعية، مذهب أهل مكة الرسمي، الذي بقي خلف مقام إبراهيم. ففي عام ١٤٠٠م (٨٠٢هـ) عندما التهم حريق كبير معظم المسجد، أمر سلطان مصر ببناء مقام الحنفية بصورة أجمل من المقامات الأخرى، لكنه بعد ستة أعوام من ذلك التاريخ، اضطر إلى تغيير المقام ثانية بواحد أكثر بساطة من الأول[١]. وبعد فتح الجزيرة العربية ومصر من قبل الأتراك العثمانيين، بنى أول ممثل لسلطان إسطنبول في مكة عام ١٥١٧م (٩٢٤هـ) قبة مزركشة بدلاً من المقام الحنفي القديم، غير أنه اضطر إلى سحب هذا التغيير الجديد عندما أقدم السلطان سليمان عام ١٥٤٠م (٩٤٧هـ) على إعادة بناء المسجد بكامله. وبالرغم من كل ذلك، فقد كان هناك اهتمام أكبر بالمقام الحنفي، يفوق الاهتمام بالمقامات الأخرى[٢].

وكما يظهر في الصورة (٣ رقم ٨) فإن البناء المكون من طابقين، إضافة إلى الحجم الكبير، ما زالا يميزان مقام المذهب الحنفي عن غيره من المقامات الأخرى. لقد اختفت الزيدية عن المسرح السياسي منذ حكم الأتراك. ومنذ عدة سنوات فإن المقام الحنبلي، قد أزيح عدة خطوات من مكانه

---

(١) في عام ٨٠٢هـ وفي عهد الشراكسة، حدث حريق في المسجد الحرام، فندب الشراكسة أمير الحج المصري لإصلاح ما تهدم من المسجد، ومن ضمنها تشييد المقام الحنفي، على أربع أساطين من حجارة، يعلوها سقف مدهون مزخرف، وقد أنكر ذلك جماعة من العلماء، وأفتوا بتعزير من أجاز بناءه، وذلك لشغله حيزاً كبيراً من المسجد، ولتمييزه عن بقية مقامات الأئمة في المسجد الحرام. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٣٢٣).

(٢) اهتم العثمانيون بالمقام الحنفي أكثر من غيره من المقامات، ففي عام ٩٢٣هـ حينما دخلت الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، قام أمير المحمل الرومي في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة، فهدمه في ٩٢٤هـ وجعله قبة كبيرة شامخة، وزاد في طوله وعرضه، وأراد إيصاله بالمطاف، فعارضه بعضهم. ويبدو أن بعض علماء الحرم ساءهم ذلك فسعوا لدى السلطان في هدم المقام، وصدر أمر السلطان في ٩٤٩هـ بهدم القبة المذكورة، وإعادة بنائها بأقل سعة مما كانت عليه، وأسندت العمارة إلى نائب جدة، فبنى المقام من طابقين، وقد ظل على حاله حتى هدم مع المقامات الأخرى في التوسعة السعودية الأولى. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٤٧٥).

لضرورات تنسيقية[١]. وكذلك وللغرض نفسه، أزيلت قبتان كانتا موجودتين في الجهة الشرقية من زمزم، من قبل الوالي عثمان نوري باشا[٢] نفسه.

أبواب المسجد الحرام

لقد اهتم حكام المسلمين وأثرياؤهم بكافة أمور المسجد الحرام، ومنها الأبواب الخاصة بالمسجد. فالأبواب في الجهتين الجنوبية والشرقية، المؤدية إلى الشارع، تحمل زخارف ونقوش وكتابات لآيات قرآنية جميلة ورائعة، ولا تقل روعة عن الزخارف الموجودة على الأبواب الأخرى للمسجد، التي تؤدي عبر ممرات طويلة وضيقة إلى الأحياء الداخلية من المدينة[٣]. أما المطاف فقد تم تبليطه بحجارة المرمر، وكذلك القسم المبني من المسجد (الرواق)[٤]. أما الصحن فقد ترك على شكل مساحات

المطاف

---

(١) يروي الحضراوي أنه في عهد الشريف عون الرفيق، قام والي الحجاز عثمان نوري باشا، بإزالة مقام الحنبلي؛ لأن موقعه كان منحرفاً وقريباً من زمزم، وأعاد بناءه على الصورة التي كان عليها، قبل أن يزال مع المقامات الأخرى في التوسعة السعودية الأولى، وكان ذلك بمعرفة المهندس صادق باشا. (مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١)

(٢) يروي حسين عبد الله باسلامة أنه كان بداخل المسجد الحرام قبتان، خلف بئر زمزم، إحداهما سقاية العباس رضي الله عنه، والأخرى لحفظ الأشياء الموقوفة على المسجد الحرام. وقد أنشئتا في عهد الخليفة المهدي العباسي، ثم عمرتا في عهود لاحقة. وقد ذكرهما الرحالة المسلمون مثل ابن عبد ربه وابن جبير وابن بطوطة. وقد بقيتا حتى عام ١٣٠٠هـ، حينما أزيلتا بأمر من عثمان نوري باشا والي الحجاز، وبتوصية من مهندس الحرم، الضابط أركان حرب صادق باشا. انظر (باسلامة ١٤٠٠هـ، ص١٩٣ ـ ١٩٨، وكذلك مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١)

(٣) اختلف عدد أبواب المسجد الحرام مع مرور الزمن؛ نظراً للتوسعات المتعاقبة، التي تمت في الحرم المكي الشريف. ويروي المؤرخون أنه كان للمسجد الحرام في عهد المهدي (١٩) باباً، واستقر عدد الأبواب في العمارة العثمانية على (٢٦) باباً. أما الآن فعدد أبواب المسجد الحرام هي (٤٥) باباً. منها أربعة أبواب رئيسة (باب الملك عبد العزيز، باب الفتح، وباب العمرة، وباب الملك فهد) تعلو كل منها منارتان تبرزان المداخل الرئيسة بشكل يوحي بعظمة المكان.

(٤) تم تبليط المطاف بحجارة المرمر في عهد السلطان محمد خان. وذلك خلال الفترة من ١٠٠٣ ـ ١٠٠٥هـ، وكان قبل ذلك مرصوفاً بالحجارة، وقد أخذت هذه الحجارة ورصفت بها الممرات الموصلة إلى الأبواب الرئيسة. (السنجاري: أحداث عام ١٠٠٣هـ). ومن الجدير بالذكر أنه كان يحيط بالمطاف دائرة أخرى من الصحن، مفروشة بالحجارة المنحوتة، وهذه الدائرة تضم المقامات الأربعة. ويروي القطبي في الإعلام أنها رصفت =

واسعة (حصوات) تغطيها الحصباء، وتفصلها عن بعضها الممرات الطويلة، التي تصل المطاف بالأبواب الرئيسة للمسجد. وقد تم نشر العديد من المصابيح الزجاجية في المطاف، والحصوات، وفوق المقامات الأربعة، وبقية الأجزاء الخلفية من المسجد. (انظر صورة رقم ٣).

العمارة العثمانية

لقد أخذ المسجد شكله الحالي عندما أمر السلطان سليم الثاني، فيما بين عامي ١٥٧٢ ـ ١٥٧٧م (٩٧٩ ـ ٩٨٥هـ) بإعادة بناء المسجد وتوسعته. وقد حدثت في هذه التوسعة تحسينات وإضافات ضرورية في كل أجزاء المبنى. فقد استعيض عن السقف المصنوع من خشب التيك، المتآكل بمرور الزمن، بالقباب الصغيرة، المبيضة بالكلس كما زينت الواجهات الأربع الداخلية، المطلة على الصحن، بزخارف جميلة منسقة[١].

الانطباع العام

وهكذا ظهر بناء المسجد الحرام حول الكعبة ـ ذلك المكان الذي عرف منذ عهد النبي محمد ﷺ باسم بيت الله ـ الذي أصبح يأوي إليه

= في عهد السلطان سليمان بن سليم على يد المعمار سنان باشا. (باسلامة ١٤٠٠هـ، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠) وقد ذكر باسلامة أن أروقة المسجد الحرام كانت مفروشة (بالطبطاب) حتى عهد السلطان عبد الحميد خان الأول، ابن السلطان أحمد خان الثالث العثماني، الذي أمر المعمار محمد أفندي بفرش أروقة المسجد الحرام بالحجارة المنحوتة فرشاً محكماً. وبقي على ما كان عليه إلى التوسعة السعودية الأولى (المرجع السابق: ص٢٧٢)

(١) في الحقيقة لم تتم أي توسعة للمسجد الحرام في عهد السلطان سليم العثماني، بل إنها كانت عمارة شاملة، تشابه ما فعله الخليفة المهدي العباسي. إذ مضت على زيادة المهدي وعمارته (٨١٠) سنوات دون أن يلحقها ضرر، غير ترميمات محدودة، إلى عام (٩٧٩) حيث حصلت بعض التصدعات، وميول في وجه الرواق ناحية صحن المسجد الحرام، بشكل ظاهر لم ينفع معه أي علاج، وهذا أدى بالسلطان سليم إلى المبادرة إلى بناء الحرم الشريف جميعه بغاية الإتقان والإحكام، واختير أحمد بك كتخدا للإشراف على هذه العمارة، التي حلت فيها القباب محل السقف الخشبي، وأنشئت نتيجة لذلك العديد من الأعمدة الرخامية، واستخدمت الأعمدة التي تبقت من عمارة المهدي، وأعمدة أخرى من الحجر الشميسي، وقد أصبح عدد الأعمدة بعد هذه العمارة (٥٨٩) عموداً، موزعة على جميع جهات المسجد، والعقود (٨٨١) عقداً. وضم المسجد (١٥٢) قبة موزعة على جهات المسجد الأربع، و (٢٣٢) طاجناً بجوار القباب، وعدد الأبواب (٢٦) باباً، وبلغت مساحة المسجد الحرام في العمارة العثمانية التي تمت في سنة (٩٨٤هـ) (٢٨٠٠٣) أمتار مربعة، وبذلك تقل عن مساحة المسجد الحرام بعد عمارة المهدي العباسي، وقد بدأت هذه العمارة في عهد السلطان سليم، وأتمها خليفته السلطان مراد.

القادمون من مختلف بقاع العالم الإسلامي الفقيرة. إن هذا المكان المقدس، الذي أصبح رمزاً للإسلام المتحضر، لا يشدك ولا ينفرك، غير أنه يؤثر فيك تأثيراً فريداً من نوعه. وبالضبط فإن وحدة الحرم، تسهل على الزائر الورع، أن يتأمل الأسرار في الصورة العامة. أما الباحث في التفصيلات فإن الحرم يذكره بنواح عديدة من تاريخ الأديان. فهناك الأعمدة (الأسطوانات) المجلوبة من مصر والشام ـ من المعابد اليونانية والرومانية[1] ـ تقوم عليها القباب التركية. وهناك الآيات القرآنية المأخوذة من دين التوحيد، والمكتوبة بالخط اليدوي على الجدران الداخلية للمسجد. وهناك البيت العتيق، الذي بقي على حاله منذ أيام الجاهلية. كما أن هناك المقامات الأربعة، التي تظهر الصراع الحاد بين المذاهب المختلفة. وهناك ضيوف الرحمن القادمون من كل البلاد الواقعة بين المغرب والصين. إن هذه التفصيلات قد تمازجت تمازجاً بديعاً، وكأنها خطت بريشة فنان، وقد نمت نمواً تدريجياً ابتداء من ظهور الإسلام.

المدارس حول المسجد الحرام

أضلاع أروقة المسجد الحرام الذي تتوسطه الكعبة غير متساوية، كما أن زواياه الأربعة ليست قوائم. أما أرضية المسجد فتهبط من الشرق والشمال والجنوب باتجاه الوسط، والميل العام هو من الشرق إلى الغرب، بصورة تدريجية وغير منتظمة.

في الشمال الغربي والجنوب الغربي من المسجد تقوم مجموعة من المدارس. والمدرسة هي بناء مجهز لسكن المعلمين والدارسين للعلم الشرعي. ومعظم هذه المدارس قامت على أيدي متبرعين أتقياء قاموا بتأسيسها، وكان الإنفاق عليها يتم في العادة عن طريق عائدات أوقاف غير منقولة، يرصد ريعها لدفع رواتب القائمين عليها من طلبة ومدرسين. وفي

(١) ليس هناك دليل على أن الأسطوانات الرخامية، التي جلبت إلى المسجد الحرام من مصر والشام، في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي والمهدي العباسي، كانت من المعابد اليونانية والرومانية، وربما تكون قد نحتت وجهزت خصيصاً لأغراض بناء المسجد الحرام، ومن المعلوم أن هناك أسطوانات مشابهة لهذه الأسطوانات، موجودة في المسجد الأقصى والجامع الأموي وقد شيدا في عهد الوليد.

كثير من الأحيان يتدخل الحاكم بالقوة لسحب هذه الأوقاف من أيدي المشرفين (النظار) عليها، نتيجة لعدم إخلاصهم، غير أنه يتم تحويلها عن الهدف الذي وضعت من أجله. وهكذا وبمرور الزمن يتم التبرع بالبناية نفسها من قبل عدد من الأتقياء لأغراض مشابهة، وكل مرة بنفقات باهظة يطلبها الوسطاء والمشرفون على العملية. ومن الطريف أنه بعد وصولي إلى مكة نصحني العديد من الأشخاص أن أستأجر إحدى المدارس المتوفرة كلياً أو جزئياً. فقد سبق لأحد الوزراء أن سكن في مدرسة جميلة جداً. وهناك مدرسة أخرى استعملت كمكاتب لإدارة مياه عين زبيدة. وهذا هو المصير نفسه الذي تؤول إليه الكثير من الأوقاف الموزعة في مختلف أرجاء المدينة[1].

إن التاريخ يذكرنا بسلسلة هائلة من الإصلاحات التي تمت في المسجد الحرام، والمدينة المقدسة بشكل عام، وذلك في كل عصر من عصور الإسلام. وكان بعض هذه الإصلاحات يأتي بعد الكوارث الطبيعية، كالحريق الذي تحدثنا عنه آنفاً، أو نتيجة العبث ومحاولة السطو على مقتنيات المسجد من الذهب والفضة، أو نتيجة إهمال السلطات لأمر الترميم والصيانة، وهناك سبب آخر مهم جداً ألا وهو السيل. لقد حبى الله مكة المكرمة بالجبال الجرداء والرمل والحر الشديد الذي لا يطاق، ويضاف إلى كل ذلك أخطار السيول. فهناك العديد من السيول التي تتكون في شرق المدينة المقدسة، إثر سقوط الأمطار، التي تجري باتجاه ساحل البحر الأحمر غرباً[2].

السيول

فوادي مكة الضيق (وادي إبراهيم) المنحدر من جهة الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، يكوّن منطقة تجميع لماء المطر

---

(١) لمعرفة المزيد عن المدارس التي أنشئت حول الحرم المكي الشريف، في مختلف العصور (انظر ناجي معروف، مدارس مكة المكرمة، بغداد ١٩٦٦م).

(٢) انظر اخبار مكة المشرفة جـ١ ص١١٦، ٢٧٦، ٣٤٢ الطبري جـ٢ ١٠٣٩، ١٠٤٠، سالنامة الحجاز ١٣٠٣هـ ص٣٢٩. وأضيف هنا أرقام السنوات التي حدثت فيها الفيضانات المشهورة، التي تم تعدادها حتى الآن في كتب لم تنشر بعد ١٠١٩هـ، ١٠٢٤هـ، ١٠٣٣هـ، ١٠٣٩هـ، ١٠٥٥هـ، ١٠٧٣هـ، ١٠٩١هـ، ١١٥٣هـ، ١٢٠٨هـ، ١٢٧٨هـ وكذلك ما كتبه صاحب منائح الكرم بأخبار مكة والحرم، وكذلك أحمد دحلان في أمراء البلد الحرام (المؤلف).

حول المسجد، ينجم عنها سيل كبير، يحمل معه كل شيء يجده في طريقه. ولذا يجب أن يبقى الناس بعيدين عن السيل لتفادي أخطاره المتكررة. وأفضل السبل للتخفيف من خطر السيول، بناء السدود، لتحويل مجرى السيل إلى مكان آخر، وهذا ما عمله سكان الجاهلية. أما في العصر الإسلامي فقد كانت حماية المسجد الحرام ـ وكذلك المسعى (شكل رقم ١) ـ من أخطار السيول، هدفاً يسعى المسلمون إلى تحقيقه عبر كافة العصور. إن نظرة على مخطط المدينة تظهر أن المكانين (المسعى والحرم) يقعان في منتصف الطريق، التي يسلكها السيل من الجهة العليا للمدينة (المعلى)، إلى الجهة السفلى (المسفلة)، وهما معرضان بالدرجة الأولى إلى قوة جريان الماء المدمرة، إضافة إلى ما يخلفه السيل بعد انحساره من الطين والغرين.

السدود

تحويل مجرى السيل

لقد بنى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سداً كبيراً من الحجارة الكبيرة والتراب، إثر سيل داهم مكة أثناء سني حكمه[1]. ويعتقد البعض أن ارتفاع هذا السد، هو في حدود ارتفاع منطقة المدعى الحالية (شكل (١) رقم ٢٢) وبذلك حول مسار الماء في الجهة العليا من المدينة إلى اليمين وإلى اليسار، ووجد الماء طريقه إلى أسفل المدينة بواسطة شارعين رئيسين على جانبي المسجد. وفي عام ٧٠٠م (٨٠هـ) وإثر سيل آخر داهم المدينة، ظهر أن الترتيبات التي أقيمت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، غير كافية؛ لذا كلف الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مهندساً معمارياً مسيحياً بالقيام بإجراء الإصلاحات الضرورية، وإقامة

---

(١) يعرف هذا السيل بسيل «أم نهشل» لأنها ماتت فيه. وقد جرف السيل مقام إبراهيم إلى أسفل مكة، فلما علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك قدم إلى مكة في رمضان ١٧هـ، وحقق عن الموضع الذي اقتلع منه مقام إبراهيم، حتى تأكد له فأعاده إليه. ثم عالج موضوع السيل بأن أمر بردم أرض المدعى، لتعلو عن مستوى السيل، ليجري في مسيله بوادي إبراهيم. وهو ردم بني جمح، وقد كبس بالتراب والصخر العظام، فكان الركبان والمشاة يصعدون في الطريق المردوم حتى يشرفون في نهايته على الكعبة، لذلك سميت المنطقة بالمدعى. (السباعي ١٣٩٩هـ، ص٨٤).

المنشآت اللازمة لتحويل الماء عن المسجد الحرام[1]. ومن الجدير بالذكر أن الأمويين أرسلوا بنائين من النصارى لبناء المسجد في مكة. وأن المنع الصارم لغير المسلمين من دخول المدينة المقدسة قد بدأ في عصر العباسيين.

يسجل المؤرخون المكيون سلسلة طويلة من تلك الفيضانات الناجمة عن السيول، التي ينجم عنها خراب الكثير من المساكن، إضافة إلى غرق الناس والدواب، ويبقى الماء في المسجد لعدة أيام[2]. ويعاني المسجد الحرام والبيوت الأثرية من السيول أكثر مما تعانيه المباني السكنية، نتيجة لما يخلفه الماء من طمي وطين، يستقر في صحن المسجد الذي يصبح وكأنه حوض ضخم وعميق يتوسط المدينة بأسرها.

إزالة الإرسابات

ان بيت النبي ﷺ، وحانوت أبي بكر الصديق رضي الله عنه (كلا الاثنين في زقاق الحجر (شكل (١) رقم ٢٥) وكذلك مكان مولد الرسول ﷺ، ومكان مولد علي رضي الله عنه (الاثنان في شعب المولد (شعب بني هاشم) (شكل (١) رقم ٢٠) وأماكن أخرى يقوم الناس بزيارتها، جميعها تبدو الآن (١٨٨٥م، ١٣٠٣هـ) وكأنها تقع تحت سطح الأرض. وسبب ذلك أن أرض المدينة المقدسة ترتفع تدريجياً، نتيجة الطين الذي يحمله السيل، بالرغم من أن الناس يقومون بتنظيف هذه الرواسب باستمرار. من الجدير بالذكر أن الصفا والمروة كانتا تلتين مرتفعتين، لكنهما الآن لاترتفعان إلا قليلاً عن

---

(١) ذكر الأزرقي أنه حدث في عام ٨٠هـ، في خلافة عبد الملك بن مروان، سيل عظيم، سمي بسيل الجحاف، وقد صبح الناس يوم التروية، ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة، وهدم الدور والشوارع على الوادي، وقتل خلق كثير، فكتب عبد الملك إلى عامله على مكة بإصلاح ما تهدم، وتحصين دور الناس المطلة على الحرم. وعمل ردماً يقال له ردم الحزامية، لمنع الماء من دخول الحرم. ومن الجدير بالذكر أن الأزرقي قد ذكر أن عبد الملك بعث رجلاً نصرانياً مهندساً لإجراء هذه الترميمات (الأزرقي جـ٢ ص١٦٨).

(٢) ومن الجدير بالذكر أن مؤرخي مكة المكرمة جميعهم كالأزرقي والفاكهي والفاسي والغازي ذكروا الكثير من هذه السيول وأضرارها وقد ذكر الشيخ محمد طاهر الكردي في مؤلفه التاريخ القويم لمكة وبلد الله الكريم حتى عام ١٣٨٤هـ. وبعد هذا التاريخ جاء سيل ١٣٨٧هـ، ثم تلاه سيل الربوع في ٤/ ١١/ ١٣٨٨هـ، وكذلك سيل عام ١٣٩٩هـ.

مستوى الشارع. وبالرغم من أنه يتم رفع قواعد البناء لأي مبانٍ جديدة، فقد تم الحفاظ على ارتفاع الأماكن المقدسة على ماهي عليه، بحيث تبدو ارتفاعاتها أخفض من أي مكان آخر. ومن هنا أصبح من الضروري، وابتداء من آخر توسعة للمسجد أن تبنى الدرجات الحجرية في مداخل الأبواب، لمنع ماء السيل من الدخول إلى المسجد، ففي كل بوابة يوجد عدة درجات، ترتفع تدريجياً إلى أعلى، ثم تنخفض تدريجياً درجات أخرى مشابهة، يمكن النزول منها إلى رواق المسجد.

ومن الجدير بالذكر أن رواق المسجد مرتفع هو الآخر، ارتفاعاً ملحوظاً عن الصحن، الذي تتوسطه الكعبة، والتي بدورها تقع في أخفض نقطة من هذا الصحن. ومادامت هذه الأدراج في مداخل الأبواب، فإنها تحمي المبنى من دخول الماء. ولابد من إجراء تعميقات حول المسجد كل عدة سنوات، لإزالة الأتربة المترسبة، لتسهيل عملية مرور الماء بسهولة على جوانب المسجد، وعدم الدخول إلى داخله[1].

لقد كان الإحساس بالخطر الداهم من هذه السيول ينغص المسؤولين وحكام البلاد في الأحوال العادية. وعندما يرتفع الماء حوالي المتر داخل المسجد، لابد من الانتظار قليلاً حتى ينخفض مستوى الماء، بعدها يقوم المسؤولون بشحذ الهمم واستنهاضها بادئين بأنفسهم بالإسهام في تنظيفه.

أقنيه لتصريف السيول

لقد أمر السلطان مراد الثالث عام ١٥٧٦م (٩٨٣هـ)، إثر وقوع سيل مدمر، بتحويل مياه السيول القادمة من الجهة الشمالية الغربية إلى الجهة

---

(١) ذكر القطبي أن الأرض خارج المسجد الحرام من الجانب الجنوبي، الذي يجري فيه السيل تعلو باستمرار؛ ولذا لا بد من وجود هذه الدرجات التي تقف عائقاً دون دخول الماء، غير أنه بمرور الزمن وكثرة الرواسب يعلو سطح الأرض، فيغطي هذه الدرجات، مما يسهل دخول ماء السيل إلى الحرم؛ ولذا لا بد من تعميق مجرى السيل كل عشر سنوات مرة تقريباً. (انظر القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ١٤٠٣هـ، ص١٢٨).

الغربية من المسجد، بواسطة قنوات تحت سطح الأرض[1]. كما قام بتوسيع مجرى الوادي، عن طريق هدم كل البيوت في الجهة الجنوبية الشرقية، وكذلك فقد أمر بتعميق مجرى الوادي في محلة المسفلة (شكل (١) رقم ٥). ومنذ ذلك الوقت تحسنت الظروف كثيراً عما كانت عليه. غير أن سجل الكوارث التي تحدثها السيول المتعاقبة يلازم سكان المدينة بصورة لا ينساها المكيون. فإذا هطلت الأمطار الغزيرة على المدينة المقدسة، تجري هذه المياه في معظمها نحو الغرب. غير أن المناطق المنخفضة من المدينة، وعلى رأسها المسجد الحرام، سرعان ما تغمر بالماء. فعلى سبيل المثال في عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ)، كنت مرة في المسجد الحرام، حين بدأ نزول المطر، وبعد أقل من ربع ساعة، كان ارتفاع الماء حول الكعبة يزيد على القدمين، الأمر الذي يجعل هذا العطاء الإلهي الذي يجلب الخير والبركة، الذي ينتظره سكان الجزيرة العربية بفارغ الصبر، ينقلب أحياناً إلى كارثة تحل بالمدينة المقدسة.

الأسواق

تعتبر الصفا والمروة من شعائر الحج. وهما تلتان تقعان في بداية ونهاية أعرض شوارع المدينة المقدسة، وهو ما يعرف باسم المسعى (شارع المسعى). ويشكل القسم العلوي منه سوقاً مهمة ـ وفي الحقيقة فإن معظم شوارع المدينة الرئيسة هي أسواق ـ وعلى المقاعد الحجرية المبنية (الدكاك: جمع دكة) أمام المنازل، يعرض الباعة بضاعتهم. والسوق المتفرع من المسعى (سويقه) (شكل (١) رقم ٨) يشمل في كلتا جهتيه صفوفاً من المباني المجهزة على أساس أنها محلات تجارية (دكاكين)[2].

---

(١) ذكر السنجاري في أحداث عام ٩٨٣هـ، أن سيلاً عظيماً دخل الحرم، وملأ المطاف، وبلغ حد القفل لباب الكعبة، وتعطلت الجماعة سبعة أوقات، إلى أن تم تنظيفه من الطين، فبادر ناظر الحرم الشريف القاضي حسين المالكي والمعمار أحمد بيك في قطع مسيل وادي إبراهيم من الجانب الجنوبي، إلى أن ظهرت عشر درجات كانت مدفونة، فصار السيل إذا أتى انحدر بسهولة إلى المسفلة. وكذلك قطع من جهة باب الزيادة، من الجانب الشمالي، وجعل للسيل سرداباً من باب الزيادة إلى باب إبراهيم فأنصان المسجد.

(٢) هذا السوق كان يعرف باسم سويقة، وهو سوق قديم ذكره الأزرقي في أخبار مكة، وكان يقع ما بين المروة وقاعة الشفا، ويحوي دكاكين ومعارض لبيع الأقمشة، وقد أزيل في مشروع =

الأماكن التذكارية

إن إجلال وتعظيم بعض الأماكن التذكارية مثل البيوت التي ولد فيها الرسول ﷺ، وبعض الصحابة الكرام، أو البيوت التي سكنوا فيها، قد انتشرت منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام[1]. وقد استعملت هذه الأماكن كمراكز لحفظ أشياء مهمة مثل الحجر الأسود والحجر الأخضر(؟!). وحسب الأساطير المتأخرة فإن محمداً ﷺ أو علياً كرم الله وجهه قد استلم الحجر الأسود عند ولادته. وفي الحقيقة فإن معظم الحجارة، التي تنال شرف التقديس، لها المصدر نفسه الذي أخذت منه أحجار الكعبة ومقام إبراهيم. وفي زقاق الحجر الضيق (شكل (١) رقم ٢٥) يوجد حجران أسودان، مثبت كل واحد منهما على جهة من الشارع، ويقال إن أحدهما قد حيّى محمداً ﷺ، بينما يلحظ في الثاني تجويفاً، يحفظ آثار كوع محمد ﷺ. وهذه الحجارة كلها تحترم وتعظم بالقدر نفسه[2].

= توسعة المسجد الحرام ١٣٧٥هـ (الغامدي وزملاؤه، مكة المكرمة في شذرات الذهب، مطبوعات نادي مكة، ١٤٠٥هـ، ص١١٢).

(١) بدأ اهتمام حكام المسلمين الأوائل بالبيوتات الأثرية التي كانت للرسول ﷺ وصحابته الكرام. فقد روى الأزرقي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد اشترى منزل السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهو البيت الذي كان يسكنه الرسول ﷺ حتى الهجرة، فجعله مسجداً يصلى فيه. وقد عرف هذا البيت عند أهل مكة بمولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

وروى الأزرقي كذلك أن الدار التي ولد فيها الرسول ﷺ، قد أخذها عقيل بن ابي طالب حين هاجر الرسول ﷺ، فلم تزل بيده حتى باعها ولده إلى محمد بن يوسف، أخي الحجاج ابن يوسف الثقفي، فأدخلها في داره. وحين حجت الخيزران، أم الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد، اشترت دار ابن أبي يوسف، وأخرجت منها البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ وجعلته مسجداً (الأزرقي: ١٣٩٨هـ جـ٢ ص١٩٨ ـ ١٩٩).

وقد وجد العديد من البيوتات الأخرى، مثل دار سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ودار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وغيرها، وأصبحت هذه الدور مزارات تقام عندها حلقات الذكر والموالد، وكثير من الأمور البدعية، ومظاهر التقديس، التي تأباها الشريعة الإسلامية وقد انتهت جميع هذه المظاهر مع بداية العهد السعودي لمكة.

(٢) لم نجد فيما اطلعنا عليه من مراجع ما يكشف حقيقة ما ذكره المؤلف وربما تكون من الأمور البدعية التي انتشرت في مكة في تلك الفترة.

إن زيارات الأضرحة والقبور المقدسة، سواء الموجود منها في مقبرة المعلى شمال مكة، أو في المناطق المجاورة، أمر مألوف منذ القدم. والتقديس الزائف للموتى، قد زاد ازدياداً واضحاً مع مرور الزمن. ففي السابق كان الناس يزورون القبور الحقيقية لبعض الصحابة، مثل قبر عبد الله ابن الزبير، أو قبر عبد الله بن عمر، غير أنه في الفترة الحالية أصبح من المعروف أين دفنت خديجة زوج الرسول ﷺ[١]، وأين دفنت آمنة أمه[٢]. ومنذ بداية الحكم التركي أصبحت القباب المقامة على الضريحين المزعومين، من أكثر مقدسات المعلى قيمة. أما القباب المقامة على قبور الأولياء والصوفيين والأشراف سواء في مقبرة المعلى أو مقبرة الشبيكة أو على جوانب الشوارع والطرقات فهي أكثر من أن تحصى[٣].

أما الجبال المقدسة القديمة مثل جبل أبي قبيس في الحدود الشرقية للمدينة، أو غار حراء في جبل النور في الشمال الغربي، أو غار ثور جنوب مكة، وكذلك عدد كبير من المرتفعات والكهوف المنتشرة على طول الطرق المؤدية إلى المشاعر المقدسة في منى وعرفات، فقد أضيف إليها أساطير مختلفة، تشجع على زيارة هذه الأماكن والصلاة فيها والتبرك بموجوداتها[٤].

---

(١) يوجد في مقبرة المعلى مكان يعرف بقبر السيدة خديجة رضي الله عنها. ويروي الجاسر أن هذا القبر كان مجهولاً، حتى كان منتصف القرن الثامن (٧٤٠هـ)، فرأى أحد الأولياء رؤيا بأن هذا الموضع هو قبر خديجة، ووصل الخبر إلى والي مكة، فعمل إشارة ثم عمل قبة فوق المقام، وقد أصبحت تعرف بقبر السيدة خديجة، وقد أزيلت القبة، وكذلك مظاهر التقديس لها، حينما دخل الملك عبد العزيز رحمه الله الحجاز. (الجاسر: الآثار في مكة المكرمة، محاضرة منشورة في إصدار اللجنة الثقافية العامة بجامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ، ص١٢٧).

(٢) الثابت تاريخياً أن آمنة أم الرسول ﷺ قد توفيت بالأبواء، وليس بمكة، وسيرد تفصيل ذلك في موضعه بالجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) لقد أزيلت جميع هذه القباب من على كافة القبور الموجودة في المعلى وفي غيرها من أحياء مكة المكرمة بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز.

(٤) لقد أورد المؤلف ذكر العديد من المزارات والجبال بصورة تفصيلية بالجزء الثاني من هذا الكتاب لذا سنرجع الحديث عنها والتعليق عليها إلى الفصول اللاحقة.

المباني المرموقة والشوارع الرئيسة

إن القادم من المشاعر المقدسة (منى وعرفات) إلى مكة يلحظ في حي المعابدة، وهو حي البدو الشمالي (شكل (١) رقم ٤١) بيتاً يمكن أن نطلق عليه في تلك المنطقة قصراً، وهذا القصر كان يقطنه الشريف الكبير عبد المطلب، والذي أقصي من منصبه في الآونة الأخيرة. وإذا تجاوزنا القصر، تبدو لنا مقبرة (المعلى)، والتي يمر الطريق منها متجهاً إلى أسفل، حيث الشارع الرئيس. وهناك بنى عمر بن الخطاب سداً أو ردماً في منطقة المدعى (شكل (١) رقم ٢٢). وإذا انحرف المرء إلى يمينه فإن الطريق توصله إلى حي القرارة (شكل (١) رقم ٩) حيث بنى الشريف الجديد المعين وأقرباؤه بيوتاً حكومية للسكن. أما قصور الشريف الكبير الذي يحكم مكة وأخوه المتوفى (شكل (١) رقم ١٨، ١٩) فتقع على جانب الشارع الرئيس، الذي يجري السيل في وسطه، ويدعى شارع الغزة. والسيل يجرى عبر حي الغزة، وسوق الليل ـ حيث كان منزلي فيه بالقشاشية ـ وهما يحويان صفوفاً من البيوت الأنيقة من كلا الجانبين. وعلى الزاوية حيث ينتهي هذا الشارع بالمسعى (شكل (١) رقم ٢٤) يقع مقر الوالي العثماني عثمان باشا (١٨٨٢ ـ ١٨٨٦م) (١٢٩٩ ـ ١٣٠٣هـ) حيث يقطن ويزاول عمله هناك[(١)]. (شكل (١) رقم ٣٢).

تتكون الأحياء الداخلية من المدينة، من عدد من الأزقة شبه المظلمة، والمنتشرة بصورة غير منظمة. أما الشوارع العريضة، ذات البيوت المكونة من ثلاثة طوابق أو أكثر، فتعطي الانطباع العصري عن المدينة المقدسة، ويبدو أن البيوت تحتوي على طوابق أكثر مما يظهر، وذلك لأن أسطح

---

(١) عثمان نوري باشا: عين قومنداناً للعساكر (قائد عسكري) ليساعد والي الحجاز أحمد عزت باشا، ثم ما لبث أن عين والياً على الحجاز، خلفاً لأحمد عزت باشا بتاريخ ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م. وقد قام هذا الوالي بإصلاحات عديدة منها إزالة بعض العوائق من صحن المسجد الحرام، وبناء قسم للشرطة في الصفا، وكذلك إنشاء دار الحكومة التي سميت بالحميدية، وأدخل المطبعة والتلغراف إلى مكة، وأنشأ مستشفى بمنى. إضافة إلى مورد مائي عند مسجد الخيف (انظر مغربي ١٤١٠هـ، ص١٢١ ـ ١٣٠ نقلاً عن تاج تواريخ البشر لأحمد الحضراوي (مخطوط).

المنازل التي تستعمل كمكان للنوم في أيام الصيف الحارة، محاطة من جميع جهاتها بجدران صغيرة من الطوب المشوي.

مظهر مكة العام

إن منظر المدينة العام، وكذلك منظر مسجدها الحرام، يعطيان الزائر انطباعاً لمزيج نادر من الحضارات المتمايزة، فهناك أكواخ البدو البائسة، وهناك مساكن الزنوج (التكارنة) الشبيهة بخلايا النحل، وهناك المساكن الحكومية التي يشاهدها المرء في معظم المدن الإسلامية. وفي الوقت الحالي نشاهد المباني الحديثة والأنيقة، ومنها المبنى الحكومي الذي بناه عثمان باشا، والمسمى باسم السلطان (الحميدية، شكل (١) رقم ٣١) والذي يشاهد المرء من جهته الأمامية مؤخرة المسجد الحرام (الجزء العلوي من الشكل رقم ١). وفي الخلف تقوم القلعة الكبيرة [قلعة أجياد] التي تم إصلاحها من قبل الباشا. وهناك مبنى الشرطة القديم[١] (شكل (١) رقم ٤٣) الذي بناه الباشا مقابل بيته بالقرب من الصفا. وهناك القلعة الجديدة على جبل هندي[٢]. وهناك الشارعان اللذان يمتدان باتجاه الجنوب والغرب من المسجد، وهما المدعى والغزة، ويكملهما سوق الليل والقشاشية، وهذه الأماكن جميعها متميزة في مبانيها، وفيما عدا ذلك فيظهر النمط المتشابه في مختلف أحياء المدينة الأخرى[٣].

لقد وهب الله هذه المدينة، وحرمها المحيط بها من جميع جهاتها، الأمن المطلق والسلام الأبدي. ومن المفروض أن تراعى هذه الحرمة بالنسبة للناس

---

(١) يعرف أهل مكة هذا المكان باسم القرة قول (كركون الصفا).

(٢) يعرف جبل هندي باسم قعيقعان وهو أحد أخشبي مكة. وعرف بذلك لسكنى الهنود بجواره. وقعيقعان جبل ضخم، مشرف على المسجد الحرام، وكان في أعلى هذا الجبل قلعة، تعرف باسم قلعة جبل هندي. وقد أزيلت مؤخراً، وقام مكانها مدرسة عرفات المتوسطة، وبجوارها محطة إرسال إذاعة نداء الإسلام.

(٣) الطريق المتجهة من المعلى إلى المسجد الحرام تتفرع عند مسجد الراية إلى فرعين: أحدهما يسير عبر الجودرية والمدعى إلى المسعى، ومن ثم يواصل سيره عبر سويقة، التي دخلت في التوسعة الغربية للحرم، إلى الشبيكة فحارة الباب. أما الطريق الثاني فيتجه نحو المسجد الحرام، ويمر عبر الغزة وسوق الليل والقشاشية، ثم يصل إلى الصفا، ويتجه نحو أجياد فالمسفلة. وعلى طول هذين الشارعين تقوم العمارات العالية التي يسكنها علية القوم في مكة.

والدواب والنبات. وحرمة البيت أمر متعارف عليه منذ الجاهلية، وقد أكد الرسول ﷺ هذه الحرمة في الإسلام بعد فتح مكة[1].

غير أنه من المؤسف حقّاً أن هذه الحرمة لم تراعَ في كثير من عهود التاريخ، الأمر الذي برز معه الخلاف على أشده بين الفرقاء، وظهرت معه المنازعات والخصومات، وهذا ما سوف نلقي عليه الضوء من خلال تطور الحياة السياسية في المدينة المقدسة.

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح، فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله عز وجل إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا يُنَفّر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم قال: إلا الإذخر (متفق عليه) (محب الدين الطبري، القرى لقاصد أم القرى، ١٣٩٠هـ ط٢ ص٦٣٥).

الفصل الثاني

مكة في عصر الخلفاء
من نشوء دولة الأشراف حتى عام ١٢٠٠م (٥٩٧هـ)

مكة في عهد الرسول الكريم

فتح محمد ﷺ مدينة آبائه بعد سبع سنين من الجهاد المستمر. ولقد كانت قريش أول أمرها مقتنعة بقوة الدين الجديد، أكثر من اقتناعها بصدق الرسالة والنبوة. وقد سهل النبي ﷺ لأهل مكة الانتقال إلى حظيرة الإسلام، عن طريق إعطائهم المزيد من الامتيازات. وقد أصبح هؤلاء مسلمين حقاً، بعد أن رأوا أن طريق العظمة الوحيد، هو طريق الإسلام الذي سلكوه. وقد أصبحت مكة مركزاً مهماً من مراكز الإسلام فيما بعد، بإبقاء الإسلام لشعيرة الحج، وكذلك بقيت مركزاً مرموقاً للتجارة. وقد عين الرسول الكريم ﷺ قبل رحيله إلى المدينة المنورة حاكماً في مكة[١] ينتمي إلى إحدى العائلات المرموقة[٢]. وكان قد أسلم حديثاً.

ولمّا توفي الرسول ﷺ، واستخلف المسلمون أبا بكر الصديق، هم بعض أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، فخافهم الوالي فتوارى عن الأنظار. ولما تراجع الناس عما هموا به، عاد الوالي إلى ممارسة صلاحياته[٣].

---

(١) ولي أمر مكة بعد الفتح عتاب بن أسيد. وكان قد أسلم يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

(٢) كان عتاب من أفاضل بني أمية ينتهي نسبه إلى قصي بن كلاب.

(٣) جاء في كتاب الكامل لابن الأثير أنه لما سمع أهل مكة بموته (الرسول ﷺ) هم أكثرهم بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل ابن عمرو على باب الكعبة، وصاح بهم فاجتمعوا إليه، فخطبهم ووعظهم ونهاهم عن الردة. فتراجع الناس عما هموا به وظهر عتاب بن أسيد (ابن الأثير ج٢ ص٣٢٤).

مكة في عهد الراشدين

وفي عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول (٦٣٢ ـ ٦٥٦م) (١١ ـ ٣٦هـ) كانت إدارة مكة في أيدي نفر من أبنائها[١] وهم في الغالب من زعماء قريش. ولم يكن لشخص والي مكة خلال هذه الفترة إلا أهمية نسبية. ويبدو ذلك واضحاً من أن المؤرخين مختلفون في ترتيب حكم هؤلاء ومدتهم، الذين ولوا أمر مكة إبان هذه الفترة. وهناك استثناءان يستحقان الذكر: أحدهما أن أحد ولاة عمر بن الخطاب[٢] رضي الله عنه استخلف على مكة أحد مواليه، حينما سافر لمقابلة الخليفة رضي الله عنه عمر ببلدة عسفان. فقال عمر للوالي: من استخلفت على مكة من بعدك؟ فقال: استخلفت عليهم رجلاً من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين. أما الثاني فهو تعيين أحد الحضارمة أميراً على مكة في خلافة عثمان[٣]. وفي هذا دلالة على أن حضرموت كانت ترسل بالمهاجرين إلى مكة، منذ عصر ماقبل الإسلام. وأنهم منذ ذلك الوقت كانوا يعتبرون مواطنين. وأن الوثائق التاريخية القديمة تثبت أهمية هذا الشعب وأثره في المدينة المقدسة.

كان يلي شؤون الحج في الجاهلية أحد القرشيين، الذي يتولى قيادة جموع الحجيج، أثناء تنقلها بين المشاعر المقدسة، ويحافظ على الأمن والنظام، اثناء حلها وترحالها بين مناطق النسك المختلفة. ولما جاء الإسلام، كان يأتي مكة في كل عام من مقر الخلافة (في البداية كان من المدينة) وفد كبير من الحجاج، يرأسه الخليفة أو من ينيبه عنه. أما القيادة أثناء الحج فكانت تعطى له أو لحاكم مكة. وقد حفلت كتب التاريخ بذكر

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣٨٠ ـ ٣٨١، ج٢ ص١٧ ـ ٣٦ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ١٥٨ ـ ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٢) هذا الوالي يدعى نافع بن عبد الحارث ولي مكة لعمر بن الخطاب. وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ابزي مولى بني خزاعة.

(٣) هذا الوالي هو عبد الله بن عامر الحضرمي كان عامل مكة سنة خمس وثلاثين من الهجرة. (انظر الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص١٦٥ وكذلك ابن الأثير ج٣ ص١٨٦ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٤٠، ٤٦١، ٤٨٦).

أسماء الأشخاص، الذين حظوا بشرف إمارة الحج، وسوف نورد بعض أسماء هؤلاء ممن لهم أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ هذه المدينة المقدسة.

لقد شكل اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بداية حقبة جديدة في تاريخ المدينتين المقدستين ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ. فقد برز زعماء مكة الأرستقراطيون في الجاهلية، ألا وهم الأمويون، الذين كانوا أقل شأناً من غيرهم في أوائل الدولة الإسلامية. لقد وجد هؤلاء، من خلال ذكائهم وشجاعتهم، الفرصة سانحة لكسب الزعامة، التي عجزوا عن الوصول إليها عن طريق سابقتهم في الاسلام، ولا سيما قد توسعت من خلال الفتوحات رقعة الدولة الإسلامية من منطقة صغيرة محدودة إلى إمبراطورية عظمى ممتدة الأطراف.

لقد كان اغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه قريبهم، والذي تم ربما بمساعدة من علي بن أبي طالب[1] كرم الله وجهه قد أزال كافة التحفظات لدى الأمويين. فقد رفعوا رؤوسهم وبدؤوا يتحدثون عن السلطة علناً في الحجاز، أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته، فلم يحالفه الحظ منذ توليه الخلافة. فقد خرج عليه الأمويون، كما وجد نفسه أمام معارضة من بعض الصحابة، وزاد الأمور سوءاً أن انفصل عنه بعد وقت قصير الخوارج الأشداء. لقد كانت اليد الأولى التي صافحته بالبيعة شلاّء[2]. وهكذا فقد كانت محاولاته ومحاولات أحفاده العديدة للاستمرار بالسلطة غير مثمرة.

لقد كان على علي بن أبي طالب أن يسافر بعد تسلمه مقاليد الحكم إلى العراق لقتال الخصوم؛ وهكذا انتقل مركز الثقل السياسي من المدينة المنورة

---

(١) إن هذا القول عارٍ عن الصِّحَّة، لأن علياً كرّم الله وجهه أرسل ولديه الحسن والحسين ليقوما مع مجموعة من الصحابة بحراسة بيت عثمان بن عفان رضي الله عنه غير أن الخليفة عثمان أصرّ على الجميع بالذهاب إلى بيوتهم، وأقسم عليهم بذلك، فما كان منهم إلا أن استجابوا لطلبه على مضض. وقد قال سيدنا علي كرم الله وجهه مرةً حينما سئل عن هذا الموقف «فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به» (انظر ابن الأثير ج٣ ص ١٧٤).

(٢) ابن الأثير، ج٣ ص١٩١.

إلى خارج الجزيرة العربية. وقد أصاب أحد أصدقائه حينما قال له: لاتغادر المدينة؛ لأنه إن غادرتها فلن يأتي أمير للمؤمنين إلى هنا مرة أخرى[1]. لكن علياً لم يستطع أن يتصرف خلاف ذلك. وقد أمضى علي رضي الله عنه سنواته الخمس وحتى موته عام ٦٦١م (٤٠هـ) في محاولة التغلب على الخصوم، وتثبيت أركان الدولة، دون أن يحرز نجاحاً كبيراً في هذا السبيل. وفي خلال هذه الفترة أبعدت الحروب التي دارت بين المسلمين انفسهم معظم سكان مكة الأقوياء عن موطنهم إلى مناطق القتال، ولم يبق في المدينة المقدسة سوى الذين اعتزلوا الفتنة وباعوا الدنيا، أو أولئك الذين خلدت أنفسهم إلى الدعة والراحة. والفريق الثاني كان لا يمانع في مبايعة هذا أو ذاك من الفرقاء المتنازعين. لقد ولّى علي قبل خروجه أحد أبناء عمه ـ من بيت العباس ـ أميراً على مكة. وكان قد عين أحد الأنصار أميراً عليها في السابق[2]. وأثناء النزاع بين علي ومعاوية كان كل فريق يرسل وفداً للحج. وكان لكل وفد أميره الخاص. وعندما وصل الوفدان عام ٦٦٠م (٣٩هـ)؛ وعلى رأس كل منهما أمير، أعطى الطرفان إمارة الحج لشخص ثالث محايد اثناء فترة الحج[3].

مكة في عهد الأمويين

لقد دان المسلمون في النهاية إلى سلطة الأمويين، الذين برزوا بصفتهم سادة أذكياء عالميا، كمابرزت دمشق بصفتها عاصمة جديدة للدولة الإسلامية.

وخلال التسعة عشر عاماً التي قضاها معاوية في الحكم ـ ذلك السياسي البارع، المتدفق بالحيوية ـ انضم معظم الصحابة مع انصار علي بن أبي طالب إلى صفوف المعارضة. غير أن أحداً لم يجرؤ على الظهور. فقد كان الخليفة الجديد يروض المعارضين بالتهديد حين لاتنجح الهبات والوعود في

---

(١) ابن الأثير، ج٣ ص٢٢٢.

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة أن علياً ولى أبا قتادة الأنصاري على مكة وهو فارس رسول الله ﷺ الحارث بن ربعي، وقيل النعمان بن ربعي، وقيل غير ذلك، ثم قثم بن العباس ابن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ بعد عزل أبي قتادة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٦٣ ـ ١٦٤ و ٢٣٤).

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٣٤ وابن الأثير ج٣ ص٣٧٨.

ذلك. لقد استطاع أن يضمن ولاء الحسن أكبر أبناء علي بن أبي طالب. أما الابن الثاني وهو الحسين فقد وضع السيف أمامه ليضمن مبايعته ليزيد. أما ولاته على مكة فقد كان معظمهم من الأمويين وبعضهم الآخر من القرشيين الموالين له[1]. والمؤرخون لا يذكرون من ولاة مكة إلا القليل، على عكس ولاة المدينة، الذين حظوا باهتمام أكبر، من قبل المؤرخين المسلمين.

لقد بقيت المدينة المنورة عاصمة الجزيرة العربية، بعد أن كانت خلال نصف القرن الماضي، عاصمة للدولة الإسلامية برمتها. والمدينة بحكم موقعها، أقرب إلى العاصمة الجديدة، وتحتاج القافلة بين مكة والمدينة إلى عشرة أيام، بينما يحتاج القارب السريع[2] إلى أربعة أو خمسة أيام فقط. لذلك كانت الأوامر والتعليمات تصل إلى مكة عن طريق المدينة. فقد كانت مكة تتبع إدارياً المدينة، كما تتبع الطائف مكة، التي تبعد عنها يومين أو ثلاثة باتجاه الشرق. وفي بعض الأحيان كان الحجاز بأسره، ومناطق اليمامة، تدار من قبل أمير يقيم في المدينة، وله ممثلون في المناطق الأخرى. وعندما عين معاوية أحد أقاربه أميراً على الطائف، قال الناس إنه يتعلم الحروف الهجائية، وعندما أضيفت إلى سلطته مكة المكرمة قيل إنه بدأ يقرأ القرآن، وعندما أسند إليه أمر المدينة المنورة قيل بأنه قد حفظ القرآن كله[3].

قوى المعارضة

لقد انتظرت القوى المعارضة للأمويين الفرصة المناسبة للخروج عليهم. وكانت معظم هذه القوى موجودة في المدينتين المقدستين، إضافة إلى الأقاليم

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٤١، ٤٢، ٦٤.

(٢) المقصود بالقارب السريع هنا الرحلة البحرية من ميناء الجار إلى جدة حيث كانت الرحلة بينهما تستغرق ما بين أربعة إلى خمسة أيام.

(٣) قال الطبري: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً، جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد (أي في أول الأمر، أبجد هوّز)، فإذا ولاه مكة قيل فيه: هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق (الطبري ج٢ ص١٦٧).

الأخرى. وبوفاة معاوية، بدا وكأن الفرصة قد واتت هؤلاء، فقد رفض عبد الله ابن الزبير، والحسين بن علي البيعة ليزيد، وخرجا من المدينة إلى مكة لتنظيم صفوف المعارضة. واتجه الحسين بن علي وربما بنصيحة من ابن الزبير إلى العراق، حيث يكثر أنصاره ومؤيدوه، بالرغم من الشكوك في ولائهم له. وفي معركة غير متكافئة، وبعد أن خذله مؤيدوه، قتل مع عشرين من أهل بيته بالقرب من تاف (كربلاء)[١]. وهكذا قضي على الرغبة الكامنة في نفوس أبناء علي في الوصول إلى الخلافة. وقد كان هؤلاء يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم. فكانوا ضحية الطموح الذي لم يتحقق[٢].

خلافة ابن الزبير

لقد زاد موت الحسين من تعصب الشيعة العلويين، غير أنه لم يزد في فعالية الحركة الشيعية. أما زعيم المعارضة في مكة عبد الله بن الزبير، فقد كثر أتباعه خارج الجزيرة العربية، مما ساعده على المطالبة بالخلافة لنفسه. ولم يستطع ولاة يزيد أن يمارسوا حكمهم سوى عام ونصف تقريباً، حيث طردوا من الأماكن المقدسة عام ٦٨٢م (٦٢هـ). ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ٦٩٢م (٧٣هـ)، فقد أطلق مؤرخو مكة لقب الخليفة على ابن الزبير،

---

(١) الطبري، ج٢ ص٢٧٥.

(٢) يبدو هذا الطموح وتلك الرغبة واضحة عند علي رضي الله عنه، ثم أبنائه من بعده، ونلمس ذلك في قول علي لابنه الحسن: لقد مات رسول الله ﷺ وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته، ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس عمر فبايعته. ثم إن عمر انتقل إلى رحمة الله، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فجعلني سهماً من ستة أسهم، فبايع الناس عثمان فبايعته...... (ابن الأثير ج٣ ص٢٢٣).

وكذلك تبدو هذه الرغبة في الخلافة من خلال رسالة الحسين (رضي الله عنه) إلى أهل البصرة: أما بعد فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به ﷺ، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فأستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ... وأن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري، أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله (الطبري ج٢ ص٢٤٠).

معتبرين مكة المكرمة هي عاصمة الخلافة الإسلامية[1]. غير أنه في عام ٦٨٣م (٦٣هـ) تغلب جنود يزيد في معركة حامية الوطيس، وأعادوا المدينة المنورة لسلطتهم. وكاد هذا يقع في مكة موطن ابن الزبير. غير أن موت يزيد أدى إلى سحب القوات الغازية، وعودتها إلى العاصمة دمشق. لقد أعاقت الخلافات التي نشبت بين الأمويين لتولي السلطة، وكذلك الحركات المناوئة للخلافة الأموية في العراق، القضاء على حركة ابن الزبير، حيث بقيت مكة المكرمة مركزاً سياسياً، وأصبحت المدينة المنورة تابعة لها، وتدار من هناك طوال تلك الفترة.

غير أنه في عام ٦٩٢م (٧٧هـ) قدم الوالي الأموي، ذو القبضة الحديدية، الحجاج بن يوسف الثقفي بجيش لقن فيه سكان الحرمين درساً قاسياً، مظهراً لهم أن عدم طاعة الأمويين خطيئة تستحق الموت. ورغم قدسية مكة فقد هوجمت بالنار والسيف. وقتل ابن الزبير (سيدنا ابن الزبير حسب التعبير المكي)، وبموته انتهت حركة التمرد ضد الأمويين. ويمكن القول إن مؤيدي ابن الزبير كانوا أقرب إلى الدين من خصومهم. وإنهم يمثلون من بقي من الصحابة، الذين لم يستطيعوا أن يرضوا بالوضع الجديد القائم منذ عهد الأمويين. ولقد أصبح هؤلاء فيما بعد أبطال عقيدة الشعب. وقد شهدت هذه الفترة اضطراباً سياسياً على مستوى الدولة بأسرها، ويكفي أن نذكر أن قافلة الحج في مكة المكرمة كانت تحت أربع رايات متنازعة. راية ابن الزبير الذي يمثل الخلافة المكية، وثلاث رايات أخرى إحداها تمثل الخلافة الأموية، وثانية تمثل الشيعة، وأخرى تمثل الخوارج، وقد تم اتفاق الفئات الأربع على أن يقود كل فريق جماعته ويحمل رايته الخاصة به أثناء فترة الحج[2].

الحركة العلمية

لقد انصرف سكان الحرمين الشريفين في العصور التي تلت إلى المجال الفكري. ذلك المجال الذي تربوا فيه أيام الصحابة، والذي لا يستطيع رجال السلطة منازعتهم فيه. ولقد ترك الأمويون معرفة القرآن والحديث وتطور

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨.

(٢) الطبري ج٢ ص٧٨٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٣٥.

التشريع لهؤلاء، واكتفوا بالسلطة الدنيوية، فقامت في المدينة المنورة أقدم مدرسة لدراسة التشريع، وبقي اسم الحرمين الشريفين مناراً لدراسة أمور العقيدة. وكثرت المدارس الفكرية، كما كثرت وجهات النظر المختلفة حول القضايا المطروحة. وأصبح هؤلاء العلماء يقدمون المثل الأعلى لغيرهم في الحرمين الشريفين، الأمر الذي ساعد على نوع من عدم الرضا على السلطة. فوجد عدد لابأس به من الموالين للحركات المطالبة بالوصول إلى الحكم، والتي كانت تنتظر الفرصة المواتية لذلك. وقد كان الحكام يعرفون هذه التوجهات لدى قطاع كبير من سكان الحرمين، غير أنهم لم يقوموا بالقضاء على ذلك، مادام لم يكن هناك أخطار تهددهم، لابل كان الحكام يهتمون بشؤون الحرمين، ولايناصبون أهلها العداء، لأنهم لو فعلوا ذلك أصبحوا غير محبوبين في مختلف أوساط العالم الإسلامي. وترينا قصة سعيد ابن المسيب مع الوليد بن عبد الملك، أثناء وجوده في المدينة، في موسم حج عام ٧١٠م (٩١هـ) مقدار الاحترام والتقدير لأهل الحرمين الشريفين[١].

ولاة مكة والمدينة

بعد عودة السيادة الأموية إلى الحجاز أصبحت المدينة المنورة عاصمة الجزيرة العربية، بعد أن كانت العاصمة مكة المكرمة أيام ابن الزبير؛ لذا

---

(١) ذكر الطبري في أخبار سنة ٩١هـ، أن الوليد بن عبد الملك حج في هذه السنة، فمر بالمدينة المنورة في طريقه إلى مكة. فلما دخل المدينة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه. فأخرج الناس منه، فما ترك فيه أحد، وبقي سعيد بن المسيب في مصلاه ما يجترئ أحد من الحراس أن يخرجه، فقيل له لو قمت قال: والله لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. قيل: فلو سلمت على أمير المؤمنين قال: والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد، رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة، فقال من ذلك الجالس ـ أهو الشيخ سعيد بن المسيب ـ فجعل عمر يقول: نعم يا أمير المؤمنين. ومن حاله ومن حاله... ولو علم بمكانك، لقام فسلم عليك، وهو ضعيف البصر. قال الوليد: قد علمت حاله، ونحن نأتيه فنسلم عليه. فدار في المسجد حتى وقف على القبر، ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فوالله ماتحرك سعيد ولا قام، فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ قال الوليد: بخير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقلت: أجل يا أمير المؤمنين (الطبري، ج٢، ص١٢٣٢).

من الطبيعي أن نجد أن المؤرخين يهتمون بذكر ولاة المدينة حسب السنين، غير أن مثل هذه المعلومات لم تكن كاملة بالنسبة لمكة[1]. فقد كان يرد اسم ولاة مكة، إذا عين الوالي على المدينة، ثم أضيفت إليه مكة أو الطائف، أو إذا عين أمير المدينة من ينوب عنه في تلك المدن. ومن استعراض قائمة أسماء الولاة نجد أن معظمهم من الأمويين، أو من العاملين المخلصين لبني أمية. لقد أخذ بعض هؤلاء الولاة السكان بالشدة والحزم، وحتى عندما نزل الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥م) (٨٦ ـ ٩٦هـ) عند رغبات السكان في المدينة، وعين عليهم الأمير العادل عمر بن عبد العزيز، الذي أخذ رغبات السكان بعين الاعتبار، اضطر الخليفة إلى عزله، واتخاذ إجراءات صارمة ضد عدم الانضباط[2]. لقد كان بعض الولاة مضطرين إلى اتخاذ إجراءات شديدة لحفظ الأمن، على غرار ما فعله خالد القسري أثناء ولايته لمكة. فقد كان صارماً في تعامله مع سكان المدينة المقدسة[3]. وقد

(١) يذكر الطبري ويتابعه ابن الأثير أسماء الولاة في المدينتين المقدستين. ومن خلال مقارنة المصدرين التاريخيين نجد بعض الاختلافات في الترتيب الزمني. وقد ذكر الفاسي جميع هؤلاء الولاة. وسوف لن نتناول قائمة هؤلاء جميعاً. إذ إنه من السهل الرجوع إليها في المصادر التاريخية السابقة (انظر الطبري ج٢، ص٧٥٤، ٨٧٣، ٩٤٠وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢، ص١٧١، وكذلك ج١، ص٣٩٧، ٤٠٠، و ج٢ ص٣٦، ٤٢، ٤٤، ٨٦) (المؤلف).

(٢) روى الطبري أن سبب عزل الخليفة لعامله عمر بن عبد العزيز، أن عمر كتب إلى الخليفة الوليد يخبره بجور الحجاج على أهل العراق، واعتدائه عليهم، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية. وقد بلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن من قبلي من مرّاق العراق، وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر علي لرجلين، فكتب إليه يشير إليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله، فولى خالداً مكة، وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبدالعزيز (الطبري ج٢ ص١٢٥٤).

(٣) يستدل لذلك مما قاله خالد بن عبد الله القسري كما روى ذلك الطبري حيث قال: «يا أيها الناس إنكم بأعظم بلاد الله حرمة، وهي التي اختار الله من البلدان، فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلاً. أيها الناس فعليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات، فإني والله ما أوتي بأحد، يطعن على إمامه، إلا صلبته في الحرم. إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلموا وأطيعوا، ولا تقولوا كيت وكيت. =

كان هو الشخص الذي حاول استبدال شبكة مياه جرها إلى المسجد الحرام بمياه زمزم.

ما يُعَيَّر به أهل مكة والمدينة

لقد كان سكان المدينتين المقدستين يستغلون أي ضعف من قبل السلطة الحاكمة لمصلحتهم. فقد كانت الثورة والعصيان من اختصاص تلك المدن، التي تغير طابعها تغييراً كلياً، تحت تأثير المجريات التاريخية، عبر القرنين الأولين للإسلام. لقد كان سكان المدينتين المقدستين يوصفون بأنهم: «أناس مدللون،عاجزون عن القيام بالحروب»[1] «شاربو السويق»[2] أهل البلاد «التي لا مال فيها ولا رجال، ولا سلاح ولا كراع»[3]. «أولئك الذين

= إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاءه. واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم، ويقيمون في بلادكم، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائف عن الجماعة، فإني لا أجد أحداً منهم في منزل أحدكم، إلا هدمت منزله، فانظروا من تنزلون في منازلكم. وعليكم بالجماعة والطاعة، فإن الفرقة هي البلاء العظيم».
وكان خالد القسري يقول: والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم، لو نطقت لم تقر بالطاعة، لأخرجتها من الحرم. إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة، زارٍ عليهم. (الطبري ج٢ ص١٢٣١).

(١) ابن الأثير ج (٥) ص (١٩٧).

(٢) السويق هي شوربة طحين حلوة (المؤلف) وردت هذه العبارة بمناسبة حصار أهل المدينة لبعض أفراد بني سليم، الذين حبسهم القائد (بغا) في المدينة، فحاولوا الهروب من حبسهم، فحاصرهم أهل المدينة. وقد أذن مؤذن أهل المدينة، ليلة حراستهم لبني سليم بليل، ترهيباً لهم بطلوع الفجر، وأنهم قد أصبحوا، فجعل الأعراب يضحكون ويقولون: ياشربة السويق، تعلموننا بالليل ونحن أعلم به منكم (الطبري ج٣ ص١٣٤١).

(٣) روى الطبري أنه لما ظهر محمد [النفس الزكية] لم يأته نافع بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، فأرسل محمد إليه، فأتاه وهو في دار مروان فقال: يا أبا عبد الله لم أرك جئتنا قال: ليس في ما تريد، فألح عليه محمد حتى قال: البس السلاح يتأس بك غيرك، فقال أيها الرجل إني والله ما أراك في شيء، خرجت في بلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح، وما أنا بمهلك نفسي معك، ولا معين على دمي، قال: انصرف، فلا شيء فيك بعد هذا (الطبري ج٣ ص٢١٧). وروى الطبري أن أبا جعفر المنصور دعا ابن حنظلة البهراني، وكان أبرص طوالاً، أعلم الناس بالحرب، وقد شهد مع مروان حروبه فقال: يا جعفر، قد ظهر محمد [يعني محمد النفس الزكية] فما عندك ـ قال: وأين ظهر ـ قال: بالمدينة. قال: فاحمد الله، ظهر حيث لامال ولارجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى لك تثق به فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه ميرة الشام، فيموت مكانه جوعاً (الطبري ج٣ ص٢٢٤).

تخلوا عن ابن الزبير في أحرج أوقاته»[1]. أولئك الذين قال عنهم عبد الملك في عام ٦٩١م (٧١هـ) لعامله في الكوفة: قبح الله رأيك، كيف تبعث أخاك أعرابياً، من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يحيي المزاح؟[2].

ويقول فيهم احد قادة العلويين، الذي قدم لإخضاع مكة، وقد حذره بعضهم من دخول المدينة «يابن الحائك، أبأهل مكة تخوفني، والله ما أبيت إلا بها أو أموت دونها»[3]. لقد كانت خطب الولاة، التي ينفسون فيها عن غضبهم، حيال تصرفات سكان الحرمين والتي تحمل التهديد والوعيد لهؤلاء، تظهر صفات الاستعلاء والتمرد، التي يمتاز بها هؤلاء السكان[4].

لم يجد الخوارج في المدينتين المقدستين أذناً صاغية. وعلى العكس من ذلك فقد كانت المدينتان المقدستان بيئة خصبة لنشاطات العلويين السرية. وهنا لابد لنا من أن نشير إلى قصة الشيعة. وكتابة هذه القصة تستلزم إلقاء الأضواء على أسس قوة العلويين في غرب الجزيرة العربية.

---

(١) روى الطبري عن المنذر بن جهم الأسدي قوله: رأيت ابن الزبير، يوم قتل وقد تفرق عنه أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحواً من عشرة آلاف، وذكر أنه ممن فارقه، وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أماناً (الطبري، ج٢ ص٨٤٥).

(٢) الطبري ج٢ ص٨٢٥، وكذلك ص١٣١٢.

(٣) هذا القول قاله الحسن بن معاوية، وقد أرسله محمد النفس الزكية لاحتلال مكة، فجاءه ابن جريج فقال له: أيها الرجل، إنك والله ما أنت بواصل إلى مكة، وقد اجتمع أهلها مع السري (والي مكة يومئذ)، أتراك قاهراً قريشاً، وغاصبها على دارها؟ قال: «يابن الحائك، أبأهل مكة تخوفني، والله ما أبيت إلا بها أو أموت دونها» (الطبري ج٣ ص٢٢٠).

(٤) من هذه الخطب خطبة خالد بن عبد الله القسري في أهل مكة، وقد ورد ذكرها فيما سبق ضمن هذا الكتاب وانظر الطبري ج٢ ص١٢٣١). ومن الخطب التي تحمل هذا المعنى وتجسده، خطبة عثمان بن حيان المريّ والي المدينة، وفيها يقول: «أيها الناس، إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه. وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً، أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق..». أيها الناس إنا والله مارأينا شعاراً قط مثل الأمن، ولا رأينا حلساً قط شراً من الخوف، فالزموا الطاعة، وإن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف. والله ما أنتم بأصحاب قتال، فكونوا من أحلاس بيوتكم، وعضوا على النواجذ. فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم، إنكم في فضول كلام غيره ألزم لكم، فدعوا عيب الولاة، فإن الأمر إنما ينقص شيئاً شيئاً، حتى تكون الفتنة وإن الفتنة من البلاء. والفتن تذهب بالدين والمال والولد (الطبري ج٢ ص١٢٥٩). (المحقق).

ظهور مصطلح الشيعة

كلمة شيعة لا تعني في اللغة غير حزب [1].. غير أنها استعملت منذ وقت مبكر وصفاً لحزب العلويين. وقد ظهر أمر الشيعة بعد اعتزال الصحابة للفتنة، وكذلك بعد الانتصارات الحاسمة على الخوارج، بحيث أصبح هؤلاء هم الحزب الوحيد، الذي يجد تمثيلاً له في كل مكان. وقد تزعم هؤلاء، المعارضة السرية والعلنية، في مختلف مناطق العالم الإسلامي، التي انتشروا فيها انتشاراً واسعاً.

لقد كان السبب الرئيس لعدم رضا علي بن أبي طالب، عن أبي بكر الصديق، هو أن أبا بكر لم يقبل أن يعطي علياً أراضي واحة[2] فدك، مما حدا به لتأسيس حزب خاص به[3].

---

(١) كلمة شيعة استعملت بمعنى حزب في مواطن كثيرة منها: شيعة النبي ﷺ (ابن هشام ص٣٢٣) شيعة عثمان (الطبري ج٢ ص١١٢، شيعة الأمويين (الطبري ج٢ ص٧٨٣) شيعة العباسيين (ابن الأثير ج٥ ص٢٧٦) وهناك أمثلة لا حصر لها تشهد على استمرارية استعمال كلمة شيعة بصورة عامة حتى بعد نزول القرآن (المؤلف).

(٢) قال ياقوت: فدك قرية أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً.. فبعد خيبر أرسل أهل فدك إلى الرسول ﷺ، أن يصالحهم على النصف في ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك، فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ، وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة، وهي التي قالت فاطمة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ نحلنيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه أريد لذلك شهوداً، ولها قصة. ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب بعده، لما ولي الخلافة، أن يردها إلى ورثة رسول الله ﷺ. فكان علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها. فكان علي يقول: إن النبي ﷺ جعلها في حياته لفاطمة، وكان العباس يأبى ذلك ويقول هي ملك لرسول الله وأنا وارثه، فكانا يتخاصمان إلى عمر، فيأبى أن يحكم بينهما ويقول: أنتما أعرف بشأنكما، أما أنا فقد سلمتها إليكما، فاقتصدا، فما يؤتى واحد منكما من قلة معرفة. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة، يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة: (وكان الأمويون قد وضعوا أيديهم عليها) فكانت في أيديهم في أيام عمر بن عبد العزيز، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها، فلم تزل في أيدي بني أمية، حتى ولي أبو العباس السفاح الخلافة، فقدمها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فكان هو القيم عليها يفرقها في بني علي بن أبي طالب. فلما ولي المنصور، وخرج عليه بنو الحسن، قبضها عنهم، فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم ثم قبضها موسى الهادي ومن بعده إلى أيام المأمون، فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب، فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها، فكتب السجل وقرئ على المأمون، وفي فدك اختلاف كثير في أمره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ﷺ. وفي رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء. ويرجح ياقوت رواية البلاذري في كتاب الفتوح، فليرجع إليها من يريد الاستزادة (معجم البلدان، ج٤ ص٢٣٨).

(٣) هذا محض افتراء لأن علياً كرم الله وجهه، لم يؤسس مثل هذا الحزب، لا في عهد أبي بكر، =

وقد كانت ممتلكات فدك مما كثر فيه الأخذ والرد. فقد كانت مرة تؤول لأملاك الدولة، وأخرى تعود إلى العلويين، بالرغم من أن إنتاجها من المزروعات قد تدنى كثيراً، وأصبحت قيمتها قليلة، مقارنة مع الأراضي الأخرى، التي امتلكها الأحفاد خارج الجزيرة العربية. غير أن الأهمية المعنوية لحيازتها من قبل العلويين كانت النقطة الأهم في هذا الموضوع. فقد كان ينظر إليها على أنها أجمل لقمة على مائدة المسلمين جميعاً. وقد حظي بعض الخلفاء باحترام العلويين وتقديرهم، حينما كانوا يأمرون بعودة هذه الأرض إلى أحفاد علي بن أبي طالب.

الأمر المهم لدى هؤلاء العلويين، هو أنهم طلاّب حق في الخلافة، وكانوا يسعون جاهدين في الوصول إلى السلطة[1]. وقد زاد الاقتناع بهذه المطالبة، حينما لم يملأ لهم الخلفاء وأصحاب النفوذ الأيدي بما فيه الكفاية. وقد كان هؤلاء الخلفاء، هم الذين يمتلكون الصرة والسيف، حسب المفهوم الشرفي، فهذه الأمور من حق الأمراء وحدهم.

العلويون في صفوف المعارضة

وقف العلويون في معظم أقطار العالم الإسلامي مع صفوف المعارضة. وكانوا يمنون، غير الراضين عن الحكم،

= ولا في عهد عمر، ولا في حياة عثمان رضي الله عنهم جميعاً، وقد بدأ يظهر مسمى شيعة علي، عندما هم بمغادرة المدينة إلى الكوفة، فخرج مع نفر من أبناء بيته، ومن شيعته، أي أتباعه وحزبه على المعنى السابق.

(1) حول هذا الموضوع انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣١، وكذلك اليعقوبي ج٢ ص١٤٢ و٣٦٦، وكذلك الطبري ج٣ص٢٠٩، ٤٣٠، ٤٣٣، ٥١٤، ٦١٧. ففيها تفصيلات كثيرة عن هذا الموضوع، انظر أيضاً النزاع الشعري بين ابن المعتز والعلويين، فقد نادى هذا الشاعرالعباسي العلويين بقوله:

دعوا الأُسدَ تفرس ثم اشبعوا ... بما تفضل الأسد في غابها
قتلنا أمية في دارها ... وكنا أحق بأسلابها
ولما أبى اللّه أن تملكوا ... نهضنا إليها وقمنا بها

(انظر أخبار مكة المشرفة ج ٣ ص١٥٤ ـ ١٥٦) المؤلف.

بحياة أفضل، إذا ساعدوهم في الوصول إلى السلطة. وهكذا فقد تلون برنامج العلويين بألوان مختلفة، واتخذ أشكالاً وصوراً متعدّدة متباينة، تشبه ماهو موجود من تباين في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. ومن هنا فقد اعتمدوا على عناصر وطنية قديمة، وعلى عادات وعقائد رفضها الإسلام.

انقسام الشيعة

لا يمكن القول بأن للشيعة عقيدة دينية خاصة، أو حتى مبدأ سياسي معين، وحتى مفهوم الإمامة، لم يكونوا يجاهرون به إلا في البلدان، التي لها أرضية، تساعد على قيام مثل هذا المبدأ. لقد اقتتلت الفئات المختلفة من هؤلاء فيما بينها، بسبب بعد فئة من الأخرى. وقد كانت المصالح المتضاربة من أهم أسباب الانقسام. وبمرور الزمن وجدت فروع في الشيعة، طورت لنفسها مبادئ خاصة، وتشريعاً خاصاً، وتقاليد خاصة بها. وقامت فروع أخرى تحت مظلة حماية فارسية[1]. وهناك آخرون من هؤلاء سنيون كلياً، لم يتكلموا فقط إلا في الحصول على الخلافة. وفي داخل هذه الأقسام نجد تاريخاً كثير الحركة والتغير، بحيث يمكننا القول إنه لم يبق من أصلهم سوى الاسم. ويدلنا على ذلك أن الزيدية مثلاً كانوا في الأصل، ذوي مبادئ مخالفة للرافضة. غير أنه في القرن الثاني عشر، كان زيدية الجزيرة العربية، يطلق عليهم الرافضة؛ لأنهم وقفوا في ذلك الوقت ضد أهل السنة. ومن الجدير بالذكر أنه لا يمكن إعطاء وصف مجمل بالنسبة لتاريخ وأعمال الشيعة، بل لا بد من حصر هذا التاريخ في بلد محدد، وخلال فترة زمنية محددة ومعلومة، ليكون الوصف أكثر دقة بهذا الخصوص.

---

(١) لقد عملت المطاردات، التي تعرض لها زعماء العلويين، من قبل السلطات الحاكمة، بصورة غير مباشرة، على التجاء هؤلاء إلى العناصر الأجنبية. فمنذ عام ٦٧٢م كان أحد الحسنيين يعيش في كنف أحد أمراء السند الكفرة (الطبري ج٣ص٣٦٤) وقد هرب الكثير من العلويين إلى بلاد الديلم، التي كان يضرب المثل في عدم إيمان سكانها (المؤلف).

أراضي فدك

في غرب الجزيرة العربية، كانت أول ملكية للأرض، من قبل العلويين، هي أراضي فدك، وكذلك بعض الأراضي التي منحها الرسول ﷺ لعلي كرم الله وجهه. وقد ذكرنا آنفاً أن الخليفة الأول قد أضاف هذه الأملاك إلى بيت المال، ولم يمنحها علياً. ولما صار الأمر إلى علي، لم يترك الفرصة تذهب دون أن يستفيد منها، في زيادة ممتلكات أهل بيته من العلويين[(١)]. وأثناء حكم بني أمية أغدق بعض خلفائهم الأموال والهدايا على أبناء وأحفاد الحسن والحسين، مما حدا بعلي بن الحسين في عام ٦٨٣م (٦٤هـ) أن يحمي الأمويين بعد طردهم من المدينة[(٢)].

كانت مختلف فروع العائلة العلوية، وكذلك أحفاد جعفر بن أبي طالب، أخي علي، من ملاك الإقطاعات الواسعة في البلاد المقدسة. وقد كثر هؤلاء وزادت أعدادهم فكان ذلك مدعاة لهجرتهم إلى أمصار العالم الإسلامي المختلفة. وقد استفاد هؤلاء من الشعور بعدم الرضا لدى سكان هذه الأمصار، ونجحوا في الحصول على مناصرة الأغلبية العظمى منهم. ولقد كان مركزهم الاجتماعي بصفتهم ملاك أراضٍ واقطاعات، قد مكنهم من التأثير في بعض أوساط المجتمع. ولاشك أن صلة قرابتهم مع رسول الله ﷺ، قد زادت من احترام الناس لهم. غير أن الانشقاق والتناحر وربما تبني بعض العادات السيئة[(٣)] مثل شرب الخمر قد أثر في شعبيتهم في المحيط العربي. وقد كانت هذه الأسباب ربما اجتذبت القلوب لهم في

---

(١) هذا الكلام غير صحيح لأن ملكية فدك أعيدت إلى ورثة رسول الله ﷺ في عهد عمر ابن الخطاب قبل تولي علي الخلافة بزمن طويل.

(٢) ذكر الطبري أن يزيد أوصى قائد جيشه الذي وجهه إلى المدينة فقال: ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم. . . . . وانظر علي بن الحسين، فاكفف عنه، واستوصى به خيراً، وأدنِ مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه، وقد أتاني كتابه. . . وكان علي بن الحسين، لما خرج بنو أمية نحو الشام، آوى إليه ثقل مروان بن الحكم وامرأته عائشة بنت عثمان ابن عفان (انظر الطبري ج٢ ص٤٠٩).

(٣) زعم المؤلف أن من بين هذه العادات السيئة شرب الخمر، وقد استدل لذلك بحادثتين: =

بلدان أخرى غير المحيط العربي. لقد كان في المحيط العربي جميع الفرق والأحزاب السياسية، لكن محبة آل البيت كانت موجودة عند الأغلبية من الناس من أصحاب هذه الفرق المختلفة.

تقدير آل البيت

وقد زاد هذا التقدير بمرور الزمن. وإن شتمهم على المنابر، والذي ابتدعه الأمويون، والذي ألغي عام ٧١٧م (٩٩هـ)، لم يكن بالإمكان إعادته بعد عشر سنوات عام ٧٢٧م (١٠٩هـ). فعلي بن الحسين أصبح عظيم الشأن بالمدينة المنورة. وقد تم عزل الوالي الأموي الذي عامل المرأة العلوية معاملة سيئة[١]. وفي عام ٧٤٠م (١٢٣هـ) عندما قتل زيد، حفيد علي الثائر في العراق، لم يكن بالإمكان عرض رأسه في المدينة؛ لأن له أتباعاً كثيرين في غرب الجزيرة العربية.

= أولاهما أن عبد الرحمن بن الضحاك، والي المدينة ليزيد بن عبد الملك، قد شدد على الهاشميين في المدينة، وبدا له أن يتزوج فاطمة بنت الحسين، وكانت أرملة الحسن ابن الحسن بن علي، ولم تكن صغيرة في السن، فابنها عبد الله بن الحسن قد بلغ سن الشباب، فاعتذرت فاطمة، فأرسل يهددها، بأنه سيجلد ابنها عبد الله بتهمة شرب الخمر، إن لم توافق على الزواج منه، فبلغ الغيظ مبلغه في نفسها، فأعلمت الخليفة بذلك، فعزل ابن الضحاك عن المدينة، وأغرمه أربعين ألف دينار، وأمر بتعذيبه جزاءً على ما فعل. (التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج١ ص٤٢٠ ـ ٤٤١).

أما الحادثة الثانية فقد رواها الطبري بوصفها سبباً من أسباب خروج الحسين بن علي ابن الحسن بفخ، فذكر أن أمير المدينة أخذ ثلاثة أشخاص من بينهم أحد أحفاد الحسن ابن علي، على شراب لهم، فأمر بهم، فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبالاً، وطيف بهم في المدينة. فذهب الحسين بن علي وكلم الأمير وقال له: ليس هذا عليهم، وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم؛ لأن أهل العراق لا يرون به بأساً، فلم تطوف بهم؟ فبعث إليهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة (الطبري ج٢ ص٥٥٢).

إن هاتين الحادثتين ليستا دليلاً ينهض على استباحة العلويين لشرب الخمر. فالحادثة الأولى كانت المكيدة فيها واضحة، وهي تهديد لتحقيق مآرب الوالي. أما الحادثة الثانية فأرجح الآراء أن الشراب لم يكن خمراً؛ لأن الخمر لا يستباح في العراق ولا في غيره، ولا سيما أن الذي تشفع بهم كان من أشد الهاشميين ورعاً، وهو الذي أطلق عليه شهيد فخ (المحقق).

(١) الطبري ج٢ ص١٤٤٩.

لقد كانت المنطقة المحيطة بالمدينة، وخاصة المنطقة الواقعة إلى الغرب، بؤرة التأثير العلوي في الجزيرة العربية. فكان لهم منطقة ينبع[١]، والأراضي الواقعة مابين ينبع والمدينة، وبعض الأراضي في المنطقة المجاورة لقبائل جهينة، بالقرب من جبال رضوى[٢]. وكان لهم مركز آخر في سويقة[٣]، إضافة إلى بعض المواقع الأخرى. وكان الخصام يدب أحياناً بين الفرعين الحسني والحسيني، وحتى بين الحسنين أنفسهم، حول إدارة هذه الأملاك، وتوزيع منتوجاتها[٤]. مماكان يدخل السرور على نفوس أعدائهم.

دور الحسنيين في تاريخ الحرمين

لقد كان تأثير أبناء الحسن أكبر من تأثير أبناء الحسين، فقد لعب الحسنيون دوراً عظيماً في تاريخ الحرمين. ولذا سوف نخصهم بالعناية والاهتمام. وسيكون اهتمامنا باثنين من أبناء الحسن هما: الحسن المثنى وزيد[٥]. والحسن المثنى هو سيد سويقة، وهو الذي سنوليه مزيداً من الاهتمام؛ لأن أحفاد زيد قد انضموا منذ البداية إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين، ضد أقاربهم، بحيث كان ينظر إليهم من قبل آل الحسن المثنى على أنهم عيون وجواسيس للسلطة[٦].

---

(١) ينبع: وادٍ كثير القرى والعيون والسكان، يقع غرب المدينة المنورة. ومن أهم مناطقة المعمورة الآن بلدتا ينبع البحر وينبع النخل. وإذا ذكر ينبع في كتب المتقدمين إنما يراد به الوادي لا المدينة. وكان الوادي من أملاك علي بن أبي طالب رضي الله عنه، اشتراه بثلاثين ألفاً، من عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، ثم آلت إلى أحفاد علي بن أبي طالب (البكري ج١ ص٦٥٦).

(٢) رضوى: جبل شاهق قرب ينبع، كان يسكنه آل الحسن بن علي بن أبي طالب (البلادي ح ٤ ص٥٤).

(٣) سويقة: موضع قرب المدينة المنورة، كان يسكنه آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد خرج منها أحد العلويين ثائراً على المتوكل الخليفة العباسي، فأنفذ إليه جيشاً ضخماً فظفر به وبجماعة من أهله وقتل بعضهم وأحرق سويقة. وهي من منازل بني الحسن. وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب رضي الله عنه (البلادي ج٤ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٤) عمدة الطالب ص٧٧ ـ ٧٨ و٨٢.

(٥) المصدر السابق ص٤٥.

(٦) نفس المصدر ص٤٩.

نشر الحسنيون الإسلام خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) بين سكان الديلم. وبمساعدة هؤلاء كوّنوا في طبرستان سلالة علوية[١] غير أنهم لم يحرزوا النجاح نفسه في الحرمين الشريفين[٢].

لقد تفرق أحفاد الحسن المثنى في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ووصلوا إلى أفريقيا وخراسان، لكن الأغلبية العظمى وخاصة أحفاد عبد الله الصالح (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٩) حفيد الحسن الثاني، قد انتشروا في مختلف مناطق الجزيرة العربية، مؤلفين آلاف الأسر العلوية[٣].

إن أصالة انتساب هؤلاء إلى الفرع العلوي غير متنازع عليها. غير أنه بالرغم من العناية الفائقة في تدوين الأنساب منذ القدم[٤] إلا أنه حصلت بعض الحالات التي تسترعي الانتباه[٥]. فهناك مزاعم خاطئة في الانتساب إلى العلويين، كانت تساوي الأدعياء مع الأصلاء. ولكنه بقدر ماهو سهل أن تجد مثل هذه المزاعم طريقها في البلاد البعيدة والمدن الكبيرة، بقدر ماهو صعب، وحتى شبه مستحيل، أن يتم ذلك داخل الجزيرة العربية[٦].

العلويون كانوا معروفين في مناطقهم من قبل الناس جميعاً. وكان العلويون يعرفون أقاربهم في الجزيرة العربية. وكان من مصلحتهم أن ينظروا بالريبة والشك في أمور مثل هذه. فهم يتميزون عن بقية الناس، حيث إنهم لا

---

(١) الطبري ص١٥٨٥ و٢١٤٧.

(٢) عمدة الطالب ص٥٢، ٥٥، ٦٠، ٦٦، ٦٩، ٧٠.

(٣) المصدر نفسه ص٩٠ ـ ١٠٩.

(٤) ذكر الطبري مقدار الاهتمام الذي كان يوليه الناس للأنساب، أن المنصور أرسل جيشاً للقضاء على عبد الله بن محمد الأشتر العلوي، الذي كان يعيش في السند، ولما ظفر به قائد جيش المنصور أرسل ابنه الصغير مع أمه، وكانت أم ولد، إلى المنصور. فما كان من المنصور إلا أن كتب إلى واليه بالمدينة يخبره بصحة نسب الغلام، وبعث به إليه، وأمره أن يجمع آل أبي طالب وأن يقرأ عليهم كتابه بصحة نسب الغلام ويسلمه إلى أقربائه. (الطبري ج٣ص٣٦٤).

(٥) يذكر علماء الأنساب أمثال هذه الحالات عند حديثهم عن ذلك. كذلك كانوا يذكرون بعض الحالات التي يتم فيها تحديد الأنساب عن طريق القيافة (انظر عمدة الطالب ص٨٦) (المؤلف).

(٦) عمدة الطالب ص١١٤.

يعطون بناتهم للزواج إلا لمن هو من سلالتهم. وفوق هذا كانت لهم ملابسهم الخاصة، وحتى أسلحتهم الخاصة، إلى غير ذلك مما يميزهم عن غيرهم. وعند العرب لاتجد الأنساب دقيقة فحسب، بل إن مربي الخيول، يهتمون كثيراً بأنساب خيلهم، مما يجعل الخطأ في الأنساب أمراً نادر الحدوث.

بنو أخيضر

لقد هاجر بعض أفخاذ آل الحسن وهم بنو أخيضر (انظر شجرة النسب الأولى رقم١٥، ٢٠، ٢١) إلى اليمامة، ووصلوا إلى مرتبة السيادة، والسلطة هناك. غير أنهم بمرور الزمن فقدوا هذه السيادة إلا أنهم حافظوا على أصلهم الرفيع، دون أن يمتزجوا بالعناصر الأخرى، غير أن شجرة نسبهم غير معروفة لهم، وهم يدعون بني يوسف. وهذا ما أوجد بعض الشكوك حول نسبهم، غير أن ذلك الشك هو أقل بكثير من الشكوك التي تعتري نسب بعض العائلات العلوية المعروفة في المدن الرئيسة[١].

لقد كانت أرض الآباء في الجزيرة العربية لاتعطي الأبناء بما فيه الكفاية. لذا جرَّب الأبناء حظهم بطرق مختلفة، فقد اشتهر بعض هؤلاء بصفتهم فقهاء وشعراء وقضاة وأمراء. لكن الأغلبية من أشراف الجزيرة عاشوا، كبقية أبناء البلاد في الفقر المدقع، إما قرويين أو بدواً، محتفظين بفخر نسبهم الرفيع، الذي كان معروفاً ومعترفاً به من قبل الجميع في كل مكان[٢]. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل شغل بعضهم مهنة قطع الطريق. ومن بعض هؤلاء ظهرت أكثر العائلات شهرة.

من الغريب أن نجد أن هذا النسب الرفيع، الذي يعتمد كلية على الدين، يلقى اعترافاً عاماً بين البدو المعروفين بالبساطة والحذر. حتى إننا لنجد أن أكبر شيوخ البدو، كان يقف أمام أفقر الأشراف، ويقبل يديه، ويعطيه أفضل ما يملك.

البدو أصحاب ورع طبيعي

إن الاعتقاد السائد حول عدم تدين البدو، وعدم تقواهم، هو تعميم خاطئ. ويرجع سببه إلى أوهام سكان المدن الذين لا يتصورون ورعاً

---

(١) عمدة الطالب ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه ص٩٦، ٩٨، ١٠٠).

كورعهم، وهؤلاء لا يدركون بأن البدو الذين لا يهتم أحد بتربيتهم، قد تلاءموا مع الإسلام بطريقتهم الخاصة. وبالرغم من هذا الوهم الخاطئ، الذي يجعل البدوي في عين ساكن المدينة إنساناً غير مؤمن، إلا أن لدينا منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، شهادات لا شك فيها أن هؤلاء البدو لديهم ورع طبيعي، يعبر عن نفسه بصورة مخالفة للنواحي الشرعية المعروفة[١].

لقد كانت قبائل السرو في اليمن، تزود مكة المكرمة بجزء من احتياجاتها من الحبوب والعسل وغيرها[٢]. وهؤلاء لا يعرفون إلا القليل عن الإسلام. وبعضهم لا يعرف قراءة الفاتحة. ولكن أمر احترام هؤلاء للدين أمر مشهود به (يسمي بعضهم ذلك تديناً، وبعضهم يسميه إيماناً بالخرافات، أو بعض من كليهما). ويحدثنا التاريخ أن الأزدية في معركة الجمل، كانوا يشمون بعر جمل أمهم عائشة وكأنه المسك[٣]. وكانت قبائل طي من أخلص أعوان علي بن أبي طالب[٤]،ومن بعده ابنه الحسين ابن علي[٥]. ومن أراد أن يجد العون من البدو فإن عليه أن يدعي التدين، أو يدعي أنه من العلويين[٦]. ومن الجدير بالذكر أن بيركهارت تحدث مفصلاً عن أهمية العقيد (رئيس الفرقة)، كما تحدث بإسهاب عن تقديس هؤلاء البدو للأولياء[٧].

الأمويون يستعينون بالعلويين في أمور الحج

إن أبناء علي رضي الله عنه وأحفاده، كانوا يلقون المناصرة والتأييد، خلال فترة الحكم الأموي، وإن مناصرتهم كانت تزداد قوة مع الزمن. وكان هؤلاء يحظون بالتقدير والاحترام حتى من خصومهم. وليس أدل على ذلك

---

(١) ابن جبير: ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠، ٣١١، ٣١٨، ج٣ ص١٢.

(٣) ابن الأثير، ج٣، ص ٢٠٣.

(٤) ابن الأثير ج٣ ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥) الطبري ج٢ ص٣٠٤.

(٦) الطبري ج٣ ص٢٢١٨ و٢٢١٩ و٢٢٢٥.

(٧) بيركهارت ج١ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ وكذلك ٢٩٧.

من أن عامل مكة الأموي، قد استعان بعبد الله حفيد الحسن الثاني في حج عام ٧٤٧م (١٢٩هـ) للتفاوض مع أبي حمزة الخارجي، حينما حاول احتلال مكة في ذلك العام. وقد تم له ذلك دون حرب[١].

أما في المدينة المنورة فقد كان الأمر مختلفاً. إذ دخلها أبو حمزة فاتحاً، بعد أن قتل ٧٠٠ رجل من شاربي السويق. ولكن الأمر لم يستتب لأبي حمزة، فقضت عليه قوات مروان، ولم يترك الخارجي أثراً يذكر في الحرمين الشريفين[٢].

العباسيون يحرمون العلويين من الوصول إلى السلطة

إن إسقاط حكم الأمويين، اقتضى توحيد فروع كثيرة من المعارضة، التي كان يتزعمها آل البيت. وقد نظم هؤلاء حملة ناجحة لهذا الغرض. ووعدوا بتحقيق جميع الأماني، إذا تسلم مقاليد الحكم واحد من آل البيت. ومن الطبيعي أن مكة المكرمة كانت موطناً لبعض زعماء هذه الحركة المناوئة، وكانت تعقد فيها اللقاءات لوضع الخطط اللازمة للثورة ضد الدولة القائمة[٣]. وكان يحضر هذه اللقاءات العباسيون والعلويون معاً. وبالرغم من مكانة العلويين العالية، فقد أجبروا على إخلاء الساحة للعباسيين الأكثر ذكاءً. ولم يكن تفضيل الناس لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه، لكونه صهراً للرسول الكريم ﷺ، ولا لكون أبنائه هم أحفاد الرسول ﷺ كافياً أمام قوة العباسيين، وحنكتهم السياسية، التي أوصلتهم إلى السلطة. فبعد الانتصارات التي أحرزها المطالبون بالخلافة على الدولة الأموية عام ٧٥٠م (١٣٢هـ)، أخذ العباسيون الغنيمة لأنفسهم، وتركوا الفتات لأبناء عمومتهم العلويين. وعندما عرف آخر الخلفاء الأمويين، قائد العباسيين في المعركة الفاصلة قال: «والله لوددت أن علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه، إن علياً وولده لاحظ لهم في هذا الأمر»[٤].

---

(١) ابن الأثير ج٥ ص٣٧٣ - ٣٧٤.
(٢) ابن الأثير ج٥ ص٣٨٨ - ٣٩٠.
(٣) الطبري ج٣ ص١٤٣ وابن الأثير ج ٥.
(٤) الطبري ج٣ ص ٢٠٤.

لقد كان ولاة مكة في العهد العباسي الأول من أفراد البيت العباسي نفسه، أما بعد ذلك فقد كانوا من الأشخاص المقربين[1]. وفي خلال هذه الفترة بقيت المدينة المنورة المركز الرئيس من الناحية السياسية. أما مكة فقد كان يضم إليها في العادة الطائف، وكان يعين لها حاكم خاص، يتولى في العادة إمارة الحج في كل عام.

إن عدم رضا العلويين بالأوضاع الجديدة، قد انتشر خبره في كل مكان. ولم تستطع سيوف العباسيين منع هؤلاء من القيام بالقلاقل والثورات في طول البلاد وعرضها.

ثورات الهاشميين ضد العباسيين

في عام ٧٦٢م (١٤٤هـ)، وفي أثناء حكم أبي جعفر المنصور، كان يستوطن المدينة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب مع ولديه محمد وإبراهيم. وكان عبد الله زعيم الحسنيين في منطقة المدينة. وكان المنصور قد أرسل له الهدايا، وطلب منه ومن ولديه البيعة له، بعد وفاة السفاح عبد الله. وتغيب أبناؤه عن البيعة كما تغيبوا عن أخذ الأعطيات المقررة لهم، مما أوجد الريبة لدى المنصور في ولاء الأخوين، ولا سيما إذا عرفنا أن المنصور نفسه، كان قد بايع سراً أحد هؤلاء الإخوة[2]، وهو محمد الملقب بالنفس الزكية (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٥). لذا رأى الخليفة ألا يتهاون في شأن محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٦).

ثورة النفس الزكية

اعتقد الأخوان أن الوقت قد حان لاستئناف نشاطهما ضد الخلافة العباسية في كل من العراق والجزيرة العربية. فقد توارى محمد عن الأنظار. أما إبراهيم فقد فرّ إلى الكوفة. وما أن سمع الخليفة بخبرهما، حتى شدد المراقبة عليهما، وأمر بتتبعهما، حتى أن محمداً لم يكن ليشعر بالأمان بين القبائل الموالية له في

---

(١) لقد عدد الفاسي حكام مكة خلال هذه الفترة. وقد قمت بمقارنة معلومات الطبري وابن الأثير، وسأشير إليها عندما تستدعي الحاجة ذلك (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨١ ومابعدها) (المؤلف).

(٢) الطبري ج٣ ص١٤٣.

جبال رضوى[1]. ولا شك أن البحث الواسع النطاق قد أجبر الأخوين على الظهور وإعلان الثورة. وقد استسلمت المدينة لمحمد (النفس الزكية) ثم تبعتها مكة المكرمة. أما إبراهيم فلم يحقق ما حققه أخوه[2]. لقد لقي محمد المصير المحتوم الذي يلاقيه في العادة المطالبون بالحكم.

موقعة فخ

كان العباسيون أكثر حرصاً من الأمويين في مراقبة العلويين. فقد رأى المنصور وخلفاءه من بعده، أن الحرمين الشريفين، منطقة ليس من اليسير التحكم بها. وان خط البريد الذي تم بناؤه عام ٧٨٣م (١٦٦هـ) من قبل الخليفة المهدي عبر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ثم اليمن، كان الهدف من إنشائه في الدرجة الأولى، تسهيل أمور الولاة في هذه المناطق البعيدة عن مركز الخلافة[3]. لكن ذلك لم يمنع بعد ثلاث سنوات أحد الحسينيين من منطقة المدينة وهو الحسين بن علي[4] (انظر شجرة النسب الأولى رقم١١) من ينبع، أن يحتل الأماكن المقدسة بالقوة، وسواء أكان السبب هو عدم الرضا عن تخفيض أعطيات العلويين، أم التشدد في عقوبة أحد أقاربه المتهم بشرب الخمر، فإنه أعلن الثورة داخل المدينة، ثم تركها إلى مكة مع أتباعه. ويقال إنه أساء كثيراً في المدينة، عندما جعل ساحات الحرم وجنباته، مسارح للقتال بينه وبين العباسيين. وفي مكة لقيه أمير الحج العباسي، والتحم معه في معركة حامية الوطيس، في مكان يبعد عن مكة نصف ساعة[5] يسمى (فخ). وقد سقط في هذه المعركة الحسين وكثير من أتباعه[6]. وقد عرف فيما بعد باسم شهيد فخ، وهو المكان الذي قتل

---

(١) الطبري ج٣ ص١٦١، ١٦٨.

(٢) الطبري ج٣ ص٣١٢.

(٣) الطبري ج٣ ص٥١٧.

(٤) هو الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن علي بن ابي طالب. (الطبري ج٣ ص٥٥١)

(٥) هذا المكان الآن هو أحد أحياء مكة العامرة بالسكان، ولا يزال يعرف بالشهداء إلى يومنا هذا. أما اسم فخ فغير معروف الآن عند العامة.

(٦) قتل في هذه المعركة مع الحسين أكثر من مائة من أصحابه، في نهاية عام ١٦٩هـ، وكانت هذه الوقعة من الشدة، بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ (المسعودي، مروج الذهب ج٢، ص٢٥٧).

ودفن فيه مع أصحابه[1]. ولايزال هذا المكان يحظى بعناية خاصة لدى المكيين، ويسمى في الوقت الحاضر الشهداء. ويذهب أهل مكة في فصل الصيف لقضاء اوقاتهم في هذا المكان، دون أن يعرفوا سبب هذه التسمية، التي تقتصر معرفتها على المثقفين فقط[2].

ويقال إن النبي ﷺ مرَّ بفخ فقال: «هنا سيقتل واحد من أهل بيتي مع أتباعه، وسوف تحضر لهم الأكفان والعطور من السماء، وأما أرواحهم فسوف تسبق أجسادهم إلى الجنة».

لم يشارك أهل مكة في قتال فخ. ولعل هبات الخلفاء العباسيين وأعطياتهم الوفيرة، لأهل الحرمين الشريفين، كان لها أثر في هذا السلوك[3]. هذه الظروف مع تلك التي ألمحنا إليها سابقاً جعلت من أكثرية سكان مكة مجتمعاً قليل الثقافة، كثير الغرور، يعتقد أنه محق بالعيش على حساب المسلمين الأكثر ثراءً. وعلى السلطة أن تحقق له كل شيء، مقابل تلك الطاعة التي لا يلتزم بأدائها دائماً.

---

(١) الطبري ج٣ ص٥٥١، ابن الأثير ج٦ ص٩٠، أخبار مكة المشرفة ج١ ص٤٣٥، ٥٠١ ـ ٥٠٢. وكذلك ج٢ ص١٨٥، ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) شريف مكة الحالي (١٨٨٥م) لا يعرف سبب تسمية المكان بالشهداء. ويعتقد معظم المكيين أن عبد الله بن عمر مدفون هناك. ويقال إنه عندما أحضر رأس الثائر أمام الخليفة في بغداد استشاط غضباً (الطبري ج٣ ص ٥٦٨). وكان يزيد بن معاوية قد أبدى سخطاً مماثلاً عندما أرسل إليه رأس الحسين. (الطبري ج٢ ص٣٥٨) (المؤلف).

(٣) نذكر على سبيل المثال لا الحصر أعطيات المهدي الخليفة العباسي في الحرمين الشريفين. فقد جاء في أخبار مكة المشرفة أن المهدي قسم في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة، وهي ثلاثون ألف ألف درهم، وصل بها معه من العراق، وثلاثمائة ألف دينار، وصلت إليه من مصر ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن، ومائة ألف ثوب. وفرق جميع ذلك على أهل الحرمين (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٩٩). وفي عهد الرشيد، الذي استمرت خلافته قرابة ربع قرن، نعمت المدينتان المقدستان بأعطياته الكثيرة. فقد كان يحج عاماً ويغزو عاماً. وكان في كل مرة يفرق أعطيات كثيرة على أهلها جميعاً (الطبري ج٣ ص٦١٠) وفي عام ١٨٦هـ زار الرشيد المدينة المنورة، مع ولديه الأمين والمأمون، فوزع كل منهم عطاءً خاصاً على أهل المدينة، فكان لكل رجل في المدينة ثلاث أعطيات (الطبري ج٣ ص٦٥٢).

وبانتصار الجيش العباسي في فخ، استقام الأمر لخلفاء بني العباس.

وفي عهد الرشيد كان للثروات التي أنفقها في قوافل الحج التسعة التي قام بها، أثر في زيادة عدد الوافدين إلى مكة، مما أثر في التركيب السكاني للمدينة المقدسة[١]. ومن الأمور الملفتة للنظر أن الرشيد قد ولّى من جملة ما ولى من أمراء لمكة أحد العبيد البربر[٢] الذي تم تحريره حديثاً.

ارتباط سكان الحرمين بالحج

وفي هذه الأثناء طغت الوظيفة الدينية، على جميع نشاطات سكان الحرمين الشريفين، فقد ارتبط وجودهما بالحج إلى الأبد. ويمكن ملاحظة الأهمية الدينية للمدينتين العربيتين القديمتين من خلال المساجلة الأدبية التي حدثت في أثناء حكم الأمين (٨٠٩ ـ ٨١٣م) (١٩٣ ـ ١٩٨هـ) فقد كانت إمارة المدينتين المقدستين معقودة لأحد الأمراء العباسيين، الذي أقام في مكة، وأرسل ابنه ممثلاً له في المدينة المنورة[٣]. فكتب بعض أهل المدينة، إلى الأمير يطلب انتقاله إلى المدينة ويحسن له اتخاذها عاصمة لإمارته، في قصيدة طويلة، فرد عليه رجل من مكة بقصيدة مثلها يمتدح فيها مكة، ويفضل اتخاذها عاصمة. وعلم رجل من جدة، بأمر القصيدتين فأنشأ قصيدة يرد فيها على المتفاخرين ويحكم فيما بينهما[٤].

---

(١) لقد أثرت الثورات المتكررة للعلويين في مكة على اضمحلال سكان مكة القرشيين ولم يبق بها في الأعم الأغلب سوى الحسنيين وقد أثر الحج بصورة جلية في التركيب السكاني لمكة المكرمة فاستوطنها خليط من الناس معظمهم موالي من أصل حبشي وصومالي (زيلعي) تم تحريرهم (المؤلف).

(٢) يبدو مما ذكره السباعي في تعداد ولاة العباسيين في عهد الرشيد أن اسم ذلك الوالي هو عماد البربري (السباعي ص١٤١).

(٣) هذا الوالي هو الأمير العباسي داود بن عيسى الذي أقام في مكة، وأرسل ابنه سليمان إلى المدينة المنورة.

(٤) ذكرت القصة مطولة في بعض كتب الأدب، ولم نستحسن نقلها، لأنها فيما يبدو مخترعة، أراد أصحابها المفاخرة بين المدينتين. ويتجلى أثر الصنعة في سياقها، ولسنا في حاجة إلى إعلان المفاخرة بين بلدين تجمعهما كل عناصر الاتحاد في الحياة بدون استثناء (السباعي ١٤٠٤هـ، ص١٤٢).

لقد سر المأمون سروراً بالغاً، عندما علم أن أول بيعة له قد جاءت من الأماكن المقدسة[١].

مكة والمدينة تخرجان على حكم المأمون

وفي اثناء حكم المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) حدثت بعض القلاقل من قبل العلويين، وخاصة في الحجاز واليمن. فقد خرج أحد[٢] قادة الجيوش في العراق، على طاعة الخليفة المأمون، وأخذ يدعو للعلويين. وبعد أن أحرز نجاحاً ضد قوات الخليفة، أرسل عام ٨١٥م (١٩٩هـ) أحد أبناء الحسن[٣] إلى المدينة المنورة، كما أرسل احد أبناء

---

(١) سبب البيعة هو أن الأمين طلب إلى أمير مكة داود بن عيسى، أن يمزق العهد الذي أودعه الرشيد في الكعبة، بصفته ميثاقاً بولاية العهد للأمين، ثم المأمون. وكان الرشيد قد علقه في الكعبة، وطلب إلى أهلها أن يحافظوا على تنفيذ مافيه، وأن يكونوا أعواناً على من يخالفه، ولما أمر الأمين بطلب أخذ العهد، غضب داود لهذا النكث، ونادى في أهل مكة وحجاجها الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس خطب فيهم، وأبان لهم غاية الأمين، من نكث العهد. فوافقوا على خلعه، فقال اشهدوا بأني خلعته، فبايعوني للمأمون فبايعوه. فلما علم المأمون بذلك سر سروراً كثيراً. ولما انتصرت جيوشه على الأمين، أمّر داود على مكة والمدينة فظل فيها حتى أواخر سنة ١٩٩هـ (انظر شفاء الغرام للفاسي ج٢، ص١٨٢، وكذلك السباعي ص١٤٢ والطبري ح٣ ص٨٦٢)

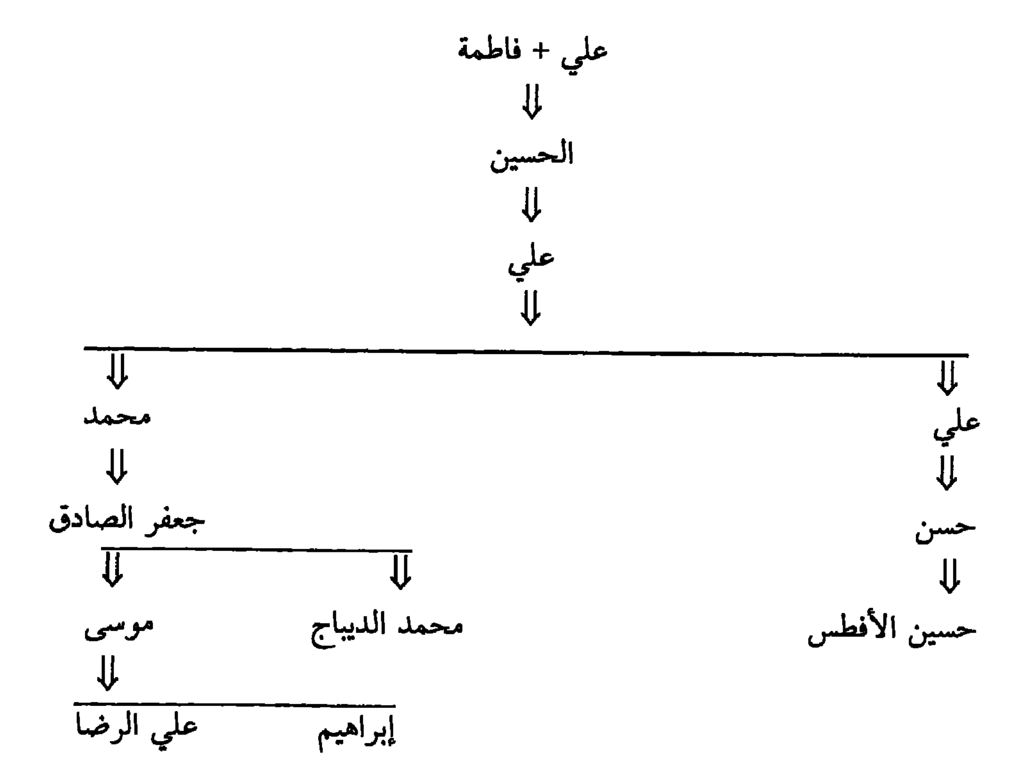
(٢) هذا القائد هو المغامر ابو السرايا، واسمه السري بن منصور الشيباني، كان في أول حياته فقيراً يكري الحمير، والتحق ببعض قطاع الطرق، وصار زعيم عصابة، ثم التحق بالقائد يزيد ابن مزيد الشيباني، واشتغل معه ببعض الفتوحات، وصار من قادته المشهورين. وعندما اشتعلت الفتنة بين الأمين والمأمون، التحق مع رجاله بجيش المأمون. وانضم إلى القائد المشهور هرثمة بن أعين، ولقب بالأمير. وعندما قتل الأمين انقض هرثمة على أرزاقه وأرزاق أصحابه. فغضب أبو السرايا، وتقدم فاحتل بعض المناطق، وقويت شوكته. وقد لقي في الرقة محمد بن إبراهيم العلوي، الملقب بابن طباطبا، وكان أعلن الثورة على العباسيين، وطالب بالخلافة لنفسه، فبايعه أبو السرايا، وصار قائداً لجيوشه، وتوجه إلى الكوفة واستولى عليها، وسير الجيوش إلى البصرة وبغداد والمدائن وواسط. وما لبث أن مات ابن طباطبا، ويقال إن ابا السرايا سمه، فنصب أبو السرايا أحد الفتيان الطالبيين في الخلافة، وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وصار يسير الأمور باسمه. وأرسل الأمراء إلى الأمصار، ليخلع منها الخلافة العباسية، ويقيم خلافة هاشمية. وفي ربيع الأول من عام مائتين، انتهت ثورة أبي السرايا في العراق، إذ هزمت جيوشه، وقتل وأرسل العباسيون عدداً من القادة، تولوا إخراج عماله من الأقطار التي غلبت عليها (بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص٨٩ ـ ٩٢).

(٣) يدعى محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي بن ابي طالب.

الحسين المدعو حسين الأفطس إلى مكة المكرمة، وذلك لاحتلالهما وإخراج العباسيين منهما. لقد استسلمت المدينة المنورة دون قتال، كما أن الأمير العباسي في مكة انسحب منها مؤثراً عدم القتال[1]. وفي هذه الأثناء سقطت اليمن أيضاً، على يد إبراهيم بن موسى أخي علي الرضا[2] الذي كان المأمون في فترة تشيعه، قد عينه خليفة له. لقد عاث حسين الأفطس وأتباعه فساداً، لدرجة أنه لقب بالسفاح، فقد أخذ كل ما في جوف الكعبة من نفائس. وكان أصحابه يأخذون أموال الناس بحجة أنها ودائع لبني العباس. وفي هذه الأثناء قتل سيده أبو السرايا في العراق، فبايع بالخلافة أحد شيوخ آل أبي طالب، وهو محمد بن جعفر الملقب بالديباج، ومارس باسمه الكثير من أعمال السلب والنهب. ويرى

(١) لما علم داود بن عيسى أمير مكة العباسي بوصول جيش حسين الأفطس الذي عسكر في النوارية قام بإخلاء مكة، وقال إني لا أستحل القتال في مكة، فدخلها الأفطس مساء يوم التروية (السباعي، ١٤٠٤، ص١٤٣ ـ وكذلك الطبري ج٣ ص٩٨١، وأخبار مكة المشرفة ح٢ ص٢٣٨)..

(٢) أسماء الحسينيين الذين لهم صلة هنا نجدهم في شجرة النسب التالية:



الكتاب العلويون أن محمد بن جعفر غير مذنب بذلك، لكن هذا الزعم تدحضه أشياء كثيرة، منها أن المأمون حينما أرسل جيشاً لقتاله هرب إلى جبال رضوى، وبدأ يعمل هناك للاستيلاء على المدينة، غير أنه فشل في ذلك. وفي عام ٨١٦م (٢٠١هـ) اضطر إلى الإعتذار من المأمون الذي عفا عنه وضمن سلامته[١].

ثم ما لبث أن هاجم مكة سنة ٨١٨م (٢٠٢هـ) علوي جديد من اليمن هو إبراهيم[٢]، شقيق علي الرضا، الذي ولاه المأمون ولاية العهد، فاحتل مكة، وأوقع بأنصار العباسيين فيها، ثم مالبث العباسيون أن أجلوه. فاضطر أن يعود

(١) جاء في شفاء الغرام للفاسي حول أعمال حسين الأفطس ما يلي: كان الحسين حين بلغ [وادي سرف] تخوف من دخول مكة، حتى بلغه خلوها من بني العباس، فدخلها في عشرة أنفس. فطافوا بالبيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة، فوقفوا ليلاً، ثم رجعوا إلى مزدلفة، فصلى حسين بالناس الصبح، وأقام بمنى أيام الحج، ثم صار إلى مكة. فلما كان مستهل المحرم، سنة مائتين نزع الحسين كسوة الكعبة. وكساها الكسوة التي أنفذها معه ابو السرايا. وكانت كسوتين من قز رقيق: إحداهما صفراء، والأخرى بيضاء. وأخذ ما في خزانة الكعبة، فقسمه مع كسوتها على أصحابه. وهرب الناس من مكة؛ لأن أصحاب الحسين كانوا يأخذون أموال الناس بحجة أنها ودائع لبني العباس، ولما بلغه قتل أبي السرايا، رأى أن الناس قد تغيروا عليه، لقبح سيرته وسيرة أصحابه. فأتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر [الملقب بالديباج لجمال وجهه] وسألوه في المبايعة له بالخلافة، فكره محمد ذلك، . فاستعانوا عليه بابنه علي، ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، في ربيع الأول سنة مائتين، وجمعوا الناس على بيعته طوعاً وكرهاً، وسموه أمير المؤمنين، وليس له من الأمر شيء. وابنه علي وحسين الأفطس وجماعتهم على أقبح سيرة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٨٧ ـ ١٨٩). واتصل الخبر بالمأمون، فانتدب لهم جيشاً، قاتلهم عند بئر ميمون، ثم أجلاهم عن مكة، في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠، وفرّ محمد الديباج إلى منازل جهينة شمال ينبع، فجمع منها جيشاً، أراد أن يهاجم به المدينة، فلم يظفر بذلك. فقدم إلى مكة يطلب الأمان. وضمن له أمير مكة ذلك ثم سار إلى العراق، حتى بلغ المأمون بمرو، فعفا عنه، وبقي قليلاً ثم مات فجأة بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل في لحده، وقال هذه رحم قطعت من سنين، وكان موته في شعبان سنة ثلاث ومائتين (أخبار مكة المشرفة ١٨٩ ـ ١٩٠، ٢٣٩ وانظر أيضاً السباعي ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو ابن موسى الكاظم شقيق محمد الديباج.

إلى اليمن[1] بعد أن خسر السيادة على مكة. وقد استعان والي مكـة على حربه ببعض كنوز الكعبة، التي أخذها لنقص الموارد لديه[2].

وباستثناء أعمال السلب والنهب، التي كانت تتعرض لها المدينة المقدسة من جراء هذا الصراع، وكذلك استحلال الأموال والكنوز الموجودة في داخل الكعبة، لا نجد أثراً بارزاً، سوى أن المأمون قد عهد بإمارة مكة المكرمة إلى اثنين من العلويين، مما يدل على قوة نفوذ العلويين من جهة، كما يدل على ميل الخليفة لهم وثقته بهم، وأنه لا يرى بأساً في توليتهم مكة[3].

في فترة الستين عاماً التي أعقبت وفاة المأمون، سارت الدولة العباسية في طريقها نحو الضعف والتفسخ. لقد اعتمد الخلفاء في أول أمرهم على زيادة العناصر التركية من الموالي[4]. لكن هؤلاء فيما بعد هم الذين تولوا السلطة، وأداروا مركز الخلافة، ولم يتركوا لرؤسائهم سوى الاسم. وقد استمر هذا الوضع حتى بداية القرن العاشر. وقد نجم عن ذلك أن فقد المركز سيطرته على الأقاليم، الأمر الذي نجم عنه لامركزية في الحكم. وفي الوقت نفسه تطورت الأقاليم الكبرى في الدولة إلى ممالك مستقلة. وفي ظل هذه الظروف نشط العلويون بصورة أكثر من ذي قبل[5]، كما

---

(١) ينقل تقي الدين الفاسي عن العتيقي أن إبراهيم الكاظم كان والياً على مكة من قبل المأمون، وبذلك ينفي عنه فكرة الثورة، ويقول إنه حج بالناس سنة ٢٠٢، وهو أمير مكة للمأمون (انظر السباعي ١٤٠٣ ص١٤٥).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج١ ص١٥٨.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩١ ـ ١٩٢، وكذلك الطبري ج٢ ص١٠٣٩.

(٤) كان المعتصم هو أول خليفة عربي اعتمد على الأتراك، واعتنى باقتنائهم، وبذل الأموال في شرائهم من سمرقند وفرغانة والنواحي الأخرى وألبسهم الديباج، ومناطق الذهب، ثم أسند إليهم مناصب الدولة، وولاهم بعض النواحي، وآثرهم على الفرس، الذين كان يؤثرهم أسلافه من العباسيين، كما آثرهم على العرب، الذين كان يؤثرهم الأمويون (السباعي ص١٤٦).

(٥) يذكر السباعي العديد من الثورات التي قام بها العلويون في مكة. منها ثورة إسماعيل ابن يوسف، الذي يرتفع نسبه إلى الحسين، وكانت عام ٢٥١هـ، وقد لاقى الناس من هذه الثورة عنتاً كبيراً، ليس في مكة وحدها، بل في المدينة وجدة (السباعي ص١٦٤) وثورة =

أصبحت طرق المواصلات غير آمنة، وتزايدت أسعار السلع، وعم الغلاء والجوع. وقد حصلت مكة ـ مع غيرها من المدن ـ على نصيب وافر من ذلك كله.

إمارة الحج لبعض العناصر التركية

وفي هذه الأثناء ولي مكة العديد من الأمراء العباسيين، الذين كانوا يقومون بإمارة الحج أيضاً. غير أن هؤلاء لم يكونوا من الأقوياء. وقد كانوا يحكمون بأسماء آخرين، يتقلدون مناصب ولاة وإقطاعيين، ظهروا بصفتهم مسؤولين أعلى منهم. وترينا أحداث السنوات ٨٤٧ و٨٣٦ و٨٧٠م (٢٣٣، ٢٢٢، ٢٥٧هـ) أنه لم يبق لهؤلاء من الإمارة سوى اللقب[١].

لقد حظي قادة الجيش الأتراك بالاهتمام الخاص. فعندما حج أشناس[٢] عام ٨٤١م (٢٢٦هـ)، وكذلك عندما حج إيتاخ عام ٨٤٩م (٢٣٤هـ)، فوض الخليفة إليهما، ولاية كل بلد يدخلانها، حتى ينتهيا إلى مكة، ثم يعودا منها. وبهذا دخلت مكة في ولايتهما[٣]. ولنا أن نتصور أن مصير الدولة الإسلامية قد وضع بأيدي هؤلاء القادة، عندما نرى أن الخليفة يمنح لقب السلطان إلى أحد هؤلاء القادة المدعو أشناس[٤]. وقد عانت مكة مذاقاً أولياً للبؤس، الذي بدأ يظهر في جنباتها، نتيجة عدم وجود سلطة مركزية قوية في هذه المدينة العالمية.

= أخرى بقيادة علوي آخر، اسمه محمد بن أحمد، وقامت في العراق، ثم امتدت إلى مكة، وكانت تعرف بثورة الزنج (السباعي،١٦٦) وهناك ثورة أخرى قام بها العلويون عام ٣٠١هـ، بقيادة محمد بن سليمان (السباعي: ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(١) الطبري ج٣ ص١٣٧٩ و١٨٤١ ـ ١٨٤٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩٦.

(٢) أشناس وإيتاخ وكذلك وصيف والافشين هم من أشهر الأتراك الذين استعان بهم المعتصم (السباعي ص١٤٦) (المحقق).

(٣) كانت هذه الولاية فخرية، حيث يدعى باسمه على المنابر، ولكنه في العادة ينيب عنه من يقوم بأعبائها (السباعي ص١٤٥).

(٤) يقول صاحب كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام إن الخليفة الواثق بالله، الذي ولي الخلافة بعد المعتصم، استخلف تركيا اسمه أشناس، ولقبه بالسلطان، وهو أول خليفة استخلف سلطاناً، وألبسه وشاحين مجوهرين، وتاجاً مجوهراً (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٢٧).

ظهر منذ عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ) مغامر مرعب، بثوب علوي مزيف، عاث فساداً في شرق الجزيرة العربية والعراق، عن طريق عصاباته المكونة من العبيد السود[1]. ولقد استطاع من خلال ممثليه الحصول على السيادة الفعلية لمكة المكرمة مرتين (٨٧٩، ٨٨٢م) (٢٦٥، ٢٦٦هـ).. ولم يكن القائد الذي طرده في المرتين الخادم المطيع للخلافة العباسية دائماً[2].

وقد حاول ابن طولون صاحب مصر الاستيلاء على مكة، غير أنه فشل بعد أن مني جيشه بهزيمة ساحقة، وكان ذلك في حدود ٨٨٣م (٢٦٩هـ).

تعدد الرايات في المشاعر المقدسة

لقد انتهى الوقت الذي كان فيه علم الخلافة، هو العلم الوحيد، الذي يلتف الناس حوله في سهل عرفات. فقد تعددت الرايات للأمراء المتنافسين على السلطة في أرجاء الخلافة، ومن النادر أن تسلم مكة المكرمة من الصراع الدامي بين اصحاب هذه الرايات. وقد كان أهل مكة في بعض الأحيان يشاركون في هذه الصراعات الدامية. وإن مشاركتهم لم تكن بدون

---

(١) هذا الثائر علوي، يدعى علي بن محمد بن أحمد، خرج في البصرة وجمع حوله العديد من الزنج، الذين كانوا يعملون في جنوبي العراق، وقد استطاع هذا الثائر أن يحتل أماكن عديدة في العراق وشرق الجزيرة العربية، وقد عاث فيها فساداً. وقد اتصل بمكة فاحتلها، وولى أمرها محمد بن عيسى المخزومي، ثم ما لبث الخليفة العباسي أن أجلى علي بن أحمد عن مكة، بقيادة محمد بن أبي الساج، وأعادها إلى حكم العباسيين. وقد قاست مكة في هذه الفتنة ضيقاً شديداً، فبلغت قيمة الأوقيتين من الخبز درهماً (انظر تفصيلات هذا الخبر في الطبري ج٣ ص١٧٤٢ وكذلك انظر السباعي، ١٤٠٥هـ، ص١٦٦).

وللسباعي تعليق على هذا الثائر العلوي فهو يقول: قيل إن صاحب الزنج دعي لا علاقة له بالعلوية. وقد تكون الإشاعة دعاية عباسية. فقد قام الرجل ضدهم، وكانت له صولة في بعض نواحي العراق والبصرة والبحرين والأحساء. جمع العبيد إليه، وأعلن تحريرهم، وقيل إنه جهر بعقيدة الخوارج. ولا أستبعد ذلك ففيها ما يساعد على طبيعة الخروج على السادة والملاك. وقد ساعده الحظ فتجمهر العبيد حوله، وخاضوا تحت قيادته من عام ٢٥٥هـ إلى عام ٢٧٠هـ عشرات الوقائع التي ظفروا فيها، ولكن الخليفة الموفق انتدب نفسه لقتالهم. حتى قضى عليهم (انظر السباعي ١٤٥٢ ـ ١٦٦ وما بعدها).

(٢) هذا القائد العباسي هو محمد بن أبي الساج (انظر الطبري ج٣ ص١٩٣٧، ١٩٤٢ وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠١).

مقابل[1]. وأحياناً تنشب الخلافات بين أهل مكة أنفسهم، مما يؤثر في أعمال الحج ذاتها[2]. وبعد قرن من الزمان أصبحت أسباب الصراع تنحصر في الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة.

انعدام الأمن

لقد جلبت الصراعات السياسية سنوات من الجوع لهذا البلد الفقير، القليل الموارد في الأصل (على سبيل المثال انظر حوادث سنة ٨٧٤م و٨٨٠م) (٢٦٠ و ٢٦٦هـ)[3]. وقد ساعد على ذلك سيطرة البداوة، وتعرضها المستمر لقوافل الحجيج، الأمر الذي اقتضى تعيين بعض المسؤولين، مهمتهم الرئيسة الحفاظ على أمن الطرق المؤدية إلى مكة. وكان هذا المنصب مرتبطاً مع ولاية المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية. يضاف إلى كل ذلك ثورات العلويين، وما يتبعها من السلب والنهب والقتل، لابل كان بعضهم يمتهن قطع الطرق. فعلى سبيل المثال، في أثناء حكم الخليفة المتوكل (٨٤٣ ـ ٨٦١م) (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)[4] كان أحد الحسنيين من عائلة الحسن الثاني، واسمه

---

(١) قال ابن جرير في أخبار سنة تسع وستين ومائتين، وفي ذي الحجة كانت وقعة بين قائدين، وجههما أحمد بن طولون في٤٧٠ فارساً و٢٠٠٠ راجل، فوافيا مكة لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فأعطوا الجزارين والحناطين دينارين دينارين، والرؤساء سبعة. فقاتلهم هارون ابن محمد عامل مكة، ومعه جعفر بن الما عمرون، فقتل من أصحاب ابن طولون نحو ٢٠٠ رجل، وانهزم الباقون في الجبال، وأخذت دوابهم وأموالهم، وأمّن جعفر المصريين والحناطين والجزارين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩٨ ـ ١٩٩).

(٢) من هذه الفتن ماحصل في سنة اثنتين وستين ومائتين، فقد خاف الناس أن يبطل الحج، وسبب ذلك أن في هذه السنة وقع بين الجزارين والحناطين بمكة قتال يوم التروية، فخاف الناس أن يبطل الحج، ثم تحاجزوا حتى يحج الناس، وقتل منهم تسعة عشر رجلاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٠).

(٣) ذكر الفاسي في شفاء الغرام نقلاً عن صاحب الكامل، أنه في سنة إحدى وخمسين ومائتين بلغ الخبز بمكة ثلاث أواق بدرهم، واللحم رطل باربعة دراهم، وشربة ماء بثلاثة دراهم. وفي سنة ستين ومائتين، اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام، فهاجر من أهل مكة الكثير (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠ وما بعدها تحت باب ذكر شيء من أخبار الغلاء والرخص والوباء بمكة المشرفة).

(٤) من الثابت أن خلافة المتوكل كانت من (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) وهذا التاريخ يوافق ٨٤٦ ـ ٨٦١ وليس ٨٤٣م كما ورد في النص لدى المؤلف.

محمد، ويلقب بالشاعر، قد مارس مهنة منع قوافل الحج من المرور إلى مكة (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٦) وتحضرنا عنه القصة التالية: ففي إحدى حملات السلب، التي كان يمارسها على قوافل الحج، استغاثت به إحدى نساء بغداد الحاجات مع القافلة، وطلبت منه الرحمة، وذكرته بجده الرسول ﷺ وأجداده المشهورين، فرق لها قلبه، وأثارت فيه العطف لدرجة أنه أهداها كل ما سلبه، وعاد إلى بيته دون غنائم. وبعد فترة من الزمن دخل محمد سجن المتوكل نتيجة أفعاله السيئة، فما كان من السيدة المذكورة، إلا أن زارته في سجنه، وقامت بالتوسط له لدى الخليفة، ونقلت منه إلى المتوكل قصيدة مدح، ألفها اللص الشاعر، كانت سبباً في العفو عنه[1].

لقد نشط العلويون في مناطق مختلفة، من ديار الإسلام. ففي بغداد كان لهم دور بارز في انتخاب الخليفة الذي خلف المتوكل بعد موته. وقد كافأهم الخليفة الجديد بإصدار مرسوم بتعيين أحد الولاة العلويين في المدينة، وأمره بمعاملة العلويين في المدينة معاملة حسنة[2]. وفي طبرستان قامت سلالة حسنية بمساعدة أهل الديلم. وكان أهل الديلم قد اعتنقوا الإسلام عن طريق العلويين[3].

ثورات علوية

وفي مكة قام إسماعيل بن يوسف (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢٠)، وهو أيضاً من احفاد الحسن الثاني، بهجوم على مكة عام ٨٦٥م (٢٥١هـ).

---

(١) انظر تفصيلات هذه القصة الطريفة في مخطوطة عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص٩٣ ـ ٩٥ رقم ٤٩٩ في مكتبة مكة المكرمة.

(٢) الخليفة الجديد هو المنتصر العباسي. وقد شارك آل أبي هاشم في انتخابه، كخليفة جديد، بعد موت المتوكل. وقد ذكر الطبري أن المنتصر لما ولي الخلافة، كان أول شيء أحدث من الأمور عزل صالح عن المدينة، وتولية علي بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد إياها. وقد ذكر عن علي بن الحسين أنه قال: دخلت عليه أودعه فقال لي: ياعلي، إني أوجهك إلى لحمي ودمي ـ وقد مدَّ جلد ساعده ـ وقال: إلى هذا وجهتك. فانظر كيف تكون للقوم، وكيف تعاملهم. يعني آل أبي طالب، فقلت: أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ فيهم، إن شاء الله؛ فقال: إذاً تسعد بذلك عندي (الطبري ج٣ ص١٤٩٩).

(٣) الطبري ج٣ ص١٥٢٣ ـ ١٥٣٣).

وطرد الوالي العباسي ونهب بيته وبيوت كل أنصار الخلافة، وسلب ما وصلت إليه يده من نفائس الكعبة، ومبلغاً كبيراً من المال، وصل لتوه من بغداد، لإصلاح مجاري المياه في مكة، ثم اتجه إلى المدينة، فقام بعمل مماثل لما قام به في مكة وعاد إلى مكة، عدة مرات، وزار جدة ليسلب التجار وأصحاب السفن ممتلكاتهم. وفي النهاية قام بشعائر الحج مع جماعته دون غيرهم؛ لأنه لم يجرؤ أحد على القيام بشعائر الحج مع وجوده. ومات إسماعيل بالجدري عام ٨٦٦م (٢٥٢هـ)[١]. وما لبث أن أكمل المشوار أخوه محمد (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢١)، غير أنه طرد من قبل جيش الخليفة، فانسحب إلى اليمامة، حيث استوطن مع نفر من أصحابه هناك. ولقد وجد الخليفة العباسي نفسه مضطراً لتصفية العديد من أقرباء إسماعيل. ففي عام ٨٦٩م (٢٥٥هـ) أمر بالقبض على عمه موسى الثاني (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٣) في سويقة، ونقله إلى بغداد. وعندما حاول البدو التدخل لإنقاذه أثناء نقله، دس مرافقه له السم فمات، لكن البدو استطاعوا الإفراج عن ولده محمد (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٨) الذي يعتبر جد كل أشراف مكة المكرمة تقريباً. وقد تحولت مكة بعد فترة وجيزة مسرحاً للقتال الضاري بين الحسنيين والحسينيين والجعفريين حول السيادة. ومن البدهي أن يكون الارتباط قوياً، بين صراعات أبناء العمومة، والفوضى الضاربة أطنابها، في مختلف نواحي دولة الخلافة العباسية. وقد أضيف إلى هذه الفوضى المستشرية عامل آخر جديد، ألا وهو ظهور طائفة القرامطة.

حركة القرامطة

بالرغم من أن كثيراً من أمور القرامطة الداخلية غامضة لدينا؛ لأن ماكتب عنهم كان من خلال الخصوم، فإنه من المؤكد أن الحركة القرمطية، بدأت بصفتها حركة علوية مزيفة، استغلت الميول الشيعية لتحقيق أهدافها. وقد استطاعت هذه الحركة من خلال الدعاية المنظمة على المستويين الداخلي

---

(١) انظر تفصيلات هذا الخبر وما قام به إسماعيل بن يوسف في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص١٩٥ و ٢٣٧ والطبري ج٣ ص١٦٤٥).

والخارجي، وكذلك من خلال المظهر الديني الذي تبنته، إلى تحقيق الكثير من أهدافها. وسوف نستعرض ما كان يريده زعماء الحركة. فقد كان هؤلاء لا يريدون البناء، بل كانوا يريدون الهدم. لقد كان الهدف الأول لهؤلاء في كل الأمكنة التي ظهروا فيها سواء في العراق أو فارس أو سوريا أو جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية (اليمن والبحرين) هو تحطيم الخلافة العباسية، التي كانوا يعتبرونها الركيزة السياسية للدين، الذي يحاربونه، ويحاولون القضاء عليه. لقد حقق هؤلاء نجاحات بارزة في فترة وجيزة. وعندما أسسوا دولتهم القوية في البحرين، رأوا أن من الأهمية بمكان توجيه ضربة حساسة للحكم العباسي المتهلهل في مكة المكرمة. فقد اعتقد هؤلاء أنهم إذا استطاعوا نقل الحجر الأسود، فإن الإسلام سيعاني من جراح أليمة، قد لا يشفى منها. ولتحقيق هذا التوقع الخاطئ، قاموا بإغلاق طريق الحج إلى مكة المكرمة وذلك عام ٩١٦م (٣٠٤هـ). ومن المعلوم أن طريق الحج كان يتعرض للأخطار، منذ فترة طويلة، قبل هذا التاريخ. فقد اعتاد البدو على إغلاق الطرق المؤدية إلى الحرمين، بحيث يصبح الحج أمراً مستحيلاً، في ظل هذه الظروف.

سجل التاريخ القرمطي في الحجاز فترة سبعين سنة من الفوضى العارمة، وخاصة في الميدان الاقتصادي. لقد ظهرت بدايات الحركات القرمطية حوالي عام ٨٩١م (٢٧٨هـ) غير أن أثارها السيئة تجلت بوضوح بعد عام ٩٦٠م. وفي هذه الأثناء كان حكام المدينة المقدسة يقبعون في بيوتهم لا يستطيعون عمل أي شيء، تجاه نداءات الاستغاثة المتكررة، التي يطلقها عامة السكان، للقضاء على الفوضى العارمة في المنطقة.

عندما زاد نشاط القرامطة في اليمن، كلف الخليفة في بغداد عام ٩٠٦م (٢٩٤هـ) عامله في مكة (كان مملوكاً ثم أعتق ثم تولى مكة منذ عام ٨٩٤م (٢٨١هـ))[1] بأن يرسل حملة إلى اليمن للقضاء على الأعداء. ولما توفي

(١) الشخص المذكور أعلاه يدعى عج بن حاج (الطبري ج٣ص٢٢٠٤، ٢٢٨١، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج١ ص ٣٤٢، ج٢ ص٢٠٢ ـ ٢٠٤، وج٣ ص١٤٤) (المؤلف).

خلفه بعد موته عام ٩١٠م (٢٩٨هـ) ابن ملاحظ، الذي لقب بسلطان مكة؛ لأنه لم يكن هناك ممثل للسلطان أثناء تلك القلاقل. وهكذا بقي الوضع حتى دخل القرامطة، فاشتهر أمر قائد الخليفة التركي مؤنس، الذي قاتل القرامطة، وأصبح والياً على مكة عام ٩١٢م (٣٠٠هـ)، وكانت ولايته عقداً، ولم تكن مباشرة (أي ينيب عنه من يحكم المدينة). ونعلم بطريق الصدفة أن القاضي محمد ابن موسى في عام ٩٠٨م (٢٩٦هـ) الذي كان يتولى الإشراف على إصلاحات المسجد الحرام، هو الذي كان يدير أمور المدينة الفعلية[1]. ولايعرف المؤرخون على سبيل اليقين اسم الوالي الذي كان يشغل هذا المنصب، عندما قتل ١٥٠٠ من القرامطة أثناء أداء فريضة الحج عام ٩٣٠م (٣١٧هـ)، آلافاً من سكان مكة المكرمة وحجاجها، ثم قاموا بتدنيس الأماكن المقدسة، واقتلعوا الحجر الأسود من جدار الكعبة وأخذوه معهم.

لقد كان اعتقاد العامة أن مكة قادرة بعون الله أن تصد المعتدين. أما المثقفون فقد برروا هذا الغزو، بقولهم إن بضع مئات من الكفار، لا يمكن مقاومتهم من قبل الآلاف، مادامت مشيئة الله بحاجة لهم كأداة. وهؤلاء وأولئك قد قعدوا جميعاً عن الأخذ بالأسباب المؤدية إلى النصر. فلو لم

---

(١) هذ الفترة مجهولة في مكة حيث لم يعرف عن ولاتها إلا النزر اليسير، كما أن ترتيب الولاة غير متفق عليه في المصادر التاريخية، يقول السباعي في هذا الصدد: ومر عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر إلى أن كان عام ٣١٧هـ في عهد القاهر، في فترة شبه مجهولة؛ لأن مؤرخي مكة يذكرون أن ولاة مكة في هذا العهد، لم يعرف منهم سوى عج بن حاج، ومؤنس الخادم، وابن ملاحظ، وابن مخلب، دون أن يذكروا ترتيبهم، وسني ولايتهم، والمعروف أن عج من موالي الأتراك المقربين في البلاط العباسي، وكذلك مؤنس الخادم، وقد كان من قواد المكتفي، وعرفه التاريخ لثورته المشهورة على الخليفة المقتدر، وكانت ولايته عقداً، ولم تكن مباشرة؛ لأنه من رجال البلاط في بغداد، الذين لا يستطيعون البعد إلى ولايات قاصية. أما ابن ملاحظ فيقول ابن ظهيره في الجامع اللطيف: إن الهمذاني ذكر في ترجمته أنه كان سلطاناً في مكة «كذا» من غير أن يذكر تاريخاً، أما ابن مخلب ويسميه بعضهم ابن محارب، ويرجح تقي الدين الفاسي اسمه الأول، فمن المؤكد أنه كان في ولاية مكة إلى سنة ٣١٧هـ، حيث أجلاه القرامطة عنها، ويذكره الفاسي في حوادث القرامطة بمكة، ويشير إلى أنه خرج لقتالهم في جماعة من أشراف مكة (السباعي ص١٦٨) (المحقق).

يتقاعس أهل مكة في أداء واجبهم في الحماية، ولو أرسل الخليفة رجالاً إلى مكة بدلاً من المال، لربما كانت النتائج مختلفة تماماً عما آلت إليه.

إن فكرة احتلال مكة لم تكن واردة في حسابات القرامطة، فهم لم يكونوا يريدون الإصلاح هنا، بل كانوا يريدون التدمير. إن مكة المكرمة ليست الهدف الأساس، بل الهدف هو الخليفة ودينه. أما ماذا سيحدث للمدينة فلا يهمهم ذلك كثيراً. لقد كانوا يعتقدون انهم أحرزوا نجاحاً كبيراً بسلبهم الحجر الأسود؛ لأن ذلك سيبطل الحج إلى مكة. لكنهم وجدوا أنفسهم مخدوعين، فقد بقيت الكعبة، كما كانت سابقاً هدفاً للحجاج، بالرغم من فقدان الأمن، على الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة. ومنذ عام ٩٣٩م (٣٢٨هـ) سمح القرامطة لقوافل الحجاج أن تمر في الأراضي التي يسيطرون عليها، مقابل مبالغ كبيرة من المال يأخذونها لأنفسهم. وفي عام ٩٥٠م (٣٣٩هـ) أعادوا الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة المشرفة[1].

إذا نظرنا إلى الحجاز، في ظل انقسام الخلافة الإسلامية إلى دويلات عدة، نجده من الوجهة السياسية يمثل منطقة بدون سادة. أما من الوجهة الاقتصادية فهو قاحل مجدب. ونظراً لبعده فقد كان مهملاً ولايلقى عناية كاملة. وفي أيامنا هذه (١٨٨٥م) فإن تلك البلاد باستثناء الحرمين الشريفين، وبعض البقاع الساحلية، ما زالت على حالها كما كانت في الماضي. ولم يكن المؤرخون ليهتموا بذكر الحوادث التاريخية في الإمارات

(١) لما يئست القرامطة عن تحويل الحجاج في حجهم إلى هجر، ردوا الحجر الأسود إلى محله، وورد سنبر بن الحسن القرمطي إلى مكة في يوم النحر، يوم الثلاثاء، عاشر من ذي الحجة، سنة ٣٣٩هـ ومعه الحجر الأسود. فلما صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة يومئذ، (وهو ظناً) أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسي، فأظهر سفطاً أخرج منه الحجر الأسود وعليه ضباب من فضة، في طوله وعرضه تضبط شقوقاً قد حدثت فيه بعد قلعة وأحضر معه جصاً يشده به، فوضع حسن بن المرزوق البنّاء الحجر في مكانه الذي قلع منه، وقيل بل وضعه سنبر بيده، وقال: أخذناه بقدرة الله، وأعدناه بمشيئة الله. وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر. ونظر الناس إلى الحجر فقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى. وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام (أخبار مكة المشرفة ج٣ص١٦٦).

تنافس أمراء المسلمين على السيادة لحماية مكة

الصغيرة المتعددة، والتي كانت تقوم في بقاع الجزيرة العربية النائية[1]. والتي تعيش حياتها القصيرة في صراع مستمر وتبدل دائم. غير أن الأمر مختلف بالنسبة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة. فقد كانت بعض حقوق السيادة لأمراء الإسلام على هاتين المدينتين لها أهميتها الخاصة. ولاسيما الدعاء في خطبة صلاة الجمعة، هذا الدعاء أصبح في كل بلاد الاسلام، رمزاً لطاعة الشعب لولي الأمر. وكان لهذا الدعاء على منابر الحرمين تأثير بالغ خاصة في أيام الحج، حيث تجتمع وفود العالم الإسلامي المختلفة على ساحة عرفات لأداء هذا النسك. لقد كانت الظروف السياسية تلقي بظلالها أثناء موسم الحج. فعلى سبيل المثال الحاكم الذي يتولى ممثله قيادة الحج يكون في أعين الوفود المختلفة هو أمير المؤمنين. لقد كان الخلاف حول المركز الأول يؤدي إلى صراعات دامية بين ممثلي العالم الإسلامي، الذين قدموا لاداء شعائر الحج. فمن لم يستطع إثبات نفسه هنا، فقد ثقة سكان جميع المناطق الإسلامية القادمين إلى هذه الديار. إن قمة الشرف هي أن يسمى الزعيم بحامي الحرمين. وقد كان هذا الأمر يثير مشكلات كثيرة بين الدول المستقلة، التي نشأت بعد ضعف الخلافة المركزية. فالأمراء المتنافسون كانوا جميعاً حريصين على نيل شرف هذا اللقب، سواء منهم الذين يدينون بالولاء والطاعة لعاصمة الخلافة، أو أولئك الخارجون على سلطتها، المعادون لوجودها واستمرارها.

ان الذي يرجح كفة الميزان لهذا الأمير أو ذاك، هو قوة الفصائل من الجيش، التي يرسلها الأمراء مع قوافل الحج لحمايتها. وكذلك مقدار الهدايا والأعطيات التي ترسل إلى العاصمتين المقدستين. فالولاء بالعطاء. فالذي يدفع أكثر من غيره، والذي تستطيع قواته الوصول إلى مكة أولاً، هو

---

(١) هناك إمارات صغيرة لم يلق المؤرخون لها بالاً. وتجد في كتب التاريخ إشارات متفرقة لمثل هذه الإمارات، منها على سبيل المثال إمارة علوية قامت في اليمامة في القرن الثالث الهجري وكان أمراؤها من العلويين، ونجد في كتاب عمدة الطالب الكثير من الإشارات لوجود أمراء من العلويين، ظهروا في بعض مناطق الحجاز أو اليمن أو الأراضي الداخلية لشبه الجزيرة العربية (المؤلف).

الذي ينال الرضا، ويقام له الدعاء. ويمكن القول باختصار إن الزعيم الذي يعد بالأمل الكبير، وتكون لديه القدرة على تنفيذ التهديد عند اللزوم، هو الذي ينال بركات المدينة المقدسة، ودعاء خطبائها على المنابر. وإذا تساوى أكثر من واحد من زعماء العالم الإسلامي بهذا الخصوص، فإن سادة مكة يعمدون إلى حل وسط، لا يشعر معه أي طرف من الأطراف بأنه خذل أو خسر.

هذه الصراعات وهذا التنافس الشديد على ولاء الأماكن المقدسة، بدا واضحاً خلال الفترة التي تحدثنا عنها سابقاً (٨٩١ ـ ٩٦١م) (٢٧٨ ـ ٣٥٠هـ). وقد كان هذا قبل انهيار الخلافة الكامل، الذي يحدده المشرقيون بعام ٩٣٦م (٣٢٥هـ).

أهمية مصر بالنسبة للحجاز

بدأت تظهر أهمية مصر بالنسبة للحجاز منذ عهد الطولونيين. غير أن سيطرة القرامطة على مناطق الجزيرة العربية، أوجد هدوءًا نسبياً في علاقات الحجاز مع دول الخلافة، سواء في مصر أو في العراق. إلا أن التنافس بين قادة قوافل الحج في مصر والعراق كان يشتد لدرجة الاقتتال في مواسم الحج. فقد كان القادمون من العراق يمثلون سلاطين البويهيين، الذين حموا الخلفاء العباسيين وسيطروا عليهم. أما القادمون من مصر فكانوا يمثلون سلطة الأخشيديين، الذين تولوا حكم مصر، والذين لا يريدون الإقرار بسلطة آل بويه، التي تشكل حاجزاً مانعاً بينهم وبين الخليفة. وكان يكسب هؤلاء حيناً، وأولئك حيناً آخر، على أرض عرفات والمشاعر المقدسة. وفي بعض الحالات كان عليهم أن يتقاسموا السيادة من خلال القتال، كما حدث في عام ٩٧٠م (٣٥٩هـ)[1]. وعلى العموم لقد كان لمصر اليد العليا

(١) في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة أو في التي قبلها، كان بين الحجاج العراقيين والمصريين قتال بسبب الخطبة بمكة، على ماذكر العتيقي، لأنه قال: وحج بالناس سنة ٣٤٠ أو ٣٤١هـ أحمد بن الفضل بن عبد الملك من مكة. وعارضه أهل مصر مع عمر بن الحسن ابن عبد العزيز وصحت الصلاة لأحمد بن الفضل. وكان أمير الحاج من بغداد عمر ابن يحيى العلوي، ووقع بين عمر بن يحيى العلوي، وأبي الحسين محمد بن عبد الله العلوي، وكان حاجاً، والمصريين، قتال عظيم. وخطب أحمد بن الفضل بن عبد الملك =

بعد ذلك حتى أن العراق قد تعطل قدوم الحج منه لعدة سنوات. فقد برز مصر وتأثيرها في الحجاز. غير أنها لم تكن تحت الزعامة الإخشيديا كانت في السابق. فقد تسلم مقاليد الحكم فيها منذ عام ٩٦٩م (١ سلالة قوية استلمت السلطة في وادي النيل.

قيام دولة الفاطميين

منذ عام ٩٠٩م (٢٩٦هـ) ظهر في غرب أفريقيا نواة دولة، مؤسس الله، الذي كان يرأس طائفة شيعية، يعدّ القرامطة جزءًا منها، وهو من علي وفاطمة. ولهذا السبب سميت هذه السلالة بالفاطميين. وقد تمكن من توسيع رقعة دولتهم في غرب أفريقيا، ثم زحفوا نحو مصر في عام (٣٥٨هـ). ونقل المعز لدين الله الفاطمي مقر حكومته إليها. وبدأت هؤلاء تتراخى تدريجياً مع القرامطة. وبمجرد أن وصل هؤلاء إلى الـ رفضوا التضامن والتعاون مع الأحزاب والفئات الأخرى. لقد حاول أن يدعموا مركزهم في الحرمين الشريفين منذ وقت مبكر ٩١٨م (، وقبيل احتلالهم لمصر بفترة طويلة، غير أن سكان الحجاز لم يكونو بقوتهم آنذاك، فانصرفوا عن طاعتهم. أما الآن وقد أعلنوا قيام علوي مضاد للخليفة العباسي وأمرائه من البويهيين، فقد أصبحوا - بالمطالبة بشرف الخطبة في الحرمين الشريفين. وفي عام ٩٦٩م (، يقول المؤرخون بأنهم حصلوا مقابل أعطيات كثيرة على مركز الأول. فقد تم استثناء الخلفاء العباسيين من الخطبة. وأصبح يدع على منابر الحرمين الشريفين[1]. وعندما تأخر المكيون والمدني ٩٧٦م (٣٦٥هـ) عن مبايعة الخليفة الفاطمي الجديد، قرر الفاطميو

الفاطميون يدعى لهم في الحرم

= على صنادق لسرقة المصريين المنبر بعرفة، وأقام الحج عمر بن الحسن بن عبد العز بالأتراك المصريين وأقام لهم الحج (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٣) وقد استمر على أرض عرفات لسنوات طويلة بعد ذلك بين الخلافة في بغداد والقرامطة والعب مصر. (انظر تفصيلات ذلك في المصدر السابق وكذلك ابن الاثير في حوادث من (٣٤٠ ـ ٣٦٣هـ).

(١) ذكر الفاسي أنه في سنة ٣٥٨هـ خطب للمعز بن تميم بعد ابن المنصور العبيدي صا- بمكة والمدينة واليمن. وبطلت الخطبة لبني العباس. وفرق فيها قائد حج من مد عظيمة في الحرمين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٥).

الإمدادات من مصر، وأرسلوا حملة لحصار المدينة المنورة[1]. لقد كتب أحد الجغرافيين المسلمين يقول: إن الحجاز يعتمد على مصر اعتماداً كبيراً، خاصة فيما يتعلق بالمواد الغذائية. (المقدسي ص ١٠٤) ومع مرور الزمن زاد اعتماد الحجاز على مصر، حتى إننا لنجد الارتباط الوثيق بين حصول المجاعة في مكة، وانحباس الفيضان في نهر النيل[2].

نخلص إلى القول إنه خلال السبعين سنة الماضية التي تجولنا خلالها، وأحياناً تخطيناها، كانت سلطة الإشراف في بداية التكوين. فقد كان هؤلاء السادة كثيراً مايتعرضون لضغوط ومآزق من حماتهم أمراء العالم الإسلامي. ولقد كان للهبات ثم التهديدات التي يتعرض لها هؤلاء أثرها القوي في بلد فقير قليل الموارد. وكانت السلطات المحلية في مكة، تقرر مساندة طرف، دون طرف حسبما تمليه مصلحتها الشخصية. ولعل في هذه الظروف مايخدم نوايا السيادة العلوية، التي لاحظنا بروزها وتطورها في الحجاز منذ سنوات طويلة.

---

(١) جاء في كتاب التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص١٣٧: وفي عام ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله الفاطمي، وخلفه ابنه العزيز، فأوقف أمير المدينة الخطبة لهم، وأعادها للعباسيين. وأنزل الرايات البيضاء، ورفع الرايات السوداء. وكذلك فعل أمير مكة الحسني. ولايذكر المؤرخون سبباً لهذا التحول المفاجىء. ويرى عبد الباسط بدر أن سبب التحول هو بذل المال والهدايا لأمراء مكة والمدينة.

غضب العزيز، وأرسل جيشاً لاستعادة مكة والمدينة، ووصل الجيش إلى مشارف المدينة أواخر عام ٣٦٧هـ، فأرسل أميرها لقائد الجيش يطلب المفاوضة والصلح. فطلب القائد إعلان الولاء للفاطميين وإعادة الرايات البيضاء والخطبة للفاطميين وحدهم على المنبر. مكث الجيش عدة أيام في المدينة ثم خرج منها إلى مكة (بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة ج٢ ص١٣٧ ـ ١٣٨) وذكر الفاسي في أخبار سنة ٣٦٥هـ أن العزيز أرسل جيشاً في هذه السنة، فحصروا مكة، وضيقوا على أهلها (أخبار مكة ج٢ ص٣٤٦).

(٢) ذكر الفاسي في حوادث سنة ٤٧٧هـ أنه كان بمكة غلاء شديد، بلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذر وجوده، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، فأرسل الله عليهم من الجراد ما ملأ الأرض، فتعوض الناس به، ثم عاد الحجاج، فسهل الأمر على أهل مكة. وكان سبب هذا الغلاء، عدم زيادة النيل بمصر على العادة، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١٠).

العلويون في بلاد الديلم

لقد ابتسم الحظ للعلويين خلال هذه الفترة. فقد قوي نفوذهم في بلاد الديلم. وقد ترك ذلك أثراً قوياً في نفس الخليفة منذ عام ٨٩٧م (٢٨٤هـ). وعندما أرسل هؤلاء الأموال الكثيرة لتوزع على أقاربهم في بلاد الخليفة، رأى الخليفة أن يتحرك ضدهم، لكنه توقف عن ذلك (٨٩٥م/ ٢٨٢هـ) نتيجة رؤيا، رأى فيها عليَ بن أبي طالب يأمره فيها بالتوقف[١]. لقد كان هذا الحلم مشابهاً لحلم آخر رآه الخليفة القادر بعد مائة عام، عندما عزل أهل الديلم سلفه عن العرش، حيث ظهر إليه علي ابن أبي طالب في المنام، وقال له: هذه السيادة ستسرك، وإن عمرك سيطول، وإنني أوصيك بمعاملة أحفادي وشيعتي بالحسنى: «وقد نفّذ الخليفة يومها هذا الأمر بكل دقة».

البويهيون يستولون على السلطة في بغداد

منذ عام ٩٤٥م (٣٣٤هـ) تبوأت العائلة البويهية الديلمية مقاليد السلطة المطلقة في عاصمة الخلافة بغداد[٢]. وقد ترك البويهيون الخلفاء العباسيين في قصورهم ليمثلوا صورة العظمة والسيادة القديمة لدولة الخلافة. غير أن هؤلاء هم الذين كانوا يعينون الخلفاء أو يعزلونهم حسب رغباتهم

---

(١) روى الطبري في أخبار مكة سنة ٢٨٢ أن محمد بن زيد العلوي من طبرستان، وجه محمد ابن ورد العطار، باثنين وثلاثين ألف دينار، ليفرقها على أهله ببغداد والكوفة ومكة والمدينة. فسعي به فأحضر دار بدر. وأعلم بدر المعتضد بذلك. واستطلع رأيه وما يأمر به. فقال المعتضد لبدر: يابدر ألا تذكر أني حدثتك أن الناصر دعاني، فقال لي: اعلم إن هذا الأمر سيصير إليك، فانظر كيف تكون مع آل علي بن أبي طالب ثم قال: رأيت في النوم كأني خارج من بغداد، أريد ناحية النهروان في جيشي، وقد تشوف الناس إليّ، إذ مررت برجل واقف على تل يصلي، لا يلتفت إليّ، فعجبت منه ومن قلة اكتراثه بعسكري، مع تشوف الناس إلى العسكر. فأقبلت إليه حتى وقفت بين يديه، فلما فرغ من صلاته قال لي: أقبل فأقبلت إليه فقال أتعرفني ـ قلت لا، قال: أنا علي بن أبي طالب، خذ هذه المسحاة فاضرب بها الأرض، فأخذتها فضربت بها ضربات. فقال لي إنه سيلي من ولدك هذا الأمر بقدر ماضربت بها، فأوصهم بولدي خيراً. قال بدر: فقلت بلى يا أمير المؤمنين: قد ذكرت. قال فأطلق المال، وأطلق الرجل، وتقدم إليه أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه مايوجه به إليه ظاهراً، وأن يفرق لمحمد بن ورد مايفرقه ظاهراً، وتقدم بمعونة محمد على مانريد من ذلك (الطبري ج٣ص٢١٤٧). والرواية حول هذه الرؤيا تبقى رواية تحتمل الخطأ أو الصواب. والله أعلم.

(٢) ابن الأثير ج٨ ص٦٠، ٦١، ٧٨، ٤١١، ٤٢٤، ٤٤٣.

ومصالحهم. وقد برهن هؤلاء عن طريق الكثير من الترتيبات التي اتخذوها، أنهم كبقية أبناء بلادهم شيعيون متحمسون[1]. وتحت هذه المظلة ظهر للعيان أثر العلويين بوضوح في عاصمة الخلافة ومناطقها المختلفة. وفي بغداد أظهر الشيعة، بعد فترة وجيزة، شعارات التحدي، ونتج عن ذلك قتال في الشوارع، كان يتكرر بانتظام طيلة قرن ونصف القرن[2].

لقد احتاج السلاجقة إلى وقت طويل، قبل أن يخففوا تأثير السيادة العلوية، وأن يهدئوا من آثار الحزب العلوي المدلل. وفي هذه الظروف ازداد التأثير العلوي ليشمل اختيار الخليفة[3]. وقد تم على سبيل المثال خلال الفترة التي سبقت سيادة البويهيين عام ٩٣٥م (٣٢٤هـ) وبنجاح كبير استخدام خدمات العلويين كأمراء للحج، لأن في ذلك ضمان لحياة الحجاج، ولا سيما أن أمراء مكة ينتمون للعائلة نفسها[4].

ولا شك أن اتفاقية عام ٩٢٩م (٣١٧هـ)، التي تم بموجبها فتح القرامطة لطريق الحاج، مقابل منح محددة، تمت عن طريق توسط العلويين. وفي أثناء حكم البويهيين كان زعماء العلويين في العراق يعينون أمراء للحج بانتظام. وكان هؤلاء هم الذين يدافعون عن قضايا البويهين في مكة أمام الإخشيدين والفاطميين. وقد استعان البويهيون في حروبهم للبدو، الذين كانوا يغيرون على قوافل الحج، ببعض القبائل ذات الميول الشيعية[5]، مثل قبائل (بني مزيد)[6] إحدى فروع قبائل الأزد.

لقد مضى البويهيون بعيداً في تنصيب زعماء العلويين بالوظائف المهمة لبعض الخلفاء[7]، وربما نسي البويهيون أن هؤلاء ربما يستخدمون نفوذهم

---

(١) ابن الأثير ج٨ ص٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٣.

(٢) ابن الأثير ج٩ ص١١٩، ١٢٦، ١٤٦ ـ ١٤٧، ٢١٦ ـ ٢١٧، ١٤٨.

(٣) ابن الأثير ج٨ ص٢٧٥، ٣٠٨.

(٤) ابن الأثير ج٨ ص٢٣٢.

(٥) ابن الأثير ج٩ ص٢٠٩، ٣٩٦، ج١٠، ص٣٠٦.

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص١٦٧، ١٧٢.

(٧) ابن الأثير ج٩ ص١٢٩، ١٨٣ ـ ١٨٤.

لصالح الفاطميين[1] (خصومهم). وتظهر لنا الحقيقة جلية من أنه في عام ١٠٥٨م (٤٥٠هـ) كان عامة الشعب في العراق، ميالين لمبايعة الخليفة المضاد في مصر[2]. ولقد كان العلويون دائماً وعند إحساسهم بضعف السلطة المركزية يتمتعون بتأييد عامة الشعب[3].

الأشراف والسادة

لقد برزت أهمية آل علي في فترة الاضطرابات التي عاشتها الخلافة الإسلامية. فقد أصبحوا يلقبون من قبل المؤرخين بالأشراف، وهذا لقب لرؤساء العائلات العربية العريقة، التي تختار منها القبيلة في العادة زعيمها، أو يختار سكان المدن منها حكامها وأمراءها[4]. وهذه العائلات لم يبق لها أي نفوذ. لقد انتقلت هذه الألقاب إلى أشراف العلويين، الذين برزوا إلى الوجود عن طريق الإسلام. وكذلك برز لقب سيد الذي أصبح أيضاً لقباً علوياً، ويحمل هذا اللقب معنى شريف نفسه. وأحياناً يحمل معنى مختلفاً، وكل اختلاف في التعبيرين، محدود بزمان معين ومكان معين[5].

ليس لدينا معلومات مفصلة عن الأسباب أو الاستعدادات التي اتخذت من أجل وصول الأشراف إلى حكم مكة، واستقلالهم بإمارتها. هناك حوادث بسيطة يمكن اعتبارها مقدمات، منها أن أحد الحسنيين واسمه محمد ابن

(١) ابن الأثير ج٩ ص١٥٦ ـ ١٥٧، ١٦٦، ٤٠٦.
(٢) ابن الأثير ج٩ ص٤٤١.
(٣) ابن الأثير ج٨ ص٤٣٧.
(٤) الطبري ج٢ ص٨٠، ٥٤١، ج٣ ص٦٣٥.
(٥) هذه الأيام (زمن المؤلف ١٨٨٥م) الحسنيون فقط الذين ساد أجدادهم في مكة، هم الذين يلقبون بالأشراف. وكبير الأشراف يلقب بالسيد. ويخاطب من قبل الشعب «سيدنا». وفيما عدا ذلك، فإن كلمة سيد تطلق على الحسينيين فقط، رغم أنه معروف بأن سادة اليمن، كانوا حسنيين. وفي مصر وسوريا وغيرها يسمى الناس كل أحفاد محمد ﷺ أشرافاً، وكذلك كان الأمر في جزيرة العرب. أما في الهند فإن كلمتي سيد وشريف تختلف عنها في الحجاز(المؤلف).
ذكر السباعي في معرض حديثه عن آثار الفاطميين في مكة: واعتقد أن من أوليات الفاطميين في مكة تلقيب حكام مكة من الحسينيين بلقب الأشراف، وتلقيب بني عمومتهم بالسادة، ولم تكن هذه الألقاب معروفة من قبل ثورة جعفر في عهد الفاطميين (السباعي ١٤٠٤: ٢١٧).

سليمان طالب في عام ٩١٤م (٣٠١هـ) بالخلافة أثناء موسم الحج[1]. ومنها أن علوياً آخر، استولى على السلطة في المدينة عام ٩٤١م (٣٢٩هـ)، فخاف الناس زيارة المدينة، نظراً لشدته[2]. ومنها أيضاً ثورة محمد بن موسى الثاني (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٨) ضد الخليفة المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٥م). وقد أطلق البدو سراح محمد بن موسى هذا عندما أراد أن يأخذه أحد موظفي الخليفة مع أبيه إلى بغداد على نحو ماذكرنا سابقاً. وفيما عدا هذه الحوادث المتفرقة هناك صمت مطبق عن أخبار الأشراف، وأخبار الحجاز بشكل عام، حتى منتصف القرن الرابع الهجري (٩٦١م) (٣٥٠هـ)، حيث نجدهم فجأة حكاماً لمكة. ولاشك أن هذا كان مثار استغراب المؤرخين. غير أن السكان المعاصرين لتلك الفترة، كان استغرابهم قليلاً؛ لأن دهاء الحسنيين في غرب الجزيرة العربية كان معروفاً لديهم.

جعفر يستولي على مكة

إن فتح مكة من قبل جعفر (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢٨)، حفيد محمد بن موسى الثاني، قد بدأ وكأنه أقل من حدث كبير، حتى أن المؤرخين لم يذكروا التاريخ الذي وقع فيه. وكأن لسان حال المؤرخين يقول إن التجارب قد أظهرت بأن أعمام المذكور، قاموا باحتلال المدينة عدة مرات، على مر السنين السابقة. وقد بدا وكأن المغامرين من الأشراف، بدؤوا يتطلعون إلى احتلال المناطق الأخرى، الأكثر فقراً، بعد أن عجزوا عن احتلال المدينة الغنية. غير أن مايمنع هؤلاء كان خوفهم من جيوش الخلافة. أما في أيام الفوضى هذه، التي سادت هذه الديار، فقد زالت رهبة الخلافة من نفوس هؤلاء، ولم يعد هؤلاء مكترثين بعدم الرضا الذي يبديه الخليفة عنهم. وربما كان الفاطميون، في مصر هم الذين شجعوا جعفر على احتلال مكة،

---

(١) ذكر السباعي أن محمد بن سليمان من أبناء العلويين، استغل فرصة انشغال العباسيين بالفتنة، فثار بمكة واستقل بإمارتها في عام ٣٠١هـ، وخطب لنفسه في موسم الحج، ولم يذكر السباعي مدة بقاء هذا الحاكم، ولعلها كانت قصيرة، ولا تستحق عناية المؤرخين، كما أنها كانت آخر ثورة للعلويين، إلا إذا اعتبرنا ثورة الأشراف في القرن الرابع الهجري استئنافاً جديداً (انظر السباعي، ١٤٠٤هـ، ص١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) ابن الأثير ج٨ ص٣٣٤هـ.

لكي يحصلوا على وسيط مريح، للاستئثار بحقوق السيادة على بلاد الحرمين. وقد قام الفاطميون[1] قبل هذا التاريخ بتسوية نزاع نشب بين الحسنيين والحسينيين والجعفريين، الأمر الذي مهد لهم الطريق إلى مكة.

هناك خلاف كبير حول التاريخ الذي تولى فيه جعفر إمرة مكة. فبعض الروايات تشير إلى أنه ملكها مابين عامي ٩٥١ (٣٤٠هـ) و ٩٦١ (٣٥٠هـ)[2]. أما الرواية الأخرى فتحدد أعواماً ثلاثة هي ٩٦٦ (٣٥٦هـ)، ٩٦٧ (٣٥٧هـ)، ٩٦٨ (٣٥٨هـ)[3]. وقد استمر في حكمه مدة عشرين سنة تنتهي بموته أو حوالي عام ٩٨٠م (٣٧٠هـ)[4]. ويذكر المؤرخون من أعماله، أثناء فترة حكمه، أنه قتل القائد التركي، الذي كان يمثل الفاطميين في مكة. وأنه حارب وقتل الكثير من البدو العصاة المحيطين بالمدينة المقدسة، حتى أعلنوا ولاءهم له. ثم أرسل ابنه إلى الخليفة الفاطمي بمصر، ليثأر منه بالقائد الذي قتل، غير أن الحقيقة هي أنه أرسله لتقديم

---

(١) ذكر السباعي أنه قبل تولي جعفر أمر مكة، كان هناك علاقة خاصة بين المعز لدين الله الفاطمي - قبل أن يحتل مصر - وكان يومها في المغرب، مع أشراف مكة. فقد أرسل رجالاً من طرفه لتسوية بعض الخلافات التي بلغه أنها ناشئة في مكة بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب. وقد عقد هؤلاء بين الفريقين صلحاً في المسجد الحرام. وأدوا في نفس الوقت دية القتلى من بني الحسن، مما حملوا من أموال المعز، وذلك في سنة ٣٤٨هـ (انظر السباعي ١٤٠٤هـ ص١٩٣).

(٢) هذه الرواية موجودة في مخطوط عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب صفحة ١١٢، وفيها يقول المؤلف: «والأمير أبو محمد جعفر، أول من ملك مكة من بني موسى الجون، وهو مبدأ تمكن الأشراف من حكومتها. وكان ذلك بعد الأربعين والثلاثمائة». وهذا التاريخ موافق ٩٥١ ميلادية.

(٣) هذه الرواية موجودة في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٥ - ٢٠٦ وتعتمد على نهاية دولة الإخشيد، وتولي الفاطميين أمر مصر، لأن تولي جعفر، كما يراه المؤرخون، لم يتم إلا بعد موت كافور الإخشيدي. وهناك خلاف حول تاريخ وفاة كافور، ولذلك جاء الاضطراب في الروايات التاريخية. وعلى العموم فالسنوات الميلادية في المتن تقابل السنوات ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨ من الهجرة النبوية الشريفة.

(٤) هذا التاريخ موجود على حاشية الصفحة ١١٢، من مخطوط عمدة الطالب الآنفة الذكر بالصورة التالية: (وكانت وفاته سنة سبعين وثلاثمائة) وهذا التاريخ يعادل ٩٨٠م الواردة في المتن.

الاعتذارات، التي وجدت استقبالاً حسناً لدى الخليفة الفاطمي، الذي عفا عنه وأطلق سراحه[1]. وهكذا نرى الشريف الأول لمكة، يدشن حكمه بالقتال، الذي أصبح أمراً أكثر أهمية مع مرور الزمن.

عيسى يشارك أباه في الحكم

وفي أثناء حكمه، وحكم ابنه عيسى (انظر شجرة النسب الأولى رقم (٣١) الذي استمر لغاية ٩٩٤م (٣٨٤هـ)، ثبتت سيادة الفاطميين في مكة. غير أنه في عام ٩٧٦م (٣٦٦هـ) أرسل العزيز ابن المعز العبيدي جيشاً حاصر به مكة، وضيق على أهلها كثيراً، حينما لم يخطبوا للعزيز بعد موت أبيه. ومن هنا نرى أن الثقل السياسي قد تحول إلى المدينة المقدسة، خلال فترة الاضطرابات والانقسامات التي حلت بالخلافة، والتي نتج عنها استقلال الحجاز النسبي، ومحاولة كسب تأييده، لأي من دويلات الخلافة.

مرسوم الحاكم بانتقاص الصحابة

وعلى أثر وفاة عيسى، تولى الإمارة أخوه وخليفته أبو الفتوح (٩٩٤ ـ ١٠٣٩م) (٣٨٤ ـ ٤٣٠هـ). وقد تزامن حكمه مع حكم العبيدي، الحاكم بأمر الله الفاطمي، الخليفة شبه المجنون. وقد اختلف ابو الفتوح مع الحاكم؛ لأن الأخير أرسل إليه سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وأمره أن يأمر الخطيب بقراءته على المنبر. فشق ذلك على أبي الفتوح، الذي أعلن عصيانه وقام بتنصيب نفسه خليفة[2]، وبايعه شعب الحجاز. وقد عمل ابن

---

(١) جاء في مخطوطة عمدة الطالب ص١١٢: والأمير أبو محمد جعفر، أول من ملك مكة من بني موسى الجون، وهو مبدأ تمكن الأشراف من حكومتها، وكان ذلك بعد الأربعين والثلاثمائة. وكان حاكم مكة (انكجوار) التركي، من قبل المعز لدين الله الفاطمي، فقتله الأمير جعفر، وقتل من الطلحية والهذيلية والشكرية خلقاً كثيراً، واستوت له تلك النواحي، وبقيت في يده نيفاً وعشرين سنة. وكان له عدة أولاد منهم عبد الله القود، أرسله أبوه إلى مصر بعد أن قتل (انكجوار) فعفا عنه.

(٢) يروي ابن فهد في إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٦ ـ ٤٢٧ في أخبار سنة (٣٩٠هـ) قصة الخلاف بين الحاكم وأبي الفتوح وفيها يقول: أشار بعض الزنادقة على الحاكم العبيدي، صاحب مصر، بنبش قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما وحملهم إلى مصر. وزين له ذلك. فدخل ذلك عقل الحاكم، فأرسل إلى أبي الفتوح أمير مكة يأمره بذلك. فسار أبو الفتوح =

أحد الوزراء[1] ـ وقد قتل الحاكم أباه، والتجأ إلى قبائل طيء في سوريا ـ على

= إلى المدينة، وأزال عنها إمرة بني الحسين، لما بلغه عنهم في القدح في نسب العبيديين. وجلس أبو الفتوح في المسجد، وحضر إليه جماعة من أهلها، لأنه كان بلغهم ماقدم بسببه. وكان حضر معهم قارئ يعرف بالركباني. فقرأ بين يدي أبي الفتوح في المجلس ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [التوبة، الآيات: ١٢ ـ ١٣]، قال: فماج الناس، وكادوا أن يقتلوا أبا الفتوح، ومن معه من الجند. فلما رأى أبو الفتوح ما الناس عليه قال: الله أحق أن يخشى، والله لا أتعرض لشيء من ذلك. ودع الحاكم يفعل فيَّ ما أراد. ثم استولى عليه ضيق الصدر، وتقسيم الفكر، كيف أجاب؟! فما غابت الشمس في بقية ذلك اليوم، حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرض تزلزل منها، حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها، كما تدحرج الكرة على وجه الأرض. وهلك خلق كثير من الناس. وانفرج هم أبي الفتوح وذهب روعه من الحاكم، لما أرسل الله تلك الرياح، التي شاع ذكرها في الآفاق، لتكون له حجة عند الحاكم من الامتناع في نبش القبور الكريمة، ثم عاد أبو الفتوح إلى مكة، وعاد بنو الحسين إلى المدينة. وفي أخبار سنة ٣٩٥هـ ص٤٣١ يروي ابن فهد أن الحاكم أرسل إلى صاحب مكة أبي الفتوح سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وجرّح به بعض أزواج النبي ﷺ فأرسل به الأمير إلى القاضي الموسوي ـ وأظنه إبراهيم بن إسماعيل وهو يومئذ قاضي مكة وما والاها وأمره بقراءته على الناس. فلما فشا ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة المنتجعين وغيرهم من قبائل العرب المجاورة ـ هذيل ورواحة ـ زحفوا إلى المسجد غضباً لله تعالى ولنبيه ﷺ ولصحابته رضوان الله عليهم. فلما بلغ ذلك القاضي أخّر الخروج وتباطأ، فطال انتظار الناس له حتى قال قائل: لقد صعد المنبر. فرماه الناس بالحجارة ورصفوا إليه، فلم يجدوا عليه أحدا. وتكسر المنبر فصار رميماً، وكان يوماً عظيماً ومشهداً مهيباً ولم يقدر بعد ذلك أحد أن يعلن بذلك المذهب.

ولعل هذه الأحداث قد شجعت أبا الفتوح على إعلان التمرد والعصيان والمطالبة لنفسه بالخلافة. والله أعلم.

(١) هذا الشخص هو أبو القاسم المغربي، الذي قتل الحاكم أباه وأخاه. فهرب إلى آل الجراح الطائي بالرملة، ولزم حسان بن مفرج بن الجراح الطائي، فأجاره ومنع الطلب عنه. وقد أوقع أبو القاسم بين آل الجراح والحاكم حيث أغراهم بقتل المقدم، الذي أرسله الحاكم إلى الرملة، ثم أقنعهم بضرورة مبايعة أبي الفتوح، أمير مكة بالخلافة، فأمر حسان الوزير أبا القاسم بالتوجه إلى أبي الفتوح في مكة. وحرضه على طلب الخلافة، وسهل عليه الأمر، وضمن له الوفاء. فشكا أبو الفتوح إلى أبي القاسم قلة المال، فأشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من مال، وماعليها من أطواق الذهب والفضة، وضربه دراهم ودنانير ففعل، ودعا إلى نفسه، وخطب لنفسه بالخلافة، وتلقب بالراشد بالله، وأظهر ذلك، وبايعه أهل =

تشجيع أبي الفتوح وإغرائه بانتزاع الخلافة لنفسه، وإعلان الثورة ضد الفاطميين.

أبو الفتوح يطالب بالخلافة لنفسه

ذهب أبو الفتوح بعد أن بايعه شعب الحجاز حوالي عام ١٠١١م (٤٠١هـ) بسيف يقال إنه سيف علي، وعصا النبوة، إلى قبائل طيء في سوريا، ليأخذ لنفسه البيعة، التي مهد له فيها الخارج على سلطان الحاكم. وقد قابله زعماء البدو بالرضا والسرور. غير أن الخليفة الجديد قد لحظ بسرعة، أن هدايا النقود، التي أرسلها الحاكم إلى هؤلاء، قد أعطت تأثيراً أفضل وأقوى من آثاره المقدسة. وهكذا أسرع بالعودة إلى مكة في العام التالي، حيث وجد أن أخاه[1] أو أحد أقاربه، ويدعى أبا الطيب داوُد من بني عمه السليمانيين، وبتشجيع من الحاكم نفسه، قد اغتنم الفرصة ليحل محله في الإمارة. وقد أقنعه ذلك بضرورة أن يتصالح مع الحاكم، وأن يتخلى عن كل الخطط بعيدة المدى للحصول على الخلافة.

محاولة الاعتداء على الحجر الأسود

حوالي عام ١٠٢٣م (٤١٣هـ)[2] أوجدت جريمة ارتكبها أحد المصريين، غضباً شديداً في مكة، فقد اندفع رجل إلى الحجر الأسود بدبوس محاولاً كسره، وهو يصيح إلى متى يعبد هذا الحجر؟ وقد تصدى له أحد أبناء مكة فقتله، وقد كان ذلك سبباً في إلحاح الناس على المصريين بالسلب والنهب[3].

= الحرمين (ابن فهد، اتحاف الورى ج٢ ص٤٣٧ ـ ٤٣٨).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة نقلاً عن النويري، أن الذي خرج بمكة، هو أخ أبي الفتوح، وليس ابن عمه (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٩).

(٢) يرى الذهبي وابن الجوزي أن الحادثة وقعت عام ٤١٣هـ بينما ابن الأثير يثبتها في حوادث عام ٤١٤هـ (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٨: وكذلك ابن الأثير حوادث ٤١٤هـ).

(٣) جاء في إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٤٤٨ وفي حوادث عام ٤١٣هـ في يوم الجمعة يوم النفر الأول ـ ولم يكن رجع الناس بعد من منى ـ: عمد بعض الملاحدة من المصريين، الذين استغواهم الحاكم العبيدي، وأفسد ديانتهم، وكان أحمر اللون، أشقر الشعر، تام القامة، جسيماً طويلاً، وبإحدى يديه سيف مسلول، وبالأخرى دبوس، بعدما فرغ الإمام من الصلاة، فقصد الحجر الأسود كأنه يستلمه، فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متوالية بالدبوس... وقال إلى متى يعبد الحجر الأسود ـ ولا محمد ولاعلي يمنعني عما أفعله، فإني أريد اليوم أهدم هذا البيت وأرفعه. فاتقاه أكثر الناس الحاضرين وخافوه =

لقد مرت أيام ابي الفتوح وابنه محمد شكر (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٣٥) الذي حكم فيما بين سنتي (١٠٣٩ ـ ١٠٦١م) (٤٣٠ ـ ٤٥٣هـ)[١] بهدوء، لم يعكر صفوه سوى بعض سنوات الجوع التي مرت على المدينة المقدسة[٢]. وكان أبو الفتوح وولده شكر يتمتعان بمواهب شاعرية رقيقة[٣]. ويروى عن ابي الفتوح وعن أخته بعض الحكايات الهزلية التي تعبر عن القوة الجسدية، التي لا يمكن تصديقها، سواء بالنسبة للأمير أو للأميرة[٤].

الصراع حول السلطة

لقد أدت وفاة الأمير شكر إلى قيام صراع بين الحسنيين؛ لأن شكراً هذا لم يخلف أبناء[٥]. ويسمى المؤرخون المكيون فخذ قبيلة الحسنيين، الذي انتهى

= وتراجعوا عنه وكاد أن يفلت ـ وكان على باب المسجد عشرة من الفرسان على أن ينصروه ـ فاحتسب رجل من أهل اليمن ـ أو من أهل مكة أو غيرهما ـ وثار به فوجأه بخنجر. واحتوشه الناس فقتلوه، ثم تكاثروا عليه فقطعوه وحرقوه بالنار. وقتل جماعة ممن اتهم بمصاحبته ومعاونته على ذلك المنكر، وأحرقوهم بالنار، وكان الظاهر منهم أكثر من عشرين، غير ما اختفى منهم. فثارت الفتن، وألح الناس في ذلك على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب، وعلى غيرهم في طريق منى إلى البلد ثم ركب أبو الفتوح أمير مكة فأطفأ الفتنة، وردهم عن المصريين.

(١) ذكر صاحب كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص١١٥ أن وفاة الأمير تاج المعالي شكر، كانت سنة ٤٦٤هـ، ولعل ذلك خطأ، والصحيح أنه توفي سنة ٤٥٣هـ. وقد ذكر ذلك النجم ابن فهد في إتحاف الورى في أحداث عام ٤٥٣هـ (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٦).

(٢) لعل أهم هذه السنوات هي سنة ٤٤٧هـ، في عهد ولاية شكر، كما ذكر ابن فهد، في إتحاف الورى ص٤٦٤.

(٣) ذكر محقق كتاب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام شيئاً يسيراً من شعر شكر. (انظر عبد العزيز بن فهد الهاشمي القرشي: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٩٨).

(٤) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام لمؤلفه أحمد زيني دحلان ص٢٩ ـ ٣٠: وكان فيه [أبو الفتوح] من الشجاعة والنجدة والقوة مالا مزيد عليه. يحكى أن أخته أرسلت إليه بدراهم ليأخذ لها حنطة، فأنف من ذلك، فأخذ الدراهم وفركها بيده حتى محا رسمها، وأذهب نقشها، وردها إليها مع حنطة أرسلها لها. وقال لحامل الدراهم: إن هذه الدراهم زيوف لا تصلح. فبلغ أخته ذلك. وكانت مثله في القوة. فأخذت كفاً من الحنطة وفركتها حتى صيرتها دقيقاً، ثم أرسلت به إليه وقالت: إن هذه الحنطة لا تصلح.

(٥) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٠٩ ـ ٢١٠: ذكر ابن حزم في الجمهرة ما يقتضي أن عقبهم (أبو الفتوح وشكر) قد انقرض. وأن مكة وليها بعد شكر، عبد كان له؛ لأنه قال: وقد انقرض عقب جعفر المذكور؛ لأن أبا الفتوح لم يكن له ولد إلا شكر، ومات شكر، =

بموت شكر، باسم الموسويين، نسبة لجدهم الأول الملقب موسى الثاني (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٣) بالرغم من أن هذا الاسم يمكن إطلاقه على طبقتين من طبقات الأشراف الثلاثة التالية.

لم تكن للموسويين أهداف سياسية طموحة، باستثناء المحاولة غير الذكية التي قام بها أبو الفتوح، لإعلان نفسه خليفة للمسلمين. ولم يكن باستطاعتهم عمل أكثر مما عملوه في مكة، غير أنهم قاموا بإخضاع القبائل البدوية وتأديبها في المناطق المجاورة. أما رعاياهم المكيون، فإنهم لم يشغلوا بالهم بهذا الأمر، ولم يهتموا حتى بتأمين طرق الحج، التي يأتي دخلهم منها. أما الأتاوات التي كانت تدفعها قوافل الحج منذ عام ٩٣٩م (٣٢٧هـ) إلى القرامطة[١]، فقد تحولت بعد أن ضعف هؤلاء، إلى البدو الذين تمر طرق القوافل عبر مناطقهم[٢]. ومنذ عام ٩٨٦م (٣٧٦هـ) سار أكثر بدو آسيا الوسطى، على المنوال نفسه، حيث لم يسمحوا لأي حاج بالمرور دون دفع الرسوم[٣]. ومع ذلك لم يكن نهب الحجاج وسلبهم أمراً نادراً.

عدم تأمين طرق الحج

= ولم يولد له قط. وصار أمر مكة إلى عبد كان له. وذكر صاحب المرآة عن محمد ابن هلال الصالحي، ما يقتضي إن لشكر نسلاً، وهو يخالف ما ذكره ابن حزم. ويبدو أن ما ذكره المؤلف في المتن هو الصحيح من أن شكراً لم ينجب أبناء ذكوراً، ولكن يبدو أنه أنجب على الأقل ابنة واحدة؛ لأن صاحب المرآة ذكر أن أبا جعفر محمد بن أبي هاشم الحسني أمير مكة، كان صهر شكر على ابنته (انظر كذلك غاية المرام في أخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٩٩).

(١) جاء في إتحاف الورى: كان الحج قد بطل في سنة (٣١٧) إلى هذه السنة (٣٢٧هـ). فكاتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي الفاطمي في العراق أبا طاهر القرمطي أن يخلي سبيل الحاج على مكس يأخذه. وهي أول سنة مكس الحاج فيها، ولم يعهد ذلك في الإسلام (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٣٨٧).

(٢) جاء في إتحاف الورى بأخبار أم القرى في حوادث سنة ٣٨٠هـ: واعترض الحاج الأصيفر محمد بن حنين بن حماد، ودفع القرمطي عن طريق مكة. وطلب من الحاج ماكان يأخذه القرمطي، فاستنظره أحمد بن محمد بن عبيد الله العلوي (أمير الحج بالنيابة) إلى حين عود الحاج من مكة، فانصرف وعاد، فنزل الثعلبية إلى أن وافى الحاج فاستوفى منهم المال، وزال أمر القرامطة. (انظر إتحاف الورى ج٢ ص٤٢١). وانظر ابن الأثير ج٩ ص١٠٢.

(٣) ابن الاثير ج٩ص٢٢٩، ٢٩٢.

فقد تختلق الأسباب الواهية لسلب الحجاج ونهبهم، فعلى سبيل المثال، ادعى أحد شيوخ البدو، بأن المال الذي دفع إليه في العام الماضي كان عملة مزورة[1]. وقد لا يكون هناك أي سبب للنهب[2]. فقد كان البدو الذين يصطحبهم الحجاج لحمايتهم، هم الذين يقومون بسلبهم كل مايملكون[3]. وهكذا كان الحجاج أحياناً لا يستطيعون تأدية فريضة الحج، وخاصة من العراق مقر الخلافة[4]، وقد حدث ذلك لسنوات عديدة. وقد كانت بعض الأقطار كخراسان أكثر جرأة وحماساً في إرسال بعض الحجاج، الذين يتبعون كل الوسائل الممكنة، التي توصلهم إلى هدفهم المقدس[5]. كل هذه الظروف والملابسات التي تتعلق بأمور السفر لم يتغير مضمونها، وإن تغير شكلها واستمرت حتى وقتنا هذا (وقت وجود المؤلف في مكة عام ١٨٨٥م) (١٣٠٣هـ).

وبعد موت شكر، فإن العائلة التي ينتمي إليها أبو الطيب السابق الذكر، قد بدأت تظهر على مسرح الأحداث في مكة، عن طريق القوة. وقد عرفت هذه الأسرة بأسماء أجداد أقدم، من مثل الفاتكيين (بني فاتك) والسليمانيين أيضاً، إلا أنها اشتهرت باسم (بنو أبي الطيب الحسنيون).

الأمير الصليحي في مكة

وقد تزامنت هذه الأحداث مع وصول الأمير المتدين الصليحي إلى السلطة في اليمن. وفي عام ١٠٦٣م (٤٥٥هـ) قدم إلى مكة بوفد كبير لأداء فريضة

---

(١) ذكر صاحب إتحاف الورى أنه في عام ٣٨٤هـ خرج الحاج العراقي فاعترضهم الأصيفر الأعرابي، وصدهم عن الطريق، ومنعهم من الجواز وحاربهم. وقال إن الدنانير التي أرسلها السلطان عام أول، كانت دراهم مطلية، وأريد العوض. وقال لاأفرج عن الطريق إلا بعد أخذ رسم سنتين. وطالت المخاطبة والمراسلة إلى أن ضاق الوقت على الحجاج، ولم يكن لهم به طاقة فغادروا، ولم يحج في هذه السنة أهل الشام واليمن، وإنما حج أهل مصر والمغرب خاصة (انظر ابن فهد، إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٣).

(٢) ابن الأثير ج٩ ص١٢٩، ١٤٥.

(٣) ابن الاثير ج٩ ص٢٩٤.

(٤) ابن الأثير ج٩ ص٣٠٢، وأخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٤٥.

(٥) ابن الاثير ج٩ ص٢٢٩، ٢٦٠ ـ ٢٦١.

الحج[1]. وأعاد إلى المدينة النظام والأمن، ووضع حدوداً ضيقة لعشوائية وتسلط الأشراف، ورد بني شيبة عن قبيح أفعالهم، فتنفس أهل مكة الصعداء. وقد امتدحه المؤرخون المكيون كثيراً. أما بالنسبة للأشراف فقد بدا هذا الرجل كعدو مشترك للجميع. وبعد بضعة أسابيع جهزوا أنفسهم جميعاً لقتاله، وقالوا له اجعل منا أميراً تختاره، أما أنت فيجب عليك أن تغادر المدينة. وبهذه الكلمات يمكن إيجاز أحوال المدينة المقدسة خلال هذه الفترة من تاريخها، فهي دائماً لقمة سائغة للأقوى، أو هي ملك لأحد أبناء الأشراف الذي يختاره ويفضله أحد السلاطين الأقوياء من خارج الجزيرة العربية.

لقد انسحب الأمير المتدين، بعد أن عين سيداً لمكة[2] من أحد أبناء الهواشم، الذين يختلفون عن فرع الموسويين، الذين تكلمنا عنهم سابقاً،

---

(١) ذكر صاحب إتحاف الورى في أحداث سنة (٤٥٥هـ) في سادس ذي الحجة، دخل علي ابن محمد بن علي الصليحي صاحب اليمن مكة وملكها. وفعل فيها أفعالاً حسنة، واستعمل الجميل مع أهلها، وأظهر العدل والإحسان، ومنع المفسدين، وطابت به قلوب الناس، وأمن الحج أمناً لم يعهد مثله، لإقامته السياسة والهيبة، حتى كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة، وتقدم بجلب الأقوات، فرخصت الأسعار. ورفع جور من تقدم. وظهرت منه أفعال جميلة، وانتشرت له الألسنة بالشكر، وكثرت له الأدعية، وكان متواضعاً، إذا جاز على جمع سلم عليه بيده. وكسا البيت ثياباً بيضاء حريراً صيفاً، ورد بني شيبة عن قبيح أفعالهم، ورد إلى البيت من الحلي ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون أخذوه، لما ملكوا بعد شكر؛ لأنهم حملوه إلى اليمن، فابتاعه الصليحي منهم ـ وكانوا قد عرّوا البيت والميزاب ـ (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ وانظر أيضاً أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٠).

(٢) جاء في إتحاف الورى أنه في محرم سنة ٤٥٦هـ بعث الأشراف الحسنيون إلى علي بن محمد الصليحي ـ وكانوا قد هربوا من مكة لما دخلها الصليحي ـ أن أخرج من بلادنا، ورتب منا من تختاره. فرتب أبا هاشم محمد بن جعفر الحسني، وكان صهر شكر بن أبي الفتوح على ابنته، وأمّره على الجماعة، وأصلح بين العشائر واستخدم له العساكر وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً ورجع إلى اليمن.
وقيل إن الصليحي رحل إلى اليمن متخوفاً من الأشراف العلويين؛ لأنهم تجمعوا، فكان أن وقع الوباء بأصحابه فمات منهم ٧٠٠رجل. ولم يبق من أصحابه إلا نفر يسير، فأقام بمكة ـ نائباً له ـ أبا هاشم المذكور، ثم سار إلى اليمن. (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩).

وقلنا إنهم ينتسبون إلى جدهم المدعو أبو هاشم (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢٧). ومن الطبعي أن تصبح الأمور بعد سفر الصليحي صعبة بالنسبة للأمير الجديد محمد بن أبي هاشم (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٤٠) الذي كان عليه أن يثبت وجوده أمام السليمانيين المعزولين. ومحمد بن أبي هاشم ينتمي إلى أسرة عظيمة، فقد كان والده (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٣٨) وجده (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٣٤) يحملون لقب الأمراء. وهناك من لا يستبعد أن أبا هاشم قد مارس صلاحيات الحكم، في أثناء فترة الاضطرابات، التي تلت موت الأمير شكر، قبيل تنصيبه من قبل الصليحي.

الشريف أبو هاشم

وفي المقابل كان السليمانيون أيضاً سادة اقوياء، ولم يسلّموا بسيادة الأمير الجديد، إلا بعد قتال مرير كسب خلاله ولبعض الوقت السيادة بطلهم المدعو حمزة بن أبي وهاس (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٣٦). ومن خلال هذا التغيير المستمر في الزعامة، يتضح لنا تباين المعلومات، حول بدء حكم أبي هاشم، ومدة سيادة حمزة[١]. والمهم أن أبا هاشم (١٠٦٣ - ١٠٩٤م) (٤٥٦ - ٤٨٧هـ) قد حكم في السنوات الأولى من الصراع المرير ضد السليمانيين.

لقد اتبع الفرع الحاكم الجديد، الأسس القديمة في استغلال حقوق السيادة لصالحه. ففي ذلك الوقت كانت السلطة في بغداد بأيدي السلاجقة، بعد أن كانت بأيدي البويهيين في البداية. وقد عرف الشريف أبو هاشم بأن السلطان في بغداد يهمه الاعتراف بسلطانه في الأراضي المقدسة؛ لذا فقد

(١) ذكر صاحب كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب أن حمزة قد حكم سبع سنوات، وهو في حرب من الهواشم، وهذه المعلومة تصبح صحيحة، إذا صحح المرء الخطأ الذي ذكره صاحب كتاب العمدة بالنسبة لوفاة شكر من سنة (٤٦٤هـ) إلى سنة (٤٥٣هـ)، والواردة في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١١. وبعد عام ٤٦٠هـ كان أبو هاشم بالتأكيد حاكماً لمكة، لذلك في خلال السنوات السبع السابقة كان المؤرخون يدونون تارة حمزة، وتارة أخرى أبو هاشم كحاكم فعلي لمكة. (انظر عمدة الطالب ص١٠٥، وذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١١).

أمر في عام ١٠٧٠م (٤٦٢هـ) بأن يدعى في صلاة الجمعة للخليفة العباسي، ثم السلطان السلجوقي بدلاً من الدعاء للفاطميين. وقد حصل بالمقابل على مبلغ هائل من النقود والأعطيات[1]. ومن الجدير بالذكر أن المذهب الذي كان مسيطراً في مصر، هو المذهب الشيعي، الذي تبناه الفاطميون. إن تغير التبعية في مكة من مصر إلى العراق يجب أن يتبعه تغيير ذو نتائج عقائدية. وقد تجلى ذلك في تغيير نص الأذان إلى الصلاة. فلما اعترفت مكة ببغداد بصفتها عاصمة سياسية سمع من مآذن الحرم «حي على الفلاح» بدلاً من النص الشيعي «حي على خير العمل». هذا الاختلاف كان منذ القدم كلمة التمييز بين طائفتي السنة والشيعة. ومع أن مثل هذا التغيير لم يكن يقلق بال المكيين كثيراً، إلا أنه كان مهما بالنسبة للشريف نفسه. إذ يرتبط به دخل الأمير ومركزه. فقد عمد الشريف إلى هذا التغيير لانقطاع الإمدادات وتوقفها من مصر.

غير أن الشريف أعاد الخطبة ثانية للفاطميين، وذلك في عام ١٠٧٥م (٤٦٧هـ)[2]، بعد موت الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. وفي العام

---

(١) جاء في إتحاف الورى أنه في سنة ٤٦٢هـ قطع أمير مكة محمد بن جعفر، المعروف بابن أبي هاشم الحسني، خطبة المستنصر العبيدي صاحب مصر. وأعاد الخطبة العباسية بعد قطعها في الحجاز - نحو مائة سنة. وخطب للخليفة القائم بأمر الله، ثم للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي، ثم ترك الأذان بحي على خير العمل، وأرسل رسولاً ومعه ولده إلى السلطان يخبره بذلك، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعا نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار (ابن فهد، إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٢ - ٤٧٣). وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٣، وابن الأثير ج١٠ ص٤١).

(٢) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٤٦٧هـ: في هذه السنة لم يصل من الخليفة العباسي، ما كان يصل لأمير مكة محمد بن أبي هاشم، فقطع أمير مكة خطبة المقتدي العباسي. وصادف مع ذلك أن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر قوي أمره، فتراجع الناس إلى مصر، ورخصت الأسعار، واتفقت وفاة السلطان والخليفة. وأرسل صاحب مصر إلى صاحب مكة رسالة وهدية جليلة وتحفاً، وطلب منه أن يعيد له الخطبة بمكة، وقال له إن إيمانك وعهودك كانت للخليفة القائم، وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا. واجتمع إلى أمير مكة أصحابه وخوفوه وقالوا: إنما سلمنا هذا الأمر إلى بني العباس لما عدمنا المعونة من مصر. ولما رجعت إلينا المعونة فإنا لانبتغي بابن عمنا بدلاً. فأجابهم الأمير على كره منه، وخطب للمستنصر بمكة، وقطع خطبة المقتدي بأمر الله. وكانت الخطبة العباسية =

التالي ١٠٧٦م (٤٦٨هـ) رجع يخطب إلى بغداد، بفضل الهدايا الكثيرة[١]. وهكذا كانت المسرحية تتكرر في فصلين كلما سنحت الفرصة لذلك.

هذا التذبذب في الولاء أغضب سلاطين بغداد. فمنذ عام ١٠٩١م (٤٨٤هـ) أرسل هؤلاء عصابات تركمانية إلى مكة، للانتقام من الإهانات التي كانوا قد تعرضوا لها في السابق. ويقال إن أبا هاشم قد أبلى بلاء حسناً ضد هؤلاء المتوحشين. وقد زاد هذا الأمر من بؤس وشقاء أهل مكة، الذين عانوا من هؤلاء، كما عانوا من تصرفات الشريف نفسه.

لقد أضيف إلى مآسي الحجاج، الذي كانوا يسافرون عبر بغداد، مآسي حجاج آخرين قادمين من سوريا ومصر. فلم يعد سلاطين المسلمين يملكون المال الكافي اللازم دفعه سنوياً للبدو، الذين أصبحوا يعتقدون أن دفع أتاوات المرور، هو خدمة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها[٢]. وزاد في الأمر سوءًا أن أمراء الحج، الذين يختارون من الأشراف العلويين، والذين كانت منزلتهم الاجتماعية، تقف في كثير من الأحيان، حائلاً دون كثير من السلب والنهب لقوافل الحجاج، قد قل الاعتماد عليهم كثيراً في أيام السلاجقة، وأصبح أمراء الحج منذ عام ١٠٧٦م (٤٦٨هـ)[٣] غير علويين، بل رجال حرب أتراك، وحتى إن بعضهم كان من الخصيان[٤] ذوي النفوذ في الدولة.

= بمكة أربع سنين وخمسة أشهر (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٧) وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٣).

(١) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٤٦٨هـ: في ذي الحجة، قطع أمير مكة محمد بن أبي هاشم خطبة المستنصر، وخطب للمقتدي ابن القائم الخليفة العباسي، والسبب هذه المرة طمع الأمير أبي هاشم بالزواج من أخت السلطان جلال الدولة ملكشاه، ثم تيقنه أن الخزينة الفاطمية، ليست فيها المال الذي كان يطمع فيه. فقطع الخطبة عنهم وأعادها للأنسباء الجدد (ابن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص٤٧٨).

(٢) ابن الأثير ج١٠ ص١١١، ١٤٦ ـ ١٤٧ ج١١ ص١٩، ٣٦٠.

(٣) جاء في إتحاف الورى في حوادث سنة ٤٦٨هـ: كان أمير الحاج أبا منصور خطلغ بن كنتكين المعروف بالطويل، وهو أول تركي تأمر على الحج (ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٤٧٨ وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص١٠٨ ٣٩٣٢).

(٤) حدث ذلك في عام ١١١٩م (٥١٢هـ)، ابن الأثير ج١٠ ص٣٨٢، ج١١ ص٦٨.

تغيير أمراء الحج

ومنذ بدأ هذا التجديد في إمارة الحج، فقد زادت عجرفة الشريف، وازداد كبرياؤه. وفي أثناء أداء فريضة الحج عام ١٠٧٦م (٤٦٨هـ)[١] خفف عن نفسه بأن سمح لعبيده، الذين يشكلون نواة قوة الحرب عند الأشراف، وكما هي الحال عند بقية أمراء العرب، أن يتشاجروا مع الحجاج القادمين من العراق وأن يضربوهم. لكن قائد بعثة الحج دافع عن أبناء بلده بنجاح بالغ.

لقد غضب أبوهاشم غضباً شديداً، حين أرسل سلاطين بغداد القوات التركمانية إلى مكة، الأمر الذي حدا به أن يأمر بنهب الحجاج[٢] في طريق عودتهم، وذلك عام ١٠٩٤م (٤٨٦هـ). ومن الطبعي فقد أرسلت الخلافة العباسية قوات من بغداد لتأديب الشريف. غير أنه قبل وصول هذه القوات كان أبو هاشم قد توفي، وترك لابنه قاسم (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٤١) مهمة إخراج الأتراك من حول عنقه، عن طريق الكفاح المستمر. ولما كانت السيادة الاسمية في مثل هذه الأحوال ستؤول إلى الفاطميين، نظراً لعداء بغداد، فقد اقتصر أمراء الحج من بغداد في السنوات التالية على عرض عسكري مثير في مكة. وهكذا ساد السلام المحمي بالسلاح في المدينة المقدسة.

وفي عام ١١٢١م (٥١٥هـ) تسبب أحد الفقهاء العلويين[٣] من بغداد في عصيان ضد حكومة قاسم المتسلطة بمكة، لكن الشريف تمكن من أن يطرد عدوه إلى جهات البحرين.

---

(١) أخبار مكة المكرمة ج٢ ص٢٥٤ وابن الأثير ج١٠ ص١٠٨، ٣١٣.

(٢) جاء في إتحاف الورى في حوادث سنة ٤٨٦هـ: في هذه السنة انقطع الحج من العراق. وحج الناس من دمشق. فلما قضوا حجهم وعادوا سائرين، سيّر إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً لينهبوهم، فلحقوهم بالقرب من مكة، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجمالهم، فعادوا إليها مستغيثين به وأخبروه، وسألوه أن يعيد إليهم ما أخذ منهم، وشكوا إليه بعد ديارهم، فلم يغثهم، مما فيه كبير جدوى، وأعاد بعض ما أخذمنهم، فلما أيسوا منه ساروا من مكة عائدين على أقبح صفة، فلما بعدوا عنها، ظهر لهم جموع من العرب من عدة جهات، فصانعوهم على مال، أخذوه من الحاج،بعد أن قتل منهم جماعة وافدة، وهلك كثير بالضعف والانقطاع، وعاد السالم منهم على أقبح صورة في حالة عجيبة (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٨٦ ـ ٤٨٧هـ. وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص١٥٣).

(٣) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٥١٥هـ: وفيها ظهر بمكة إنسان علوي، من فقهاء النظامية =

الشريف فليته

ويقال إن ابنه (فليتة) الذي خلفه عام ١١٢٤م (٥١٧هـ)، كان أكثر عدلاً من أبيه، غير أن هذا ليس له مدلول كبير. ويمتدحه الناس؛ لأنه قام بإلغاء بعض الضرائب غير المباشرة (المكوس)[1]. وهذا النوع من الضريبة التي كانت تفرض على البضائع والمواد الغذائية أو تؤخذ رسوماً من الحجاج كانت مكروهة لدى عامة المسلمين؛ لأنه ليس لها سند من التشريع، بالرغم من أن هذه الضريبة أقل خطراً من الاقتطاعات المالية، التي كانت تؤخذ عنوة من الأغنياء، تحت طائلة التهديد والعقوبة. إن هذه الضرائب كانت موجودة في مكة، منذ أن كان الخلفاء يتولون حكمها مباشرة. ولم يرغب الأشراف في أثناء حكمهم فيما بعد، إغلاق هذا المصدر المهم من مصادر الدخل في مكة.

ليس من الضروري بالنسبة لهدفنا أن نتتبع التفاصيل الدقيقة لبقية أمراء الهواشم، الذين تربعوا على عرش السلطنة حتى عام ١٢٠٠م (٥٩٧هـ)[2]، وفي بعض المراجع حتى عام (١٢٠١م (٥٩٨هـ) أو ١٢٠٢م) (٥٩٩هـ).

= ببغداد. وأمر بالمعروف فكثر جمعه، ونازع أمير مكة قاسم بن أبي هاشم، فقوي أمره وعزم على أن يخطب لنفسه، فعاد ابن أبي هاشم، وظفر به، ونفاه إلى البحرين (ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٩٧ وانظر أيضاً ابن الأثير ج١٠ ص٤٢٠).

(١) جاء في إتحاف الورى في أخبار سنة ٥١٧: وفي هذه السنة، وقيل في التي بعدها، توفي أمير مكة أبو محمد قاسم ابن أبي هاشم، وولي بعده ابنه فليته، وقيل أبو فليته، فأحسن السياسة، وأسقط المكوس وأحسن إلى الناس، وسار بسيرة حسنة (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٩٨ - ٤٩٩ وابن الأثير ج١٠ ص٤٣٥).

(٢) ذكر صاحب كتاب أمراء البلد الحرام ص٣٥ نقلا عن الفاسي: كان [داود] يتداول هو وأخوه مكثر إمارة مكة، ثم انفرد بها نحو عشر سنين آخرها سنة سبع وتسعين وخمسمائة على الخلاف في انقضاء دولة مكثر، وهو آخر أمراء مكة المعروفين بالهواشم. غير أن الرأي الآخر هل هي ولايته أو ولاية أخيه داود على الشك. والصحيح أنها ولاية مكثر بن عيسى. وقد ذكر محقق كتاب أمراء البلد الحرام، في الحاشية تعليقاً على هذه الرواية، أن العبارة لا تتفق مع رواية الفاسي، الذي يذكر أن الخلاف هو على سنة انقضاء دولة مكثر. راجع (شفاء الغرام، ج٢ ص١٩٨) ولكنه يتفق مع ابن ظهيرة (انظر الجامع اللطيف ص٣٠٩). ومن الجدير بالذكر أن سنة ٥٩٧هـ تعادل سنة ١٢٠٠م.

غير أن هؤلاء كما يصفهم أحد الكتاب الذين عاصروهم[1] كانوا يعتبرون «بلاد الله المقدسة» هي ميراثهم، وأن تأجيرها للحجاج من حقهم. وقد استعمل هؤلاء جميعاً حد السيف ضد إخوانهم وأعمامهم وأبناء إخوانهم وأخواتهم، من أجل بقاء السيادة لأشخاصهم.

كان أمراء الحج الأتراك يواجهون مهمات صعبة أثناء مرافقتهم لقوافل الحجيج القادمة إلى مكة، ففي عام ١١٤٥م (٥٣٩هـ) نهبت عصابات الشريف، الحجاج القادمين من بغداد داخل المسجد الحرام[2]، الأمر الذي أوقع الرعب في قلوب أمراء الحج الضعاف، بحيث أحجم هؤلاء عن القيام بالمهمة مرة ثانية. وحتى مع وجود أمراء الحج، ذوي القوة والمهابة، لم يترك خدم الشريف وأعوانه، أي فرصة لسلب ونهب ضيوف الرحمن[3]. وفي عام١١٦١م (٥٥٥هـ) هرب كبير الأشراف من مكة، عندما اقتربت قافلة الحج منها، وذلك نتيجة للأعمال الشائنة التي ارتكبها في مكة سابقاً[4].

---

(١) هذا الكاتب هو الرحالة ابن جبير (انظر رحلة ابن جبير ص٥٤).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٥: ومنها أنه في سنة ٥٣٩هـ نهبت أصحاب هاشم ابن أبي فليتة أمير مكة الحجاج، وهم في المسجد الحرام يطوفون ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وذلك لوحشة بين أمير مكة وأمير الحج.

(٣) (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٥ وابن الأثير ج١١ ص١٨٩ ـ ١٩٠).

(٤) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٣: دامت ولاية قاسم بن هاشم بعد أبيه إلى سنة ستٍ وخمسين وخمسمائة، لأنه فارق مكة متخوفاً من أمير الحج العراقي، وقت الموسم في هذه السنة؛ لإساءة السيرة فيها. وذكر السباعي نبذة عن ظلم القاسم حيث قال: في عام ٥٥٥هـ علم القاسم أنَّ الحج العراقي برئاسة أمير أرغش استعد لقتاله، فلما آنس اقترابه ترك مكة هارباً. ومن ثم كانت الفتنة بين أهل مكة والحج العراقي بمنى. وقتل جماعة من أهل مكة، ولحق الباقون بأهلهم، فجمعوهم وأعادوا الكرة بهم، فسلبوا نحو ألف جمل من الحاج. فنادى أمير الحج العراقي في جنده ووقع القتال، فقتل جماعة من الفريقين، وشاع النهب، ورأى أمير الحج العراقي أن يغادر منى، لا إلى مكة لإتمام نسكه، ولا إلى الزاهر حيث تقوم منازله، بل إلى متجه الطريق الذي يعود به إلى بلاده، دون أن يكمل حجه، وقد عاد كثير من الحاج، ولم يستطيعوا إكمال حجهم خوف الفتن. والظاهر أن المدافعين من عبيد صاحب مكة قطعوا طريق الحاج العراقي بين منى ومكة، فاضطر أكثرهم للفرار، دون أن يتموا مناسكهم. لقد كانت أعمال القاسم في مكة شديدة الوطأة. وكان يعامل الأهالي والمجاورين معاملة قاسية، ويصادر كثيراً من أموالهم (انظر السباعي ١٤٠٤ ص٢٠٨ـ٢٠٩).

وفي خضم النزاعات تدخلت هذيل لتضيف فصلاً آخر من فصول الفتنة. فقد أغارت على مكة ونهبتها، وأصاب الناس تعب شديد من جراء ذلك.

التنافس بين مصر والعراق

ولمزيد من الحماية والأمن، سواء ضد السيادة في بغداد أو مصر، أو لحماية أنفسهم من أخطار الثائرين عليهم من أبناء العمومة والأقارب، قام شريف مكة ببناء قلعة على جبل أبي قبيس. ومن الطبيعي أن هذه القلعة كانت عرضة للدمار والتخريب بين الحين والآخر[١]. ولعلها كانت أحد الأسباب التي أدت إلى عزل شريف مكة آنذاك[٢]. وإلى حدوث فتنة عظيمة بين الحجاج وسكان مكة. وإلى إلغاء أمارة مكة وضمها إلى أمير المدينة، وذلك بناء على أوامر الخليفة العباسي، إلا أن أمير المدينة وجد نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور والقيام بأعباء مكة. فأعاد أمير الحج العراقي داود ابن عيسى المغضوب عليه سابقاً إلى الإمارة، وهو أخو الأمير القديم مكثر، ثم مالبث أن عاد مكثر نفسه إلى السلطة ثانية. وفي جميع الأحوال كان يلقى هؤلاء السادة الدعم والتأييد من رعاع السكان في مكة، باعتبار أن سلطة هؤلاء سلطة مقدسة.

وبالرغم من أن ممثل بغداد للحج، كان يعتبر باستمرار الرجل السياسي العالي المقام، كان هناك نفوذ آخر فرضه العلويون إبان حكمهم لمصر، فقد مارسوا سلطة حماة الحرمين لبعض الوقت. ولم يفت حكام اليمن أن ينالوا

---

(١) قال السباعي: ماكاد يتولى مكثر بن عيسى، في عام ٥٧١هـ، حتى شعر بحاجة إلى تثبيت مركزه، ليتحاشى استبداد بغداد به، كما فعلت بأخيه بالأمس. فعمد إلى شراء الأسلحة، وتجنيد بعض الرجال، وبنى على أبي قبيس قلعة، لتكون له حصناً، إذا فكر أمير الحج العراقي في مناوشته أو عزله. وعلمت بغداد بتحصيناته واعتبرت ذلك منه تحدياً فكلفت أمير الحج طاشتكين بأن يجلي مكثراً عن مكة، وأن يهدم حصنه. وبعد انتهاء موسم الحج نادى المنادي بالهجوم على مكة، فكانت واقعة شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ونهبت أموال الحجاج والأهالي. ولجأ مكثر إلى حصنه، الذي بناه على جبل أبي قبيس، فحصروه به ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، سلم أمير مكة الحصن لأمير الحج فهدمه بعد ذلك (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٢٢).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٧: «كان الخليفة قد أمر أمير الحج بعزل مكثر ابن عيسى، وإقامة أخيه داود مقامه. وسبب ذلك أن كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس».

هذا الشرف لبعض الوقت أيضاً. والواقع أن مكة كان ينقصها إمدادات الحبوب التي تفد من جنوب الجزيرة العربية ومن مصر. وكانت المجاعات[1] في القرن الثاني عشر الميلادي، تنشأ لا محالة، كلما انقطعت إمدادات قوافل الحبوب التابعة لقبائل السرو، نتيجة القحط أو عدم توفر الأمن، أو لعدم رغبة الأمراء في اليمن بإرسال هذه المحاصيل. واستمر الحال حتى القرن السادس عشر، بحيث بقيت الصورة القديمة على ما هي عليه. ويشعر حكام مكة بميل نحو مصر واليمن، لوجود الحكم الشيعي في كليهما. وقد حملهما ذلك على ممالأة الحكام في كلا القطرين.

ابن جبير في مكة

ويقرر ابن جبير الذي زار مكة عام ١١٨٣م (٥٧٨هـ) و ١١٨٥م (٥٨١هـ)[2] أن أشراف الحجاز هم زيدية. وهذا يعني أنهم اعتنقوا الاتجاه الديني السياسي للشيعة، والذي يسمى باسم الزيدية، نسبة إلى الإمام زيد[3] حفيد الحسين بن علي رضي الله عنه. ومن الجدير بالذكر، أن كلمة الزيدية لم تستخدم دائماً في مدلولها نفسه. فالزيدية تعني الانتماء إلى العلويين والمتبعين فقهاً خاصاً بهم، يختلف عن بقية المذاهب الأخرى (الفقه الزيدي). وهناك خلاف بين أهل السنة أنفسهم حول الزيدية، إذ بينما نرى أن أحد مؤرخي السنة المشهورين يتغنى بمدح علماء الزيدية، نرى الرحالة

---

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٣١١: «بلغ الحب فيها [مكة] صاعاً بدينار وصاعاً إلا ربعاً، وأكل الناس الدم والجلود والعظم ومات أكثر الناس، فلما أن كان الثاني والعشرون من جمادى الآخرة وجه الخليفة المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين بالصدقات لأهل مكة والمجاورين، وفرج عنهم فرج الله عنه».

(٢) قال ابن جبير في رحلته إلى مكة عام ٥٧٨هـ في معرض وصفه لصلاة الأئمة: وهم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية. وأشراف هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل» (رحلة ابن جبير ص٧٣).
ويرى السباعي أن مذهب الشيعة بدأ يمد ظله في مكة بتأثير الفاطميين من جهة، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع من جهة أخرى، ودليله على ذلك إضافة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام. وهو تقليد شيعي، كان يعمل به الفاطميون وبعض حكام مكة (السباعي ١٤٠٤، ص٢١٦).

(٣) ابن الأثير ج١٠ ص٤٦٥، يرى أن كتب الزيدية في الفقه تقترب من فقه الإمام أبي حنيفة (المؤلف).

المغربي ابن جبير يصف الزيدية بالرافضية[1] والمتذمرين. وهكذا حكم الرحالة المغربي على أشراف مكة حكماً في غير صالحهم، حينما وصفهم بالروافض، وذكر بعض الاختلافات التي نشأت بخصوص تحديد أيام الأعياد بين الأشراف الكبار، والسلطات غير الشيعية. وتحت حماية الشيعة التي كانت مفروضة من اليمن أو من مصر، أصبحت ادعاءات الأشراف في الحكم مضمونة على الوجه الأكمل. ولم يكن هؤلاء الحماة يشترطون للحكم في مكة مذهباً بعينه. غير أنه من المؤكد أن سادة مكة في الحياة العملية، كانوا يغيرون اتجاهاتهم السياسية بسرعة الريح، وهم أكثر سطحية في اعتقاداتهم الدينية، حيث لم يكونوا على مستوى عال من الثقافة والعلم، كما أن تشريعاتهم كانت عشوائية.

لقد ترأس الاحتفال بموسم الحج في عام ١١٦٠م (٥٥٦هـ)[2] في مكة رجل ذو مركز مرموق، كان المستقبل يهيء له الكثير. ذلك الشخص هو عم صلاح الدين الأيوبي، الذي تم على يديه (١١٦٩ ـ ١١٧٢م) (٥٦٥ ـ ٥٦٨هـ) أخذ مصر من الفاطميين. إن تأسيس الدولة الأيوبية التي أصبحت مشهورة في أوربا، عن طريق صلاح الدين، قد تم في أواخر أيام الهواشم في مكة.

مكة تحت حكم صلاح الدين

وبعد أن ثبّت صلاح الدين، قدميه في مصر كان عليه أن يقرر الاعتراف بواحدة من خلافتي الظل آنذاك، وهما الدولة الفاطمية في مصر، أو الخلافة العباسية في العراق.

---

(١) الزيديون هم أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم). وهم يقولون بإمامة أولاد علي، ويجوزون إمامة المفضول على الأفضل للمصلحة العامة. وكانت الشيعة ترفض هذا المبدأ، فسميت كل طوائف الشيعة روافض إلا الزيدية. وأهم مواطن الزيدية اليوم في اليمن. وكان أول من دعا فيها إلى مذهب الزيدية هو السيد يحيى بن القاسم المرسي، جاء إلى اليمن في عام ٣٨٠هـ، وأقام في صعدة وملك مابينها وصنعاء، بعد وقائع عظيمة حاربه فيها عمال العباسيين (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٤٩).

(٢) ذكر صاحب إتحاف الورى أنه في عام ٥٥٦هـ حج السلطان نور الدين محمود بن زنكي الشهير صاحب دمشق وغيرها. . (إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٤).

أما الدولة الفاطمية فكانت تحت قبضته، والانضواء تحت علمها يجعله يدخل في حركة تنافس مع عدد من الأمراء الآسيويين الذين كان لهم نفوذ كبير في الخلافة العباسية، زد على ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تعتبر دولة منشقة على الخلافة في بغداد. وقد آثر صلاح الدين العمل مع العباسيين بعد تردد[١]. غير أنه احتاط للأمر، فأرسل أخاه إلى اليمن، ليقوم بفتحها، وذلك في عام ١١٧٤م (٥٧٠هـ)؛ لتكون ملاذاً له في حالة عدم نجاحه في تأسيس إمارة مستقلة في مصر[٢].

إن القوات الأيوبية الذاهبة إلى جنوب الجزيرة العربية عن طريق مكة، قد أدخلت الرعب إلى قلب الشريف مكثر، غير أن الأيوبيين لم يكن في نيتهم القضاء على الأشراف، أو الدخول معهم في صدام مسلح.

لقد أصبح المركز المرموق أثناء فترة الحج من نصيب الأيوبيين، حيث أصبح يدعى لصلاح الدين على منابر الحرمين، بعد الخليفة العباسي، وشريف مكة. وقد تميزت فترة الأيوبيين بإزالة المظالم وإلغاء المكوس. ومن الجدير بالذكر أنه باستثناء الضرائب غير المباشرة، فإن مصادر دخل الأشراف كانت تأتي من أتاوات تجمع من أغنياء مكة[٣]، ومن الأموال العائدة من الغزوات، وضريبة الرأس[٤] التي كانت تفرض على الحجاج، الذين لم يكونوا تحت حماية أحد الحكام المهابين في مكة.

المكوس في مكة

وباستثناء الحجاج القادمين من اليمن، فإن كل الحجاج القادمين من المغرب الأقصى (الأندلس، المغرب، الجزائر) كانوا مجبرين على دفع الضريبة لأداء فريضة الحج، ومن يرفض من هؤلاء دفع المبالغ المطلوبة لموظفي الشريف، في أي من موانئ البحر الأحمر، كان يعاقب عقاباً

---

(١) ابن الأثير ج٢٢ ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) ابن الأثير ج١١ ص٢٦٠، وابن جبير ص١٤٥، وابن الأثير ج١٢، ص٨٥، ١١٣.

(٣) ابن جبير ص١٦٤، ١٦٧، ١٨١.

(٤) ابن جبير ص٥٢، ٧٥، أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩.

مآثر صلاح الدين في مكة

عسيراً. ويتحدث الناس عن بعض الحالات التي كان يعاقب فيها الممتنعون بأقسى العقوبات البشعة[1]. لقد أزال صلاح الدين ضريبة الرأس، وذلك بعد أن تكفل لحكام مكة بالتعويض عنها بدفع مبلغ كبير من النقود، وشحن كمية كبيرة من القمح أرسلت إلى الحجاز من مصر. غير أنه إذا لم تصل الشحنة في أوقاتها المحددة، فقد كان الشريف لا يسمح للحجاج بالسفر من جدة إلى مكة، قبل أن يتحملوا مسؤوليتهم في التضامن على دفع المبلغ.

قدم إلى مكة أخو السلطان صلاح الدين[2] عام ١١٨٦م (٥٨١هـ). وقد منع الأذان بـ«حي على خير العمل». وصك نقوداً باسم صلاح الدين، وقتل جماعة من عبيد مكة، حملة الرماح التابعين لشريف مكة، والذين اعتادوا

---

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة ج٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ شيء عن ضريبة الرأس والمكوس. فقد ورد في أخبار سنة ٥٧٢هـ، أن المكس قد أسقط عن الحجاج إلى مكة في البحر عن طريق عيذاب، على ماذكر أبو شامة في ذيل الروضتين؛ لأنه قال في أخبار هذه السنة كان الموسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس، مما ينسب إلى القرابين والمكوس. ومن دخل منهم ولم يفعل ذلك، حبس حتى يفوته الوقوف بعرفه، ولو كان فقيراً لا يملك شيئاً. فرأى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إسقاط ذلك، ويعوض عنه أمير مكة، فقرر معه أن يحمل إليه في كل عام مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك وقوفاً، خلد بها إلى قيام الساعة معروفاً. فانبسطت لذلك النفوس، وزاد السرور، وزال البؤس، وصار يرسل أيضاً للمجاورين بالحرمين من الفقراء والشرفاء. ومدحه على ذلك ابن جبير بقصيدة أولها:

رفعت مغرم مكس الحجاز ... بإنعامك الشامل الغامر

وذكر ابن جبير في أخبار رحلته شيئاً من أخبار هذا المكس، فقال إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأليم العذاب، من تعليقه بالأنثيين وغير ذلك. وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب، فمن لم يؤدها ووصل إلى جدة ولم تعلم على اسمه علامة الأداء، عذب لها أصناف العذاب. وكانت هذه البلية في مدة دولة العبيدين، وجعلوها معلوماً لأمير مكة، وأزالها الله على يد السلطان صلاح الدين، وعوض أمير مكة عن ذلك ألفي دينار وألف أردب قمح، وإقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن.

ويبدو أن قيمة مايعطى لأمير مكة كان يختلف بين سنة وأخرى؛ لأن المبلغ الذي حدده أبو شامة، يختلف عن المبلغ الذي قرره ابن جبير.

(٢) هو الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صاحب اليمن (انظر ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٥٥٣).

على النهب وسفك الدماء، وانسحب الشريف إلى قلعته العالية. وكان حرس الشريف الكبير أثناء الاحتفالات الرسمية من هؤلاء البغاة[1] ويروي ابن جبير أنه في كل شهر كان الشريف يدخل البيت الحرام، محاطاً بحملة الرماح هؤلاء. ويقوم بالطواف سبعاً حول البيت، بينما يقوم أحد المؤذنين الشبان بالأذان للصلاة، من الطابق العلوي لبناية زمزم، رافعاً صوته بالدعاء للأمير (ابن جبير ص٧٤ ـ ٧٥). ويستغرب ابن جبير لمثل هذه الظروف السيئة في البلاد المقدسة، ويرى أن السيف، هو الحل الوحيد، لمثل هذه الأمراض في غرب الجزيرة العربية[2].

صليبي يحاول احتلال المدينة المنورة

وهناك حادثتان يجب أن تذكرا في هذا المقام أولاهما: حادثة الأمير الصليبي، الذي كان يتولى شؤون إمارة الكرك، فقد اجتهد لجعل طرق القوافل المسلمة منطقة غير آمنة. وقد استطاع أن ينقل السفن المفككة، بمساعدة البدو، براً إلى البحر الأحمر عام ١١٨٢م (٥٧٨هـ)، وأبحر بهذه السفن عبر البحر الأحمر جنوباً، للسيطرة على مدنه. فما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن طلب من أخيه القضاء على هذا الإفرنجي الصليبي. وتم القضاء على حملته، وأسر العديد من رجاله، واقتيد بعضهم إلى مكة، كي ينحروا في منى مع الجمال والأغنام في موسم الحج[3].

---

(١) من المعلوم أنه بجانب حرس الشريف، كان هناك جند وحراس لأقارب الشريف. والدليل هو المعارك التي كان هؤلاء الأقارب يخوضونها ضد الشريف نفسه (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٣) (المؤلف).

(٢) بجانب هذه الصورة للظلم الذي يقع من بعض الأشراف، ذكر ابن جبير صورة أخرى لأشراف الحجاز، فقد ورد في معرض حديثه عن جدَّة «وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون» حسنيون وحسينيون وجعفريون، رضي الله عن سلفهم الكريم، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً، فيستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن، من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه، أو حطب يحتطبونه، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المقدر لما يشاء. ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة، ولم يرتض لهم الدنيا. جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً (ابن جبير ص٥٣).

(٣) قامت إمارة الكرك الصليبية، تحت قيادة أرناط، بنشاط حربي مكثف ضد المسلمين. وبالرغم =

= من العهود المبرمة بين صلاح الدين والصليبيين، إلا أن أرناط لم يتقيد بالمعاهدات، ولا بالكلمة الشريفة فكان يتصدى للقوافل التجارية أو قوافل الحجاج، وينهب منها مايشاء.
استغل أرناط سفر صلاح الدين الأيوبي إلى مصر، فجمع جموعه واندفع في رجب عام ٥٧٧هـ،١١٨١م وراء قافلة تجارية كانت تسير من دمشق إلى مكة. وتمكن من الظفر بها عند تيماء، ونهبها وأسر من تمكن من أسره. ولم يكتف بذلك بل سار إلى المدينة المنورة، وكان يقصد الاستيلاء على المسجد النبوي. قام نائب صلاح الدين في دمشق، بغزو إمارة الكرك، وأخذ يدمر كل مافي طريقه، ولما علم أرناط بالخبر أسرع بالعودة إلى الكرك، يحمل معه الغنائم والأسرى الإسلامية.
في العام التالي ٥٧٨هـ،١١٨٢م أعد أرناط مراكب مفصلة من أخشاب غابات الكرك، وعهد بها إلى الصناع في الكرك وعسقلان، وجرب قسماً منها في البحر الميت، ثم نقلها على ظهور الجمال إلى خليج العقبة، فقام الصناع بتركيبها وإعدادها وشحنها بالرجال والسلاح، وأبحر بها ففتح أيلة (العقبة)، وسار في البحر نحو الجنوب. ومنعاً لأي تدخل من جانب القوات البرية القادمة من مصر والشام، سير قوة تسير بحذاء الساحل إلى تبوك، وهكذا كانت الحملة تجمع بين الصفتين البرية والبحرية. وكانت أهداف أرناط دينية واقتصادية. فقد كان يهدف إلى هدم الكعبة، ومسجد الرسول، ونقل جثمان الرسول ﷺ إلى الكرك، كماكان يهدف في الجانب الاقتصادي إلى السيطرة على تجارة البحر الأحمر.
أثارت هذه الاعتداءات مشاعر الغضب في نفوس المسلمين، وأصدر صلاح الدين أمراً لأخيه العادل بمصر للتصدي إلى أرناط، فعهد العادل إلى قائده حسام الدين لؤلؤ، الذي أعد أسطولاً في الإسكندرية، نقله براً إلى العقبة، وأعاد تركيبه وجهزه بالجند، ووجه لؤلؤ ضربته الأولى إلى الصليبيين في قلعة فرعون في خليج العقبة، فشتت شملهم وأحرق سفنهم، وقتل عدداً كبيراً منهم. أما من هرب منهم إلى البر فقد أدركهم العربان، ولم ينج منهم أحد. ثم واصل سيره جنوباً فتعقبهم في البحر، وكانوا قد بلغوا رابغ، وهناك وجدوا تجاراً فأسروا بعضهم، وأشاعوا الذعر في شواطئ الحجاز. ثم توجهوا نحو الشمال كي يتمموا خطتهم بالاستيلاء على المدينة المنورة. فتركوا مراكبهم بساحل الحوراء، المواجه للمدينة، يحرسها عدد من جنودهم، وسار أرناط برّاً يصحبة ثلاثمائة مقاتل، يساعدهم بعض الأعراب من أهالي تلك الجهات. وساروا إلى مسافة قريبة من المدينة، حتى أصبحوا على مسيرة يوم منها، وقد أنهكتهم حرارة الصيف الشديدة. وقد أدرك حسام الدين لؤلؤ الأسطول الصليبي بالحوراء فانقض عليه وأحرقه جميعاً، بعد أن اشتبك مع من تولى حراسته من القوة الصليبية، فمزق جمعهم، وأطلق الأسرى من التجار، وردّ إليهم ما أخذ منهم، ثم نزل إلى البر، وسار خلف أرناط. وعلم أرناط أنه لاسبيل إلى العودة إلى الحوراء، فلجأ بعض جنوده إلى المرتفعات، ولكن حسام الدين =

أما الحادثة الثانية: فقد تم سلب أحد الشعراء الدمشقيين الذي كان كثير الترحال. وقد أخذ اللصوص جميع مامعه حتى قميصه، وذلك على الطريق بين المدينة ومكة. وكان السالبون من الأشراف الحسنيين، من عائلة داود بن موسى الثاني (انظر شجرة النسب الأولى رقم ١٧) المرموقة والكثيرة العدد. وهؤلاء من أقرباء الشريف الكبير في مكة. لقد كان داود الجد الأول شيخاً عظيماً، غير أن أحفاده لم يحالفهم الحظ في الاستيلاء على المدينة، فاستقروا في وادي الصفراء. ومارس بعضهم مهنة السلب. لقد عبر الشاعر المسلوب عن غضبه بأبيات شعرية، كان المقصود منها حث أخي صلاح الدين، لتأديب الأشراف، بدلاً من احتلال الساحل الذي احتله الإفرنج، وطلب إليه قتال هؤلاء الذين ألغوا القوانين الربانية، مذكراً إياه بأن هؤلاء المرتدين، الذين هم من أبناء فاطمة، لو عاشوا أيام الأمويين، لحاربوا ضد الحسن رضي الله عنه.

احترام الناس للأشراف

ويحدثنا الشاعر أنه بعد الانتهاء من القصيدة نام قلقاً، وبدت له السيدة فاطمة الزهراء بالمنام، ولم ترد على سلامه، وانحرفت عنه. وسألت عن سبب غضبه. وفي الوقت نفسه عبرت بأبيات شعرية عن انزعاجها حول شتم أبنائها المساكين، وأخبرته بأنهم ليسوا شيعيين، بل هم غير محظوظين، جارت عليهم الأقدار. وطلبت إليه أن يحترم هؤلاء إكراماً لمحمد ﷺ، وأن ما يلاقيه من هؤلاء من سوء التصرف، سوف يثيبه الله عليه في الآخرة، بحسنات كثيرة. ولما استيقظ الشاعر من نومه، بادر إلى نظم قصيدة أخرى، يطلب فيها العفو والصفح عما قاله آنفاً. ومن جملة ما

= لؤلؤ طاردهم وقتل وأسر معظمهم. أما أرناط فقد اتجه هارباً نحو الشمال، واستطاع النجاة ومعه بعض أتباعه، حيث التقى بقواته عند تبوك، وعاد إلى الكرك، خاسراً فاشلاً. واقتاد لؤلؤ إلى أسطوله (١٧٠) أسيراً، فأرسل اثنين منهم إلى مكة كي يقتلا أمام المسلمين في منى في موسم الحج، وليكونا عبرة لغيرهم. أما الباقون فقد ساقهم إلى عيذاب ثم قوص فالقاهرة، حيث وزع هؤلاء الأسرى على سائر أنحاء مصر كي يقتلوا فيها. وقد شاهد ابن جبير عدداً منهم في الإسكندرية، عند قدومه إليها في عام ٥٧٨هـ،١١٨٣م. انظر (غوانمه، يوسف حسن درويش، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان ١٩٨٢م، ص ١٢٣ ـ ١٣٦ بتصرف وإيجاز).

ورد في القصيدة: لو أنه طعن بسيف أحد هؤلاء أو رمحه، فسيرى هذا عملاً جميلاً، يستحق المدح والتقدير.

هذه الحادثة تبرز بعض الجوانب المهمة. وهي أن الاحترام الذي يكسبه الناس لهؤلاء الأشراف، ليس مرده إلى معارف خاصة لهؤلاء في الدين، ولا إلى سمو الفكر الذي يتمتعون به، بل إن المرء ليمجد فيهم النبي الذي إليه ينتسبون، فيحبهم لحبه ويقدرهم لتقديره لرسول الهدى ﷺ.

ضعف سلطة الخلافة في مكة

ويجب أن نسارع إلى القول بأن الإجراءات غير الحاسمة والحازمة، التي كان يبديها حكام المسلمين في مصر والعراق والشام ضد الحالة السيئة لحكم الأشراف، ليس مردها إلى الاحترام الذي تحدثنا عنه سابقاً، ولا بسبب ما لهذه الإمارة من مكانة في تاريخ الإسلام، بل إن قوى السلاطين كانت مشغولة في أمور أخرى ذات أهمية خاصة غير تثبيت كيان النظام المكي المكلف والمضني. وحتى صلاح الدين العظيم نفسه، لم يستطع إلا القيام ببعض التحسينات، وليس الإصلاحات. والإصلاح الجذري أمر شبه مستحيل في بلد يبدو في طبيعته مغلقاً، ويعاني من مشكلات ذات طبيعة خاصة، قانعاً بأن يدعى له على منابر الحرمين في صلاة الجمعة وأثناء الحج.

لقد كان المرء يتصور أنه بعد أن حلت السلطنة العباسية محل الخلافة المنشقة في مصر، أن تختفي الغيرة القديمة والتنافس، بين أمراء الحج القادمين من البلاد الإسلامية. إلا أن الأمر لا يعدو العودة إلى مبايعة الخليفة العباسي الضعيف، وكذلك العودة إلى المذهب الرسمي السني للخلافة العباسية. فقد عزل القضاة الشيعة من مكة، وأبدلوا بقضاة ينتمون إلى المذهب الشافعي، وهو المذهب الرسمي عند العباسيين. أما أمر التنافس والشحناء بين امراء الحج، فقد بقي قائماً على ماهو عليه في السابق. فقد رفض أمير الحج الشامي والذي ظهر في عام ١١٨٧م (٥٨٣هـ) بصفته ممثلاً لصلاح الدين الأيوبي، يحمل إشارة السمو الأميرية، وتقرع

أمامه الطبول الأميرية، في جميع المحطات التي ينزل بها، الانصياع وتلقي الأوامر من أمير الحج العراقي الذي كان يمثل الخلافة العباسية في بغداد متخلياً عن الوحدة السياسية والفكرية لبلاد الإسلام. وقد أدى ذلك إلى الاقتتال، الذي راح ضحيته الكثير من رجال الطرفين[١]، وخاصة من رجال الركب الشامي.

نهاية الهواشم

لقد عاش آخر أمراء الهواشم بدون هموم من حروب أخوية مستمرة. حتى أن المرء ليعجب كيف أنه لم يقم أحد من أقاربهم الأخرين، في غرب الجزيرة، بمحاولة الاستيلاء على السلطة، مستفيداً من الشقاق بين الإخوة. وقد واتت الفرصة أحد فروع الأشراف للقيام بهذه المهمة. ذلك الفرع هو الفخذ الرابع (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٢٢) والذي يستوطن منطقة ينبع مقر أبناء الحسن الثاني. لقد وقف قتادة (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٤٣ وشجرة النسب الثانية رقم ١) على رأس هذا الفخذ في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (أوائل القرن السابع الهجري). وقد تمكن من الاستيلاء على جميع المناطق التي تقع جنوب ينبع، والواقعة باتجاه مكة. وكان يرنو إلى احتلال مكة. غير أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة. والمصادر التي بين أيدينا لا تسمح لنا أن نقرر متى نفذ خطته هذه أفي عام ١٢٠١ أم ١٢٠٢ أم ١٢٠٣م[٢]، وكذلك لاتسمح لنا أن نتبين من هو الذي أطيح به

وصول قتادة للسلطة

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة أنه في سنة ٥٨٣هـ، كانت بعرفة فتنة بين الحجاج العراقيين والشاميين، استظهر فيها العراقيون على الشاميين، وقتل من الشاميين جماعة، ونهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم، إلا أنهن رددن عليهم. وجرح ابن المقدم، أمير الركب الشامي، جراحات أفضت به إلى الموت في يوم النحر. وسبب هذه الفتنة أنه لم يسهل بطاشتكين أمير الركب العراقي ماقصده ابن المقدم من الدفع من عرفات، فنهاه عن ذلك، فلم يقبل ابن المقدم، فاقتضى الحال إلى قتال الفريقين، فكان ماجرى. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة: ثم وليها [مكة] بعد مكثر أبو عزيز قتادة بن إدريس في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وقيل إن ولايته لمكة في سنة ثمان وتسعين، وقيل في سنة تسع وتسعين (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٤) والسنوات الهجرية هذه تقابل السنوات الميلادية التي ذكرها المؤلف، الذي لم تسعفه المراجع في تحديد بداية حكم الشريف قتادة.

عن العرش من قبل الشريف قتادة، أهو مكثر أم منصور[1]؟ كما أن هناك روايتين حول احتلال قتادة لمكة.

الرواية الأولى تقول إن ابن قتادة حنظلة، قد أخذ مكة، وجهزّ كل شيء لدخول والده. أما الرواية الأخرى فتقول بأن قتادة[2] قد استغل ببراعة وقت العمرة الرجبية في (٢٧) رجب ليحتل المدينة المفرغة من السكان. في ذلك اليوم يحتفل أهل مكة بذكرى الإسراء والمعراج، بالإضافة إلى ذكرى بناء الكعبة من قبل عبد الله بن الزبير. ولقد اعتاد المكيون في السابع والعشرين من رجب أن يقوموا بعمرة، وبينما كان المكيون يلبسون ملابس الإحرام، دخل قتادة المدينة، وأنهى حكم الهواشم، وبظهوره بدأت فترة جديدة من حياة مكة، استمرت إلى الفترة الحاضرة (١٨٨٥م)[3].

---

(١) لعل الاسم ليس منصوراً بل داود بن عيسى أخو مكثر الذي كان يتبادل مع أخيه مكثر الحكم (انظر السباعي: ١٤٠٤هـ، ص٢٤٤).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة: إن صاحب ينبع السيد قتادة بن إدريس، لما علم من أمراء مكة يومئذ، وهم طائفة أخرى من بني حسن، يقال لهم الهواشم، الانهماك على اللهو واللذات وكثرة الظلم من عبيدهم على الناس، واستيلاء الغرور عليهم، ونفرة القلوب عنهم، وعدم توجههم إلى أحوال البلد، ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب، واغتنم الفرصة لاشتغال أهل مكة بهذه العمرة، وخروجهم بتجملاتهم إلى التنعيم، فهجم بعبيده وذويه ودخل مكة من أعلاها، ومنع ولاتها السابقين من الدخول إليها. وكانت مكة يومئذ مسورة، وولاتها من بني حسن الهواشم، (آخرهم الشريف مكثر ابن عيسى ففر بمن معه إلى جهات اليمن، وتمكن السيد قتادة من البلاد وذلك في سنة ٥٩٩هـ (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٨٣).

(٣) استمر حكم الأشراف، أبناء قتادة، وهم الطبقة الرابعة من الأشراف، نحو ستة قرون ونصف، إلى أن أجلاهم السعوديون عنها (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٢٤).

الفصل الثالث

حالة المكرمة خلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي

(١٢٠٠ - ١٧٨٨) / (٥٩٧ - ١٢٠٣هـ)

الشريف قتادة وسياسته

يمتاز الشريف قتادة (انظر شجرة النسب الأولى رقم ٤٣ وشجرة النسب الثانية رقم ١) عمن سلفه ـ وربما عن الكثيرين ممن جاؤوا بعده ـ بأنه كان سياسياً بارعاً. فقد كانت كل أفعاله موجهة لإنشاء إمارة مستقلة في الحجاز. وقد استعمل قتادة كافة السبل، بما فيها الشدة والقمع، للوصول إلى هذه الغاية. غير أنه لم يستطع أن يحقق أمنيته؛ نظراً للظروف الصعبة التي كان يمر بها الحجاز آنذاك. فقد كان الحجاز منقسماً إلى أحزاب عديدة، تفوق عدد القرى والمدن المنتشرة في ربوعه. وبجانب ذلك هناك اللقاء السنوي للقوى الإسلامية العظمى في أثناء موسم الحج. وكانت هذه القوى تنظر بعين الريبة لتنامي الحياة السياسية في الحجاز.

لم يكن قتادة صغير السن عندما ولي أمر العاصمة المقدسة. وقد قام بعد احتلال مكة بإعادة بناء الأسوار المهدمة، وأخضع قبائل ثقيف في الطائف وما حولها[1]. وواصل القتال الذي بدأ سابقاً ضد الحسينيين في المدينة

(١) ذكر السنجاري أن الشريف قتادة خرج لحرب ثقيف في سنة ٦١٣هـ، فتحصنوا، منه وعجز عنهم، فأمنهم، فلما أقبلوا عليه قتل منهم جماعة واستولى على الطائف. واستخلف على بلادهم نواباً وقواهم بعبيده ورجاله. فلما طال بهم التعب غرروا بأصحابه، وذلك أنهم لما أيسوا من النجدة، دفنوا سيوفهم في وادي النائب، وأوهموا أنهم أتاهم كتاب يريدون قراءته. فلما اختلوا بأصحاب قتادة قتلوهم. وفي هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه لأهل الطائف، عندما نهب جيش قتادة البلاد (انظر السنجاري حوادث سنة ٦١٣، وكذلك ابن فهد في غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٥٨٨).

المنورة[1]. وأقام حصناً في ينبع، وترك فيه حامية عسكرية بقيادة أحد أبنائه. واهتم اهتماماً خاصاً ببناء جيش كبير من الأحرار والعبيد[2]. بينما ترك تسيير الأمور العادية في الحكم إلى وزير من أتباعه. وقد كانت حدود منطقته تمتد من ينبع والمدينة شمالاً، حتى حلي جنوباً[3].

أما سياسة قتادة الخارجية فقد كانت مليئة بالألغاز. ولعل ذلك يبدو واضحاً من خلال حادثتين مهمّتين: الأولى تمثلت بإثارة غضب سلطان الأيوبيين من خلال الوقاحة التي أبداها تجاه ابن الخليفة العادل الأيوبي، الذي سأله أثناء قدومه لتأدية فريضة الحج عام ١٢١٥م (٦١١هـ)، أين يمكنه أن يستريح في مكة؟ فأشار إلى الشارع[4]. وبالرغم من ضعف الأيوبيين في هذه الأثناء، فقد قام العادل الأيوبي بمساعدة شريف المدينة المنورة ضد قتادة. والحادثة الثانية ربما كانت أسوأ من الأولى، وتمثلت في إفساد العلاقة مع الخليفة في بغداد في أثناء موسم حج عام ١٢١٢م (٦٠٨هـ)[5]. فقد قام أحد الحجاج الساسانيين، الذي كان بين الحجاج العراقيين، بقتل أحد الأشراف بوادي منى. وكان هذا الشريف كثير الشبه بالشريف قتادة. وقد اعتقد الشريف قتادة أن القاتل قد أرسل من قبل الخليفة، وأنه كان قاصداً قتله، لذلك أصدر قراره إلى الأشراف والعبيد بالهجوم على معسكر الحجاج العراقيين، وقتل العديد منهم، وسلب أموال من تبقى منهم. وبالرغم من وجود أحد إخوان العادل من سوريا في موسم الحج، إلا أن

---

(١) ابن الأثير ج١٢ ص١٣٤، وكذلك مكة المشرف ج٢ ص٢١٤.

(٢) ابن الأثير ج١٢ ص٢١٦.

(٣) ابن الأثير ج١٢ ص٢٦١، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٤.

(٤) في سنة ٦١١هـ حج الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب، وتصدق في الحرمين بمال عظيم. وحمل المنقطعين. ولما وصل إلى مكة تلقاه قتادة، وحضر في خدمته، فقال له المعظم أين ننزل. فقال قتادة هناك، وأشار بصوطه إلى الأبطح. فاستكبر ذلك منه المعظم؛ لأن صاحب المدينة أنزل المعظم بداره في المدينة، وسلم إليه مفاتيح المدينة المنورة. وبالغ في خدمته (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٣).

(٥) (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٠، ابن الأثير ج١٢ ص١٩٥، منائح الكرم، حوادث سنة ٦٠٨هـ).

أحداً لم يستطع أن يحد من غضب الشريف. ولم يتمكن الحجاج من إكمال فريضة الحج، إلا بعد أن دفعوا مبلغاً كبيراً من المال، قبل الإسراع بالعودة إلى ديارهم.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أكان شك الشريف قتادة له أسبابه ومبرراته ـ أم أنه كان يبحث عن مبرر للنزاع ـ وعلى أي حال فقد عاد الشريف إلى رشده، وأدرك خطأه، فما كان منه إلا أن أرسل ابنه مع عدد من رجاله، يرتدون الأكفان إلى الخليفة، وذلك للتكفير عن خطيئته. وقد عرف جيداً أن الخليفة لن يسفك دماء هؤلاء بصورة لافائدة منها. فقد أعاد الخليفة الناصر الوفد حاملاً الهدايا. ومقدماً الدعوة للشريف لزيارة الخليفة. غير أن جواب قتادة كان بالرفض، مسجلاً ذلك في قصيدة يفضل فيها الحياة في بلده الفقير، على السفر إلى البلاد الأجنبية. ومما قاله في القصيدة:

بلادي وإن جارت علي عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
ولي كف ضرغام إذا ما بسطتها بها أشتري يوم الوغى وأبيع
وما أنا إلا المسك في أرض غيركم أضوع وأمّا عندكم فأضيع[1]

وفي رواية أخرى عن هذه الحادثة، أن الشريف قتادة سافر إلى بغداد، ولما رأى أنه كان بصحبة الوفد الذي أرسل لاستقباله أسد مقيد، أسرع بالعودة وهو يقول: لن أذهب إلى بلد تقيد فيها الأسود[2].

ميول الشريف قتادة نحو الزيدية

لماذا كل هذا التحدي المتهور؟ الجواب على حل هذا اللغز ربما كان فيما قاله أحد المؤرخين من اليمن، وهو أن قتادة قد اهتم بالعائلة الزيدية، بزعامة

---

(١) منائح الكرم حوادث سنة ٦٠٩هـ وقد أورد الفاسي هذه الأبيات كلها ماعدا البيت الأول، ولكن بلفظ مختلف. انظر العقد الثمين ج٧ ص٥٠ ـ ٥١، وكذلك أمراء البلد الحرام ص٣٧.

(٢) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام أن الخليفة الناصر العباسي طلب الشريف قتادة يأتيه ببغداد، فسار متوجهاً إليه، إلى أن وصل النجف. فبلغ الخليفة وصوله، فأخرج للقائه العلماء والأعيان وكبراء الدولة. وكان مما أخرجوه معهم أسد في سلسلة، فلما رآه الشريف قتادة تطير وقال: مالي ولأرض تذل فيها الأسود، والله لا دخلتها. ورجع من النجف، ولم يدخل العراق، فلما بلغ ذلك الناصر كتب إليه يعاتبه. فكتب إليه الشريف قتادة جواباً يتضمن الشعر السابق (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٣٧).

المنصور الحسني، والتي صعد نجمها في ذلك الوقت في جنوب الجزيرة العربية. ومن المعروف أن الزيدية كانوا يمارسون زعامة ناجحة في اليمن منذ عدة قرون. ففي عام ١١٩٧م (٥٩٤هـ) أسس أحد الأئمة من الفرع الحسني الدولة الزيدية، وأرسل مبعوثين للدعوة وطلب المساعدة إلى أبعد البلدان[١]. لقد دافع قتادة عن مصالح الإمام الزيدي. ومن المحتمل أنه اعتقد في وقت من الأوقات بأن الإمامة الجديدة في صنعاء قد أحرزت مركزاً على المسرح العالمي بجانب مصر والعراق. فمن الطبعي ألا يرى سيداً أحب إلى نفسه من هذا الأمير الذي تربطه به صلة قرابة مقرونة بتشابه كبير بين حال بلديهما (الحجاز واليمن). غير أن التجارب قد علمته بعد ذلك شيئاً أفضل، وهو أنه كمعظم أقاربه زيدي، وصديق حميم للإمام، ولكن بدون أن يتبنى أفكاره أو يقود معاركه. ويبدو حذر الشريف قتادة من القوى الخارجية واضحاً في وصيته لأقاربه التي ورد فيها: «يا بني الزهراء عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية، والاجتماع في بطحائها، واعتمدوا بعد اليوم أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر يرهبوكم من طريق الدنيا والآخرة ولا يرعوكم بالأموال والعُدد، فإن الله قد عصمكم وعصم أرضكم بانقطاعها، فإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس»[٢].

وبعد إعلان احتلال اليمن بواسطة حفيد العادل عام ١٢١٦م (٦١٣هـ) أصبح يدعى للأيوبيين في مصر والشام وجنوب الجزيرة العربية[٣] على منابر الحرمين، بجانب الدعاء للخليفة، ثم لشريف مكة. وفي هذه الأثناء أصبح وصول قافلة الحج العراقية محفوفاً بالمخاطر، ولهذا لم ينتظم وصول هذه القافلة إلى الديار المقدسة إلا نادراً.

---

(١) يبالغ الكتّاب اليمنيون في بعض الأحيان بأهمية تاريخ بلادهم السياسي على المسرح الخارجي. لدي مخطوطة عن تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري تحتوي على ملحق من اثنتين من العديد من رسائل الإمام المؤيد: إحداهما أرسلها إلى الشاه الفارسي عباس، والثانية أرسلها إلى الأشراف في مكة. وفي كلتا الرسالتين يطلب الإمام مساعدته ضد الأتراك. ويستطيع المرء أن يتصور أنه لم يقم أحد من هؤلاء بمد يد العون للإمام (المؤلف).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ٦٠٩هـ.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٣.

لقد وضع شريف مكة خططاً طموحة ـ وهو في السبعين من عمره ـ للاستيلاء على كامل الحجاز، الذي يصعب الوصول إليه. فقد جهز حملة كبيرة للاستيلاء على المدينة المنورة، غير أن المرض اضطره إلى التخلي عن الاشتراك في هذه المهمة، والعودة إلى مكة، وإسناد القيادة لابنه وأحد إخوانه. وقد نما إلى علم الشريف حسن، بأن أباه يخطط لتعيين أخيه بدلاً منه. ولكي يحول حسن دون ذلك، فقد قتل عمه المعني. ولما علم أن أباه يريد قتله بأخيه، اتجه مسرعاً إلى مكة، ليضع نهاية غير سعيدة لحياة أبيه[1]. ثم أجهز على أخيه الذي كان يعمل قائداً لحامية ينبع. أما بقية المرشحين لهذا المنصب فقد أبعدوا أنفسهم، عن مثل هذا المصير، عن طريق الهرب. وبذلك أصبح الحسن بن قتادة[2] (شجرة النسب الثانية رقم ٢) أمير بيت الله الحرام.

أبناء وأحفاد قتادة

في موسم الحج التالي عام ١٢٢١م أو ١٢٢٢م (٦١٨ أو ٦١٩هـ) قتل الشريف حسن أمير الحج العراقي، الذي ظن أنه يساعد أخاه راجحاً في الوصول إلى السلطة. وفي هذه الأثناء هم أتباع الشريف حسن بنهب قافلة الحج العراقي، غير أنه أصدر أوامره بمنع هؤلاء، وقد جلب حامل الأوامر بمنع النهب عمامة الشريف لكي يصدقه الناس.

لقد وضع مسعود الأيوبي[3] ـ الذي أعاد فتح اليمن باسم والده، (الملك الكامل الأيوبي) الحاكم في مصر ـ نهاية لحكم الحسن بن قتادة.

---

(١) سيّر قتادة جيشاً إلى المدينة على رأسه أخوه وابنه حسن، فلما كان الجيش بوادي الفرع اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش وأخبرهم بأن قتادة مريض، وطلب إليهم أن يعاهدوه على الإمارة، فلما بلغ ذلك حسن بن قتادة دخل على عمه فقتله، فلما اتصلت الأخبار بقتادة عزم على قتل ابنه حسن قوداً في أخيه. فعلم حسن بذلك فعاد إلى مكة، ودخل بيت أبيه سرّاً وهو مريض، فقضى عليه خنقاً، ثم أذاع موته، ونادى بنفسه أميراً على البلاد، وذلك سنة ٦١٧هـ. (انظر السباعي ص٢٣٠، نقلاً عن مخطوط إفادة الأنام) وفي العقد الثمين ج٧ ص٦٠، قال الفاسي: «ورأيت مايقتضي أن حسن بن قتادة قتل أباه بالسم والله أعلم أي ذلك كان».

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٥، ابن الأثير ج١٢ ص٢٦٨ ـ ٢٦٩و ٣٠٣، ومنائح الكرم حوادث سنة ٦١٧هـ).

(٣) لم يكن راجح بن قتادة أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة. فقد استطاع أن يتصل بالملك =

والأمير مسعود هذا كما يؤكد المؤرخون متهور وطائش. وقد رفض إعطاء الأشراف أي مشاركة في السلطة العليا، وبدلاً من ذلك عين قائد جيشه حاكماً لمكة.

التنافس بين مصر واليمن على الحرمين

ولما استقل نور الدين[1] بحكم اليمن عام ١٢٣٢م (٦٣٠هـ) ارتبط مع أبناء قتادة مرة أخرى؛ لأنه احتاج إلى مركز أمامي متقدم، ضد هيمنة السلطة في مصر، والتي أصبح الأيوبيون فيها لعبة بأيدي المماليك الأتراك. وبذلك

= المسعود الأيوبي، ويستثيره ضد أخيه الحسن في مكة، وأن يزين له احتلالها وضمها إلى نفوذ الأيوبيين في مصر واليمن. فمضى المسعود على رأس جيش إلى مكة مصطحباً معه راجح بن قتادة، وانتهى إليها في ٤ ربيع الأول سنة ٦١٩ أو ٦٢٠هـ وبادرها بالهجوم المفاجيء. وقد رأى الحسن بن قتادة أنه لاقبل له في الدفاع عن المدينة، فتركها ليحتلها جيش المسعود.

لقد نهب عسكر المسعود بيوت مكة، وجردوا المدنيين من ثيابهم وأموالهم. ورئي الملك المسعود يصيد فوق قبة زمزم، ويرمي حمام مكة «بالبندقية»، كما رئي غلمانه في المسعى، يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم، ويقولون خففوا في سعيكم، فإن السلطان نائم سكران، وكان الدم يجري من سيقان الناس في الطريق، بجوار دائرة السلطنة بالمسعى. وظل المسعود في مكة إلى مابعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن، بعد أن أناب أحد قواده «عمر بن علي بن رسول» وأبقى لحراسته ٣٠٠ فارس وولى راجحاً بعض الأعمال المتصلة بالبادية، وحال دونه والإمارة التي كان يطلبها.

والغريب أن الأمير المهزوم الحسن بن قتادة صاحب مكة، لم يمسه في هذا العدوان شيء، فقد نجا بنفسه إلى أطراف البادية، دون أن يناله أذى، وترك المظلومين في مكة يعانون من عذاب ما اقترف ويلاً وثبوراً. وقد حاول العودة إلى مكة، بعد خروج المسعود إلى اليمن، فاستنفر القبائل في ينبع، وسار بهم في جيش حتى انتهى إلى الحديبية (الشميسي) فخرج إليه ابن رسول، نائب المسعود فهزمه، فولى فراراً متوجهاً إلى بغداد، حيث مات بها، ودفن في مشهد الكاظمي (انظر منائح الكرم: حوادث سنة ٦١٩هـ وكذلك السباعي: ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة أنه في سنة ٦٢٧هـ خطب بمكة للملك المنصور نور الدين صاحب اليمن، وهي أول سنة خطب له فيها. وكان يخطب له في المدة التي تكون في ولاية عسكره. وفي سنة ٦٣١هـ حج الملك المنصور نور الدين، صاحب اليمن، على النجب حجاً هنيئاً، ورجا أن يصله بمكة تقليد من الخليفة المستنصر العباسي وخلعه؛ لأنه كان سأل ذلك من المستنصر. وأهدى إليه هدية، فوعده المستنصر بإرسال ذلك إليه إلى عرفة، فلم يصله ذلك في سنة حجه، ووصله في التي بعدها.

أصبح الحجاز ساحة قتال بين سلطان مصر وسلطان اليمن. وانتهت الفترة القصيرة من الهدوء التي كانت تحكم فيها المدينة المنورة من دمشق، ومكة المكرمة من اليمن. وكلاهما تابع للأسرة الأيوبية، وذلك بمجرد أن تحول الجزء الشمالي والجنوبي (مصر والشام واليمن) لدولة صلاح الدين إلى إمارات مستقلة[١]. بينما كان الشريف الحسيني في المدينة المنورة يرتبط بالسيادة المصرية، ويعمل على تأمين مصالحها، كانت القوتان (مصر واليمن) تحرضان المرشحين الحسنيين ضد بعضهم. وكان نجاح اليمن أكثر من نجاح مصر، بسبب قرب مكة من تلك الدولة من جهة؛ ولأن حاكم اليمن قد تولى حكم مكة فترة من الوقت، وقام في عام ١٢٤٠م (٦٣٩هـ) بإلغاء الضرائب غير المباشرة فيها[٢]، بينما أعادها قائد جيشه بعد ذلك بفترة قصيرة. وخلال هذه الفترة التي ساد فيها الصراع، لم تكن لأبناء قتادة وأحفاده ـ الذين يتقاتلون على الزعامة ـ إلا أهمية قليلة (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤،٧،٨،٩). وليس أدل على ذلك من أن شريف مكة، كان يقيم فترات طويلة في وادٍ خارج مكة[٣]. غير أن ذلك لم يلغ سلطتهم نهائياً. ففي عام ١٢٥٥م (٦٥٣ هـ) أرسل أمير اليمن قوات إلى مكة، غير أنها لم تتمكن من إلغاء سلطة الأشراف نهائياً.

تمزق الخلافة العباسية

حصلت في العقود التالية تغييرات كثيرة الأهمية على مستوى العالم الإسلامي. ففي عام ١٢٥٨م (٦٥٨هـ) دخل المغول معاقل الخلافة العباسية في بغداد، التي انكمشت إلى مدينة صغيرة، بعد أن كانت عاصمة الإسلام. وتوقفت قافلة الحج العراقي، التي كانت تمثل الأثر السياسي الوحيد الذي يربط الحجاز بعاصمة الخلافة العباسية. وفي هذه الأثناء قام السلطان

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٦ و٣١٢.

(٢) في سنة ٦٣٩هـ أرسل صاحب مصر عسكراً إلى مكة، فلما بلغ هذا صاحب اليمن، تجهز وخرج إلى مكة بجيش كبير، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول مكة وصام رمضان بها، وأبطل المكوس والجبايات (انظر أمراء البلد الحرام ص٤١)، وكذلك أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٨.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢١٧، وأمراء البلد الحرام ص٣٥.

المملوكي بيبرس بافتتاح حقبة جديدة مشرقة للبلاد المصرية. وأصبح بيبرس أعظم سلاطين المسلمين، وتم الاعتراف به في الحرمين الشريفين. ولكي يضمن المزيد من النفوذ، قام بمبايعة أحد العباسيين، الذي لجأ إليه من بغداد، خليفة للمسلمين في مصر.

ظهور المماليك في مصر

لقد تم الاعتراف بالسلطان بيبرس في الحرمين الشريفين، وكان يدعى له على منابرها. غير أن أمراء اليمن استطاعوا عن طريق النقود والكسوة، التي كانوا يرسلونها إلى الكعبة، أن يضمنوا الدعاء لهم أيضاً على هذه المنابر، ولكن في المرتبة الثانية بعد السلطان المصري. وبالرغم من أن اليد الطولى في الحجاز هي لمماليك مصر، إلا أن اليمن كانت عن طريق قواتها تذكي الحروب الأخوية بين الأشراف بالاتجاه الذي تريده[1].

الشريف أبو نمي

ترك المماليك إدارة المدينة المقدسة كليا إلى الأشراف. واستطاع أحد أحفاد قتادة، المدعو محمد أبو نمي، أن يوحّد صفوف أبناء عشيرته، ويمكنهم من استلام زمام السلطة، لمدة نصف قرن تقريباً (١٢٥٤ - ١٣٠١م) (٦٥٣ - ٧٠١هـ). وكان محمد هذا - كقتادة - رجلاً قوياً يوصف بالشجاعة النادرة. وقد كانت أمه عبدة حبشية. ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المحظيات، كن محبوبات جداً منذ زمن بعيد، سواء عند الأشراف أو المكيين عموماً.

«يحكى أنه كان في بعض حروبه، فلحقته أمه في هودج ودعته، فلما جاء قالت له: يا بني إنك تقف اليوم موقفاً إن ظفرت منه بعدوك، قال الناس ظفر ابن رسول الله ﷺ. وإن هربت قال الناس هرب ابن الأمة السوداء، فانظر لنفسك، فإنه لا موت قبل فراغ العمر، فشكر لها ذلك وقال: جزاك الله خيراً، فلقد أصبت وأبلغت، ثم ردها، وقاتل قتالاً ما سمع بمثله حتى ظفر»[2]. ومن خلال هذه الشجاعة، والتربية الحسنة، استطاع محمد أبو نمي الاحتفاظ بالقيادة بين الأشراف، الذين يتفاخرون عليه بنسب علوي حقيقي.

---

(١) انظر أمراء البلد الحرام ص٤٣.
(٢) انظر أمراء البلد الحرام ص٤٢.

دخل الشريف أبو نمي في صراع مع عمه إدريس (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٥) الذي كان قد تقاسم معه السلطة. وقد حاول جاهداً أن يتجنب الدخول في صراع مع ابن عمه غانم (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٩) الذي حاول قتاله بمساعدة الحسينيين في المدينة. وقد خرج أبو نمي في النهاية منتصراً. أما موقف السلطة في مصر، فكان يميل إلى الحلول التوفيقية، ويتجلى ذلك من خلال الموقف الذي تبناه السلطان بيبرس أثناء حجه عام ١٢٦٩م (٦٦٩هـ)[1]، فقد كان الصراع آنذاك مريراً بين أبي نمي وعمه إدريس، فما كان من السلطان إلا أن أجبر الاثنين على التفاهم على السيادة المشتركة بينهما. وحتى يضمن عدم استمرار هذا الصراع بعد عودته، أبقى فصيلاً من الجيش المصري في مكة. غير أن هذا لم يحل دون استئناف القتال، الذي ظفر فيه في النهاية محمد أبو نمي، الذي تمكن من قتل عمه وإنهاء سلطته. وقام أبو نمي بإعطاء السادة في مصر درساً قاسياً، حيث أوعز لأفراد البدو، الذين تمر قافلة الحج المصري من أراضيهم، بنهب القافلة عدة مرات، مما سبب إزعاجاً للسلطة في مصر، فقررت إرسال قوة عسكرية لتضييق الخناق حول عنق الشريف، غير أن الشريف لجأ إلى الاعتذار وإرسال الهدايا إلى مصر، وهكذا توقف الأمر عند مستوى التهديد فقط.

أبناء أبي نمي

لقد حاول شريف مكة أن يضمن السيادة لأحفاده بعد أن ضمنها لنفسه. وقد كان السؤال الذي يراوده دائماً في أواخر أيامه هو: من سيخلفه في الإمارة؟ وقد حاول جاهداً أن ينقل السلطة إلى كل من رميثة وحميضة (انظر شجرة النسب الثانية رقم ١٣ و١٤)، وأن يسلمهما مقاليد الأمور قبل وفاته بفترة قصيرة ١٣٠١م (٧٠١هـ). ويرجع الفضل له في تثبيت أصول السيادة لأبنائه، وفي تحديد العلاقة بين شريف مكة من جهة، وأقاربه ومواطنيه وسادته من جهة أخرى، وكذلك في إيجاد الأشكال والصور التي يتم التعبير من خلالها عن هذه العلاقة. ومن هذه الصور، التي تعود إلى أعراف

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧١ ـ ٢٧٣.

قديمة، يتجدد على مر الأزمان القتال والتحالفات والتحكيم في النزاعات التي تنشب بين أعضاء هذه العائلة النبيلة.

إمارة المدينة العالمية المقدسة، كان عليها أن تطور نفسها في بعض الأمور، بطريقة تختلف عن باقي إمارات الجزيرة العربية، بالرغم من أن الرؤساء في هذه الإمارة إمّا من الإقطاعين أو من رؤساء القبائل، وهو أمر معهود منذ وقت طويل. ولهذا فإن أصول الحكم في المدينة المقدسة، قد أعيد بناؤها من جديد، وفق هذه الأصول القديمة، ولم توجد بناء على قواعد جديدة. أما بعض القواعد المتعلقة بأصول الحياة العامة، فقد تكونت في وقت متأخر، على مراحل متتالية.

وبمناسبة وفاة أبي نمي، لعله من المفيد أن نذكر بعض العادات التي كانت توجد في المجتمع المكي، وهي أن بعض الأشراف المرموقين وذويهم، كانت تحمل نعوشهم بعد الوفاة، ويطاف بها حول الكعبة سبعة أشواط. وكذلك تبنى فوق قبورهم القباب. وقد كان أبو نمي أحد الأشخاص الذين طاف الناس بنعشه، وبنوا له قبة فوق قبره، في مقبرة المعلى بمكة المكرمة[١]. ويبدو لي أن ماجاء في المصادر المصرية، من أن المحمل المصري وغيره من المحامل القادمة من البلاد الأخرى، قد توقفت أثناء عهد أبي نمي في الحجاز، خلال حكم الظاهر بيبرس، أمر مشكوك فيه[٢].

المحمل

والمحمل هو الاسم الفعلي لكل تلك الحاملة التي يسافر فيها المرء على الجمل. وتبدو بأشكال مختلفة بحسب تجهيزها. وبعض العامة يطلقون عليها اسم شقدف أو هودج أو ساحلة. وهذه التعبيرات هي من اللغة الدارجة التي تستعمل في هذا المقام. لقد استعملت كلمة محمل منذ عدة قرون لترمز إلى الصناديق المزركشة بالحلي، والتي تحوي كسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية، التي يرسلها خلفاء المسلمين سنوياً في أثناء موسم الحج. وهذه العادة قديمة في مكة، كان يقوم بها الحكام المسلمون، كرمز لنيل الشرف

---

(١) أمراء البلد الحرام ص٤٤.

(٢) Lane, Vol 2: 161.

بحصولهم على زمام السلطة في المدينة المقدسة. وقد اعتاد هؤلاء أن يرفعوا علم الخلافة على جبل عرفات أثناء الوقوف بها. غير أن تعدد السلاطين، وتقسيم مملكة الإسلام، قد أدى إلى تكاثر هذه الأعلام. وقد وردت إشارات تاريخية إلى أن نزاعات وخصومات كثيرة، كانت تقع بين أمراء العالم الإسلامي، حول نصب هذه الأعلام، ومن تكون له مرتبة الشرف الأولى في رفعها[1].

لقد قام السلطان بيبرس عام ١٢٧٢م (٦٧١هـ) أو عام ١٢٧٧م (٦٧٦هـ) بإرسال محمل إلى مكة المكرمة[2]. ومن المحتمل أن الذي حمله على ذلك حج إحدى أميرات مصر أثناء هذه الفترة. وفي عام ١٣٢١م (٧٢٠هـ) وصل محمل رائع من العراق، بعد انقطاع طويل، إثر حروب التتار في المنطقة[3]. ولم يتمكن المصريون من العودة إلى إرسال المحمل إلا في

---

(١) في سنة ٦١٩هـ حج من اليمن صاحبها الملك المسعود وبدا منه ماهو غير محمود، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح، ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل (حاكم مصر) وعلمه، وقال لأصحابه إن اطلع البغاددة (أهل بغداد) علم الخليفة فاكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل إلى غروب الشمس. فأرسل ابن أبي فراس أباه وكان شيخاً كبيراً إلى المسعود وأخبروه بما يجب من طاعة الخليفة. فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل الغروب وقيل لم يأذن. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٥).

(٢) بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، لم يبق للحجاج العراقيين تقدم في أمر الحج، كما كان لهم ذلك في زمن الخلفاء العباسيين؛ لأن التتار بعد إزالتهم للخلافة العباسية من بغداد، لم تكن لهم ولاية على الحرمين، وصار التقدم في إقامة الحج ومشاعره لأمير الحاج المصري، لكون السلطان بالديار المصرية، نافذ الأمر بالحرمين الشريفين، ويقوم بمصالحهما من كسوة البيت الحرام وغير ذلك. وأول من قام بذلك بعد الخلفاء العباسيين من ملوك مصر الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي. وقام بذلك بعده ملوك مصر. إلا أن كسوة الكعبة صارت تعمل من غلة قرية ظاهر القاهرة، وقفها الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون، صاحب مصر، على كسوة الكعبة في كل سنة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٣) في سنة ٧٢٠هـ على ماقال البرزالي، حضر الموقف عالم كثير من جميع الأقاليم والبلاد. قال الشيخ رضي الدين الطبري، إمام المقام، من عمري أحج، ولم أر مثل هذه الوقفة. قال وفيها حضر الركب العراقي في تجمل كبير، ومعهم محمل عليه ذهب كثير وفيه لؤلؤ وجوهر، قوم بمائة تومان ذهب، وحسبنا ذلك بـ ٢٥٠,٠٠٠ دينار من الذهب المصري. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٧ ـ ٢٧٨).

عام ١٤٧٢م (٨٧٧هـ)، حيث استأثروا منذ تِلْك الفترة في إرسال المحمل إلى الديار المقدسة[١].

وفي عام ١٣٨٠م (٧٨١هـ) قدم محمل مع أمير اليمن. وأراد بعض الأمراء المصريين التقليل من شأنه، غير أن أمير مكة منعهم من ذلك[٢]. وعلى كل حال لم تكن هذه هي المرة الأولى، التي يفد فيها إلى الديار المقدسة محامل من اليمن، فقد سبق ذلك محامل كثيرة[٣].

إن وجود هذه المحامل وتعددها، يحمل المرء على الافتراض، أنه ربما تكون هناك علاقة بين المحمل، والعادة العربية التي يتكرر وقوعها كثيراً، وهي عادة أخذ المقدسات القابلة للحمل في الرحلات والغزوات. وعلى أيّ حال فقد كانت شهرة المحمل واسعة حتى على المستوى الشعبي. فقد اعتاد الناس في أحياء جدة، أن يضعوا محملاً حتى في الأعياد الشعبية. فكل حي له يوم خاص، ينظم فيه محملاً يفوق كل المحامل في الأحياء الأخرى المعايدة. ومهما يكن من أمر فإن المحمل مؤشر يرمز إلى سلطة حامي مكة والمدافع عنها والذين ينافسونه في هذا السبيل.

ومنذ عهد أبي نمي تأصلت عادة خدمة المحمل من قبل الأشراف لهذا الهيكل الرمزي. فقد كانوا يرتحلون لمقابلته، حيث يتسلمون من أمراء الحج الذين يرافقون المحمل، لباس الشرف (الخلعة) الذي يشهد لهم على

---

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٨٧٧هـ.

(٢) في سنة ٧٨١هـ حج محمل لصاحب اليمن. وأراد بعض الأمراء المصريين توهين حرمة هذا المحمل، فلم يمكنهم من ذلك صاحب مكة الشريف أحمد بن عجلان. وكان أمير الحاج مع هذا المحمل ابن السنبلي. وليس هذا المحمل أول محمل حج من اليمن، فقد رأيت مايدل على أن في السنة التي ولي فيها الملك المؤيد السلطة ببلاد اليمن حج له محمل إلى مكة (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٧).

(٣) هناك إشارات في أخبار سنة ٦١٩هـ وأخبار سنة ٧٤٢هـ تدل على وجود حكام من اليمن في الديار المقدسة لأداء فريضة الحج. غير أن المصادر التاريخية لاتشير بوضوح إلى اصطحاب هؤلاء محامل حج معهم (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٥و٢٨١).

رضا حامي الديار المقدسة عنهم. وقد كان أمراء الحج في بعض الأحيان، يطلبون من الأشراف الضعاف، إبداء الاحترام والتقدير بصورة مهينة. وربما استعملت مثل هذه الأمور لإنهاء سلطة من لا يرضون عنه من هؤلاء. ويمكن القول إن المحامل قد استعملت لعدة قرون بمنزلة بارومتر لقياس الجو السياسي في مكة.

تدخل سلاطين مصر في الحجاز

لم يستطع محمد بن إدريس (شجرة النسب الثانية رقم ١٠) ابن المنافس السابق لأبي نمي، أن يحول دون أن تكون الولاية لأبناء أبي نمي وحدهم (انظر شجرة النسب الثانية رقم١٣، ١٤، ١٥، ١٦) غير أن هؤلاء الأبناء، قد دخلوا في صراعات متعددة ضد بعضهم. وقاتل بعضهم بعضاً مرات عديدة، من أجل الاستئثار بالسلطة. وقد استمر هذا الأمر قرابة نصف قرن من ١٣٠١ ـ ١٣٤٦م (٧٠١ ـ ٧٤٦) هـ. وقد ساعد على هذا الصراع تدخل سلاطين مصر المماليك، وذلك بدعم أحد الأطراف تارة، ثم الميل إلى منافسه من الطرف الآخر تارة أخرى. وقد كان المماليك يلجؤون إلى حجز المعارضين في مصر، حتى إذا ساءت الأحوال أعيد المحجوزون إلى السلطة في مكة، وأرسل الأمراء القدامى إلى الاحتجاز في مصر. ومن الغريب أن زمام السلطة كان يتولاها الأخوان معاً، بينما يدير الأخوان الآخران الصراع ضدهما. وما أن يستقر الأمر للأخوين[1]، حتى يثور أحدهما على الآخر أيضاً، لينفرد بالسلطة دون أخيه.

الشريف حميضة يلتجئ إلى العراق

في عام ١٣١٥م (٧١٥هـ) هرب حميضة (أحد أبناء أبي نمي) من المعتقل المصري وتوجه إلى العراق، التي نشأ فيها، نتيجة إيجاد المغول دولة إسلامية مغولية. وقد وعد حميضة أميرها خدابندة[2] بالدعاء له على

---

(١) لقد أسهب السباعي في وصف هذه النزاعات بين أبناء أبي نمي تحت عنوان «أولاد أبي نمي يتنازعون الإمارة» وقد فصل هذه النزاعات بين الإخوة الأربعة الكبار وهم رميثة وحميضة وأبو الغيث وعطيفة (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٦٢ ـ ٢٧٢).

(٢) لقد ورد اضطراب وخلط كثير في كتابة اسم خدابندة فقد ورد بلفظ خربندا في تاريخ الشيخ ابن فهد، كما نقله صاحب كتاب أخبار مكة المشرفة (انظر أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٥٣) وأورد السباعي اللفظ نفسه. ويقول محقق كتاب السباعي في حاشية ص٢٦٨: =

منابر الحرمين، إذا ساعده في الانتصار على أخيه. ولقد أخذ خدابندة الأمر على محمل الجد، غير أن موته المفاجئ أجهض المحاولة في مهدها. وفي أثناء حكم ابنه أبي سعيد ظهر المحمل العراقي في الحرمين الشريفين، معيداً إلى الأذهان بعض الأبهة، التي كان يتميز بها المحمل العراقي قديماً. وقد أجرى الأمير أبو سعيد إصلاحات في شبكة مياه المدينة المقدسة[1].

= إنه «ملك التتار في العراق» وذكر سبب التسمية وقال إن من عادة التتار أن يتفاءلوا بأول حيوان يدخل وقت ولادة المولود، فكان الداخل حماراً ويسمونه «خر»: فسموه خربندا. وقد ورد بصيغة خدابند في الأصل المطبوع لكتاب أمراء البلد الحرام. غير أن محقق الكتاب اختار صيغة خدابنده استناداً إلى ضبط اللفظ من قبل مؤلف كتاب «الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية». وقد رجحنا نحن ذلك، ولا سيما أن لفظ خدابندة تعني باللغة الفارسية والأردية عبد الله. (انظر أمراء البلد الحرام ص٤٥).

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة في حوادث سنة ٧٢٦ هـ ج٢ ص٥٣ ما يلي:
عمر بازان رسول الأمير جوبان بن تلك بن تداون نائب السلطنة بالعراقين عن السلطان أبي سعيد بن خربندة، ملك التتر عين عرفة، وكان الناس في جهد عظيم بسبب قلة الماء بمكة، فإن الراوية كانت تباع بها في الموسم بعشرة دراهم مسعودية، وفي غير الموسم من ستة دراهم إلى سبعة، فقصد الأمير جوبان عمل خير بمكة، فدله بعض الناس على عين كانت تجري في القديم ثم تعطلت. فندب لذلك بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار، وجهزه في الموسم سنة خمس وعشرين، فلما قضى حجه تأخر بمكة، واشتهر أمره بها، فأعلم بعين في عرفة. فنادى بمكة: من أراد العمل في العين فله ثلاثة دراهم في كل يوم. فهرع إليه العمال، وخرج بهم إلى العمل فلم يشق على أحد منهم ولا استحثه، وإنما كانوا يعملون باختيارهم؛ فأتاه جمع كثير من العرب، وعمل حتى النساء، إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة، في ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة، وكانت مدة العمل أربعة أشهر، وكثر النفع بهذه العين وعم وعظم، وصرفه أهل مكة إلى مزارع الخضر. وكان جملة ما صرف عليها في هذه العمارة مائة وخمسين ألف درهم. فلما فرغ بازان من عمارة العين قدم إلى مصر، واجتمع بالسلطان، وعرفه خبر العين؛ فشق عليه ذلك، وقال له على لسان النائب: من أذن لك في هذا؟ ولا شاورتني؟ فقال للنائب: عرف السلطان أن جوبان، فعل ما فعل من الخير، وبقي الأمر للسلطان، إن شاء يخرب أو يعمر، فهذا شيء قد فعله من فعله وخرج عنه، والأمر إليكم. فلما بلغ قوله للسلطان سكت. (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٥٣).

غير أن ذلك لم يكن له أهمية سياسية كبيرة؛ لأن الشريف حميضة قتل بخنجر أحد عملاء السلطنة المصرية[١]. وبالرغم من أن إخوة حميضة لم يكونوا راضين عن التجائه إلى العراق، إلا أن علاقات هؤلاء مع مصر كانت فاترة. وقد طلب المماليك في مصر إلغاء الضرائب والمكوس، التي يفرضها الشريف على الحجاج وأهل مكة، وتعهدوا لهم في مقابل ذلك بشحنة كبيرة من القمح، تأتي سنوياً من مصر العليا.

غير أن حكام مكة لم يلتزموا بذلك، بل أبقوا المكوس مفروضاً. وطلبوا مساعدة المماليك لإنهاء صراعاتهم مع بعضهم البعض. ودخلوا في نزاعات مع أمراء الحج. وقاموا بمحاربتهم حتى في شوارع مكة. وقد قتل في إحدى هذه المعارك عام ١٣٣٠م (٧٣٠ هـ) الأمير المصري وابنه. فلما بلغ السلطان الناصر ذلك غضب، ونوى أن يبعث إلى مكة جيشاً يستأصل الأشراف جميعهم، فقيض الله له قاضي القضاة جلال الدين القزويني، فوعظه وعظاً بليغاً وصرفه عن نيته[٢]. وعلى أثر ذلك توثقت علاقة الأشراف بأمراء اليمن، فدعوا لهم على المنبر، وسمحوا للمؤذن بالأذان على الطريقة الزيدية.

علاقة الأشراف بأمراء اليمن

وصادف أن حج صاحب اليمن، وقام الأشراف بخدمته كما قاموا بحمايته من أن يتعرض له المصريون بسوء. وكان المصريون قد عزموا على منعه من ذلك. ولم يصدهم سوى حماية الأشراف له. وقد رام أن يكسو الكعبة ويستبدل ببابها باباً آخر من عنده، فلم يمكنه الأشراف من ذلك؛ لأن مثل تلك الهبات لاتنفع الأشراف مادياً، فوق أنها ستثير حساسية السادة في مصر[٣].

---

(١) يرى صاحب كتاب أمراء البلد الحرام (ص٤٦) وينقل ذلك عنه السباعي أن المماليك في مصر أعانوا عطيفة على قتال أخيه حميضة. وقد استطاع عطيفة أن يستعيد مكة بعد أن قتل حميضة في سنة ٧١٨هـ. ويذكر الغازي في إفادة الأنام أن حميضة قتل بيد أحد المماليك الأتراك في سنة ٧٢٠هـ (انظر السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٦٦)، وبموت حميضة انقطع الدعاء للتتار وعاد نفوذ المماليك ثانية (المحقق).

(٢) أمراء البلد الحرام ص٤٧.

(٣) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨١ - ٢٨٣.

لقد نجح رميثة وعلى توالي السنين بالإبقاء على السيادة لنفسه، والتفوق على إخوانه، بحيث استأثر أخيراً بالسيادة المطلقة في حكم مكة. غير أن الصراع على السلطة لم يلبث أن تجدد بين أبناء رميثة أنفسهم، قبل أن يتوفى أبوهم بسنة واحدة. فقد سافر عجلان بن رميثة إلى مصر يطلب الإمارة، وقد حاول أمير مصر في هذه المرة أن يقسم الشيء الرئيس للخلاف العائلي، وهو دخل مكة بين عجلان وإخوانه الثلاثة (انظر شجرة النسب الثانية ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١) بحيث يحصل عجلان على نصف ذلك، بينما يحصل الإخوة الثلاثة مجتمعين على النصف الثاني، وقد كان هذا التنظيم هو تثبيت العادة القائمة والمتعارف عليها آنذاك، وهي أن يقوم رئيس العائلة الحاكمة بشراء النية الحسنة لأقاربه أصحاب النفوذ، عن طريق إشباع رغباتهم. وقد تأصل ذلك بحيث أصبح حق الأشراف الكبار في الحصول على حصة معينة من المال عرفاً قائماً يجب العمل به، غير أن مثل هذا العرف لم يساعد على استتباب الأمن، بل قد أضيف إلى نقاط الخلاف السابقة، فيما يخص الدخل الشخصي لشريف مكة، وكذلك الدخول التي تخضع للتقسيم. ولما كانت هذه الدخول غير محددة كلياً، فإنها تفضي إلى النزاع دائماً. فإذا طلب أحد الأشراف دخلاً كبيراً يثير عليه السخط وعدم الرضا، وبذلك يقدم العون لمنافسيه في إثارة المشاكل ضده. وهكذا فقد بقي هذا الأمر على تتابع تاريخ مكة أمراً مثيراً للجدل بين الإخوة والأقارب من جهة، وشريف مكة من جهة أخرى.

الشريف عجلان

تقسيم المداخيل بين الأشراف

بعد ثلاث سنوات خرج الإخوة الثلاثة لعجلان من مكة غير راضين عن أخيهم. ولم يتمكن سوى واحد منهم فيما بعد أن يواجهه بشجاعة ونجاح. ورغم ذلك يمكن اعتبار السنوات من ١٣٤٦ إلى ١٣٧٥م (٧٤٧ ـ ٧٧٧ هـ) هي فترة حكم عجلان، شاركه خلالها أخوه ثقبة في مرتبة ثانية لبعض الوقت. وفي خلال هذه الفترة وفي عام ١٣٥٩م (٧٦٠ هـ) خلع سلطان مصر الأخوين معاً، بسبب الصراع الدائم بينهما، وعين مكانهما شريفين آخرين، كان أحدهما موجوداً في مصر، والآخر هارباً في اليمن (شجرة النسب الثانية رقم ٢٠، ٢٢).

الشريف ثقبة

غير أن الفتنة[1] التي وقعت بين عسكر مصر، الذي قدم للدفاع عن الأمراء الجدد، والأشراف، كان ضحيتها العديد من القتلى والأسرى[2]. فلما بلغ صاحب مصر هذه الفتنة أمر بتجهيز عسكر للحجاز، وأمرهم باستئصال الأشراف، وقال لا حاجة لنا بهم. غير أن سلطان مصر الملك الناصر عزل، وتولى بعده الملك المنصور، الذي كان له رأي آخر، فأطلق السيد عجلان وولاه مكة، وأشرك معه أخاه ثقبة الذي توفي بعد فترة وجيزة.

الشريف أحمد

فانفرد عجلان بالحكم. وحاول الحفاظ على السلطة، بأن عين ابنه أحمد في عام ١٣٦١م (٧٦٢هـ) شريكاً، وأعطاه ربع الدخل راتباً له، وبذلك نقل سلطة الحكم تدريجياً لولده. وهذه الطريقة هي التي سار عليها الكثير من الأشراف، في وقت متأخر، لملاءمتها لمنع إحداث أيّ قلاقل حول من يتولى السلطة. وفي عام ١٣٧٢م (٧٧٤هـ) وبعد أن شبع من الدنيا، غادر الشريف عجلان مكة، ليقضي السنوات الأخيرة من عمره في الريف. ولم يطلب أكثر من ذكر اسمه في الخطبة. ومات عجلان دون أن تراوده الأفكار بالصراع، الذي يمكن أن يدور بين أبنائه حول تولي السلطة؛ لأنه حسم هذا الموضوع في حياته وقبل موته.

النكبات التي تحل بسكان مكة

ربما كان بعض المكيين محقاً في اعتبار أن بعض الأشراف كانوا من بين المصائب التي حلت بالوادي غير ذي الزرع. فسنين الجوع الكثيرة في مكة، والتي كان يتبعها أحياناً الأمراض والأوبئة، كان من بين أسبابها القحط وقلة المطر في الديار المصرية. أما الأسباب الباقية فكانت [بحسب التعبير المكي] من صنع سادتنا الأشراف. فالضرائب القاسية[3]، التي كانوا

(١) سبب هذه الفتنة كما يرويه السباعي، هو أن عسكرياً من الترك سكن بيتاً، عند باب الصفا، فطالبه بالأجرة صاحبه وكان من الأشراف فرفض دفعها. ولابد أنه أبدى شيئاً من العنجهية التي يبديها المحتلون في العادة. فثار النزاع واشتد، فضرب التركي الشريف، فاشتد غضب الشريف فقتله، فاجتمع الأتراك للثأر، واجتمع الأشراف للدفاع، فكانت الواقعة (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٧٩).

(٢) لقد قام الأشرف ببيع الأسرى من المماليك الأتراك عبيداً في سوق ينبع (المؤلف).

(٣) يورد الفاسي بيان المكوس التي كانت مقررة في ذلك العهد، على أساس النقد المسعودي في اليمن. وقد جاء فيه أن المقرر على حمل الجمل من الحنطة هو مدان بكيل مكة، والمقرر =

يبيعونها، من حين لآخر، إلى الأمراء المصريين، مقابل أعطيات سنوية كثيرة، لا يستعمل منها أي درهم للمنفعة العامة. وبالرغم من أن إلغاء الضرائب كان بأمر من الجهات العليا، ويتم توثيق أوامر الإلغاء هذه عن طريق وثائق محفورة على أعمدة المسجد الحرام[1] إلا أن [سادتنا] لا يعبؤون بهذه الأوامر ولا يقومون بتنفيذها.

وبالرغم من أن التبعية السياسية لمصر، قد ازداد تبلورها، إلا أن الشريف عجلان أمر لعدة سنوات ١٣٥٩ ـ ١٣٦٩م (٧٦٠ ـ ٧٧٠ هـ) بأن يدعى لسلطان المغول في بغداد، على منابر الحرمين، مقابل هدايا وأعطيات مهمة تلقاها منه. وعندما لم تتواصل الأعطيات أمر بقطع الدعاء له على المنبر[2].

الشريف عنان

بدأت سلطة أبناء عجلان ـ كما ذكر سابقاً ـ في أثناء حياة أبيهم ١٣٦١م (٧٦٢ هـ) واستمرت بعد موته واحداً وخمسين عاماً (١٣٧٥ ـ ١٤٢٦م) (٧٧٧ ـ ٨٢٩ هـ) (انظر شجرة النسب الثانية، رقم ٢٣ ـ ٣١). لقد حكم أحمد مدة (١١) عاماً دون مشكلات، وقد اختار ابنه الأصغر محمداً، ولياً لعهده، متبعاً طريقة والده. غير أن الاضطهاد الذي أوقعه ببعض أبناء عمومته قد ألب عليه الكثير منهم. وبمجرد وفاته كان حزب المضطهدين يفكر بوسيلة للانتقام. ولقد وجد هذا الحزب ممثله الرئيس في شخص ابن أخ عجلان [عنان] (شجرة

= على حمل البصل، هو ثلاثة دنانير مسعودية، وهو مقرر فادح، ثم يذكر المقرر على السمن والعسل والخضروات وهو مايوازي ٢٠٪ من أثمانها. أما التمر فمقررة على السلة الواحدة دينار مسعودي، ثم يعلق الفاسي على هذا فيقول إن الناس كانوا يقاسون شدة من ذلك، وقد بلغه أن بعضهم استورد شاة فلم تساو المقدار عليها، ومنه نعلم أن هذه المقررات كانت فادحة بنسبة أثمانها في زمانها. وإذا استطعنا أن نعذر أصحاب الأمر يومها في فرض المكوس لتغطية النفقات الضرورية فإننا لانستطيع أن نعذرهم في تقرير النسب المرهقة (انظر السباعي، ١٤٠٤هـ ص٢٨٠ ـ ٢٨١).

(١) ذكر السيد دحلان في أحداث سنة ٧٦٦هـ أن السلطان أسقط المكس المأخوذ بمكة، وعوض عنه صاحب مكة مائة وستين ألف درهم من بيت المال، وألف أردب قمح. وقرر ذلك في ديوان السلطان شعبان صاحب مصر، ونقر ذلك في دعائم المسجد الحرام. وذلك باقٍ إلى الآن من جهة باب الصفا وباب الزيادة وباب الباسطية (دحلان: أمراء البلد الحرام ص٥٠).

(٢) (أخبار مكة المشرقة ج٢ ص٢٨٦).

النسب الثانية رقم ٢٥) الذي هرب إلى مصر، نتيجة شدة وطأة أحمد عليه. وقد استصدر أمر تعيينه من مصر، وحضر في معية أمير الحج المصري، وقد تخلص من منافسه محمد عن طريق الاغتيال في أثناء الاحتفال بمراسيم قدوم المحمل[١].

غير أن الأمور أبت أن تستقر؛ لأن الخصوم أثاروها حرباً شعواء ضده، فاضطرب الأمن، وشجع البدو على هجمات السلب والنهب. ونازع عنان في السلطة أولاد عجلان وخاصة علي ومحمد. وفي هذه الأثناء، وفي غمرة هذه الفوضى، لمع اسم جديد في مكة هو حسن بن عجلان (١٣٩٦ ـ ١٤٢٦م) (٧٩٨ ـ ٨٢٩هـ) الذي كان من أشد إخوته حزماً واعتزازاً بنفسه. ولعله لم يكن من أبناء عجلان مثله، في قوة الشكيمة والقدرة على التعامل مع أقاربه، واللباقة والدبلوماسية في التعامل مع السادة والسلاطين في مصر. ولقد كان لوجوده في مصر أثر في تعيينه في منصبه. فقد عين أميراً على الحجاز كاملاً، وعرف كيف يبسط نفوذه بين الحسينيين، الذين كانوا لا يزالون يمارسون صلاحيات الحكم في المدينة المنورة[٢].

الشريف حسن

بذل حسن بن عجلان مجهودات كبيرة لزيادة قوة جيشه، بحيث يتمكن من إشهار الرمح أمام المتآمرين من أقاربه المقيمين في مصر. وعندما وصله تقرير عن عزله (١٤١٠ و١٤١٥م) (٨١٣ و٨١٨هـ) أعد هذا الجيش

---

(١) يذكر السباعي روايات عدة حول مقتل الشريف محمد، ويحاول أن يربط بين الاغتيال والعداوات السابقة بين أبيه وخصومه من أبناء عمومته فيقول: ولا يكلفنا الدحلان عناء هذا الربط؛ لأنه لا يلبث أن يذكر لنا على أثر مقتل محمد أن الذي قتله أمير الحج المصري ثم يقول: وقيل قتل في سوق منى بسكين مسمومة، وقيل إنه مات في احتفال المحمل، ثم يسرد عبارته بالشكل الذي يتراءى فيه ارتباط الحوادث فيقول: وذلك أنه كان في جيش أبيه جماعة من أقاربه الأشراف. فلما توفي أبوه سأله سلطان مصر أن يطلقهم فأبى ثم كحلهم، وهو يريد أنه سمل عيونهم بمسامير محماة، فأضمر السلطان ولاية عنان بن مغامس «غريم أبيه» الذي فر من سجنه، وهكذا سيره مع أمير الحج المصري، وأمره بأن لا يظهر أمره إلا بعد أن تجرى مراسيم استقبال المحمل في مكة، بحضور أميرها محمد. فلما حضر محمد الاحتفال انطلق مقذوف ناري أصاب الأمير، فأرداه قتيلاً، ونادى على الإثر عنان بن مغامس بنفسه أميراً (السباعي ١٤٠٤هـ، ص٢٨٧).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٨، ج٣ ص٢٠٠.

للمقاومة الفعلية، لكنه آثر التريث، وأرسل مبعوثاً إلى مصر لتوضيح سوء التفاهم الحاصل، ولم ينس أن يحمل هذا المبعوث الهدايا الضرورية. وهكذا فإن أمر إلغاء العزل وإعادة التعيين لم يطل، حيث أصبح سيد البلاد مرة أخرى. وحينئذٍ بادر إلى قتال المعارضين باسم السلطان، وقضى على شوكتهم قضاء مبرماً[1].

لم يكن أمراء المماليك الذين تعامل معهم حسن بن عجلان هم المماليك الأتراك، بل كانوا من المماليك الشراكسة. فمنذ عام ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) احتل المماليك الشراكسة دفة الحكم، الذي أداروه منذ زمن طويل. فقد تحول هؤلاء من جنود عبيد إلى سادة لأسيادهم. وقد كانت هذه السلالة تجدد قوتها باستمرار، عن طريق دفعات جديدة، تصل إليها من الوطن الأم. وقد بقي هؤلاء حتى استولى العثمانيون على مصر بعد ١٣٤ عاماً. فما كان من الشريف حسن بن عجلان إلا أن انتظم في خدمة السادة الجدد في الديار المصرية.

لقد وقف الشريف حسن بقوة أمام توهين حرمة المحمل اليمني من قبل بعض الأمراء المصريين، ولم تكن هذه هي المرة الأولى، التي يأتي فيها محمل من اليمن، كما لم تكن هي المرة الأولى التي يحاول فيها سلاطين مصر التقليل من شأن هذا المحمل، الذي لم يكن لأهله مطامع خاصة بالحصول على نفوذ معين في المناطق المقدسة[2].

تفيد التقارير أنه خلال عامي ١٣٢٦م[3] و١٣٨٤م (٧٢٧ و٧٨٥هـ) كان عدد الزوار من الزنوج التكرونيين ومن المغاربة كبيراً، الأمر الذي كان أسهم في زيادة دخول أرباب السلطة. وفي هذه الأثناء كانت الهند تمثل

---

(١) عرف حسن بن عجلان باستعمال الحزم ضد الفوضويين من أقاربه وأبناء عمومته، فقد أعد حملة تأديبية قاسية، صبّحهم بها في مكان بوادي فاطمة، يقال له الزبارة، وقد نجحت الحملة نجاحاً راح ضحيته نحو أربعين شخصاً من الأشراف وانتهى بالهدوء والاستقرار (السباعي، ١٤٠٤هـ، ص٢٩١).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) إن السنة التي حج فيها عدد كبير من التكرونيين لم تكن هذه السنة وهي ١٣٢٦م التي ذكرها =

منجم الذهب الحقيقي للمكيين، حيث كان كثير من حجاجها من الأثرياء والموسرين، ومن الأمراء الأتقياء، الذين كانوا يوزعون الهبات الكثيرة، ويقيمون المؤسسات الخيرية، ليكسبوا دعاء المكيين، الذي يعتقدون أنه يجلب لهم البركة. وتروي لنا كتب التاريخ خبر شحنة لها أهميتها أرسلها أمير البنغال، في عهد الشريف حسن، تعطينا لمحة حول الطريقة التي تدار بها مثل هذه الهبات. لقد تسلم الشريف حسن الهدايا المخصصة له، وأخذ حسب العادة المتبعة ثلث المخصصات المقررة لسلطان مكة. أما البيوت والأرض المطلوبة لإنشاء مدرسة ورباط خيري للفقراء، فقد قدمها الشريف من أملاكه، نظير مبالغ كبيرة من المال. كما استغل الأمير مبلغاً كبيراً من المال، كان قد أرسل لتحسين شبكة المياه في المدينة. أما السفينة الهندية التي كانت محملة بالهدايا للمدينة المنورة، والتي جنحت بالقرب من ميناء جدة، فقد أخذ الشريف لنفسه ربع محتواها. وبما أن أمير المدينة الحسيني، لم يكن مذعناً بالكلية لشريف مكة، فقد طالب بهذه الحصة لنفسه[1].

هدايا الهنود

كانت أهم مصادر الدخل لأشراف مكة، باستثناء الرسوم التي يدفعها الحجاج، الذين لا حامي لهم، ومن بينهم قسم كبير من حجاج الشرق الأقصى، وحجاج شرق الجزيرة العربية (القطيف والأحساء) بالإضافة إلى حجاج اليمن، إضافة إلى ربع محتويات السفن الغارقة[2] وثلث الهدايا المقدمة للمكيين. وكذلك الضرائب غير المباشرة، التي كانت تلغى كلياً أو جزئياً[3]، وكانت تقدر بعشر البضائع المستوردة، غير أن الواقع الفعلي كان

مصادر دخل الأشراف

= المؤلف، بل كانت سنة ٧٢٤هـ التي توافق ١٣٢٤م (انظر أمراء البلد الحرام ص٤٧ و ٥١، وكذلك منائح الكرم حوادث سنة ٧٢٤هـ).

(١) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٩٨ ـ ٢٠١.

(٢) كانت العادة إذا جنحت إحدى السفن وتولى رجال الشريف إنقاذها يحصلون على ربع محتوياتها، نظير عملهم.

(٣) الشيء المميز أن قرارات السلاطين المماليك في مصر، التي كانت تمنع أخذ المكوس، قد استثنت من القرارات المذكورة آنفاً، الضرائب المفروضة على البضائع المستوردة، القادمة من العراق والهند (المؤلف).

أكثر من ذلك، إذ لم يكن العشر يحسب بدقة، خاصة في حمولة السفن الهندية، التي ترسو في ميناء جدة. وقد أدت الابتزازات المالية التي تعرض لها الناس عام ١٣٩٥م (٧٩٨ هـ) إلى تجنب أصحاب السفن الرسو في ميناء جدة.

تنبه حماة الحرمين في مصر إلى أهمية الرسوم الجمركية على السفن، فقد آلت هذه الرسوم في عام ١٤٥٢م (٨٥٧هـ) إلى الحاكم المصري[١]. وكان سلاطين مصر لا يعطون كبير الأشراف في مكة إلا جزءًا يسيراً (مرة النصف، وأحياناً الثلث، وقد تصل إلى الربع). وكان هذا التقدير يخضع في كثير من الأحيان إلى الأعراف السائدة[٢]. وقد أدى تقسيم هذه العائدات الجمركية، منذ عام ١٤٢٥م (٨٢٨هـ)، إلى بداية مراقبة منتظمة لإدارة الأشراف. ففي الأوقات التي ترسو فيها السفن الهندية، كان يقيم في جدة موظف للجمارك تابع للسلطان. وحتى قبل ذلك التاريخ وفي عام ١٤١٦م (٨١٨هـ) كلف سلاطين الشراكسة في مصر، زعيم الأتراك في مكة، بتوزيع الهبات المرسلة إلى المدينة المقدسة من مصر[٣]. ومن هنا يبدو لنا ضعف اعتماد السلاطين على الأشراف، رغم أن هؤلاء كانوا يحملون لقب نائب السلطنة[٤].

ذكرنا سابقاً عن هدايا الأمراء والعظماء، الذين كانوا يؤدون فريضة الحج، أو يرسلون بهداياهم، لتوزع على سكان الحرمين الشريفين[٥]. وحينما

---

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٨٥٧هـ.

(٢) ذكر الدحلان أنه في سنة ٨٣٢هـ وصلت المراسيم من صاحب مصر، بأن ثلث ما يتحصل من عشور المراكب الهندية يكون لأمير مكة، والثلثان لصاحب مصر. ثم في سنة ٨٤٠هـ جاءت المراسيم بأن نصف عشور جدة من المراكب الهندية تكون لأمير مكة، (أمراء البلد الحرام ص٦٢).

(٣) جاء في إتحاف الورى أنه في عام ٨١٨هـ أرسل المؤيد صاحب مصر صدقة ذهب لتفرق في المسجد الحرام، فتولى تفريقها الأمير تغري برمش التركماني (إتحاف الورى ج٣ ص٥٢٩).

(٤) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٧.

(٥) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨١، وكذلك ج٣ ص٢٠٤، ٢١٨).

أصبحت السيادة في الحجاز لأمراء السلطة في مصر، كان مفهوماً ضمناً أن الأمراء المصريين، يقدمون الهدايا إلى منطقة نفوذهم. وبالمقابل كان هناك سلاطين آخرون، مثل الأتراك العثمانيين على سبيل المثال يرسلون بهداياهم أيضاً إلى الحرمين الشريفين، طلباً للبركة، حتى قبل فتحهم للقسطنطينية. أما إذا قدم بعض هؤلاء لأداء فريضة الحج، فإن المرء ينتظر منهم سيلاً من الذهب.

لقد وضع أبناء الشريف حسن أيديهم على المؤسسات الخيرية الدينية في المدينة المقدسة. وكانت العادة أن تلفق التهم للأغنياء من العامة، ويوصفون بأنهم معادون للنظام، ويساقون إلى السجن، ولايتم إخلاء طرفهم إلا بفدية كبيرة[1].

فرض الضرائب على المشاريع العامة

وكان هناك عرف يقضي بفرض الضرائب على المشاريع العامة. فكل من أراد إدخال إصلاحات في الأماكن المقدسة، ولو على حسابه الخاص، لابد له في البداية من موافقة السلطان، وكانت مجانية بلا مقابل. وبعد ذلك عليه أن يشتري موافقة الشريف، وهذا يتطلب مبلغاً من المال، قد يساوي المبلغ المخصص لإجراء العمل المطلوب. فمن أراد أن يغطي باب الكعبة أو ميزابها بالذهب، فعليه أن يدفع مبلغاً من النقود قد يعادل قيمة الذهب المستعمل. حتى أن الكتابة بتخليد مثل هذا العمل، لم يكن يسمح بها للقائم بالإصلاح، بل يسجل باسم الأمير الحاكم. وكان سادة مكة في العادة يحتفظون لأنفسهم بحق تحديد الأسعار لمتطلبات الحياة الأولى، وكان هذا يضمن لهم مكاسب كبيرة في حين كان ضرره على الناس ليس يسيراً. وإذا مات غريب في مكة، وليس له وارث شرعي، كان وريثه الشريف، غير أن سلاطين مصر أمروا فيما بعد بتسليم عائدات مثل هذه الأموال إلى خزينتهم. وهناك وسائل أخرى مفادها، أنه إذا مات أحد الأغنياء، تقام الدعاوى ضده، بأنه لم يؤد ما عليه من زكاة. فيكون ذلك وسيلة للاستيلاء على الأموال غير المزكاة. وقد كان على البدو الذين

(١) ابن جبير ص٥٤.

يدخلون في طاعة الشريف، أن يدفعوا بعض الضرائب للإمارة. أما القبائل المستقلة فقد كانت تعتبر ثائرة على النظام، وهي هدف للغزوات والحروب.

موظفو الأشراف وجيشهم

عين الأشراف لإدارة الأمور المالية الخاصة أناساً غرباء، متمرسين بكل حيل الإدارة الشرقية. أما الموظفون العاديون فكانوا من الأشراف أو رؤساء القبائل أو الغرباء، وكان معظم هؤلاء من الجيش التابع لأمير مكة. وكانت نواة هذا الجيش تتكون من العبيد والمحررين. وكانت هذه العصابة، تدعى من قبل الأجانب، كما كانت تدعى أيام ابن جبير «لصوص مكة». كان الاسم الرسمي للجيش «حملة الرماح»، غير أنهم كانوا يعرفون بعبيد السلطان أو القواد[1]، وكلا الاسمين لهما الدلالة نفسها. لكن الاسم الأخير (القواد) كان يميز المحررين غالباً، وخاصة أولئك الذين يعهد إليهم بوظيفة أو كتيبة، وهؤلاء بدورهم يملكون عبيداً يقومون بتدريبهم بمنزلة جنود لديهم[2]. وكان هؤلاء العبيد ينتظمون في نقابة خاصة بهم، معادية للجنود الأجانب الآخرين.

وبالرغم من أن هؤلاء هم ملك خاص لسادتهم، إلا أن هؤلاء السادة كثيراً ما يفقدون السيطرة عليهم، خاصة عند الغضب. لقد كان الشريف دائماً يحاول زيادة عدد أفراد جيشه من هؤلاء العبيد. وكان أقارب الأمير المشهورون، لديهم أعداد أخرى من هؤلاء، يقاومون بواسطتها الحاكم في بعض الأحيان. أما المحررون فكانوا ينضمون عند حدوث الصراعات إلى فريق ما، حسب ما تمليه عليهم الرغبة. أما تحزب البدو في الحجاز، فكان يعتمد على العلاقات التقليدية، إضافة إلى كمية المكافأة المعروضة.

لقد كانت الحاجة ماسة إلى وجود جيش نظامي، تحت تصرف الشريف، لا يخضع لظروف المصادفة المشار إليها آنفاً. ومن المؤكد أنه بعد فترة حكم الشريف حسن (ربما قبل ذلك بقليل) قد تكوّن جيش من الجنود الفعليين

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨١، ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) كان هؤلاء يعرفون باسم العمره (أخبار مكة المشرفة ص٢٩٦) (المؤلف).

(العساكر)، ومعظم هؤلاء من عرب جنوب الجزيرة العربية[1]. وبعد ذلك أدخلت عناصر أخرى غير عربية[2]. وكان هؤلاء يقاتلون في معارك الأمير، وإذا هزموا في الحرب فإنهم يذهبون إلى المنتصر[3]. وكان هؤلاء يتخذون موقف الحياد في أثناء الحرب بين الأشراف.

وكما هو الحال في البلدان الإسلامية الأخرى، فقد كانت الطبول تقرع يومياً أمام بيت الشريف عدة مرات. وعند تغيير الحاكم فإن الفرق الموسيقية تذهب مع الجنود إلى السيد الجديد. وحينما يقوم الشريف بغزوة ناجحة، يرسل البشير إلى مكة ليعلمهم بالخبر. وكان هذا البشير يخبر أعيان الأشراف الواحد تلو الأخر، وكان هؤلاء يهدونه الهدايا والخلع، ويقومون برفع الأعلام على بيوتهم احتفاء بهذا النصر[4].

طريقة حياة الأشراف

إن طريقة حياة الأشراف كانت أبسط من حياة الأمراء العرب الكبار. وحتى في أيامنا هذه (١٨٨٥م) فإن موظف الدولة التركي، ينظر باستغراب وتعجب، كيف يقترب أحقر البدو وأدناهم إلى الشريف الكبير، ويتلمس ركبته ويده وربما ذقنه، ويحدثه بتفاصيل كثيرة، عن أوجه النزاع غير المهمة، وأحياناً يخالفه ويقاطعه في الحديث. إن التركي ينسى في أثناء ذلك بأن هذه العلاقة الوثيقة، هي التي تزيد من نفوذ الأشراف، وتساهم في تدعيم وجودهم، وأنهم عنصر لا يمكن الاستغناء عنه.

يتميز الأشراف عن المواطنين العاديين في اللباس والتسلح منذ القدم، وهم يلبسون ثياباً خارجية ذات أكمام واسعة[5]، وفي أثناء الاحتفال

---

(١) يسميهم أحمد دحلان بالعساكر اليمنية وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «الجبالية» (المؤلف).

(٢) ذكر أحمد دحلان أن جيش غالب حوالي عام ١٧٩٠م يتكون من ٤٠٠ من اليمنيين، ٤٠٠ من بدو اليوافع، و٤٠٠ من الحضرميين، و٤٠٠ من المغاربة، و٤٠٠ من الأفغان (المؤلف).

(٣) يصفهم أحمد دحلان بأنهم «خدمة كل متول» (المؤلف).

(٤) (أحمد دحلان، ص٥٩).

(٥) جاء في كتاب الإعلام للقطبي: «أن الخليفة المستعين كان متجملاً في ملبسه، وهو أول من أحدث الأكمام العراض، فجعل عرض الكم ثلاثة أشبار، وهو الآن من شعار ساداتنا أشراف مكة بني حسن أعزهم الله». (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص١٣٢) (المحقق).

بالمناسبات الرسمية كان الشريف ومساعده يرتديان حلة الشرف، التي كانت تخلع عليهما من قبل السلطان. وحتى في هذه الأيام فإن إهداء ثوب خارجي هو تكريم للمهدى إليه.

ومن المعروف أن هذه الهبات هي رمز لرضا السلطة. وتحدث في الغالب في أثناء تعيين أو تثبيت الموظفين المرموقين. وقد اعتاد الأشراف على ذلك منذ زمن طويل، حيث ترسل لهم ثياب الإجلال مع قوافل الحج. وكان المصريون يرسلون سنوياً بصحبة المحمل المرسوم (العهد) بالولاية، ومعه ثوب الشرف (الخلعة). وإذا حدث تغير في الحكم، قبل موسم الحج أو بعده، فإن بعثة خاصة كانت تقوم بإحضار مرسوم التعيين، واللباس الأميري للحاكم الجديد. وفي هذه الحالة وأمثالها تزدان المدينة، وتضاء ليلاً، لمدة ثلاثة أو سبعة أيام. وسواء رضي السكان بالوضع الجديد أم لا، فإن عليهم التعبير عن سرورهم بهذه المناسبة، التي يكون الاحتفال بها بناء على أوامر عليا[(١)].

في الأيام الأولى لصدور مراسيم التعيين، يرتدي الشريف الخلعة السنية، ويركب مع وجهاء مكة إلى المسجد الحرام، حيث تقرأ مراسيم التعيين بالقرب من الكعبة. ويقوم الشريف بدوره بتوزيع ثياب الاجلال على الأفراد ذوي المقام العالي من الحاضرين. وفي النهاية يطوف حول الكعبة، حيث ينتظره على بابها المفتوح سادن الكعبة من آل الشيبي، بينما يقوم الريس فوق بناية زمزم بالدعاء لنجاح الشريف[(٢)]. وعادة ما تحدث مثل هذه المراسيم حين عودة الشريف من رحلة خارجية طويلة. وهنا يتوجب على الأمير أن يبقى خارج المدينة ليقوم بأداء العمرة في أثناء الليل، وفي صباح اليوم التالي، يدخل إلى المدينة بالملابس الرسمية.

وهناك بجانب اللباس الخارجي العمامة، التي تحدد في الغالب الشخصية الرمزية لصاحب النفوذ. وقد مر بنا كيف أن الشريف أرسل عمامته مع أحد مساعديه، كإشارة إلى إصدار أوامره بعدم التعرض لقافلة الحج العراقي.

---

(١) أحمد دحلان، ص٥٦.

(٢) أحمد دحلان ص٦١.

وكيف أن الشريف في عام ١٢٥٦م (٦٥٣هـ) قد قام بالاعتذار عن خشونة معاملته لأمير الحج، عن طريق وضع عمامته في عنقه[١]، فما كان من أمير الحج إلا أن قبل عذره وخلع عليه وزاده على ما جرت به العادة من الرسم.

تنافس ثلاثة من أبناء الشريف حسن في أثناء حياته، على ثوب الإجلال الثاني، إضافة إلى المخصصات المالية التابعة له، وفوق ذلك التطلع إلى تسلم الحكم. وحسب رغبات الشريف حسن، فقد اعترف السلطان بابنه بركات، بصفته حاكماً مساعداً لأبيه. وقد بقي بركات في منصبه هذا عشرين عاماً. وبعد وفاة والده في مصر استدعاه السلطان عام ١٤٢٦م (٨٢٩هـ)، حيث حصل على إمرة مكة. وقد استطاع أن يثبت نفسه ضد مؤامرات إخوانه. وقد استمرت ولايته حتى نهاية حياته في عام ١٤٥٥م (٨٥٩هـ)، تخللها فترات من الانقطاع، فاز بإمارة مكة خلالها بعض إخوانه[٢].

الشريف بركات

لقد تعامل الشريف بركات، مع السادة في مصر بحذر شديد، كحذر الأفعى. وقد حذا في هذا الشأن حذو والده، ومع هذا الحذر واللين الذي كان يبديه الشريف تجاه سلاطين المماليك، لم يستطع أن يمنع في عام ١٤٣٨م (٨٤٢هـ) أحد سلاطين الشراكسة من وضع الأساس لتشريع جديد، أصبح شوكة في أعين الأشراف فيما بعد. فقد أرسلت إلى مكة حامية مكونة من خمسين خيالاً تركياً، تحت قيادة أمير يحمل لقب ناظر الحرمين الشريفين. وكانت مهمتها كما يدل الاسم الإشراف على شؤون الحرم[٣]. ولعله من المناسب أن نذكر أن هذا المنصب الذي أسند إلى الأمير سودون، يشبه إلى حد بعيد الوظيفة التي كان يشغلها الأوروبيون المقيمون باعتبارهم وسطاء في البلاط الهندي. وفي السنوات التالية تقلد هذا المنصب

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٦٩.

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٣٢و٣٤١، وانظر أيضاً شجرة النسب الثانية ٣٥ ـ ٣٨.

(٣) التفت الظاهر جقمق ـ اول ما ولي السلطنة ـ إلى مكة المشرفة، وأرسل خلعا ومراسيم للسيد بركات بن حسن بن عجلان لولاية مكة، وأرسل إليه سودون المحمدي، ليكون أميراً على خمسين فارساً من الترك، مقيماً بمكة، وولاه نظر الحرمين الشريفين. (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢١٦).

عدد من الموظفين الأتراك. وكان هذا المنصب مرتبطاً تارة بإمارة الأتراك في مكة، وتارة أخرى مع رئيس تركي آخر. ومن الجدير بالذكر أنه قبل هذا التاريخ أرسلت قوات عسكرية إلى مكة لأهداف خاصة[1]. وكان قائد هذه القوات يتصرف باستقلالية تامة عن شريف مكة. ومن جانب آخر أدى تقسيم المكوس في جدة إلى تدخل أجنبي مباشر، بحيث أصبح الممثل الدائم في جدة يتمتع بصلاحيات واسعة. ودليلنا على ذلك أن الشريف بركات طلب عام ١٤٥٥م (٨٥٩هـ) وقبل وفاته بقليل، توسط والي جدة لدى السلطنة بمصر، لاختيار ولده محمد خليفة له بعد موته. ويبدو أن سلاطين مصر أصبحوا يدركون أن إمارة الأشراف في مكة هي عقبة لا يستطيعون إزالتها، ولذلك فهم يسعون جاهدين للتقليل من أهميتها. ولقد أدت العواصف التي لحقت بالحياة السياسية في الدولة الإسلامية إلى التأخير في تطوير هذه الإمارة لتقوم بواجبها خير قيام.

خطر القبائل على طريق الحج

كان البدو من حرب يقطنون بين المدينة ومكة. ومنذ عام ١٤١٣ (٨١٦هـ)[2] ـ حينما طردوا من قبل بني لام من مناطقهم الشمالية نحو الجنوب ـ أصبح هؤلاء يشكلون مصدر خطر كبير على الحجاج. وقد أرسل بركات تحذيراً إلى أمراء مصر، يوجه اهتمامهم فيه، نحو معالجة سلب هؤلاء الأعراب لحجاج بيت الله الحرام. وفي ضوء عدم الإدارة الحازمة

---

(١) ذكر الفاسي أنه في جمادى الآخرة أو رجب سنة ٧٦٠هـ أسقط المكس المأخوذ في المأكولات بمكة من الحب والتمر والغنم والسمن وغير ذلك، وارتفع من مكة الجور والظلم، وانتشر العدل والأمان، وذلك بسبب أن الملك الناصر حسن، صاحب مصر، جهز إلى مكة عسكراً لإصلاح أمرها وللإقامة بها، مع ولاة إمرة مكة، وهما الشريفان محمد بن عطيفة بن أبي نمي وسند بن رميثة بن أبي نمي، ودام هذا مدة مقام هذا العسكر بمكة، وذلك آخر سنة ٧٦١هـ (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٨٤).

(٢) ذكر صاحب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام في حوادث سنة ٨٣٩ في ليلة الثالث عشر من رجب بعث السيد بركات بعثاً لمحاربة بشر من بطون حرب، وإحدى قبائل مذحج، ومنازلهم حول عسفان نزلوها من سنة ٨١٦هـ، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة المنورة، فكثر عبثهم وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة (انظر عبد العزيز بن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٢ ص٤١٠)، وانظر منائح الكرم حوادث عام ٨٣٩هـ.

للسلطات المصرية والتركية استفحل خطر هذه القبائل، التي تعيش على السلب والنهب، وممارسة هذه الأعمال حتى يومنا هذا (١٨٨٥م ـ ١٣٠٣هـ)[١].

بركات يرفض تقبيل خف جمل المحمل

لقد كان من التقاليد المتبعة، التي ساعد على وجودها شراء الأشراف لرضا السادة الحماة، أن يقوم هؤلاء بتجديد البيعة سنوياً، عن طريق تقبيل خف حمل المحمل الأميري، وقد كان ذلك صعباً على الشريف بركات ذي الأدب الرفيع، والذي كان من بين أصدقائه العالم الشافعي المشهور أحمد بن حجر. وقد سعى بركات لاستصدار مرسوم يتضمن إلغاء هذه العادة السيئة[٢]. وقد تبعه ابنه محمد (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٣٩) في ذلك. وكان محمد هذا من أسعد الأشراف حظاً، حيث إنه حكم خلال الفترة مابين ١٤٥٥ ـ ١٤٩٧م (٨٥٩ ـ ٩٠٣هـ) دون أن يعارضه أحد من إخوانه أو أبناء عمومته. فقد سارت الإمارة خلال هذه الفترة بخط مستقيم (أي من الأب إلى الابن). ولم تواجه هذا الشريف صعوبات ذات أهمية مع السلطنة بمصر. ولقد كان رجلاً نشيطاً، قام بنفسه بحملة ضد قبائل زبيد[٣] في مناطق السواحل الغربية، أخضعهم فيها لطاعته وسلطانه. وقد أخذ بنصيحة سلفه الشريف قتادة عندما دعاه السلطان عام ١٤٧٢م (٨٧٧هـ) إلى زيارته في مصر. فقد أرسل عوضاً عنه ابنه بركات وقاضي مكة. وقد استقبلا بحفاوة كبيرة في أثناء تلك الزيارة.

الشريف محمد

لقد عزز عمره الطويل مركزه، ومركز أحفاده من بعده، حيث لم يستطع أي فرع جانبي من العائلة أن ينافس أبناء بركات السيادة. ولقد توافقت أيامه في

---

(١) من ملحوظة للأصطخري ص٢٢، وكذلك في المقامة الثانية والثلاثين للحريري والتي ألمح لي عنها البروفسور نولدكه يتضح أنه في القرن الرابع والقرن الخامس الهجريين كانت قبائل حرب تتواجد بين مكة والمدينة. وعلى كل حال فإن انعدام الأمن منذ عام ١٤١٣م يرجع سببه إلى انتقال بدو حرب الشماليين نحو الجنوب (المؤلف).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ٨٤٣هـ.

(٣) قبائل زبيد كانت تقيم بين خليص ورابغ (انظر منائح الكرم بأخبار مكة والحرم ص١٥٠) (المؤلف). وذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في سنة٨٧٣م غزا مولانا الشريف محمد ابن بركات قبيلة زبيد بين خليص ورابغ وقتل شيخهم روميا وأخاه مالكاً ونحو سبعين رجلاً، وغنم نحو ثلاثين ألفاً من المواشي (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٦٥) (المحقق).

مآثر السلطان قايتباي في مكة والمدينة

حكم مكة مع أيام حكومة السلطان الشركسي قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م) (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ) في مصر. ولقد كان لموهبة قايتباي في الحكم أثر بارز في الأقطار التي كانت تدين له بالولاء. ومن الطبيعي أن يقوم السلطان قايتباي بإلغاء الضرائب غير المباشرة[١]. التي كانت تستوفى في مكة. غير أنه خلّد ذكره في مكة من خلال العديد من الأبنية والمنشآت التي أقامها في المدينة المقدسة. وفي عام ١٤٨٠م (٨٨٤هـ) قدم بنفسه إلى الحج، وكانت فرصة ليرى فيها الأبنية الجليلة التي بنيت بأمره في مدينة الإسلام الأولى. فقد أمر ببناء منارة (مئذنة) ذات طراز خاص، ومدرسة ملاصقة للمسجد الحرام من جهة باب السلام، ومسجد في وادي منى. ولاتزال هذه الأبنية تعرف باسم مؤسسها قايتباي إلى الآن (١٨٨٥م)[٢].

لقد اتسمت زيارة السلطان قايتباي إلى مكة بأهمية كبيرة، بحيث اعتبرت ظاهرة العصر في حياة المكيين. فكل كلمة وكل خطوة من خطوات السلطان قد دونت في السجلات التاريخية لمكة. ولم يغفل المؤرخون المكيون ذكر سقوط عمامة السلطان عن رأسه حين دخوله المسجد الحرام، في إشارة ضمنية، إلى أنه لم يدخل إلى مكة بملابس الإحرام. ولم يقم أحد من العلماء بتوجيه انتباهه إلى ذلك[٣].

---

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في سنة ٨٧٢هـ تولى سلطنة مصر الملك الأشرف قايتباي، وأرسل مراسيم تقتضي رفع المكوس بمكة. وأمر أن ينقر ذلك على أسطوانة بالمسجد الحرام بباب السلام (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٦٤).

(٢) يعد السلطان قايتباي من أكثر سلاطين المماليك اهتماماً بشؤون الحرمين الشريفين، وليس أدل على ذلك من الإصلاحات والترميمات العديدة التي أجريت في المسجد الحرام خلال عهده. فضلاً عن إعادة بناء مسجد الخيف بمنى، ومسجد نمرة بعرفات. وتشييده مدرسة إلى جوار المسجد الحرام في سنة ٨٨٢هـ، (١٤٧٧ ـ ١٤٧٨م) وإصلاحه عين عرفة في عام ٨٧٥هـ و (١٤٧٠م) (انظر ابن فهد، إتحاف الورى حوادث السنين ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٩، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٥هـ).

(٣) ذكر السنجاري في حوادث سنة ٨٨٤هـ أن السلطان قايتباي دخل مكة ليلاً. وكان قاضي مكة هو الملقن له بالأدعية، إلى أن دخل من باب السلام. فدخل بحصانه فعثر، فطاحت عمامته، فتقدم رمضان المهتار فناوله إياها، وكان ذلك تأديباً من الله سبحانه وتعالى، له حيث لم يدخل مكة محرماً (منائح الكرم حوادث سنة ٨٨٤هـ).

الشريف بركات الثاني

بعد وفاة محمد بن بركات تولى ابنه الشريف بركات الثاني (١٤٩٧ ـ ١٥٢٥م) (٩٠٣ ـ ٩٣١هـ) (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤٢) الذي تمتع بالجدارة والكفاءة نفسها التي تمتع بها والده، في تنفيذ السياسة التي وضعها جده حسن بن عجلان. ولقد كان لإقامته في مصر أيام شبابه، ثم اشتغاله مع والده في تصريف شؤون الحكم، يضاف إلى ذلك شجاعته المشهورة، أكبر الأثر في تطوير قدرته الإدارية. غير أنه كان ينقصه الدعم من سلاطين مصر. هذا الدعم الذي يكسبه الاحترام والتأييد. ذلك أنه منذ موت السلطان قايتباي، تولى زمام السلطة في مصر حكومة مكونة من عدد من الأشخاص، الأمر الذي مهد الطريق لوقوع العديد من المؤامرات والدسائس. فقد ثار عليه اثنان من إخوانه (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤٠، ٤١) الأمر الذي لم يسمح له بالراحة والاطمئنان خلال السنين الأولى من حكمه[1]. لقد وقف الأتراك، وكل الجاليات الأجنبية في مكة إلى جانبه وأيدته ضد منافسيه. أما وجهاء مكة بما فيهم قاضي القضاة[2] فقد ساعدوا منافسيه ضده. وقد حشد هؤلاء لمساعدة قبائل زبيد، وكذلك السادة الحسينيين في ينبع، ضد الشريف بركات. وقد أغروا أحد القادة القادمين من مصر، فقام باعتقال الشريف بركات وإرساله أسيراً إلى مصر. غير أنه تمكن من الهرب من معتقله، وعاد ليستعين ببدو عتيبة وبني لام الذين دخل بهم مكة فاتحاً. وقد عانى سكان مكة ومجاوروها من أضرار السلب والنهب التي قام بها هؤلاء. لقد نجح الشريف بركات عن طريق الهدايا[3]،

(١) هؤلاء هم الشريف هزاع بن محمد بن بركات، والشريف أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني.

(٢) هو القاضي أبو السعود بن ظهيرة. وقد قبض عليه الشريف بركات فيما بعد وأخذ أمواله وقتله تغريقاً في البحر عند القنفذة. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٦٨ ـ ٦٩).

(٣) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام في سنة ٩١٥هـ بعث مولانا الشريف إلى السلطان بهدية من جملتها عشرون عبداً حبشياً، وعشرون ألف دينار ذهباً، وعشرون فرسا. وأرسل [السلطان] إلى مولانا الشريف بخلعة وهدية سنية وخاطبه بخطاب بليغ، وفوض إليه جميع أمور الأقطار الحجازية حتى ينبع وغيرها، وحصل بمكة فرح عظيم (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٢).

ثم عن طريق القوة، في تحريك السلطات القائمة في مصر نحو الاعتراف بسلطانه على المدينة المقدسة. وقد تفرغ بعد ذلك لقتال قبائل زبيد التي كانت موالية لأخويه، وألحق بها هزائم كبيرة ودانت له بالطاعة. وقد عهد الشريف بركات لأحد إخوانه وأحد أبنائه في مساعدته في تصريف شؤون الحكم (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤٣، ٤٥). غير أن هذين قد توفيا قبل موته، الأمر الذي ساعد على انتقال المنصب الرفيع إلى ابنه الصغير المحبوب محمد أبي نمي (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤٦).

لقد دعا آخر سلاطين الشركس شريف مكة الكبير إلى زيارته في عام ١٥١٢م (٩١٨هـ). وكالعادة قام الشريف بركات بإرسال ابنه، وولي عهده أبي نمي، الذي كان عمره لا يزيد آنذاك على ثماني سنوات. وقد سر السلطان بزيارة الطفل. وزاد سروره بالانطباع الحسن الذي أخذه السلطان عنه حينما قال كلمة عفوية، بدت للسلطان وكأنها نبوءة بالانتصار على الخصوم الجدد من العثمانيين[١].

وفي السنوات الهادئة من حكم المدينة المقدسة، كان الشريف بركات يتبادل الرسائل الشفوية المنمقة مع السلطان الشركسي في مصر[٢]. وهذه

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام أنه في شهر ربيع الأول سنة ٩١٨هـ أرسل السلطان الغوري يطلب من الشريف بركات أن يحضر عنده. فأرسل يعتذر إليه، وأرسل أبو نمي ابنه إلى مصر، ومعه القضاة والقواد. وتوجهوا إلى مصر. فلما دخلوا قابلهم السلطان الغوري بالإعزاز والإكرام، وأجلس السيد أبا نمي على حجره وقبل يده. وفرح به غاية الفرح، وكان السلطان الغوري يتجهز للخروج إلى قتال، فسأل السيد أبا نمي: ماسورتك ـ فقال (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فاستبشر الغوري بذلك ثم جعله شريكاً لوالده في أمر جدة ومكة وينبع وسائر الأقطار الحجازية. وكتب له توقيعاً شريفاً بذلك، وأعاده إلى والده. (انظر أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٢ ومنائح الكرم حوادث سنة ٩١٨هـ).

(٢) أرسل الشريف بركات بقصيدة يمدح فيها الأشرف قانصوه الغوري عدد أبياتها ٨٧ بيتاً ومطلعها:

لي في زماني ما يعطي وما يدع ... وقد شكرت فلا بأس ولا طمع

وقد رد الأشرف قانصوه الغوري بقصيدة على نفس الوزن والقافية، وعدد أبياتها ٤٤ بيتاً ومطلعها:

الرسائل هي رسائل مدح تنم عن الوفاء والإخلاص الذي لا يخلو من المداهنة من الطرفين.

البرتغاليون والعثمانيون

في هذه الأيام كانت هجمات البرتغاليين على بلاد الهند قد اشتد أوارها، وامتدت إلى البحر الأحمر. وأصبحت تشكل هاجساً مقلقاً لدولة المماليك في مصر. فأرسل السلطان المملوكي إلى جدة أميراً شديد الوطأة[1] مع عدد من السفن تجوب شواطئ البحرالأحمر. وتقدم الوالي فقضى قضاء مبرماً على أمراء اليمن آنذاك. كما قام خلال عام ١٥١١م (٩١٦هـ) ببناء سور حول مدينة جدة لحمايتها من البرتغاليين[2]. ويقال إنه فعل ذلك، لأن الميناء كان يعاني من غزوات البدو. وربما أراد بالوقت نفسه أن يقاوم المتسللين الأوربيين إلى موانئ البحر الأحمر[3].

بناء سور جدة

الحمد لله فينا الحكم مجتمع   وليس فينا لمخلوق يرى طمع

ويقال إن قصيدة قانصوة الغوري كانت من نظم قاضي القضاة بالديار المصرية سري الدين عبد البر بن الشحنة الحنفي (انظر عبدالعزيز بن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٣ ص٢٦٢ ـ ٢٨٠).

(١) هذا الأمير هو حسين الكردي، وكان أول حاكم خاص أو والي لجدة، عينه الحماة في مصر (المؤلف) (انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ص٢٤٤).

(٢) كان هناك سور أقدم مقام حول جدة ذكره ناصر خسرو قبل هذا التاريخ في أثناء رحلته المدونة باسم سفرنامه (انظر سفرنامه رحلة ناصر خسرو القبادياني ترجمة أحمد خالد البدلي وتقديمه ص١٣٥).

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة: ومن آثاره [السلطان الغوري] بناء سور جدة، فإنها كانت غير مسورة، وكانت العربان في أيام الفتنة، تهجم على جدة وتنهبها. ونهبت جدة مراراً في الفتن التي وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة الشريف محمد بن بركات. وجرت أحوال يطول تفسيرها، فأرسل السلطان الغوري أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهز معه عسكراً من الترك والمغاربة في نحو خمسين غراباً (قوارب خاصة) لدفع ضرر الفرتقال (البرتغال) في بحر الهند، وكان بداية ظهورهم. وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك في جدة، وجعلها له إقطاعاً. فلما أتى جدة سورها وبنى أبراجها وأحكمها. وهدم كثيراً من بيوت الناس، مما يقارب موضع السور لوضع الأساس. وأخذ حجارتها، وبنى السور في شدة وبأس. واستخدم عامة الناس في حمل الحجر والطين، حتى التجار المغتربين، وساير المتسببين، وضيق على البنائين، بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه.. إلى غير ذلك من الظلم الشديد، والجور العنيد، وبنى السور جميعه في دون عام، من شدته وغشمه وإقدامه وظلمه (أخبار مكة المشرفة ج٣ص٢٤٤ ـ ٢٤٦، وانظر أيضاً السباعي ص٣١٦).

فتح مصر من قبل العثمانيين

لقد كان على المماليك أن يواجهوا خطر الأتراك القادم من الشمال، أكثر مما فعلوا لمواجهة الأخطار القادمة من الجنوب. فقد استولى الأتراك على مصر في عام ١٥١٦م (٩٢٢هـ) على يد السلطان سليم العثماني. وكان السلطان الجديد قد أعد جيشاً لاحتلال مكة. غير أن أحد قضاة مكة الذي كان سجيناً في مصر(١)، وتم إطلاق سراحه بعد دخول سليم الأول إلى القاهرة، قد أقنع السلطان، أنه لا حاجة لإرسال قوات لإخضاع الحجاز؛ لأنه يعتقد أن أميرها لا يعارض في تحسين علاقته بالعثمانيين. وأنه سيقوم بالبيعة للنظام الجديد.

وهكذا كانت يد الصبي، التي بايعت السلطان المملوكي قبل أربع سنوات، هي التي بايعت في المكان نفسه باسم شريف مكة سلاطين العثمان. وقد حمى الشريف الكبير الشاعر نفسه من جيش العثمانيين عن طريق تحويل قصائد المديح إلى عنوان السيد الجديد فاتح مصر العثماني.

كان العثمانيون يظهرون دائماً في أثناء فتوحاتهم أنهم يدافعون عن الإسلام ضد الكفر، وضد الانشقاق عن العقيدة. وكان العلماء والعامة ينظرون إلى شجاعة الجنود العثمانيين على أنها جهاد في سبيل الله(٢). وقد برز العثمانيون بصفتهم خصوماً ألداء، ضد العائلة الفارسية التي برزت آنذاك(٣)،

---

(١) جاء في أمراء البلد الحرام: كان بالديار المصرية القاضي صلاح الدين [محمد] ابن أبي السعود ابن ظهيرة معتقلاً، بها صادره الغوري يطلب منه عشرة آلاف دينار فعجز، فأمر بحمله إلى مصر واعتقله، فأطلقه السلطان سليم، لما دخل مصر، فلما بلغ القاضي تجهيز الجيش اجتمع لوزير مولانا السلطان سليم وعرفه عظمة صاحب مكة ومنزلته من الشرف، وأنه من خدم مولانا السلطان، وأن الرأي إرسال مكتوب إليه، ولا تبدو منه مخالفة أبداً، ولا يحتاج إلى تجهيز جيش. فاستقر الحال على إرسال توقيع شريف لمولانا الشريف بركات، وإبقاء الشريف أبي نمي على شركة أبيه نظير توقيع السلطان الغوري، وكتب القاضي صلاح الدين لمولانا الشريف يعرفه بما وقع، ويسأل إرسال ابنه الشريف محمد أبي نمي إلى الحضرة السلطانية تتشرف باللقاء، ويكون دليلاً على الرضا والقبول، فقبل الشريف ذلك، فلما وصل إليه الأمر السلطاني أرسل ابنه أبا نمي. (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٣).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٥٩.

(٣) جاء في أخبار مكة المشرفة (ج٣ ص٢٧٧) وفي معرض وصف غزوات السلطان سليم للدولة =

والتي تحمل فكراً شيعياً. ولقد كان من أسباب احتلال مصر، العلاقة السرية بين المماليك الشراكسة في مصر، والدولة الشيعية المنشقة، بحيث يمكن القول إن فتح مصر كان له مظهر ديني. ذلك المظهر الذي كان العثمانيون حريصين على إبرازه.

ولقد كان من الممكن أن يصور العثمانيون أشراف مكة بأنهم طغاة كبار، وأن لديهم ميولاً شيعية، كتلك التي استخدموها ضد سلطان المماليك، بالرغم من أن هؤلاء الأشراف الآن هم على المذهب الشافعي. إلا أن خضوع الحجاز بدون استعمال القوة جعل العثمانيين ـ لدوافع سياسية ـ يظهرون شيئاً من الليونة، وعدم الصرامة في الإدارة. وعدم إظهار فتح الحجاز على أنه عمل جهادي يميز الفتوحات العثمانية.

الشريف أبو نمي بن بركات

لقد تغيرت بعض الظروف في الحجاز نتيجة تغيير السيادة الجديدة. لقد هدأت المنازعات الداخلية بين صفوف الأشراف أنفسهم. وكانت حالة الهدوء، هنا شبيهة بفترة الهدوء، التي سادت في عهد السلطان قايتباي. فقد تولى أبو نمي السلطة الفعلية بعد وفاة والده عام ١٥٢٥م (٩٣١هـ)، واستمر في حكمه بدون عقبات تذكر حتى عام ١٥٦٦م (٩٧٤هـ)، حيث ترك لابنه وولي عهده الشريف حسن، تصريف شؤون الإمارة كافة (انظر شجرة النسب الثانية رقم ٤٦). وقد حكم هذا الأخير حتى عام ١٦٠١م (١٠١٠هـ) دون أن يثور عليه أو ينازعه أحد من أقاربه أو أبناء عمومته. هذا القرن من الهدنة في الديار المقدسة، لم يكن يعزى إلى العمل التنظيمي للعثمانيين، بل يعود إلى الأثر الترهيبي للأسلحة العثمانية المنتصرة في كل مكان. فصائل الجيش التي مرت عبر مكة في طريقها إلى اليمن، وحولت المسجد

= الصفوية في فارس، أن قوافل الميرة والعليق والمؤن التي أعدها السلطان؛ لأن تتبعه في غزوه لفارس، قد تخلفت عنه: فسأل عن السبب فقيل له إن سبب ذلك أن سلطان مصر قانصوه الغوري. فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات، بحيث إن السلطان قانصوه الغوري يتهم بالرفض في عقيدته بسبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم خان أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنه، صمم على قتل السلطان الغوري أولاً، وبعد الاستيلاء عليه وعلى بلاده يتوجه إلى قتال شاه إسماعيل ثانيا.

الحرام غير مبالية إلى ثكنة عسكرية، ثم التقارير التي تصف قسوة المعاناة وشدتها التي ألحقها الجيش الفاتح بأتباع الأئمة الزيدية في اليمن، حققت أثراً ترهيبياً استمر طويلاً. ولقد كان للسياسة الحكيمة التي اتبعها شريف مكة آنذاك أكبر الأثر في حمايته وحماية المدينة المقدسة من هذه الهجمات.

لقد سمح العثمانيون لأبي نمي، ومن بعده ابنه حسن أن يكونا واليين تابعين للسلطان، ضمن الحدود المرسومة، وعليهما أن يثبتا جدارتهما في السيادة والسلطة.

وقد امتدت سيادتهم من خيبر وينبع والمدينة حتى حلي والأراضي المرتفعة داخل الجزيرة العربية. وقد اعتبر أبو نمي متجاوزاً لحدود دولته عندما أخذ عام ١٥٤٧م (٩٤٤هـ) ميناء جيزان الجنوبي، دون أن يأخذ إذناً بذلك. لذلك رفض الوالي في اليمن الموظفين التابعين للشريف وأبلغه أن سيادته تنتهي عند حلي فقط[١].

لقد استحسن السلطان العثماني العمل الذي قام به الشريف أبو نمي عام ١٥٤١م (٩٤٨هـ) بتتبع السفن البرتغالية التي وصلت إلى ميناء جدة[٢].

---

(١) ذكر صاحب كتاب أمراء البلد الحرام أنه في سنة ٩٤٤هـ، توجه الشريف أبو نمي لأخذ جازان، وصاحبها إذ ذاك عامر بن عزير، فأخذها الشريف، وفر صاحبها، فأقام بها الشريف قائداً من جهته يضبطها، ورجع ظافراً منصوراً، واستمرت تحت حكمه إلى سنة ٩٤٥هـ، فلما مر بها سليمان باشا راجعاً من اليمن. أخرج منها قائد الشريف، وأقام بها نائباً من جهته، وأضافها إلى ما افتتحه من اليمن (أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص٧٥ ـ ٧٦).

(٢) ذكر السباعي في تاريخ مكة (ص٣٤٧). وكذلك أحمد دحلان في كتاب أمراء البلد الحرام (ص٧٦)، أنه في عام ٩٤٨هـ كانت هجمات البرتغال على شواطئ العرب التي ذكرناها في عهد الشراكسة لا تزال تستأنف شدتها. وقد استطاعوا أن يتصلوا بجدة التي سوّرها حسين الكردي في عهد الشراكسة. وأن ينزلوا في مرسى كان معروفاً بأبي الدوائر بالقرب من جدة، وكانوا في ٨٥ مركباً مشحوناً بالرجال والسلاح، فتحمس أبو نمي للقائهم، ونادى مناديه في أسواق مكة، وبين القبائل بالجهاد العام. فتطوع الأهلون، كما تطوعت البادية، فأعطاهم من السلاح ما يكفيهم، وخرجوا بجيش جرار إلى جدة، حيث قابلوا العدو المغير، وصدوه بقوة السلاح عن مينائهم، وكان أبو نمي في الصفوف الأولى للمدافعين. وقد رئي لابساً درعه شاكي السلاح يتقدم المجاهدين.

وقد أنعم عليه بنصف عائدات الميناء. وكان سلف أبي نمي قد حصلوا من السلطات المصرية على نصف هذه العائدات في السابق. وحينما أصبح هذا المصدر لا يدر دخلاً كبيراً منذ عام ١٦٠٣م (١٠١٢هـ) قام السلطان بتعويضه عن طريق عائدات تنقل من الأراضي السلطانية.

وقعت محاولة جادة لقتل الشريف أبي نمي، ولكن أكانت هذه المحاولة نتيجة مهمة سرية، - أم نتيجة غضب شخصي[١] من الباشا الذي قاد قافلة الحج في عام ١٥٥١م (٩٥٨هـ)؟

الافتراض الأول له ما يبرره، ذلك لأن السلطان قد أرسل بعثة لتقصي الحقائق وتهدئة الأمور، وقامت بلوم الباشا على فعلته. لكنه بالرغم من كل تلك المخالفات عين حاكماً على اليمن، بعد فترة وجيزة من محاولة القتل هذه، مما يلقي ظلالاً من الشك على الحادثة، ويدعم الرأي القائل بأن محاولة التخلص من الشريف قد أسند تنفيذها إلى أمير الحج.

إن أمير جدة التركي والموظفين الأتراك المرسلين إلى مكة للقيام بمهمات خاصة بالإضافة إلى أمراء الحج، هم أشخاص غير مرغوب فيهم، ويمثلون ظواهر غير محببة للنفس العربية. ولقد زادت العلاقة غير الحميمة سوءًا أيام الأتراك أكثر من غيرهم من السلاطين السابقين. فالأتراك والعرب يختلف كل واحد منهم عن الآخر اختلافاً واضحاً، ولا يتفهم الواحد منهم طبائع الآخر. زد على ذلك أن الأمراء لم يحاولوا إظهار الجانب اللطيف

---

(١) ذكر الدحلان صاحب كتاب أمراء البلد الحرام (ص٧٧) والسباعي صاحب كتاب تاريخ مكة (ص٣٤٧) أن تركياً من ولاة اليمن اسمه محمود باشا أوفد من قبل الخليفة إلى أبي نمي يحمل بعض الهدايا. فلما قابله لم يخرج ممنوناً من نوع المقابلة. فأسر ذلك في نفسه حتى ولاه الأتراك إمارة الحج عام ٩٥٨هـ، فاغتنم الفرصة، وتحرش بعسكر أبي نمي، ونادى بسقوطه في أيام الموسم، فصارت الفتنة بين قواته وعسكر أبي نمي في أيام منى، واغتنم غوغاء البادية الفرصة فأوقعوا في الحجاج، وبات الناس في أمر مريج، وتعطل الكثير من أداء مناسكهم. وقد أدرك أبو نمي سوء العاقبة، إذا ترك الغوغاء يوقعون بالحجاج. فركب بنفسه لملاقاتهم. وقد أثخن فيهم الجراح، كما هزم عسكر محمود باشا، فانطلقوا مبعدين عن مكة. ولما عاد محمود باشا إلى تركيا، كتب الخليفة يعتذر عما حدث، ويخبر أبا نمي أن محمود باشا لقي عقابه لديه.

لديهم، الأمر الذي كان يزيد من حدة الموقف في بعض الأحيان بين الجانبين العربي والتركي.

تعدد المحامل إلى مكة

لقد أصبح المحمل العثماني رمزاً لسيادة العثمانيين على المدينة المقدسة. فمنذ عام ١٥١٧م (٩٢١هـ) أضافوا إلى المحملين التقليديين القادمين من سوريا ومصر، محملاً ثالثاً جديداً، كان يفد من عاصمتهم الأوربية. لكن هذا التقليد الجديد ألغي بعد فترة وجيزة. وقد طلب بالمقابل والي اليمن عام ١٥٥٦م (٩٦٣هـ)[١] بأن تسمح له الدولة العلية بتجهيز محمل ثالث، على غرار المحمل السوري والمصري. ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ)[٢] بدأ الأشراف بالاحتفال سنوياً بالرمز الثالث للقوة التركية. ولو أنه يتميز بأنه أكثر تواضعاً من نظيريه الأخرين. إن مثل هذا الطلب لأحد حكام الولايات العثمانية، يبين مبدأ الأنوية لدى حكام الأقاليم، ويظهر الاستقلال المصيري للأجزاء المنفردة للإمبراطورية العثمانية. وبالرغم من تعدد المحامل المتوجهة إلى مكة، لم تفقد مصر أهميتها بالنسبة إلى الحجاز. والأمر ببساطة يعود إلى أن مكة لم يكن بها أحد ممثلي السلطان. لذا فإن كل طلب أو خبر مهم للشريف، كان يصل للسلطان عن طريق القاهرة. وفي الظروف العادية كانت نصائح والي مصر وتوجيهاته بخصوص القضايا العربية تؤخذ بعين الاعتبار. وكلما فقدت الحكومة المركزية جزءًا من سلطتها مع مرور الزمن، زاد الارتباط القديم بين الحجاز ووادي النيل.

لقد كانت أكثر النتائج المفرحة بالنسبة للمكيين من خلال الأوضاع السياسية الجديدة قيام المؤسسات الخيرية التي بنيت من قبل العثمانيين

---

(١) ذكر أحمد دحلان أنه في سنة ٩٦٣هـ عرض الوزير مصطفى باشا المتولي لليمن، على مولانا السلطان، أن يحدث محملاً يجيء من اليمن. فأذن له، فوصل المحمل، وبرز مولانا الشريف للقائه ولبس الخلعة. ودخل الشريف مكة ومعه المحمل والأمير، وأنزلوا المحمل بالمعلاة، واستمر مجيء هذا المحمل إلى سنة ١٠٤٩هـ، ثم انقطع لما حدث من الفتن (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٧٩).

(٢) يبدو أن هذه السنة ١٦٣٠م ليست السنة التي انتهى فيها قدوم المحمل من اليمن. فاستناداً إلى رواية دحلان السابقة أن المحمل انقطع عام ١٠٤٩هـ، وعلى هذا تكون السنة هي ١٦٣٩م.

الفخورين دائماً بخدمة الأماكن المقدسة. ومن المعروف أن هناك شحنات سنوية من القمح إضافة إلى الكثير من الإعانات المالية النقدية تصل سنوياً من مصر إلى بلاد الحرمين. وقد مر بنا كيف أن السلطان قايتباي قد نظم هذه الجرايات وزادها زيادة ملحوظة. ومن المعلوم أن الأشراف كانوا يحصلون سنوياً على مبالغ نقدية، بعضها يرسل لهم هدية، وبعضها الآخر تعويضاً عن الضرائب الملغاة. وقد كانت هناك أوقاف كثيرة من الأراضي الخصبة يعود ريعها إلى سكان الحرمين، الذين أصبح كل بيت فيهم تصله جراية قمح سنوية[1]، كما أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يحصلون بالإضافة إلى القمح على هدية نقدية سنوية. وهناك أيضاً أوقات في مصر للمؤسسات الخيرية المقامة في مكة تحمل إليها، حتى إن بعض هذه الأوقاف كان يخصص للبدو، الذين يقيمون على طول طرق الحج مخافة أن يتعرضوا لقوافل الحجيج بالسلب والنهب. والمشكلة المزمنة في هذه الأوقاف، أنه بعد فترة وجيزة من الزمن تطورت إدارة الوقف نفسها بحيث لاتسمح بصرف درهم واحد من أجل الهدف الذي أنشئ الوقف من أجله.

إن سلاطين آل عثمان ـ وحتى قبل فتح مصر ـ كانوا يرسلون أعطياتهم وهداياهم لأهل الحرمين بصورة متواصلة[2]. فلما آلت الحجاز إلى

---

(١) جاء في أخبار مكة المشرفة: ووقف (السلطان قايتباي) قرى كثيرة بمصر، تحمل غلاتها إلى جيران رسول الله ﷺ، فيفرق عليهم لكل شخص مايكفيه من الحب بطول السنة، فكان حصة كل نفر سبعة أرادب في العام، سوّى في ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد. وذلك الخير جار إلى الآن. وزاد عليه سلاطيين آل عثمان أكثر مما وقفه السلطان قايتباي لمكة والمدينة (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٢٩). وهناك تفاصيل كثيرة عن الصدقات التي كان يرسلها آل عثمان إلى الحرمين الشريفين (لمزيد من التفاصيل انظر أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٨٤ وكذلك ص٣٣١، ص٣٨٨ وص٤١٥).

(٢) جاء في أخبار مكة المشرفة في معرض حديثه عن السلطان مراد خان: «عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا، وللشرفاء السادات من خزينته في كل عام مثل ذلك (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٥٦). كما جاء في أخبار السلطان بايزيد: وكان يحب أهل الحرمين الشريفين، ويحسن إليهم إحساناً كثيراً، ورتب لهم الصرة في كل عام، وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين في كل سنة أربعة عشر =

سلطانهم، قاموا بإصلاح المؤسسات الخيرية القديمة وأضافوا مؤسسات أخرى جديدة. وكان من أهم واجبات أمير الحج هو التقسيم الصحيح للصرة، وكذلك توزيع الصدقات، وجرايات القمح، التي كانت ترد إلى الحرمين من مصر، والتي كانت تشكل المصدر الأول للحياة في المدينتين المقدستين.

لقد ذكرنا طرفاً عن المباني الضخمة التي أمر ببنائها سلاطين إسطنبول في القرن السادس عشر الميلادي في مكة. فعلاوة على بناء المسجد الحرام، والمؤسسات العلمية الأخرى، فقد اعتنى العثمانيون عناية خاصة ببعض الأماكن، مثل قبر خديجة (أم المؤمنين)، والمكان الذي ولد فيه الرسول ﷺ[1]. وقد تركت إعادة بناء المقام الحنفي، ووضع قبة كبيرة عليه، أثراً ليس حميداً في نفوس المكيين، الأمر الذي دعا إلى إزالته بعد سنوات قلائل[2].

سيادة المذهب الحنفي

لقد كان الأتراك يعتنقون المذهب الحنفي. ورغم المساواة الكاملة بين المذاهب، فقد حصل هؤلاء على حقوق الأفضلية لمذهبهم، مع العلم بأن الدوائر العليا في الدولة كانت حريصة جداً، على الأخذ بمبدأ التوازن بين المذاهب. وعلى أيّ حال فقد كان سكان الجزيرة العربية ينظرون إلى تطلع الأتراك لسيادة المذهب الحنفي بعدم ارتياح. ونظراً للطبيعة العالمية للمدينة المقدسة، فقد كان في مكة أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة. ولما كانت نواة الشعب منذ العصر العباسي تدين بالمذهب الشافعي، فإن القاضي الشافعي هو الذي يتقلد المرتبة العليا، وخاصة منذ

= ألف دينار ذهباً، يصرف نصفها على فقراء مكة، ونصفها على فقراء المدينة». (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٢٦١).

(١) منائح الكرم: حوادث سنة ٩٣٥ و ٩٥٠هـ.

(٢) قال السباعي: فكر أمير المحمل الرومي في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة، فهدمه في عام ٩٢٤هـ، وجعله قبة كبيرة شامخة، تقوم على أربع بتر (قوائم)، وزاد في طوله وعرضه. ويبدو أن بعض علماء مكة ساءهم أن تحتل قبة المقام الفخمة، وقوائمه العريضة، جانباً واسعاً في المسجد، فسعوا لهدمه حتى صدر أمر السلطان في عام ٩٤٩هـ بهدم القبة المذكورة، فنفذ الأمر نائب جدة، ومباشر العمائر السلطانية، وأعاد بناءه على أربع قوائم لطيفة (انظر السباعي تاريخ مكة ص٤٧٥).

أن تخلى الأشراف عن اتجاهاتهم الشيعية، وأصبح يعرف باسم قاضي مكة أو قاضي القضاة. ولقد كان تعيين القاضي يتم من خلال السلطات العليا في الدولة، من خلال تنسيب شريف مكة؛ لأن معظم أصحاب هذا المنصب كانوا مولودين في مكة؛ ولذا كان يعتبر هذا المنصب مكياً. وقد استمر هذا المنصب، لمدة ثلاثة قرون، حيث كان يتولى القضاء خلالها قضاة ينتمون إلى عائلة مكية واحدة[١].

ومن أجل مزيد من السيطرة أخذ العثمانيون يرسلون إلى مكة سنوياً قاضياً للقضاة من إسطنبول[٢]. ولم يرق هذا العمل للطبقة الحاكمة في مكة فحسب، بل كرهته العامة أيضاً؛ لأن القضاة الأتراك كان ينظر إليهم على أنهم أجانب، زد على ذلك أن هذا المنصب كغيره من المناصب يكون تحت المزاد العلني سنوياً. وكان على المكيين الذين يمثلون أمام المحكمة أن يدفعوا الثمن مع الفوائد المترتبة عليه. وبالرغم من تدخل الشريف أبي نمي لدى الباب العالي عام ١٥٣٩م (٩٤٥هـ) لإلغائه، إلا أنه لم يفلح في ذلك[٣]. ومن الجدير بالذكر أنه حتى مع وجود القاضي الحنفي، فقد بقيت الأهمية الأولى لأتباع المذهب الشافعي. إلا أن القضاء الرسمي أصبح في مكة، كما هو متبع في كافة الأقطار العثمانية، من أنه يلتزم أحكام المذهب الحنفي[٤].

---

(١) أخبار مكة المشرفة ج٢ الصفحات XVII).

(٢) ذكر السباعي أن أهل مكة كانوا يتولون القضاء فيها قبل هذا العهد [العهد العثماني] وظل الأمر كذلك بعض الوقت في العهد العثماني. ولكن الأتراك ما لبثوا أن شعروا أنهم العنصر الحاكم، فشرعوا يندبون القضاة منهم، ابتداء من عام ٩٤٣هـ، وظل الأمر على ذلك حتى استقل الحسين بالحجاز، وكانت أحكام القضاة مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة، فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية، ويرأس الحفلات التي ينصب بها أمراء مكة ويعقد المراسيم الخاصة بذلك ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير (أحمد السباعي: تاريخ مكة ص٥٩١) وانظر أيضاً (أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٣٤٤). ومن الجدير بالذكر أن عائلة ابن ظهيرة هي التي كان يختار منها القضاة المكيون في الغالب (أخبار مكة المشرفة ج٢ ص XVII).

(٣) منائح الكرم: حوادث سنة ٩٤٥.

(٤) أخبار مكة المشرفة ج٣ ص٤١٦، ومنائح الكرم حوادث سنة ٩٩٥هـ.

لقد ساد السلام العائلي بين الأشراف في أثناء حكم أبي نمي وولده حسن. فلم نسمع بتلك الخلافات والنزاعات التي كانت تحصل في السابق أو حتى فيما بعد. وقد أعطى ذلك فرصة القيام ببعض الحملات للقضاء على الفتن الداخلية، كما ساعد على ملء الفراغ في الاتصال الجماعي في المدينة المقدسة. فقد ساعد الاستقرار النسبي على ازدهار شعر البلاط أكثر من ذي قبل. فبالرغم من أن الحجاز والبلاد العربية الأخرى كانت تحوي دائماً وفي كل الأوقات العديد من شعراء البلاط، الذين يمدحون النجوم الصاعدة، ويحصلون مقابل ذلك على الأعطيات المجزية، إلا أننا نرى نشاطاً ملموساً في حركة الشعر إبان هذه الفترة. وإذا تجاوزنا بعض الأغراض الشعرية التي كانت تميل إلى الحصول على الأعطيات، والتي تغلب عليها الألفاظ المنمقة، التي تبرز حالة الاستجداء الواضح، يمكننا القول إن علوم اللغة والأدب في المدينة المقدسة، قد وجدت عناية خاصة خلال هذه الفترة، تستحق الثناء والتقدير. فقد كان لبناء الشريف حسن قصراً عرف باسم دار السعادة[١] أثر ملموس في ظهور العديد من القصائد. وقد أغرى ذلك أخا الشريف، على بناء دار مماثلة، نالت بعض قصائد المديح الأخرى. وقد ساعد ذلك على بروز قصائد الجدل[٢]. ويُروى عن الشريف حسن إصدار بعض الأحكام الهزلية في بعض الدعاوى المرفوعة إليه للنظر فيها[٣].

---

(١) دار السعادة تقع تقريباً، في المكان الذي يوجد فيه الآن التكية المصرية (المؤلف). ويذكر السباعي مكان دار السعادة فيقول: كانت أمام باب أم هانئ وباب أجياد. وقد دخلت في توسعة الحرم الجديدة في جنوبه الغربي. كما ذكر أن موقع دار الهناء، التي بناها أخوه ثقبة، كانت بجوار دار السعادة من جهة الجنوب. وقد ظلت دار السعادة سكناً لذوي زيد، كما سكن دار الهناء ذوو بركات، وهما فرعان من أولاد أبي نمي (السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩).

(٢) ذكر الدحلان مطالع بعض القصائد التي قيلت في مدح الدارين وبسط الكلام في ذلك صاحب منائح الكرم (انظر أمراء البلد الحرام ص٨٠ ـ ٨٢، ومنائح الكرم حوادث سنة ٩٦٤هـ).

(٣) لعل المؤلف يشير في ذلك إلى الحادثة التي تخاصم فيها شامي ومصري في جمل، فأمر الشريف حسن بذبح الجمل، ونظر فرأى مخه معقوداً، فحكم به للشامي، وأمر بتغريم المصري. وقال: إن الشاميين يعلفون جمالهم (الكرسنة) وهي تعقد المخ، أما المصريون =

ويعزى إلى الشريف حسن أيضاً إدخال تجديدات أدبية على الأساليب المتبعة في المراسلات الحكومية[1].

يقول أحد الكتاب[2] إنه بموت حسن عام ١٦٠١م (١٠١٠هـ) انتهت سلسلة الأشراف الأقوياء، وقد تزامن ذلك مع موت السلطان مراد الثالث، الذي رحل قبل ذلك بقليل، منهياً سلاطين آل عثمان الأقوياء الجيدين. وتوافق كذلك مع عزل مولاي أحمد آخر سلاطين المغرب النشيطين الذي عزل بعد ذلك بقليل[3]. وإذا كان لهذه العبارة من معنى فإنها تدل على أنه منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي أصبحت الحكومة التركية أقل مقدرة على حكم إدارة الأقطار التي احتلها بسرعة فائقة. كما أن الحجاز أصبح مسرحاً للنزاعات والصراعات القديمة التي اتخذت قوة جديدة. وكان ينقص الأتراك، وهم السادة الحماة، الوسيلة الناجعة للقضاء على هذه الصراعات. والسنوات الثلاثون التي تلت (١٦٠١ ـ ١٦٣١م) (١٠١٠ ـ ١٠٤١هـ)

استئناف الصراع الأخوي

= فإنهم يعلفونها الفول، وهو يعقد الشحم (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٨٣، وكذلك السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(١) ذكر السباعي أن حسن بن أبي نمي، هو أول من كتب في التوقيعات: «يجري على الوجه الشرعي والقانون المحرر المرعي» وتبعه على ذلك من جاء بعده من أمراء مكة، وكان يكتب على الإنهاءات: «يجاب على سؤاله زاد الله في نواله». وكان يمهر على الحجة والإنهاء بختمه، ويكتب على التقارير اسمه فقط، من غير أن يمهر عليها (السباعي، تاريخ مكة ص٣٤٩).

(٢) هذا الكاتب هو الشهاب الخفاجي وهو أحمد بن محمد بن نصر، شهاب الدين الخفاجي المصري، قاضي القضاة. وصاحب تصانيف في الأدب واللغة. نسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد ونشأ في مصر وزار تركيا واتصل بالسلطان مراد فولاه قضاء سلانيك ثم قضاء مصر. وله كتاب ريحانة الألباء توفي عام ١٠٦٩هـ،١٦٥٩م (انظر حاشية ص٨٨ ـ من كتاب أمراء البلد الحرام وكذلك الأعلام للزركلي ج١ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨).

(٣) وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه الريحانة آخر ترجمة الشريف حسن بن أبي نمي كما أورد ذلك صاحب أمراء البلد الحرام وقد كان انتهاء صعود الشرف بالحجاز بالشريف حسن، وفي المغرب بمولاي أحمد، وفي الروم بالسلطان مراد، ونحن الآن لاندري ما يريد وما يراد. فقد ذهب سليمان، وانحلت الشياطين، ووقف الرجاء على جرف هار بين قوم مجانين فالجواد دون الحمار المصري، وأبو جهل يعظ الحسن البصري. (أمراء البلد الحرام ص٨٨).

أوضحت أن أبناء وأحفاد الشريف حسن[1] وقفوا بسيوف مسلولة للمحافظة على السلطة، وقد كثر الصراع بينهم، على نيل شرف الحكم. غير أنه يمكننا القول إن الفروع المتعددة التي تنتمي إلى أبي نمي، قد بقيت لها السيادة على الفروع الأخرى المتصارعة، التي تصل في بعض الأحيان بالقوة إلى مركز السلطة. وقد يتحول الأمر إلى حرب في الشوارع، كما حدث في الفتنة التي وقعت بين القواد والجبالية التي راح ضحيتها العديد من الجبالية[2].

الصراع الخفي بين الأتراك وحكام مكة

هناك الكثير من الحوادث التي يستشف منها الصراع الخفي بين الأتراك وحكام مكة. فقد تجرأ رعاع مكة عام ١٦٢٣م (١٠٣٣هـ) على ضرب أحد الحكام الأتراك بالحجارة في أثناء وجوده في المسجد الحرام وهو في طريقه إلى اليمن عبر مكة[3]. وقد قتل المفتي التركي عام ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) بأمر من الشريف الكبير آنذاك[4]. وإلى الباشا التركي قنصوه يعزى قتل شريف مكة بتهمة الخيانة[5]. وفي عام ١٦٢٨م (١٠٣٧هـ) ساعد أحد ولاة الأتراك في اليمن ـ الذي غرقت سفينته قرب جدة ـ المعارضة ضد الشريف الكبير،

---

(١) انظر شجرة النسب الثالثة الأرقام ٥،٦،٨،١٠،١١،١٥،١٨،٢٠،٢٢ (المؤلف). لقد حكم خلال هذه الفترة من ١٦٠١ ـ ١٦٣١م الموافق ١٠١٠ ـ ١٠٤١هـ العديد من الأشراف، إما منفردين أو بالاشتراك مع أبنائهم أو إخوانهم. وقد تميز حكم جميع هؤلاء بالصراعات المريرة، للوصول إلى السلطة. كما تميزوا بقصر فترات الحكم التي تولاها كل منهم (انظر الدحلان، ص٨٨ ـ ١٠٢).

(٢) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٢٠هـ.

(٣) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٣٣هـ.

(٤) المفتي هو الشيخ عبد الرحمن المرشدي مفتى السلطنة العثمانية بمكة. قد قتله في السجن الشريف أحمد؛ لأنه كان مقرباً من الشريف السابق محسن. وقد ذكر الدحلان مجموعة من الأسباب التي تعلل بها الشريف أحمد لقتل الشيخ المرشدي. (انظر أمراء البلد الحرام ص٩٧) ويبدو أن الحادثة قد وقعت في أحداث عام ١٠٣٧هـ لا أحداث عام ١٠٤٩هـ كما يذكره المؤلف. (انظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٣٧هـ)

(٥) احتال قنصوه باشا، وهو في طريقه إلى اليمن، على الشريف أحمد وأوقع به وقتله، وكان مأموراً من السلطات التركية، أن ينظر في أمر مكة، ويولي فيها من يختار. وقد كان قنصوه يحقد على الشريف أحمد، ويفضل شريكه في الحكم الشريف مسعود. فلما قتل الشريف أحمد تولى أمر مكة الشريف مسعود (انظر أمراء البلد الحرام ص٩٨ ـ ٩٩).

متهماً إياه بعدم تقديم المساعدة الكافية له[1]. وكذلك بعد صدور الأوامر بنقل الخطبة يوم العيد من مفتي الشافعية إلى مفتي الأحناف عام ١٦٢٦م (١٠٣٥هـ)، والتي كان مبعثها شخصياً، من قبل الوالي التركي[2] والتي فسرها الشافعيون بأنها تمت تحت حماية الأشراف. ويستشف ذلك من المهاترات الشعرية التي قيلت بهذا الخصوص[3].

إن هذه الحوادث وأمثالها هي حوادث فردية، مبعثها غضب شخصي، وهي مبنية في الغالب على آراء واجتهادات شخصية بحتة، غير أن آثارها السلبية تكون في العادة كبيرة جداً.

لقد أصبح الشيعة في اليمن تحت قيادة الأئمة الزيدية قوة محاربة ضد الأتراك، كما أصبح بلاط الأئمة الزيدية في صنعاء، ملاذاً لكثيرين من أقاربهم الأشراف المكيين الملاحقين. وكان هؤلاء يجدون الحماية، وربما المساعدة المباشرة في العودة إلى النفوذ والسلطنة. وفي هذا السياق يمكن فهم قول نيبور بأن الأشراف عام ١٦٦٣م (١٠٧٤هـ) هم سنييون، لكنه كان يظن بأنهم ذوو اتجاه زيدي، ولديهم الاستعداد بقبول أي اتجاه يكون ركيزة لسيادتهم[4].

---

(١) ذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٣٧هـ ورد من السلطنة العلية أحمد باشا متولياً على اليمن. فأصيبت سفينته بالعطب قبالة ساحل جدة. ونجا هو ونحو ٣٠٠ من عسكره. وقد طلب المذكور من أتباع الشريف في جدة المساعدة لإخراج ما يحويه حطام السفينة. فعينوا له أقواماً غاصوا نحو ١٥ يوماً، ولم يخرجوا شيئاً. مما حمل الباشا على الاعتقاد أن هذا أمر مدبر من الشريف. فما كان منه إلا أن شنق حاكم الشريف بجدة المسمى بالقائد راجح، واستمال الشريف أحمد إلى جانبه، وأغراه بعزل الشريف محسن شريف مكة وتوليته مكانه، وهكذا تنحى الشريف محسن، وتسلم السلطة الشريف أحمد (انظر تفصيلات ذلك في أمراء البلد الحرام ص٩٥ ـ ٩٦).

(٢) ذكر البخاري في حوادث سنة ١٠٣٣هـ صورة لوفاة الإمام عبد القادر الطبري الذي توفي متأثراً من منع ولده من ممارسة خطبة العيد، ومن الجدير بالذكر أن الدحلان ذكر هذه الحادثة سنة ١٠٣٥هـ (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٩٥).

(٣) انظر القصائد التي قيلت في رثاء القاضي المذكور في منائح الكرم، حوادث سنة ١٠٣٣هـ.

(٤) (Beschrijving Van Arabie, S 349).

الصراع حول المداخيل

عاد الحسنيون مرة أخرى إلى الاقتتال حول عائدات الإمارة، ومن الجدير بالذكر أنه في أوقات السلم ـ وحيث يكون هناك مراقبة فعّالة من السادة الحماة ـ لم يكن تقسيم المدخول يسبّب أيّ مشكلات تذكر. فقد كان الشريف الحاكم يعطي أقرب العائلات بالنسبة إليه بقدر ما يحتاجون، حتى لا يبدي هؤلاء تذمراً أمام السلطات العليا، أما النصيب الأكبر فيكون من نصيب الابن الذي من المقرّر أن يخلفه في السلطة. وإذا ما شعر سادة الحكم في مكة بأنّ ضغط الحماة قد خفّ عنهم، فإن شروط التقسيم بين الإخوة وأبناء العم تراعى بالقدر الذي يحقّق السلام، ولا يدعو إلى نزاع بين أبناء العمومة. إن اختلاف وجهات النظر حول محتوى هذه العقود أو الاتفاقات غير المكتوبة، أو حول شروط تنفيذها، كان يلغي حالة السلم، ويدعو إلى حمل السلاح.

العائلات المرموقة التي تنتمي إلى أبي نمي (انظر شجرة النسب الثالثة رقم١) كانت تحصل منذ ضعف العثمانيين على ثلاثة أرباع الدخل في الإمارة[١]. أما الشريف الكبير فكان له ولرفاقه الربع الباقي، مع الاحتفاظ بالالتزام بتحمل نفقات الجيش والأمور الأخرى. إن شروط هذه القسمة البسيطة التي تم الاعتراف بها نظرياً من جميع الأطراف، تختلف عن الممارسات الفعلية، التي كانت ماتؤدي في الغالب، إلى تعقيدات خاصة كثيرة. فمركز العائلات يختلف من جيل إلى جيل، مما ينعكس على حصة هذه العائلات في المداخيل. كما أن عشوائية الموظفين الأتراك في جدة، كانت تقرر مطالب الأشراف الآخرين غير الراضين بحصصهم. فقد كان الموظف التركي يعطى جزءًا من الجمارك على الحساب، أو أنه يمنح صلاحيات لبعض الأشراف بالحصول على نصيبهم من الدخل بأنفسهم من القوافل التجارية بين جدة ومكة[٢]. والسجل الذي وضعه بعض الأشراف

---

(١) انظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٥، وذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٨٥هـ ورد مرسوم من السلطنة مضمونه قسمة مدخول مكة أربعة أقسام: الربع الأول لمولانا الشريف، والثلاثة أرباع للسادة الأشراف على السوية (أمراء البلد الحرام ص١٣١).

(٢) في هذه الأيام (١٨٨٥م) يعطى البدو الذين ينهبون قوافل الحجاج وصولات يؤكدون فيها =

العرف يحدد تقسيم المداخيل

الأقوياء مثل الشريف مسعود (١٧٣٤ ـ ١٧٥٢م) (١١٤٥ ـ ١١٦٥هـ) للمداخيل وكيفية تقسيمها، قد أبطل مفعولها وألغيت بعد موته. وفي عام ١٧٠٤م (١١١٦هـ) جرت محاولة لوضع حد للصراع بين الشريف الكبير وبني عمومته عن طريق القضاء. لكن المحاولة لم تنجح، وأمراء الغزو لم يقبلوا بشريعة الله حكماً، ولم يرضوا بأن يسود التشريع القانوني في مثل هذه الأمور[1]، فقد ادعى الشريف الكبير أن كل ما أخذه أقاربه من المداخيل كان هدية منه عن طيب خاطر. ولم يكن سببها سوى الالتزام الخلقي بصلة الرحم. أما الطرف الخصم والحزب الآخر فقد كان يعتبر بأن ما أخذه هو حق مشروع يعود إلى العرف المعترف به منذ أيام قتادة. والنتيجة التي انتهى إليها التحكيم، هي افتراق الأطراف عن بعضها، بعد شتائم عنيفة متبادلة بين الطرفين، ثم اعترافهم فيما بعد بالخجل، حيث إنه كان من المفروض ألا يعلنوا عن صراعاتهم أمام أنظار المجتمع المكي.

لعله من المناسب أن نقوم بوصف أكثر تفصيلاً للقوانين العائلية لنسب الأشراف في غرب الجزيرة العربية ولا سيما أن المصادر الموجودة لدينا في العهد العثماني هي أكثر توافراً بهذا الخصوص.

تصرف الأشراف مع سكان مكة

إن ما عرفناه حتى الآن هو ظل حياة الأشراف فقط. هذا الظل المتمثل في علاقاتهم مع العالم الخارجي، والتي يبدو منها أنهم يعرضون خدماتهم دائماً إلى السيد الحامي. غير أنه من المؤكد أن جل الأشراف امتازوا بالفضائل التي يقدرها العرب دائماً في الأمير، مثل الكرم، ورعاية الضيف، ونفاذ البصيرة العملي، والإخلاص للحلفاء، وحسن العدالة التي لا يمس قرارها المصالح الشخصية. معظم هؤلاء كانوا يفضلون موت الأبطال على حياة الذل والهوان، حسب وجهة نظرهم. والكثير من هؤلاء امتاز ـ علاوة على الشجاعة ـ بالموهبة الأدبية وسرعة البديهة في أثناء النقاش. كل حَسَني

= استلامهم للنقود وذلك من أجل أن تتمكن الحكومة من خصم هذه المبالغ من المخصصات السنوية المقررة لهم (المؤلف).

(١) (منائح الكرم: حوادث عام ١١١٦هـ).

مرموق كان له في مكة وبين قبائل البدو حلقة خاصة من الأتباع الذين يعتمدون على حمايته. وإن حق اللجوء السياسي من قبل زعماء العائلات قد أعطي وبدون قيود لكل من طلبه حتى ولو كان غريباً. وإن الشريف الكبير نفسه لم يكن ليجرؤ بمعارضة هذا الحق[1]. وبغض النظر عن هذه العادات العربية، والعلاقات الشخصية، فقد كان معظم سكان مكة مضافاً إليهم الحجاج هدفاً للابتزاز والنهب من قبل هؤلاء، أما البدو الذين كانوا يدخلون المدينة المقدسة بين الحين والآخر، لمعاونة فريق ضد الفريق الآخر، فكانوا أشبه بالذئاب، التي تنقض على فريستها من الغزلان البرية، التي تمثل سكان المدينة المقدسة. وليس هذا بمستغرب في مجتمع لا يزال يعيش حياة العصور الوسطى. فعندنا [في أوربا] وبعد سنوات طويلة من سيادة مبادئ المساواة، نجد أن التطبيق الفعلي للعدالة يقتصر على أناس متساوين في الثقافة، وما دون ذلك فهو هدف للابتزاز.

فروع الحسنيين وعلاقاتهم

لقد انقسم الحسنيون المكيون بسبب اختلاف المصالح إلى مجموعات لا حصر لها. وكل مجموعة من هؤلاء تنضوي تحت مسمى عائلة واحدة. وكل عائلة قيادية تدين بأهميتها إلى عدد أفرادها من جهة، وإلى نشاط أعضائها من جهة أخرى. وحتى القرن الرابع عشر الميلادي نصادف تعبيراً زاد استعماله تدريجياً وبمرور الزمن، ذلك هو «ذوي فلان»[2]، حيث ترمز كلمة فلان إلى اسم أحد الأجداد المرموقين. وإن اختيار الاسم الذي تنسب إليه العائلة هو عادة تاريخية، ليس لها مبرر منطقي في أكثر الحالات. فذوو رميثة (شجرة النسب الثانية رقم ١٣) يطلق عليهم اسم العائلات المعادية لذوي حسن (شجرة النسب الثانية رقم ٣١)، بالرغم من أن حسن نفسه، هو أحد أحفاد رميثة، وهو ينتسب إليهم. وبعض العائلات التي تنتسب إلى حسن نفسه، تدعى ذوي حسن. ومن هؤلاء العائلات التي هاجرت إلى اليمن،

---

(١) في عام ١٦٧٩م (١٠٩٠هـ) هرب رجل من سواكن كان قد تشاجر مع تركي فقتله. فما كان منه إلا أن التجأ إلى بيت أحد الأشراف، الذي قام بحمايته، وساعده في الخروج من مكة. (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام. (المؤلف).

(٢) أخبار مكة المشرفة ج٢ ص٢٢٤.

وأصبح لها مركز ونفوذ كبير، في حين أن بعض ذوي حسن، من أبناء عمومة هؤلاء، لا يحملون اللقب نفسه. ومع هذا يمكن القول إن كل (الذوي) على اختلاف أسمائهم والذين اشتهروا منذ حكم حسن في الحجاز، ينتسبون إلى الفرع نفسه الذي ينتمي إليه (ذوو حسن) أيضاً. ويستخدم المكيون صيغة الجمع أحياناً بدل كلمة (ذوي) فيقال بانتظام الشنابرة، والمناعمة، والعبادلة، وهذا يعني أحفاد شمبر، وأحفاد عبد المنعم، وعبد الله.

يقف في المقدمة بعد الشريف الكبير إخوته وأبناء عمه، وهؤلاء قليلو العدد، غير أنهم يمتلكون المال اللازم لشراء العبيد، الذين يعملون كقوة خاصة بهم، وعن طريق هؤلاء الإخوة وأبناء العم يستطيع البعيدون الحصول على بعض المكاسب. ويلي الإخوة وأبناء العمومة زعماء العائلات القديمة والكثيرة العدد حسب مقياس زعمائهم. وهؤلاء مدينون لمراكز أسلافهم القدماء بالحصول على الإقطاعات الكبيرة من الأراضي، التي يسكن في بعضها ذوو الأمير نفسه، وبعضها الآخر يقطن فيه سكان القرى، والبدو الذين يقفون من الأمير موقف السيِّد لهم والحامي لمصالحهم. ولهذا تسمى المنطقة (ببلاد الأمير). وهذه المناطق تمتد من مكة إلى جميع الجهات، أحياناً يسمع المرء عن أمير سافر إلى وادي بيشة من أجل تنظيم أموره الخاصة، وأحياناً يخرج أحد زعماء العائلات المكية غير مسرور من الشريف الكبير، حيث يغادر إلى الركاني في وادي مر (وادي فاطمة). الذي يعرف بالوادي، وتقع فيه أملاك كثير من الأشراف. وأحياناً تكون وجهة السير إلى المناطق الشرقية الخصبة في الطائف.

العائلات المختلفة لا تسمح لشريف مكة بالتدخل المباشر في شؤونها. ومن غير المألوف أن يقوم الشريف نفسه بمثل هذا التدخل. إنه رئيس رؤساء العائلات. وفي كل فترات التاريخ كان يوجد بعض الأشراف الذين لا يريدون أن تكون لهم علاقة مباشرة مع (سيدنا) في مكة. غير أن القسم الأكبر من هؤلاء هم على اتصال مباشر معه. خاصة زعماء العائلات المرموقة، الذين يستوطنون مكة، ويحصلون على جزء من العائدات المكية؛ لذا لزم وجودهم في المدينة المقدسة، ولو لأغراض المراقبة فقط.

فإذا ما علمنا أنه في حالة وفاة الشريف الكبير، فإنّ اتخاذ القرار حول خليفته يكون بأيدي رؤساء العائلات ـ طالما لا توجد قوة أجنبية تتدخل بقوة ـ أدركنا مدى أهمية وجود أمثال هؤلاء في عاصمة الحجاز الأولى. وفي حالة حدوث الخلاف فإن زعماء هذه العائلات يصبحون قادة أحزاب، ينضوي تحت لوائها سكان مكة القادرون على حمل السلاح (الحضارمة، اليمنيون، وغيرهم..)، وكذلك قطاعات من البدو الذين يستعان بهم على فض النزاعات، عن طريق إرسال المبعوثين إليهم. إن أي سبب ولو كان بسيطاً يمكن أن يؤدي إلى قتال في الشوارع. وفي أغلب الأحيان وقبل وقوع الشغب يأمر الشريف مثيري الشغب من أقاربه بمغادرة البلاد خلال فترة معينة. أما المهزومون وغير الراضين عن الأوضاع العامة فيخرجون من المدينة طوعاً. ومثل هذا الانسحاب الطوعي[1] من المدينة يشبه إعلان الحرب على السلطة القائمة في مكة. وأول الإجراءات التي يقوم بها الأمير المغادر في العادة، هي أن يجعل من طرق القوافل، التي تمر عبر منطقته، منطقة غير آمنة، الأمر الذي يفرض التوسط لإنهاء النزاع أو حسمه بطريقة من الطرق. وهكذا نجد أن كل اختلال في الارتباطات العائلية يعد بداية لحرب بين هذه العائلات.

الأشراف الأقوياء فقط هم الذين كانوا يبحثون عن الأعداء في خارج المدينة، ويخضعونهم لسيطرتها، ويستعملون سكان مكة لهذا الغرض، الذين يقومون به مسرورين لقطع دابر الفتنة. أما الأشراف الضعفاء فكانوا ينتظرون هجوم هؤلاء البدو الذين إذا مابدت لهم الأمور بأنها غير مريحة تخلوا عن القتال وهربوا. وقد كان الأشراف يستعينون بهؤلاء في كثير من الأحيان لقضاء مآربهم السياسية المختلفة.

وفي الحروب كان يسقط في بعض الأحيان أغلى الرجال وأشهرهم. رغم أن عدد القتلى لا يكون كبيراً بحسب مقاييسنا. وبشكل عام فإن العرب عموماً يتخلون عن مثل هذا القتال بمجرد سقوط عدد من القتلى المرموقين. وإذا كانت

(١) مثل هذا الإبعاد الطوعي يسمى جلاء. والمنفيون يسمون بالأشراف الجلوية (المؤلف).

الغلبة لصالح الحاكم، فإن المغلوب يطلب مهلة[1] لتنظيم أمور الانسحاب. وفي الغالب يعطى هذه المهلة، بالرغم من أنها تستعمل للتحضير لاستئناف القتال من جديد. ولتفادي سوء استخدام هذا الحق، كان المنتصر يشترط لإعطاء هذه المهلة بأن يضمن له انسحاب الخصم أحد الأشراف، الذين يتمتعون بنفوذ قوي. لكن مخالفة مثل هذه الاتفاقيات القسرية، لم يكن ليعدّ بالذنب الكبير. ولهذا السبب كان يعطى للأمير المغلوب مهلة قصيرة لا تسمح له بتجميع سريع لوسائل قوته لإعادة الكرّة من جديد.

الحروب في مكة ليست استئصالية، ولا تغير من حقوق الأفراد القاطنين فيها، فالأشراف المغلوبون، والذين يجب عليهم مغادرة المدينة، وزعماء العائلات المرموقون، والذين بتآمرهم أجبروا الحاكم على طردهم من منطقة نفوذه. والأشراف المعادون الذين كانوا يهاجمون المدينة من الخارج، ويعودون مهزومين، كل أولئك لديهم أملاك منقولة وغير منقولة في العاصمة المقدسة. ولهم أقارب وأتباع، ولهم مؤيدون، ومع ذلك لا ينالهم الأذى إلا نادراً، ولولا هذه الأعراف، التي لها قدسية واحترام، لكان بقاء أمثال هؤلاء سيعرضهم للتضحية بأنفسهم، أمام عشوائية المنتصر. وبحسب هذه التقاليد والأعراف يلجأ المغلوب إلى زعماء الأشراف المرموقين، حتى لو كانوا أعداءً، طالما أنهم لم يشتركوا في القتال، ويدخلون في حمايتهم. ومثل هذا الطلب لا يمكن إلا أن يلبى. ومنذ اللحظة التي يطلب فيها الشخص حماية شخص آخر، يعدّ الطالب للحماية بناءً على العرف العربي، في وجه الشخص الآخر، الأمر الذي يعني أن أي أذى يلحق به كأنما يلحق بالحامي. وعلى الحامي أن يهتم بأن يراعي مكفوله الوفاء بشرط المهلة الممنوحة. وبموجب هذه الحماية يضمن الدخيل سلامة جميع ممتلكاته في مكة، وكذلك حياة جميع أقاربه وذويه وأتباعه وأمنهم. ومثل هذه العادات متأصلة في حياة الأشراف، بحيث إن الشخص الموثوق به يختار أيضاً بالاتفاق مع رئيس الحزب المنتصر.

---

(١) مهلة أو ذمة (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ٢٤٨).

إن المتتبع لتاريخ المنازعات بين الأشراف يلحظ أن هناك مئات الحالات التي كانت تجعل أحد الأشراف المنتصرين في وضع يمكنه معه القضاء مبرماً على خصمه الرئيس، أو أن يرمي به في السجن. غير أن الاعتقاد الجازم بأن مثل هذه الجريمة هي بداية النهاية لكل العائلة، كان يمنع من حصول ذلك. إن الأمثلة كثيرة عن القتال الذي يودي بحياة الأخ أو الأب في عائلة قتادة. وبالرغم من ذلك فإن المرء ليلحظ أنه مع وجود القتال المستمر لعدة قرون بين الإخوة والأقارب، فقد حافظ الأشراف على تجنب سفك الدماء (وكانت دماء أنفسهم) إلا بالقدر الذي تستوجبه الظروف. أما السجن فلم يستعمل ضد زعماء العائلات إلا في حالات استثنائية.

لقد كانت الثروات المحفوظة في بيت الشريف المندحر مصانة، ولايجوز أن يمسها أحد، وكذلك فإن حياة رجاله وأتباعه الذين كانوا يشهرون السيوف قبل فترة وجيزة ضد المنتصر هي في أمان، بالرغم من أن المنتصر يعلم علم اليقين بأن خروج المندحر نحو الشمال أو الجنوب أو الشرق إنما هو بداية لتجميع جديد للقوات الحربية. وأن الرفاق في المدينة المقدسة ينتظرون قدومه على أمل وقوع الهجوم الجديد.

المرة الوحيدة التي أخذت فيها بالقوة مفاتيح القصر التابع للأمير المهزوم من الشخص الذي يحميه، كانت من قِبَل أحد الموظفين الأتراك الأقوياء ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ). ولم تستطع يومها رغبات الأشراف الحيلولة دون ذلك[١].

في عام ١٧٠٥م[٢] أراد أحد الأشراف الناقمين على أشكال الحروب المتكررة، أن يتخلى عن الالتزام بحماية حياة خصومه وأملاكهم في مكة، ممن دخلوا في حماية أحد أقاربه، فأرسل منادياً في الأسواق على عادة أهل مكة في تبليغ القرارات المهمة، التي كانت تصل إلى مسامع الشعب، عن طريق التصريح بها وقراءتها من قِبَل المنادي في الأسواق والأماكن العامة.

---

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٣هـ.

(٢) انظر هذه الحادثة في أخبار عام ١١١٧هـ في منائح الكرم بأخبار مكة والحرم.

وكان المنادي يقول في شوارع مكة وطرقاتها «على أرحام ذوي شنبر وذوي جازان وذوي بركات وذوي ثقبة ورجاجيلهم ألا يبيت أحد منهم بمكة هذه الليلة، ومن بات بها فهو مصلوب وبيته منهوب». وقد أسرع كبار الأشراف الذين غضبوا لمثل هذا القرار إلى الشريف الكبير ولاموه على مثل هذا التصريح قائلين: هذا لا يكون فإنه يتأتى منه سالفة بيننا. إن كل مَنْ خرج من البلد تنهب طوارفه ويقتل. وهذا أمر لا يمكن الوفاق عليه، لكونه مضراً بالعالم، فرجع المنادي عند العصر ينادي بخلاف النداء الأول، وأن النداء مرجوع عنه وعليهم الأمان.

إن الاحترام والتقدير، الذي يكنه العرب والأجانب للأشراف المرموقين، كان أحد أسباب حماية هذا الفرع من كل صراع مدمر. فلسان حال العامة يقول: لئن قاتل سادتنا الأشراف بعضهم بعضاً فهذا قدرهم. ومع ذلك فالمرء يحبهم بسبب نسبهم الزكي. لقد كان الرأي العام، ضد أولئك الذين يهدرون مثل هذا الدم الزكي، بسبب الحروب المتكررة. لقد جرت العادة أن يشترك المنتصر في تشييع جنازة خصمه[1]. وأن قبور بعض الأشراف كانت تزار من قِبَل كل الحسنيين. وكان لا يسمح بالاعتداء على هذه القبور، كما يحصل في بقاع أخرى من العالم، لا بل وصل الأمر عند هؤلاء إلى أن الذي يلتجئ إلى قبرٍ ما، فهو عرفاً دخيل عند أبناء صاحب هذا القبر وأحفاده تجب حمايته. وهكذا صانت القوانين العائلية ـ التي كان يجري تطبيقها بصرامة، أكثر من تطبيق المبادئ الشرعية ـ حياة أحفاد النبي ﷺ الذي تنكب الكثير منهم طريق دعوته.

الشريف عبد الله بن حسن وولده محمد

في نهاية فترة الثلاثين سنة التي تحدثنا عنها، لم يجد الأشراف عام ١٦٣١م (١٠٤٠هـ) وسيلة لمنع الاقتتال حول السلطة، سوى تعيين أحد رؤساء العائلات، الذي يحظى باحترام الجميع، ذلك هو الشريف عبد الله بن حسن. وقد كان سيداً جليلاً، وهو إذ ذاك أكبر آل أبي نمي، وكان ممتنعاً عن الولاية (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٥) فألزموه بذلك

---

(١) أحمد دحلان ص١٨٥.

حقناً للدماء، ومازالوا به حتى رضي. غير أنه بعد برهة وجيزة قلد أمر مكة لولده الشريف محمد بن عبد الله، وأشرك معه الشريف زيد بن محسن حفيد الممثلين الأقوياء لفرع العائلة في الجنوب. (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٢٨). ولم يكن هناك أي معارضة لترتيبات الشريف عبد الله إلا من جهة واحدة. هذه الجهة هي أحفاد بركات أخي حسن(شجرة النسب الثالثة رقم ٤) الذين طالبوا بزيادة نصيبهم من الدخل، ولم يذعنوا للأمر إلا بعد أن حصلوا على ثلث الدخل المقرر.

العبادلة وذوو زيد وذوو بركات، هي العائلات الثلاث التي حول تنافسها، يدور التاريخ المستمر لمكة، حتى عام ١٦٩٤م (١١٠٦هـ). لقد اشترك ذوو مسعود وذوو عبد المطلب (انظر شجرة النسب الثالثة رقم٦، ٩) مع هؤلاء لفترة وجيزة، غير أنه لم يكن لهم دور كبير، وكانوا دائماً منافسين من الدرجة الثانية. في البداية ساعد الحظ ذوي زيد (١٦٣١ ـ ١٦٧٢م) (١٠٤٠ ـ ١٠٨٣هـ)، ففي عام ١٦٣٢م (١٠٤١هـ) عندما تركت بعض القوات التركية المتمردة قائدها في اليمن، وأثناء مرورها من مكة، وهي في طريقها إلى الشمال، استعملت من قِبَل شريفين طموحين، للإطاحة بحكومة الشريف زيد ومحمد في مكة. وقد دارت معركة بين هؤلاء الأتراك وأمراء مكة، فقد خلالها محمد حياته، بينما خرج زيد من مكة، بعد أن دخلها الأتراك، واستولى عليها المغامرون الجدد من الأشراف. وبالرغم من أن السلطنة بمصر أرسلت قوات لمساعدة الشريف زيد، إلا أن هذه القوات لم تستطع سوى إعادة المدينة المقدسة فقط[1].

---

(١) ذكر الدحلان في حوادث عام ١٠٤١هـ أنه في أواخر هذه السنة كانت وقعة الجلالية، وملخصها أن عسكراً من اليمن خرجوا عن طاعة قانصوه باشا. وجاء الخبر أنهم لما وصلوا القنفذة اجتمع بهم السيد نامي بن عبد المطلب بن أبي نمي. واستمالهم على أخذ مكة، فأرسلوا مكاتيب لمولانا الشريف محمد ومولانا الشريف زيد يطلبون الإذن في دخول مكة، ثم يتوجهون إلى مصر فرجع إليهم الجواب بعدم الإذن في دخول مكة، ثم جاء الخبر بأن الاتراك وصلوا السعدية، فخرج مولانا الشريف محمد ومولانا الشريف زيد ومعهم العساكر إلى قوز المكاسة أسفل مكة. وقتل في هذه الوقعة مولانا الشريف محمد وجماعة من الأشراف. وتوجه من نجا من الأشراف إلى جهة وادي مر الظهران.. ثم بعد =

الشريف زيد

الشريف زيد (١٦٣١ ـ ١٦٦٦م) (١٠٤٠ ـ ١٠٧٧هـ) كان ذا جسم قوي من أمثال قتادة، ولد في الجنوب بوادي بيشة، وأمضى معظم شبابه هناك. فقد كان أبوه يعيش في منفاه الاختياري بتلك المنطقة. وهكذا أصبح وطنه الأول أرضاً يصعب الوصول إليها. كان زيد يرى أن الرقابة الأجنبية، هي عشب ضار، لا بد من استئصاله. غير أن نظرة جده حسن الذي أصبح دبلوماسياً في مصر، والذي كان يعرف كيفية التعامل على الطريقة التركية، قد افتقدها الحفيد. لقد رجا الحاكم المصري بأن يرفع نصيبه من جمارك جدة، كما طلب المساعدة العسكرية ضد المتمردين المذكورين أعلاه. غير أن هذا الود لم يستمر طويلاً. فبعد أن أعطى الأتراك مشيخة الحرم لوالي جدة عام ١٦٤٦م (١٠٥٦هـ)[١]. وبدأ هذا الوالي بالتدخل في شؤون مكة، محاولاً أن يجتذب الكثير من الصلاحيات لنفسه، كره الشريف ذلك، فعين نائباً عنه على المدينة المقدسة، وخرج منها بعد أن كلف أحد البدو بالقضاء على والي جدة وشيخ الحرم الجديد. لقد بدا كره الشريف زيد واضحاً للأتراك، عندما حج أحد المخصيين التابعين للسلطان عام ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ). لقد منح السلطان مراد هذا الطواشي، الذي كان أثيراً عنده، أعلى الصلاحيات،

= تمام الواقعة دخل الأتراك مكة، ودخل معهم الشريف نامي بن عبد المطلب، فنودي له بالبلد، وأشركوا معه السيد عبد العزيز بن إدريس بن حسين في ربع مكة [محصولاً] لكن لم يشركوه في الدعاء على المنبر. (أمراء البلد الحرام ص١٠١ ـ ١٠٢)، وقد عاث الشريف نامي والجنود الأتراك في مكة وجدة فساداً كبيراً، من حيث القتل والسلب والنهب. وقد أرسل الشريف زيد إلى مصر يطلب المساعدة على نحو ما ذكر في المتن. وصلت هذه القوات إلى ينبع، ثم تقدمت إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة، وفر الشريف نامي إلى تربة، وانحدر الشريف عبد العزيز بن إدريس إلى ينبع. وقد توجه الشريف زيد بصحبة القوات التركية إلى تربة، لمحاصرة القوات هناك وقد استطاعوا التغلب على الخصوم، وأسر الشريف نامي وأخوه واقتيدوا إلى مكة حيث تم شنقهم بمحلة المدعى بمكة. (أمراء البلد الحرام ص١٠٣ ـ ١٠٤).

(١) ذكر دحلان أنه في سنة ١٠٥٦هـ وردت مشيخة الحرم لصنجق جدة مصطفى بيك. . وقد استفحل أمره وشرع بالتطرق للأحكام بمكة، فنفرت نفس مولانا الشريف في مكة، وأقام بها نائباً عنه، وتوغل نحو الشرق، وكان قد أوصى رجلاً يقال له أحمد الجعفري بقتل مصطفى بيك، وأمره أن يقتله مهما أمكن (أمراء البلد الحرام ص١٠٦ ـ ١٠٧).

على كل البلاد التي كان عليه أن يمر منها. وقد نما إلى علم الشريف زيد أن حاكم مصر آنذاك، قد قابل العبد باحترام غير عادي. فكره الشريف ذلك [وأخذته الأنفة الأريحية والهمة العلية] لكن موت السلطان مراد المفاجئ، سلب ذلك العبد صلاحياته، فلما وصل آغا الحريم إلى قرب مكة، لاقاه الشريف، وسلّم عليه سلاماً عادياً.

وفي العام نفسه أصبح هذا الطواشي متولياً على مشيخة المدينة المنورة. وقد حضر إلى الطائف للتنزّه، وللقاء زميله متولي مشيخة مكة المكرمة، الذي قتل هناك على يد أحد الأعراب، بتدبير من الشريف زيد على نحو ماذكرنا سابقاً. ولم تمض برهة حتى قام الشريف زيد بزيارة المدينة المنورة عام ١٦٤٩م (١٠٥٩هـ). وأثناء مكثه فيها، قتل القاضي التركي المذكور آنفاً، مما يحمل على الاعتقاد بضلوع الشريف بهذا العمل.

كان الشريف مغاضباً لحاكم جدة التركي. فقد كان الأخير على اتصال وثيق مع أحد أقارب الشريف زيد، الذي حاول الإطاحة به في وقت سابق[١]، إلا أن الشريف زيد انتصر على حاكم جدة ومن معه، مما حمل السلطة العثمانية على عزله وإبعاده. غير أنه ما لبث أن عاد ثانية أميراً للحج في عام ١٦٥١م (١٠٦١هـ). وكان لا بد من لقائه من قِبَل الشريف؛ لأنه بصحبة المحمل الشريف، وفي هذه المرة لم تتم التحية المتبعة وهي المناكبة والمعانقة، فقد تقدم الشريف وصافحه بيده كنوع من الحذر الشديد والخوف من الغدر. ومنذ تلك السنة تركت المناكبة وحلّ محلها المصافحة، كنوع من المجاملة الباردة، التي أصبحت عادة بعد ذلك[٢].

---

(١) يدعى حاكم صنجق جدة غيطاس بيك الذي عين خلفاً لمصطفى بيك الذي اغتيل في الطائف بتدبير من الشريف زيد. وكان غيطاس على علاقة بالشريف عبد العزيز بن إدريس الذي كان شريكاً للشريف نامي، أثناء توليه مكة، وطرده للشريف زيد. (انظر أحمد دحلان: أمراء البلد الحرام ص١٠٨).

(٢) في عام ١٤٨٠ (٨٨٤هـ) عندما حضر السلطان قايتباي لأداء فريضة الحج كانت التحية بينه وبين الشريف الذي حضر لملاقاته بواسطة المصافحة باليدين وهما راكبان على الخيل (المؤلف).

الميل المعادي للأتراك في مكة

لقد كان لأهل مكة أسباب مقنعة للاتحاد مع الأشراف ضد الوجود التركي في مكة: جنود سكارى أشبه بالوحوش، كل سنة قاض جديد لا يعرف شيئاً عن ظروف الناس وأحوالهم، تفضيل دائم للأجانب غير العرب، تقديم المذهب الحنفي على المذهب الشافعي السائد في مكة. ولعل الوالي التركي كان على حق عندما لحظ السخرية المتعمدة للكتيبة التركية، حين قرأ الإمام في أثناء الصلاة سورتين من سور القرآن، تظهر إحداهما مفاسد قوم ثمود، والثانية تذكّر بعقاب أصحاب الفيل، الذين حاولوا غزو المدينة المقدسة[1]. معرضاً بظلم الأتراك واستبدادهم، وما سينالهم من العذاب بعد ذلك.

التطور التاريخي لظروف المدينة المقدسة، قد تم تفسيره من قِبَل المكيين، بأن السلطة لخليفة المسلمين في إسطنبول تمارس من خلال الأشراف. وبحسب هذا التنظيم المقدس، فإن تعيين قائد أجنبي للجيش نائباً فعلياً ودائماً للسلطنة، يبدو على الأقل من وجهة نظرية غير مشروع، وغير محبّب للنفوس. وقد أدى هذا التصور إلى الضرر بالأعراف المكية. ومع هذا فقد كان على كل الأشراف أن يأخذوا السياسة التركية بعين الاعتبار.

صراع الفرس مع الأتراك العثمانيين

أدرك العثمانيون بلباقة كيف يحولون صراعهم مع الفرس إلى صراع ديني. فالمنطقة المقدسة يجب ألا تبقى مفتوحة مدة أطول، لأعداء سلاطين العثمانيين الموروثين. ولقد أصبح الاختلاف إبّان هذه الفترة بين السُّنة والشيعة أكثر حدة، مما كان عليه في السابق. وكان هذا في الدوائر المكية ذات النفوذ في السابق يعدّ أمراً حسناً، وذلك بأن يلقى العلم والفقه الشيعي الاحترام المطلوب، وأن تنسب الانتفاضات الشيعية، إلى أشخاص ذوي دماء زكية من العلويين، وإلى أتباعهم من الرعاع المتحمسين. ولم يقتصر الأمر في السابق على النزاعات القائمة بين السُّنة والشيعة، بل وصل أثره إلى الصراع بين أتباع المذاهب الأربعة، الذي كان يؤدي أحياناً إلى

(١) هاتان السورتان هما الفجر والفيل.

حدوث قتال في الشوارع[1]، وإلى تصرفات حاقدة للمتطرفين من هؤلاء وأولئك. ولقد كان من الأمور المرغوب فيها لدى العامة أن يوجد أمير غير منحاز لطرف من هذه الأطراف. وكان ينظر إلى أمثال هؤلاء الأمراء بوصفهم مثالاً حسناً وقدوة صالحة[2].

فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي زادت العناصر الشيعية في عالم الإسلام السياسي[3]. أما الاختلافات بين أتباع المذاهب الأربعة المختلفة فقد اختفت، وقُطع دابرها إلى الأبد، وكان الأتراك ينظرون إلى الشيعة على أنهم روافض. وكان الفرس يدَّعون بعد خضوع المدينة المقدسة للأتراك، أن هناك بعض المعاملات السيئة التي تقع على رعاياهم. وأن الأتراك يستعملون ذلك لمآرب خاصة بهم. فعلى سبيل المثال عام ١٥٨٨م (٩٩٦هـ) وجد مفتاح الكعبة المسروق عند أحد الفرس، فاستعمل ذلك كبش فداء لمزيد من أعمال العنف ضد هؤلاء[4]. وفي عام ١٦٣٨م (١٠٤٧هـ) حينما احتل السلطان مراد بغداد من الفرس، جاء الأمر للشريف زيد بطرد كل أولئك التابعين لهؤلاء من مكة، ومنعهم من تأدية فريضة الحج[5]. فما كان من الشريف إلا أن قام بتنفيذ الأمر، رغم أنه أسف

---

(١) انظر ابن الأثير ج١٠ ص٧١ ـ ٧٢، ٨٠ ـ ٨١، ج١١ ص١٣٣، ١٥٤ ـ ١٥٥، ١٦٥، ٢١٩، ٢٤٧، ٣٤٦، ٣٧٢، ٣٧٣، ج١٢ ص٤٩، ٨٦ ـ ٨٧، ١٠٤.

(٢) ابن الأثير ج١١ ص٢٦٠، ٢٦٦.

(٣) كان ذلك بسبب ظهور الدولة الصفوية في إيران التي ثبتت المذهب الشيعي هناك منذ إنشائها.

(٤) ذكر الدحلان أنه في سنة ٩٩٦هـ فقد مفتاح الكعبة، وذلك أن الشيخ عبد الواحد الشيبي فتح الكعبة في رمضان على جري العادة، فسرق من حجره المفتاح، وهو مصفح بالذهب، فوقعت الضجة، وأغلقت أبواب الحرم، وفتش الناس، فلم يظفروا به، ثم وجده سنان باشا باليمن مع رجل أعجمي فأخذه وقرره، وكبس داره، فوجد عنده غير المفتاح كثيراً من المسروقات، التي أقر بها، فقطع رأسه. وأرسل المفتاح للشيخ عبد الواحد الشيبي (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٨٢). وانظر الواقعة نفسها في أخبار عام ٩٩٦هـ في منائح الكرم.

(٥) ذكر الدحلان أنه في سنة ١٠٤٧هـ ورد أمر سلطاني مضمونه أن العجم لا يحجون البيت، ولايزورون مسجد النبي ﷺ. ثم بعد النزول (من عرفة) نادى منادي الشريف على الموجود منهم في ذلك العام أن يخرجوا إلى السفر سابع عشر من ذي الحجة، ولا =

لإخراج هؤلاء بدون شك. لقد كان الأشراف يخشون شك الأتراك في ولائهم، ولهذا كانوا حريصين على إبعاد هذا الشك من رؤوس السادة الحماة. وإذا عرفنا انتساب هؤلاء وماضيهم الزيدي والاتصال الحميم الذي لا يمكن تجنبه مع الأئمة في اليمن، أدركنا خوف هؤلاء من إظهار التسامح مع الفرس. وقد اشترك عامة الشعب المكي في التعصب ضد الفرس، لأسباب بعيدة عن العقيدة والسياسة، فقد كانت الأموال الفارسية تساهم أقل من غيرها في رخاء المدينة المقدسة. وفي الخفاء سُرّ نفر كبير من أبناء المدينة المقدسة؛ لأن الأشراف قد أظهروا من التسامح للفرس بقدر ما تسمح به الرقابة التركية.

لقد كانت أقلّ المخالفات التي تصدر عن أحد هؤلاء العجم ـ حتى ولو كانت مزورة ـ تشكل دافعاً قوياً لنهب هؤلاء وسلبهم. وقد كان الجنود الأتراك يشتركون في ذلك بكل حماس. وقد دفع أحد الفرس حياته، حينما ادعى أنه المهدي المنتظر[1] فكان جزاءه القتل. وفي حادثة أخرى أصبح الناس فإذا بالكعبة المشرفة ملطخة، فاتهم الفرس بذلك، ونال الكثير منهم عقاباً على صنيعٍ ربما لم يفعلوه. فقد عدّ بعض أهل مكة أن المسببين للتدنيس، هم الذينَ قاموا بالسلب والنهب[2]. وبالرغم من الأخطار التي كان يتعرض لها

= يحجون بعد عامهم هذا. ودار عليهم العسكر وأخرجوهم من بين الحجاج، فخرجوا على أشنع حال (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص١٠٥، وانظر أيضاً حوادث عام ١٠٤٧هـ في منائح الكرم بأخبار مكة والحرم).

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨١هـ.

(٢) جاء في كتاب أمراء البلد الحرام في ثاني شوال من سنة ١٠٨٨هـ أصبح الناس فإذا الكعبة الشريفة ملطخة بما يشبه العذرة، من جميع جوانبها. . فاتهم الناس بهذا الفعل الشيعة. واشتدت حمية الأتراك المحاربين والحجاج، فأخذوا من الحرم خمسة أنفس من العجم، بعد شروق الشمس ووقعوا فيهم بالضرب والرجم بالحجارة حتى أخرجوهم إلى باب السلام، وبعضهم إلى باب الزيادة وقتلوهم شدخاً بالحجارة أو ضرباً بالسيوف وألقوهم على بعض. ولم يطالب فيهم أحد. قال العصامي في تاريخه: ولقد رأيت ذلك الشيء بعيني يعني ما تلوثت الكعبة به وتأملته، فإذا هو ليس بالقاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات، عجن بعدس خمج، وأدهان معفنات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر في تلك الليلة. ولم يعلم الفاعل، وغلب على بعض الظنون =

هؤلاء العجم، كان يأتي كل عام أعداد منهم لأداء فريضة الحج. وفي ضوء الاتهامات المتبادلة بين الترك والفرس كان العرب هم المستفيدون من ذلك. فقد كانت معرفة هؤلاء الجيدة في الطرق التي توصل هؤلاء العجم إلى مكة فرصة لقبض مبالغ طائلة من المال من أجل الحماية.

وبالرغم من الحظر المفروض على قدوم هؤلاء الأعاجم، فقد كان الأشراف يستقبلون الأثرياء من هؤلاء بكل حفاوة وتكريم، بالقدر والوسائل التي لا تثير حساسية الحماة الأتراك. وفي عام ١٧٠٠م (١١١١هـ) اتهم الأتراك الأشراف بأنهم سمحوا لضيوفهم من العجم أن يستعملوا المسجد وكأنه نزلهم الخاص[١]، وكذلك في عام ١٧٠١م (١١١٢هـ) رأى الأتراك أن خطبة العيد كانت لها دلالات شيعية، ممّا عدّوه إهانة لهم[٢]. وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ، ثارت فتنة أخرى ضد العجم سلبت فيها أموالهم، وأخرجوا من المدينة المقدسة قسراً[٣]. وفي عام ١٧٤٤م

= أن ذلك جعل عمداً ووسيلة إلى قتل أولئك والله أعلم بالسرائر، وهو يتولى البواطن والظواهر (الدحلان، أمراء البلد الحرام، ص١٣٢).

(١) ذكر السنجاري في منائح الكرم في حواث سنة ١١١١هـ أنه في هذه السنة ورد من العجم طائفة كبيرة، ولاذوا بالسادة الأشراف، وبذلوا لهم الأموال، فمكنوهم من المسجد، وأنزلوا رؤساءهم في أحسن الدور، وفسحوا لهم في الأمور، بحيث اتخذوا المسجد نادياً يسمرون فيه ويأتيهم فيه الطعام والشرب وأباريق الوضوء والطشوت والفرش، ولايقدر أحد ينكر شيئاً من ذلك، لتقدم أمر من بعض الأشراف لشيخ الحرم والفراشين بعدم التعرض لهم، وأنهم في وجهه، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم(منائح الكرم حوادث سنة ١١١١هـ).

(٢) ذكر السنجاري في حوادث سنة ١١١٢هـ أنه وقعت بدعة شيعية في خطبة العيد، وهو الخطيب الزجاجي، فإنه لما ذكر سيدنا علياً في مقام الترضي أعقبه بذكر ابنيه الحسن والحسين، ثم أتى بذكر الستة الباقين من العشرة رضي الله عنهم. فأنكرت الأروام، وأهل الدين، ورأوا ذلك أشنع بدعة، (منائح الكرم حوادث سنة ١١١٢هـ). والمقصود بذلك أن الخطيب جعل الحسن والحسين مع العشرة المبشرين بالجنة، ولو ذكر العشرة على نسق واحد دون ذكر الحسن والحسين رضي الله عنهما لكان ذلك هو الصواب.

(٣) جاء في أمراء البلد الحرام أنه في سنة ١١٤٤هـ ثارت العوام بالمسجد الحرام على طائفة من العجم كانوا مجاورين بمكة؛ لأن الحج فاتهم سنة ثلاث وأربعين فأقاموا بمكة ليحجوا سنة أربع وأربعين، وكانوا جمعاً غفيراً، وصاروا يترددون على المسجد الحرام للعبادة والطواف، =

(١١٥٧هـ) أرسل الملك الفارسي القوي نادرشاه بعثة إلى مكة، من أجل السماح بإنشاء مقام خامس للطائفة الجعفرية الفارسية. وقد استقبل الشريف هذه البعثة باحترام. إلا أنه لم يجرؤ على تنفيذ الأوامر الفارسية؛ لأنها تلقى معارضة في إسطنبول. فما كان من الشريف إلا أن عرض الأمر على السلطان العثماني، ثم أعقبه بإرسال المبعوث، إلى عاصمة الخلافة، بناء على طلب الباب العالي لذلك[١].

= فزعم بعض العامة أنهم وضعوا نجاسة بالكعبة المعظمة، فثارت فتنة بسبب ذلك لمساعدة العساكر المصرية للعامة. ومشت العامة إلى قاضي الشرع، فهرب من المحكمة والتجأ بحسين آغا، كبير العساكر الإنكشارية، وسار معه إلى أبي بكر باشا صاحب جدة، وكان قد جاء إلى مكة في تلك الأيام. ثم ذهبت العامة إلى مفتي بلد الله الحرام، وأخرجوه من بيته، وأخرجوا أيضاً غيره من العلماء ذوي الهيئات، واحتجوا عند الوزير أبي بكر باشا لقصد نصب الدعوى، والحال أن الخصم غير موجود بل غير معلوم، فراجعهم حضرة المفتي بذلك، فأجابوه بكلام غليظ، وأفعال غير مستحسنة، وتغلبوا على الوزير، حتى أخذوا منه أمراً بإخراج العجم من مكة، ونهب بيوتهم، وأخذوا من القاضي مثله، ومشوا في أزقة مكة، بالمنادي، بأن من جلس بمكة المعظمة من العجم، فهو منهوب مقتول، ونهبوا شيئاً من بيوتهم، ومنعهم عنه وعن غيره بعض السادة الأشراف... قال الرضي: وإنما كل هذا التعصب من أراذل الناس والأتراك، وإلا فأهل مكة الحقيقيون لم يكونوا راضين بذلك. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٣١ ـ ٢٣٢).

(١) ذكر صاحب أمراء البلد الحرام في حوادث سنة ١١٥٧هـ ونقل ذلك عن تاريخ الرضي فقال: أرسل نادر شاه كتاباً لمولانا الشريف مسعود صاحب مكة يقول فيه: إنه حصل الوفاق والاتفاق بيننا وبين الدولة العثمانية على إظهار المذهب الجعفري، وأن يصلي إمام خامس في جميع الأوقات في كل الجهات يصلي الصلوات الخمس بلا معارضة، وأن يدعو لنا على المنابر والمقام، كما يدعو للدولة العلية في جميع ممالك الإسلام. فواصلكم إمام مذهبنا السيد نصر الله، فدعوه يصلي بالناس صلاة خامسة بالمسجد الحرام. وجعل في كتابه شيئاً من التهديد والترهيب. فحصل لمولانا الشريف كرب عظيم من هذا الأمر وكذا أهالي مكة حتى أزعج سكان أم القرى ما طلبه من إظهار مذهب الرافضة، مع أن جميع ماذكره من الاتفاق زور وبهتان على دولة آل عثمان أدامها الله تعالى. فاستحسن مولانا الشريف أن يرسل صورة الكتاب للدولة العلية، ويستمهل الرسول مدة الذهاب والإياب، وأن يعامل الرسول بالملاطفة والإكرام. ولم يرض الوزير أبو بكر باشا صاحب جدة بهذا الرأي بل قال لا بد من قتل هذا الرسول، فأبى مولانا الشريف أن يسلم الرسول للقتل، وقال لا بد أولاً من إنهاء الأمر إلى الباب العالي، فأغلظ عليه أبو بكر باشا وتعصب، واتهم الشريف أنه اعتقد هذا المذهب فخشي الشريف =

لم يكن غضب الأتراك على الزيدية في اليمن بأقل من غضبهم على الجعفريين الأعاجم. ومن المعلوم أن هناك صلات قوية تربط المدينة المقدسة باليمن، أولاها القرب الجغرافي بين المكانين، ثم صلات القربى بين حكام اليمن والأشراف، والتجارة القائمة بين البلدين، إضافة إلى تشابه المجتمعين في العادات والتقاليد. هذه العوامل مجتمعة أدت إلى وجود علاقات مأمولة بين اليمن ومكة. ومع كل هذه الاعتبارات كان الأشراف يتخوفون دائماً من الانضمام العلني إلى إمامة صنعاء، لتجنب غضب الأتراك عليهم. وقد وجدوا أنفسهم في عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) مضطرين لإرجاع الحجاج الزيديين القادمين لأداء فريضة الحج[١]. وكذلك فإن الزيديين المقيمين في مكة قد تحولوا إلى المذهب الحنفي. غير أن هذا مشكوك بجديته وصحته؛ نظراً لما صَاحَب هذا التحول من تعذيب جسدي لهؤلاء المتحولين[٢]. ومع كل الحذر الذي كان يبديه الأشراف تجاه أئمة اليمن، إلا أنهم كانوا يحاولون الإبقاء على الصلات الودية ما أمكنهم ذلك، فقد لاقى الأمراء الزيدون، الذين كان عليهم مغادرة اليمن نتيجة الصراعات العائلية، كل مودة وترحيب من أشراف مكة في عام ١٦٨٩م[٣]. وهذا الترحيب والاستقبال الودّي كان يقابله ترحاب مماثل لبعض الأشراف الملتجئين عند الحسنيين في الجنوب. ولم تستطع الاعتراضات التركية أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص.

= أن يرميه عند الدولة بهذا الاعتقاد، فأمر لدفع التهمة أن يجهروا على المنبر والمقام بلعن الرافضة وأهل البدع اللئام، فزال من خواطرهم ذلك الاتهام، فجاء الأمر من الدولة العليا بتكذيب ما افتراه شاه العجم، وطلبوا ذلك الرسول وهو السيد نصر الله ليحضر إلى الباب العالي، فتوجه بصحبة أمير الحج الشامي أسعد باشا في ذلك العام (انظر أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٢٤١).

(١) انظر تفصيل ذلك في الدحلان: أمراء البلد الحرام ص١٢٢.

(٢) منائح الكرم، حوادث سنة ١٠٨٣ هـ.

(٣) ذكر السنجاري وصفاً مفصلاً لمظاهر الاستقبال والتكريم، الذي حظي به هؤلاء الأمراء، من قبل الأشراف في الطائف، ومن قبل الشريف الكبير في مكة. (انظر منائح الكرم حوادث سنة ١١٠٠هـ).

لقد استطاع الشريف زيد عن طريق الغزوات المتكررة التي شنها على العصاة، وكذلك عن طريق الرحلات التي كان يقوم بها لمختلف المناطق، أن يجعل اسم شريف مكة مهاباً أكثر من ذي قبل. ومن ناحية أخرى عرف كيف يرضي رؤساء العائلات المنافسة، وخاصة العبادلة، بحيث إن جميع هؤلاء الرؤساء قد تركوا له المرتبة الأولى بلا منازع. لقد كان ذوو زيد يتمتعون بخصائص جدهم، فقد كان هؤلاء يتصرفون مع السلطة العثمانية كصبي عنيد أمام وصي صارم، لكنه غير حذر.

لقد كان التأديب دائماً في انتظار هؤلاء، لكنهم كانوا على قناعة تامة أن تطبيق مثل هذا التأديب يعتمد على الصدفة، مما يجعل الانصياع والطاعة أمراً لاداعي له دائماً.

ولاية الشريف سعد الأولى

خلف الشريف سعد بن زيد أباه بعد موته (١٦٦٦ ـ ١٦٧٢م) (١٠٧٧ ـ ١٠٨٣هـ) (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣٤)، وكان عليه أثناء فترة حكمه القصيرة أن يقاتل حمود بن عبد الله. وكذلك يدخل في خصام مع أحد إخوانه. ولم يكن لينعم بالهدوء من قِبَل أقاربه، إلا بعد أن أخذ جميع مطالبهم بعين الاعتبار. ولقد دخل الشريف سعد في خصومة مع والي جدة، على عدم استيفاء الشريف لحصته من المكوس المترتبة على البضائع المستوردة في جدة [المعلوم]، وجرياً على سنة أبيه، فقد أمر مرتزقته بقتل السنجق أثناء فترة الحج عام ١٦٧١م[١]. غير أن المحاولة فشلت؛ ولأن الباشا لم يجد مساعدة اتجه نحو الشمال[٢]، ووثّق علاقاته مع فخذ آخر للعائلة؛ ليمنح أحد أفرادها لقب شريف مكة. فما كان من الشريف سعد إلا أن وجّه الدعوة إلى أقاربه هناك، وإلى خصمه السابق حمود للتعاون ضد الأتراك، «الذي يعنينا يعنيك»، وكان الأشراف دائماً يأخذون ذلك بعين الاعتبار. ولا تتضّح لهم أهمية ذلك إلا في لحظات الشدة. وقد ساعدت

---

(١) بعضهم يقدّر أن حادث الاغتيال حصل عام ١٦٧٢م، فقد ذكر الدحلان وقوع الحادثة في ختام سنة ألف وإحدى وثمانين، وقيل اثنين وثمانين وألف. وهذا التاريخ يقابل ١٦٧١م أو ١٦٧٢م.

(٢) اتجه الباشا نحو المدينة المنورة، حيث قام بإقناع السيد أحمد الحارث بتولية شرافة مكة. (أمراء البلد الحرام ص١١٨).

الوحدة هذه على إحراز النصر. أما باشا جدة فقد أقيل من منصبه، ومات فجأة في طريق العودة إلى وطنه.

إن إنهاء هذه الفترة من سلطة ذوي زيد، كان من عمل أحد سكان مكة الأذكياء والمثقفين، وهو العلامة محمد بن سليمان المغربي، الذي عاش في مكة، وذهب إلى إسطنبول. واستطاع أن يقنع الوزير الأكبر في إسطنبول بمنحه صلاحيات واسعة للقضاء على كل الظروف السيئة بمكة، وذلك بالوسائل الحسنة، ولسنا نعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك أهو الطموح الشخصي؟ أم عداوته للشريف سعد؟ أم حماسه لإصلاح الأوضاع المتردية في مكة المكرمة؟ أم مزيج من ذلك كله؟ ولقد رافقت الشيخ فصائل الجيش من سوريا ومصر أثناء حج عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) وكلف العسكر بأن يتصرفوا طبقاً لأوامره.

الشيخ المغربي في مكة

لقد فشلت كل محاولات الإغراء بالشريف سعد للوقوع في قبضة أمراء العسكر، وقد أدرك الشريف سعد الهدف من إرسال هذه القوات؛ ولذلك اكتفى مع أخيه محمد بمغادرة مكة. أما المغربي فكان عليه لتحقيق أهدافه أن يستخدم أحد الأشراف الآخرين، الذي يدين بوجوده في السلطة للشيخ المغربي، وبذلك يستطيع أن يسيّره كما يشاء. ولقد أوصى الشيخ باختيار أحد الأشراف من ذوي بركات (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٤) الذين لم يحكموا حتى ذلك الوقت. وكل ما حصلت عليه العائلة هو العائدات والمداخيل فقط. لقد كان الشريف الجديد بركات بن محمد (شجرة النسب الثالثة رقم ٣٠) ثم ابنه وخليفته من بعده سعيد (شجرة النسب الثالثة رقم ٣٨) قد تقلدوا المنصب الرفيع (١٦٧٢ ـ ١٦٨٤م) (١٠٨٣ ـ ١٠٩٥هـ) بصفتهم مساعدين عند الضرورة، وكانت شخصيات

عودة ذوي بركات

هؤلاء تظهر في الظل، مقابل المندوب السامي غير العادي، وهو الشيخ المغربي. الكتاب المكيون كان غيظهم شديداً على هذا الدخيل، لكنهم يعطوننا عن طريق أخبارهم الموضوعية، صورة حسنة عن نشاط الشيخ بصفته إدارياً فذاً.

أعمال الشيخ المغربي

لقد تخطت إصلاحاته الأعراف الموضوعة بدون تحفظ. كما أوصلت تنظيماته الجديدة المنافع المادية إلى المكّيين الفقراء، والمجاورين الضعفاء، أكثر من الأرستقراطيين والأغنياء، من سكان المدينة المقدسة، لقد نظمت إدارة الأوقاف من قِبَل الشيخ دون أدنى اعتبار لمطالب المالكين آنذاك، وقد ألغى الضرائب غير المباشرة، كما ألغى رسوم المهن التي أثرت كثيراً في متطلبات الحياة. كما حاول منع حصول الشريف الكبير من أخذ ربع كمية القمح المرسلة سنوياً إلى مكة؛ لأنه خصص له بدلاً منها مبلغاً معيناً من النقود، يرسل إليه بانتظام. وقد منع مواكب الاحتفالات بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف. وألغى الاحتفالات الترفيهية التي كانت تقام في ذكرى موت أحد الأولياء المدفون بالشبيكة؛ بسبب ما تسببه من ضروب الفسق، وانتهاك المحرمات. لقد تصرف الشيخ المغربي بحزم ضد هذه الأعمال السيئة، وكان بعضها يشكل جزءًا من عادات سكان المدينة المقدسة، بصورة لم يأخذ فيها اعتباراً لأحد، مما جلب عليه غيظ معظم المكيين. غير أن أحداً لم يجرؤ عل معارضته علنياً، أو على إظهار العداوة له، وذلك بسبب الدعم الذي ارتكز عليه في إسطنبول من جهة، وبسبب أوامره النافذة على القوة العسكرية التي رافقته أثناء وصوله. غير أنه بعد موت الوزير الكبير في إسطنبول (١٦٧٥م) (١٠٨٦هـ) ضعفت هيبة الشيخ، واضمحل سلطانه، وبعد عامين من ذلك اضطر إلى الهجرة إلى المدينة المنورة قسراً. وفي عام ١٦٨٠م (١٠٩١هـ) سمح له بالعودة إلى مكة، ليعيش فيها رجلاً عادياً. وقد واتته الفرصة أن يرى كيف أن كل التجديدات التي أحدثها في المدينة المقدسة قد أُلغيت تماماً، وبانتهاء الشيخ ضعفت سيادة ذوي بركات وأخذت بالتدهور. وإليه يعود الفضل في بقاء هذه العائلة حتى عام ١٧٧٠م (١١٨٤هـ) منافساً قوياً لذوي زيد؛ لأنه في عرف العرب عندما يطالب شخص ما بالعرش ـ وهذا الشخص ينتمي إلى فخذ سبق أن كان العرش عنده ـ فإن لذلك وزناً كبيراً، فهو يطالب بحق مشروع. وعلى العموم فلم يكن الشريف سعيد الرجل المناسب الذي يدافع عن تركة والده المضطربة أمام ذوي زيد الأقوياء.

منذ البداية كان قد اشترط على ذوي بركات، بأن تحصل بقية العائلات الحاكمة على ثلاثة أرباع المداخيل. وفي أثناء نفوذ الشيخ المغربي، رضي الجميع بالأمر الواقع، بما فيهم زعيم العبادلة، الذي رضخ للأمر الواقع بعد بعض التردد.

ذوو زيد في إسطنبول

أبناء الشريف زيد المعزولون حاولوا تحريض بعض القبائل للقيام بأعمال عدوانية ضد الشريف بركات. وحين لم تثمر هذه الأعمال في وصولهما إلى السلطة سافرا إلى إسطنبول، وهناك قدم لهما السلطان العثماني الهدايا الكثيرة، وعينهما في مناصب إدارية هناك. غير أنهما كانا دائماً يتطلعان إلى العودة إلى وطنهما. ويستدل من الأوامر المتكررة من إسطنبول، بدفع مبالغ مالية إلى أقاربهما من النساء في مكة، على أن لهما حظوة عند السلطان، وأن كلمتهما مسموعة لديه[1]. وفي هذه الأثناء سافر زعماء عائلات آخرون إلى إسطنبول للشكوى بسبب تأخير دفع حصصهم المقررة لهم. وقد أدى الخلاف بين العائلات، حول تقسيم المدخول، إلى الفوضى الكاملة. فكل رئيس عائلة أخذ ما اعتقد أنه حقه، بدون توسط كبير الأشراف، مما أحدث الانقسام والفرقة. وقد زادت الأوضاع سوءًا في البلد الحرام نتيجة الصراعات التي كان يقوم بها عبيد هؤلاء السادة، سواءً فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين خصومهم من عبيد العائلات الأخرى، مما أزال الأمن والاستقرار في بلد الله الحرام. أما ذوو مسعود (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٦) فقد وقفوا على رأس المعارضة، التي ازدادت إلى الحد الذي وجد الشريف الكبير نفسه مضطراً لطلب المساعدة العسكرية من إسطنبول[2].

---

(١) أورد الدحلان في أخبار عام ١٠٨٨هـ ورود مرسوم من الوزير الأعظم بأن يطلق مولانا الشريف بركات على المصونة الشريفة عمرة بنت الشريف زيد، ألفاً ومائتي شريفي أحمر من المال، الذي جعلته السلطنة للسادة الأشراف، وكذلك يطلق عليها من الحب الوارد بأسماء الأشراف ستمائة أردب. فأطلق عليها مولانا الشريف الدراهم، وتوقف في أمر الحب، وقال يكفيها النصف. فامتنعت من أخذ النصف. ثم جاء مرسوم آخر في سنة ١٠٨٩هـ لصاحب جدة، أن يدفع للشريفة عمرة المذكورة ستمائة أردب لخادمها سليم آغا من الحب الوارد في السنة المذكورة. (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص١٣٣).

(٢) ذكر الدحلان أن الشريف سعيد بن بركات عرض للدولة خراب الحجاز، وطلب عسكراً =

غير أن السلطان بدل أن يرسل هذه القوات، وافق على اقتراح الشريف أحمد ابن زيد (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣٥) المتضمن الالتماس بإرساله عام ١٦٨٤م (١٠٩٥هـ) شريفاً لمكة لفرض النظام والأمن فيها.

الهدايا مثار النزاع

من بين المداخيل المهمة في مكة قديماً وحديثاً هدايا الأمراء الهنود. وقد كانت هذه الهدايا مثاراً للنزاع فيما بين السادة. لقد كانت بعض أموال الهند تجمع من خلال رسائل ودية يرسلها مبعوثون من قبل سادة مكة[1]. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بعض أفراد بني شيبة يذهبون إلى بلد الذهب لأغراض مماثلة، وذلك كلما ازداد دائنوهم بالإلحاح عليهم لتسديد الديون المترتبة عليهم.

المغولي الكبير (أورانجزيب)[2] الذي كان معاصراً لبركات، كان قد حدّد مبلغاً من المال يقوم نائبه في سوارت بإرساله إلى مكة سنوياً. ويذكر نيبور في تقاريره أن هذا المصدر قد بقي حتى منتصف القرن الثامن عشر، حين تدخل الإنجليز لقطعه، ومنعه من الوصول إلى مكة.

في عهد الشريف سعيد أمضت بعثة أرسلها أبوه مدة أربع سنوات (١٦٨٣م) (١٠٩٤هـ) في انتظار طويل غير مجدٍ لمقابلة سلطان المغول (أورانجزيب)، وبناءً على نصيحة أصدقاء أعزاء توجه الوفد إلى أتشيه في جزر الهند الشرقية، التي تبرعت حاكمتها المؤمنة السنية بالهدايا الثمينة

= لإصلاحه، وكان هو وعمه عمرو ينتظران الجواب. غير أن السلطان قرر تعيين الشريف أحمد بن زيد، ووجهه إلى مكة، فلما علم الشريف سعيد بالخبر، أرسل إلى الشريف مساعد ابن الشريف سعد بن زيد وقال له: ياسيد مساعد، لم أرسل إليك في هذا الوقت إلا قصدي أودعك أهلي، فإن عمك الشريف أحمد تولى مكة، وأنت تقوم مقامه حتى يصل. وخرج الشريف سعيد إلى الوادي (وادي فاطمة) وأقام به حتى سافر الحج المصري، فذهب معه إلى مصر وتوفي فيها (أمراء البلد الحرام ص١٤٤ ـ ١٤٥).

(١) منائح الكرم حوادث سنة ١٠٩٤هـ.

(٢) هو محيي الدين محمد أورانجزيب عالمكير (١٠٦٨ ـ ١١١٨هـ) أشهر سلاطين المسلمين في الهند اشتهر بالتدين والتقوى والورع والشجاعة، (لمزيد من المعلومات انظر جمال الدين الشيال تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند، الطبعة الأولى دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص١٥١ ـ ١٦٦).

والذهب الكثير. وقد أدى تقسيم الهدية القيمة إلى مشاحنات قوية بين الإخوة[١].

أهمية ذوي زيد (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٤، ٤٦) الذين كانت إمارة مكة تحت حكمهم خلال الفترة مابين (١٦٨٤ ـ ١٧٠٤م) (١٠٩٥ ـ ١١١٧هـ) مع بعض الانقطاع، تتركز بصورة جلية، في الشريف سعد بن زيد. أما أخوه أحمد الذي أرسل إلى مكة من إسطنبول، لم يعش سوى أقل من أربع سنوات كاملة. وقد قام إخوته وأبناء عمومته بمحاولات ضده، غير أنها لم تكن ناجحة. وقد تضامنوا مع أخيه سعد من أجل مصالحهم. أما ابنه سعيد فقد كان طوال حياة أبيه نائباً له ومنفذاً لأوامره.

ولاية الشريف سعد الثانية

عندما عاد سعد من منفاه الاختياري ١٦٩٢م (١١٠٤هـ) كان يضع على رأسه طربوشاً تركيّاً. وقد قام بتغييره بعد فترة وجيزة بآخر عربي. وكان هذا نهاية لكل التغييرات التي حدثت لسعد أثناء وجوده في تركيا. وقد كان أسلوبه شبيهاً بأسلوب أبيه. فقد بقي حتى ساعة موته يفضل مقاتلة أقاربه ثم الأتراك على الهدوء المريح. كان هناك شيء واحد فقط هو الذي تعلمه في أثناء وجوده في الشمال، ألا وهو أن رغبة السلطان وأوامره، ما هي إلا قرارات قابلة للتغيير في كل لحظة، تصاغ في وسط كله صراع ومكائد.

---

(١) ذكر الدحلان في حوادث سنة ١٠٩٤هـ «ومن الحوادث في دولة سينا الشريف سعيد أن والده سيدنا الشريف بركات كان أرسل هدية إلى سلطان الهند، فأقام الحامل للهدية هناك أربع سنين لعدم قبول السلطان عليه والتفاته إليه، فدخل بما معه من الهدية إلى بندر آشي وكان بيد امرأة فأهدى إليها ما معه من الهدية وأفهمها أنه مرسل من الشريف بركات صاحب مكة، ففرحت بذلك فرحاً عظيماً ووقع لها موقعاً، وأمرته بالإقامة لتهيىء له هدية لمرسله. فاتفق أن حرقت كنيسة هناك فانسبل ما فيها من الذهب إلى أن صار له صورة، فأمرت بحمله في هدية سيدنا الشريف، وجعلت أيضاً معها صدقة لمكة. فجاء حامل الهدية والصدقة مكة بعد ولاية سيدنا الشريف سعيد، ومن جملتها هذا الذهب ومقداره على ما قيل ثلاثة قناطير من الذهب، وربما يصفو خالصاً على النصف وكافور ثلاثة أرطال، وعود وزباد، وخمسة قناديل ذهب للكعبة، ومنجرتان وشمعدانات، وللمدينة المنورة أيضاً قناديل وشمعدانات. فلما وصلت الهدية في شعبان سنة أربع وتسعين وألف، وقع بين السادة الأشراف أصحاب الأرباع نزاع؛ لأن الأشراف يريدون أن يأخذوا ثلاثة أرباع تلك الهدية، والشريف سعيد لا =

وهذا يتيح المجال للخارجين على السلطة لعدم تصديق الأوامر غير السارة التي كانت تعطى لهم باسم السلطان. وقد اتبع ذوو زيد هذه السياسة حتى هذه الأيام (١٨٨٥م). إن كل مندوب سامٍ أو أمير للحج، يحمل لهم رسالة العزل، كانوا يؤكدون له طاعتهم للسلطان، ويضيفون إلى ذلك في البداية أن كل فرمان عزل هو مزور، وأنه حصل عن طريق الدس والتحريض. وإذا جاء الأمر من باشا مصر كانوا يقولون: «نحن مطيعون للأمر السلطاني. فإن كان ليس بأمر سلطاني، فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل ويولّي فيه مَنْ يشاء، وما دون مكة إلا السيف»[1]:

هذا الفخر والاعتزاز لم يمنع خلال الفترة ١٦٨٨ ـ ١٦٩٠م (١٠٩٩ ـ ١١٠١هـ)، دخول ذوي مسعود، وبمساعدة باشا مصر إلى مكة، ليأخذوا منكسر المعلوم الذي منع عنهم، وكان ذلك بقيادة زعيمهم أحمد بن غالب (شجرة النسب الثالثة رقم ٤٢). ومن الجدير بالذكر أن سلطة أحمد هذا كانت قوية فقط لأغراض المعارضة، وعندما طلب الشريف أحمد المساعدة ضد ذوي زيد. وكان مدركاً بأنه لا يستطيع البقاء بدون مساعدة الباشا أجابه الباشا: «يا شريف نحن هنا للمحافظة على مكة، ولمقاومة العدو الخارجي، الذي سنقاتله حتى الموت. أما الأشراف فهم أبناء عمك، ونحن لا نريد أن نتدخل في صراعاتكم». وقد كان الحكام مضطرين إلى الصيد في الماء العكر، لأن القوات التركية لم ترسل للسيطرة على الوضع إلا في الحالات النادرة. حيث كان في كثير من الأحيان للأتراك ضلع في الخلافات المكية. وهكذا عمل في عام ١٦٩٥م (١١٠٧هـ) أحد حكام جدة على عزل عدوه القديم سعد، وعيّن رئيس ذوي عبد المطلب (شجرة النسب الثالثة رقم ٣٧)[2] الأقل مرتبة،

= يريد إعطاءهم ثلاثة أرباع. فأوجب أن تحمل في بيت السيد محمد الحارث إلى أن يتفقوا وينقضي رمضان، فبقيت عنده. ثم اتفقوا على أن يأخذ أصحاب الأرباع النصف مما ورد باسم الهدية، وتفرّق الصدقة على الفقراء. فأخذوا الهدية، وفرّقوا الصدقة. (انظر الدحلان، مرجع سابق ص١٤١ ـ ١٤٢).

(١) هذه كلمات الشريف سعيد بن سعد حين ورده كتاب حاكم مصر بعزله وتولية الشريف أحمد ابن غالب (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٤٩، ومنائح الكرم في أخبار سنة ١٠٩٩هـ).

(٢) هذا الشريف هو عبد الله بن هاشم الذي دامت ولايته أربعة أشهر فقط.

وذلك في محاولة من أجل القضاء على ذوي زيد، غير أنه بعد أربعة أشهر فقط، تم طرده من قبل الشريف سعد، حيث غادر مكة إلى إسطنبول مع مساعده غير المحظوظ[١]، الذي حاول في السابق طلب المساعدة من الأئمة الزيدية لنيل شرف الإمارة[٢]. ويروى عنه أنه كان شاعراً مجيداً. كما يروى عنه أيضاً أنه في أثناء فترة حكمه قام بسك بعض النقود من ذهب الكعبة[٣]. وفي إسطنبول توفي الاثنان هناك بعد فترة وجيزة[٤].

محاولة الشريف تعيين ابنه حاكماً لسنجق جدة

كان على ذوي زيد أن يتعاملوا بصورة رئيسة مع العبادلة وذوي بركات، وكانت هاتان العائلتان قد شكلتا معارضة مستمرة. وقد كان ذوو بركات يلقون تشجيعاً من ممثل السلطان في جدة. ولما مات حامل الأوسمة في جدة عام ١٦٩٨م (١١٠٩هـ)، حاول الشريف سعد بذكاء ساذج، أن يثبت للسلطان، بأن تعيين ابنه سعيد حاكماً لسنجق جدة، سيكون أفضل، وسيساعد ذلك في حفظ أمن الحج. وكان الجواب طبعاً أن الباب العالي يفضل أن يختار ممثليه. وهذا يدل دلالة أكيدة على أن هؤلاء كانوا يعطون صلاحيات واسعة، عن طريق تعليمات سرية، تصدر لهم عن الباب العالي مباشرة.

---

(١) هذا الشريف هو أحمد بن غالب.

(٢) انظر تفصيلات ذلك في منائح الكرم أخبار سنة ١١٠١هـ و١١٠٢هـ.

(٣) انظر تفصيلات ذلك في منائح الكرم في حوادث عام ١١٠١هـ. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها كنوز الكعبة. فقد جاء بأخبار مكة المشرفة في حوادث عام ٢٥١هـ أن عامل مكة، قد قلع ما على عضادتي باب الكعبة من ذهب، وضربه دنانير واستعان بها على حرب العلوي، الذي خرج عليه يومئذٍ (أخبار مكة المشرفة ج١ ص٣٤٣ وج٣ ص١٤٥) وفي عام ٣١٨هـ قلع عامل مكة مقدار الربع من الذهب، الذي كان مصفحاً على باب الكعبة، ومن أسفله، وما على أنف الباب الشريف من الذهب، وضربه دنانير واستعان به على دفع تلك النفقة. ومن الجدير بالذكر أن مكة كانت في بعض الأوقات تتخذ مكاناً لسك العملة والنقود. فقد قام أخو صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨١هـ بسك دراهم ودنانير في مكة باسم أخيه صلاح الدين. وفي عام ٧٨٧هـ ضربت السكة بمكة باسم حجاز الحسني. وفي نهاية القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) كان الحديث يدور حول مسكوكات في مكة. وذكر نيبور في عام ١٧٦٢م، أن هناك مسكوكات أجنبية كثيرة في الحجاز (المؤلف).

(٤) ذكر الدحلان أن وفاة الاثنين كانت في إسطنبول عام ١١١٣هـ.

محاربة الشريف سعد للبدو

لقد أثبت الشريف سعد عن طريق الغزوات التي كان يشنها على البدو المجاورين، وكذلك عن طريق الانتصارات التي حققها على أبناء عمومته، أنه مثال الشجاعة المعروفة عند عشيرته. لقد كان الشريف سعد، بعد كل فتنة تؤدي إلى طرده من شرافة مكة، يقوم بتجميع أعداد كبيرة من البدو الموالين له، الذين كانوا يقدّمون خدماتهم ومساعداتهم مقابل السماح لهم بالسطو والسلب. وفي كل مرة يتعرض الشريف سعد بها للحصار، كان ينادي رعاع مكة، من خلال قرع الطبول بالشوارع، لقتال الأتراك وأصدقاء الأتراك، إلى أن فقد الشعب الممتحن الصبر، فزادت القلاقل، وكثرت المشاحنات بين أفراد البيت الحاكم، مما اضطر والي جدة أن يكتب للشريف الذي يكنّ كلّ عداوة للأتراك: إذا كنتم لاتستطيعون القضاء على الأشراف الذين يهاجمونكم ويناصبونكم العداء، فأخرجوا من البلاد، فقد نعيّن لها مَنْ يقوم بحفظها. فردوا له الجواب: ليس عندنا إلا السيف أو يرضون بالحيف[1].

وقوف باشا جدة ضد الشريف سعد ومحاولة عزله

لقد وقف باشا جدة موقف المعارضة من قِبَل السلطات الدينية في مكة، التي كانت تنادي بضرورة تثبيت الشريف سعد ومساعدته، وبذل كل ما لديه من صلاحيات لتعيين الشريف الذي يراه مناسباً. أما الشريف الجديد المختار، فهو رئيس ذوي بركات الشريف عبد الكريم[2]. (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٤٩). وقد كان عليه بالرغم من تعيينه رسميّاً أن يستعمل السيف من أجل تثبيت حكمه، أمام خطر الشريف سعد، الذي لم يتخل قط عن الحرب، مستعيناً بما يستطيع تسخيره من البدو لخدمته، ولم يثنه عن عزمه أنه جرح جرحاً مميتاً في إحدى غزواته لنيل المدينة المقدسة.

تولي الشريف عبد الكريم

---

(١) انظر معنى الكتاب الذي أرسله والي جدة إلى الشريف سعيد ووالده سعد (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٧٥).

(٢) في الواقع قام باشا جدة بمساعدة الشريف عبد المحسن بن أحمد بن زيد وتنصيبه، الذي استمرت ولايته تسعة أيام فقط، وهي عدد حروف اسمه كما يقال، ثم تنازل بعدها للشريف عبد الكريم بن محمد (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٧٩ ـ ١٨٠).

وقبل دخوله الأخير لمكة، أصابت الشريف نوبة ضعف، فقد رأى أنه قد انقطع أمله في الحكم. فبينما هو كذلك إذ بشّره أحد الرمالين[1] بدخول مكة، وقد أيقظ في نفسه الشجاعة التي كادت أن تضعف[2]، فتوجه إلى مكة مع جموع من البدو، الذين استطاع من خلالهم أن يبسط سلطانه على المدينة المقدسة[3].

الأشراف يستخدمون كاشفي الأسرار والمعتقدات الخرافية

وعلى ذكر الرمالين أو كاشفي الأسرار في الحجاز فقد كانوا يقرؤون التنبؤات بواسطة الرمل أو الودع أو أشياء أخرى. وقد حظي السحرة والرمالون عند الأشراف - رغم تحريم الإسلام[4] لذلك - بسمعة عالية. لقد تم التنبؤ للطاغية أحمد بن عبد المطلب عام ١٦٢٨م (١٠٣٨هـ) بولاية مكة من قِبَل شيخه الذي أدخله في الصوفية[5]. وقد حصل الشريف سعد من أحد المشعوذين على رؤيا غامضة، فسّرت بأنها محنة ستقع في مكة، وذلك قبل وقت قليل من مهاجمة محمد بن سليمان المغربي - الذي تدعمه قوات مصرية وسورية - للشريف عام ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ)[6].

---

(١) السحرة والمنجمون الذين يتعاطون السحر والشعوذة وخداع الناس.

(٢) انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٨٤.

(٣) جاء في أمراء البلد الحرام وصف دخول الشريف سعد مع أهل البادية إلى مكة قوله: تغلبت البادية التي مع الشريف سعد على النهب من كل جهة، فنهبت البيوت، وأخذوا ماوجدوا من نقود وقوت، وما عزّ وهان من متاع وأثاث، وروعوا الذكور والإناث. فكم من رجل نزعت من فوقه ثيابه، وكم من حرة شريفة هتكت، وكاسية سلبت، وحامل أسقطت. فمازالوا ينهبون، الرفيع والوضيع، ويسومونهم الضرب والتقطيع، حتى دخل الليل، فمن الناس مَنْ مات فجأة، ومنهم مَنْ مرض، ومنهم مَنْ اختل (الدحلان، أمراء البلد الحرام ص١٨٥).

(٤) جاء في الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». وذكر السحر منها.

(٥) جاء في أمراء البلد الحرام: كان الشريف أحمد بن عبد المطلب ذا أدب وفضل، نبيهاً نجيباً جيد الذكاء، حسن الصورة، عظيم الهيبة، أخذ طريق الصوفية عن العارف بالله أحمد الشناوي، وهو الذي بشره بولاية مكة. ولما دخل واستولى عليها صادر كثيراً من الناس، وأخذ أموالهم ولم يرحم أحداً. وكان له إخوان وجلساء قبل الولاية فعجل لهم الأذية، فحبس من حبس، وقتل من قتل، فنفرت الناس، وجلت عن مكة، وخالفت القبائل، وتقطعت الطرق. . . (الدحلان، أمراء البلد الحرام، ص٩٩). فحاكم هذه خصاله، لا عجب أن يلجأ إلى السحرة والمشعوذين، وإلى اتباع طريق المنحرفين من الصوفية.

(٦) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص١٢١، وانظر منائح الكرم حوادث سنة ١٠٨٢هـ.

وكذلك بشر الشريف بركات عن طريق أحد السادة بأنَّ نجم حظه قد صعد[1]. كما حسب أحد المنجمين الدجالين للشريف زيد، متى حملته أمه ونتج عن ذلك الحساب، بأن نموه في بطن أمه قد استمر أحد عشر شهراً. وفي عام ١٧٣٤م (١١٤٦هـ) قتل أخو الشريف الكبير مسعود (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٥٣) أحد السحرة المغاربة، لاعتقاده بأن السحر الذي عمله ذلك المشعوذ المغربي، قد جعل ابن أخيه محمد قادراً على مقاتلته، وحتى ينتهي مفعول السحر قام جميع خدم الشريف بالتبول على جثة الساحر[2].

لقد ذكر نيبور[3] أنه في أثناء إقامته في جدة عام ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) طلب إليه الشريف مساعد أن يتنبأ له بواسطة النجوم، فيما إذا كان أخوه الثائر ضده، يتمكن من أن ينتصر في ثورته. وفي هذه الأيام (١٨٨٥م) يتنبأ الأشراف في أثناء جلساتهم الخاصة فيمن سيكون ولياً للعهد، من بين الإخوة المعنيين، بالرغم من أن ذلك يعدّ من قِبَل الأكثرية نوعاً من المزاح. بالرغم من أنه في هذه الأمور يصعب التمييز بين الجدّ والهزل.

وعوداً على بدء فلم يعط ذوو بركات رغم علاقتهم الحسنة مع العثمانيين أي فرصة للهدوء. وإن إدارتهم التي دامت سبع سنوات (١٧٠٤ ـ ١٧١١م) (١١١٦ ـ ١١٢٣هـ) (انظر شجرة النسب الثالثة) انقطعت عام ١٧٠٥م (١١١٧هـ) من قبل الشريف سعيد. لقد انتظر ذوو زيد بدون انقطاع مع أحلافهم من البدو، كل لحظة ضعف من خصومهم. وفي هذه الأثناء أصبح وضع الأشراف في الحكم أكثر صعوبة، نظراً إلى غير المركزية المتزايدة، التي منحت لأقطار الإمبراطورية العثمانية، مما أدى إلى إحياء التنافس بين سورية ومصر من جديد. ومنذ عام ١٧٠٧م (١١١٨هـ) تنازع أميرا الحج لسورية ومصر من جديد حول المرتبة الأولى لمحمل كل

---

(١) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص ١٢٥.

(٢) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) Reisebeschreibung ج١ ص٢٧٥.

منهما، وحقهما في السير أمام الآخرين من سكان مكة[١]. وكان من نتائج هذا النزاع أن المصريين والإنكشارية القاطنين في مكة قد انحازوا إلى ذوي زيد، بينما باشا جدة وقادة السوريين قد تحزبوا إلى جانب ذوي بركات. وقد تجرأ عبيد الأشراف على الوقوف بكاملهم ضد الجنود الأتراك بسبب أقل إهانةٍ توجّه إلى أحد منهم[٢]. أما الأشراف أنفسهم فكانوا حريصين جداً على عدم السماح بأي تدخل أجنبي. فعندما أيّد أمير الحج السوري حق أمير الأحساء بأداء فريضة الحج مع أبناء بلده دون أن يدفع الضريبة المقررة[٣]، أجاب الأشراف بأنهم معتادون على تنظيم علاقاتهم مع البلاد غير التركية، بحسب مقاييسهم الخاصة، وبقي الأمر عند هذا الحد الذي ارتآه الأشراف. وفي عام ١٧١٠م (١١٢٢هـ) اتفقت معظم عائلات الأشراف بزعامة العبادلة على الانضمام إلى صفوف المعارضة، وتقدموا واحتلوا ميناء القنفذة وسلبوه[٤]. وهنا انحاز أيضا باشا سورية ضد ذوي بركات. وفي عام ١٧١١م (١١٢٣هـ) عيّن حفيد زيد من جديد شريفاً أكبر لمكة. فعاد شيخ آل بركات إلى أملاكه الخاصة في وادي مر الظهران، بعد أن التجأ فيه إلى صفوف خصومه. وبمرور سنوات القرن الثامن عشر الميلادي (١٢هـ) اكتسبت سلطة ذوي زيد في مكة أرضاً صلبة. وأن كل من عرف التاريخ القديم لشرافة مكة، كان محقاً أن يتنبأ باستمرارية الزعامة لهذه العائلة على رأس الإمارة، مع استثناء الفروع الجانبية.

الشريف يحيى

وخلال الفترة من عام ١٧١٨ إلى ١٧٢٠م (١١٣٠ ـ ١١٣٢هـ) كان هذا المنصب الرفيع في يدي واحد من ذوي بركات، يحيى بن بركات (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣٩). وقد كان هذا الرجل عام ١٦٨٤م (١٠٩٦هـ) بعد الإبعاد الأول لعائلته قد سافر إلى إسطنبول. ومنذ عام ١٦٩١م

---

(١) انظر تفاصيل الرواية في أمراء البلد الحرام ص٢٠٤ ـ ٢٠٥، ومنائح الكرم حوادث عام ١١١٨هـ.

(٢) منائح الكرم حوادث سنة (١١٢٠هـ).

(٣) منائح الكرم حوادث سنة (١١٢٢هـ).

(٤) أمراء البلد الحرام ص٢٠٨.

(١١٠٣هـ) عمل في خدمة السلطان، لمرافقة قوافل الحج السورية، لحمايتها في أثناء عبورها مناطق القبائل المتواجدة في شمال غرب الجزيرة. وقد عاد الشريف يحيى أثناء حكم ذوي بركات للمرة الثانية.

أما ابنا الشريف سعيد، الاثنان اللذان توليا السلطة بعده، الواحد تلو الأخر، لم يستطيعا التعايش مع أبناء عمومتهما للأسباب نفسها التي تذكر دائماً. ومن جهة أخرى لم يستمع الإخوان إلى نصائح الزعيم الحقيقي لذوي زيد الشريف عبد المحسن (شجرة النسب الثالثة رقم ٤٤) ابن عم والدهما سعيد. فقد كان عبد المحسن ذا رأي مسموع لدى الأشراف. وقد كان له تأثير ملموس في الأشراف، لم يكن له مثيل منذ عهد الشريف قتادة. وقد كان من السهل عليه الحصول على المنصب الكبير بدون صعوبة تذكر، غير أنه فضّل أن يترك مسؤولية كبير الأشراف لغيره. وقد نصح أقاربه جميعاً بعدم السعي إلى الإمارة. وكان يدرك أن كل تعيين هو بداية للعزل، الذي سيعقبه بدون شك عقوبة الطرد من مكة. ولقد كان لاتّباع هذه النظرية أثر كبير في بقاء حكومة يحيى بن بركات واستمرارها. وبعد موت الشريف عبد المحسن عام ١٧١٨م (١١٣١هـ) الذي آثر أن يدير أملاكه وينصرف عن طلب السلطة لنفسه، تبين أن أخاه مباركاً (شجرة النسب الثالثة رقم ٤٥) كان له رأي مخالف، الأمر الذي فرض على الشريف يحيى أن يخلي المجال لغيره. وبالرغم من أن الشريف يحيى قد حصل من الباب العالي على قوات مساعدة، كما سمح له بتصفية الحسابات نهائياً مع ذوي زيد، لكنه لم يستطع الصمود في مكة بأعوان كلهم، وبدون استثناء، من العناصر التركية غير العربية. لقد كانت محاولة الشريف يحيى التنازل عن السلطة لابنه بركات عام ١٧٢٣م (١١٣٥هـ) (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٤٨) إضافة إلى تقليل حصص الأشراف من المعلوم، ووضع حسابات جديدة لهم قد أدت إلى وقوف الأشراف جميعاً ضده، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انسحاب الأب مع ابنه من الحجاز وذهابهم إلى سوريا. ولم تكن الحركة التي نظمها ذوو بركات عام ١٧٦٠م (١١٧٣هـ) تحت قيادة ابن أخي بركات المذكور أعلاه، بأوفر حظاً من سابقاتها. فعلى مدى عامين

كاملين لم تستطع الهجمات التي شنها باشا مصر آنذاك[1] ـ وكان مستقلاً عن الباب العالي ـ أن تفعل شيئاً في مساعدة آل بركات، ضد خصومهم من آل زيد، الذين كانوا يحظون بدعم أمير الحج الشامي آنذاك. وإن الفترة التي واكبت موت الشريف مساعد الشجاع، قد ضمنت لرئيس آل بركات الشريف عبد الله (شجرة النسب الثالثة، رقم٥٧) مدة رئاسة قصيرة، لا تزيد عن أربعة أشهر. وما أن انسحب المحاربون المصريون من مكة، حتى هب ذوو زيد مرة ثانية، وطردوا وإلى الأبد، ذوي بركات عن المسرح السياسي، الذي لولا جهود الشيخ محمد بن سليمان المغربي، لم يكونوا ليصلوا إليه أبداً.

ذوو زيد يعودون إلى السلطة

إن نظرة على شجرة النسب الثالثة تعطينا حقيقة هامة، بأنه بعد موت الشريف عبد المحسن ذي النفوذ الكبير (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٤٤)؛ الذي اعتزل الحياة السياسية، فإن أبناء سعيد قد تولوا السلطة التي أصبحت تحت إمرتهم. فأبناء مسعود وأحفادهما (١٧٣٢ ـ ١٧٣٣) (١١٤٥هـ) و (١٧٣٤ ـ ١٧٥٢م) (١١٤٦ ـ ١١٦٥هـ) ومساعد (١٧٥٢ ـ ١٧٧٠م) (١١٦٥ ـ ١١٨٤هـ) هم الذين كان لهم المركز الأول. (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٩). وقد حكم الاثنان بعد وفاة أخيهما عبد الله (شجرة النسب الثالثة رقم ٥١). وشهد محمد بن عبد الله نفوذ أعمامه وقوتهم (شجرة النسب الثالثة رقم ٥٩) مدة طويلة من الزمن، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه. وأثناء ذلك كان أبناء الأخ الأصغر سناً من الأخوين السابقين (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٦٠، ٦١، ٦٢) قد كبروا ونمت سواعدهم، وكوّنوا جيلاً جديداً لم يحتج سوى بضع سنين بعد موت الشريف مساعد، ليعلنوا لعمهم أحمد (شجرة النسب الثالثة رقم ٥٦) بأن وقت تسلمهم السلطة قد حان، وأن دورهم قد بدأ.

---

(١) صاحب مصر في تلك الفترة هو علي بك الكبير. فقد تغلب على الدولة العلية، وخرج عن طاعتها وصار الحل والعقد بيده. وقد أمر علي بك الكبير أمير الحج المصري محمد بك أبو الذهب بمساعدة الشريف عبد الله بن حسين للوصول إلى كرسي شرافة مكة (انظر الدحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٤٨).

في هذا القرن يتضح مركز ذوي زيد القوي. بحيث اقتصرت المعارضة الرئيسة لأمراء مكة على أبناء العائلة نفسها. فعلى سبيل المثال في عام ١٧٣٤م (١١٤٦هـ) حاول رئيس العبادلة المرموق الشريف محسن[١] (شجرة النسب الثالثة رقم ٣٢) الاستيلاء على السلطة بمساعدة أمير الحج السوري. أما المعارضة من أبناء ذوي زيد أو أبناء بركات، فقد اقتصرت على الغزو والسلب في الشوارع، أو الغيرة من الاستقلالية التي كان يتمتع بها الشريف الأكبر، والتي لم يتم التخلي عنها نهائياً. وهكذا في عام ١٧٣٢م (١١٤٥هـ) أثار الأشراف ضجة كبرى؛ لأن الأمير أمر بتطويق أحد أقاربه، الذي لم يطع الأوامر بالانسحاب والخروج من مكة. ثم تكررت النقمة ثانية في العام نفسه بسبب انتهاك حق الحماية لأحد العبادلة، الذي لم يرق له تسليم أحد عبيده، بالرغم من أن العبد قد قتل أحد علماء الحنابلة[٢].

وفي عام ١٧٦٠م (١١٧٤هـ) وجه الشريف أحمد، أخو الشريف الكبير مساعد اللوم لأخيه؛ لأن الحماية المعطاة من أحمد لأحد العبيد التابعين لوزير الشريف مساعد، لم تراع حقوقها ولم يلتفت لها[٣]. والشاهد أن الساخطين على الشريف وغير الراضين عنه إذا أرادوا محاولة إسقاط الحاكم، فقد كانوا دائماً يلتفون حول واحدٍ من عائلة ذوي زيد.

أما وضع باشا جدة فقد هبط في هذا القرن هبوطاً شديداً لدرجة أن المرء ليتساءل: أكان هذا المنصب قد استمر بصورة دائمة أم لا؟ ومن النادر جداً أن تتدخل الحكومة التركية في مجريات الأحداث. وربما يكون من الأنسب القول إن التدخل يتم من خلال أمير الحج الشامي وأمير الحج المصري بصفة دائمة. ولمّا كانت أوقات هذه القوات موسمية، وغير مستمرة، فقد كانت تنقص إجراءاتها الاستمرارية، ومراعاة الظروف السائدة، إضافة إلى السرعة في تنفيذ القرارات، مما يمكن معه القول إن القوات الضرورية، لتنفيذ أوامر

---

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٣٩.

(٢) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٣٣.

(٣) انظر تفصيلات القصة في أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، وكذلك منائح الكرم حوادث سنة ١١٧٤هـ.

السلطنة، لم تكن متوافرة دائماً. والدليل على ذلك أنه عندما زادت حدّة الخلافات بين الشريف مسعود وحاكم جدة؛ بسبب تقسيم عائدات الجمارك عام ١٧٤٨م (١١٦١هـ) خرج الشريف مسعود مع جيشه واحتل الميناء، وأجبر الباشا على الهرب عبر البحر. ولم يكن رد فعل الباب العالي سوى إرسال والٍ آخر أكثر مرونة في تعامله مع الأمير الغاضب[١].

علاقة مكة مع أئمة صنعاء

وفي هذه الأثناء مارس أئمة اليمن تأثيراً ملموساً في أحداث المدينة المقدسة، فعلى سبيل المثال وجد أحد الأشراف[٢]، الذي كان يمثل المعارضة ضد الشريف مساعد وأبنائه عام ١٧٥٨م (١١٧٢هـ) الحماية والأمن والملاذ عند إمام صنعاء[٣]. وفي عام ١٧٧٦م تكرر الحادث مع الشريف نفسه، الذي طلب الحماية مرة أخرى عام ١٧٧٦م (١١٩٠هـ) عند عامل الإمام اليمني في اللحية. وفي المرة الأولى حصل له الإمام من الشريف الكبير على الصفح والعودة إلى مكة. أما في المرة الثانية فقد أمر إمام صنعاء بتسليم الثائر إلى الشريف سرور، الذي أخبره أن إيواء هذا الثائر يورث العداوة بين الفريقين[٤]. وفي مرة ثالثة أدى ارتفاع رسوم الواردات في مكة إلى أن يعطي إمام اليمن أوامره عام ١٧٧١م (١١٨٥هـ) بمنع التجار التابعين له من حمل البن والسفر به إلى الحجاز. فما كان من الشريف الكبير إلا أن أرسل مبعوثاً، لتهدئة الأقارب في الجنوب، والسماح بإعادة إرسال البن[٥].

إن مثل هذه العلاقات بين مكة وصنعاء، لم تكن لتثير شك السادة الأتراك؛ لأن اليمن كانت بعيدة عن أفق الباب العالي. وإذا لم يكن للأمور طابع سياسي، فالأتراك لا يرون غضاضة في تعامل الشريف الكبير مع سادة صنعاء. أما إذا كان ذلك سيؤدي إلى آثار سياسية، كبعثة نادر شاه السابقة

---

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٢) هذا الشريف هو السيد عبد الله الفعر (انظر الدحلان مرجع سابق ص٢٤٦).
(٣) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٤٦.
(٤) الدحلان: مرجع سابق ص٢٦٢.
(٥) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٥٦.

إلى مكة، فإن الأمر يحسب له ألف حساب. وفي هذه الحالة لا بد من اتخاذ الحيطة الشديدة والحذر من هؤلاء الأشراف.

الشريفان سرور وغالب

الأبناء الذين خلفوا مساعد بعد انقطاع قصير عن طريق آل بركات وعن طريق أحمد أخي مساعد هما: سرور (١٧٧٣ ـ ١٧٨٨م) (١١٨٦ ـ ١٢٠٢هـ)، وغالب (١٧٨٨ ـ ١٨١٣م) (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨هـ). وعندما مات سرور، تنازل عبد المعين الضعيف عن حقه إلى الشريف غالب (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٦٠، ٦١، ٦٢). وقد كان كلا الشريفين سرور وغالب يعكسان خصائص ذوي زيد وطبائعهم. فقد كان على الشريف سرور أن يقاتل باستمرار ضد الأشراف المتحدين تحت إمرة عمه أحمد. وقد تمكن في النهاية من التغلب على عمه وأَسْره عام ١٧٧٩م (١١٩٣هـ)[1]. وقد حاك بعض الأشراف العبادلة وآخرون مؤامرة للقضاء على الشريف سرور واغتياله، غير أن الخطة فشلت وعوقب الجناة عقاباً شديداً[2]. وفي خضم هذه المنازعات تشجع الكثير من القبائل البدوية (هذيل، شيبان، وبالدرجة الأولى حرب) على القيام بأعمال تمرد وعصيان وسلب، فتصدى لهم الشريف سرور وقمع شرورهم. و منذ عام ١٧٤٢م (١١٥٥هـ) كان على سادة مكة حماية ممتلكاتهم الجنوبية من أقاربهم المعادين ذوي حسن، الذين يبعدون مسافة خمسة أيام إلى الجنوب من مكة. والذين برزوا في هذه الأثناء قوة كبيرة يحسب حسابها[3].

لقد تغلب الشريف سرور على كل هذه الصعوبات وخرج منها منتصراً. وقد ذاع صيته حتى وصل إلى أقصى بلدان الإسلام الغربية. ففي عام ١٧٧٩م (١١٩٣هـ) أرسل إليه أمير المغرب في أثناء الحج هدايا كثيرة

(١) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٦٦.

(٢) الدحلان: أمراء البلد الحرام ص٢٦٦.

(٣) ذكر الدحلان أنه في سنة ١١٥٥هـ بعث مولانا الشريف سعود عساكر وفرساناً لقتال ذوي حسن المقيمين بالشاقتين بطريق اليمن، وهم ينسبون إلى الحسن بن عجلان بن رميثة (أمراء البلد الحرام ص٢٤٠).

مصحوبة بابنته التي أحضرها أخواها وقدماها زوجًا للشريف الكبير[1]. وقد أدت هذه الصلة في أعوام ١٧٨٣م (١١٩٧هـ)، ١٧٨٧م (١٢٠١هـ) إلى إرسال هدايا ذهبية قيمة من مولاي محمد أمير المغرب إلى مكة المكرمة[2].

وقبل وفاة الشريف سرور بقليل أقام احتفالات بهيجة بمناسبة ختان أبنائه وأبناء بعض الأشراف الآخرين، وقد اشترك في هذه الاحتفالات كل سكان المدينة المقدسة. ولم يمض سوى وقت قصير حتى وافته المنية بعد عشرة أيام. ولم يكن يدور بخلد أحد أن الشريف سرور ستوافيه المنية بهذه السرعة وبهذا العمر القصير. كما لم يكن يفكر أحد من سكان مكة بأن هناك أحداثاً أخرى ستحدث وتُنْهي حكم ذوي زيد.

---

(١) الدحلان: مرجع سابق ص٢٦٨.

(٢) ذكر الدحلان أنه في سنة ١١٩٧هـ جاءت صدقة من سلطان المغرب للسادة الأشراف والعلماء وخدمة البيت الحرام وكذا لأهل المدينة. وكانت هذه الصدقة ذهباً مطبوعاً، مقدار كل واحد وزن ريال الفضة مكتوباً عليها (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة آية ٣٤). (أمراء البلد الحرام ص٢٧٣).
كما وردت في عام ١٢٠١هـ صدقة أخرى لأهل مكة من سلطان المغرب، وكذلك صدقات أخرى من الهند (الدحلان، مرجع سابق، ص٢٧٧).

الفصل الرابع

مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي[1]

(١٧٨٨ - ١٨٨٧م) - (١٢٠٣ - ١٣٠٥هـ)

في شهر أيار (مايو) عام ١٧٧٠م صفر (١١٨٤هـ) ظهر في الأفق شهاب كبير عدّه المكيون مؤشراً لوقوع حوادث جسيمة، وذلك استناداً إلى حالة مشابهة وقعت في مكة قبل عدة قرون.

فقد ترك الفاسي مؤرخ مكة قصيدة تشير إلى أنّ أموراً جديدة ستحدث بعد ثلاثين سنة من ظهور هذا النجم. ومما جاء في هذه القصيدة:

إذا لاح نجم من المشرقين كثير الشعاع طويل الذنب
إذا ما بدا فاحسبوا بعده ثلاثين عاماً ترون العجب[2].

ظهور الدعوة السلفية

لقد ظهر على أرض شرق الجزيرة العربية مصلح للإسلام[3] كسب إلى

---

(١) من الملاحظ أن المؤلف لم يشر في هذا الفصل إلى المراجع التي استعملها إلا نادراً. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من معلومات هذا الفصل قد استقاها إما مشافهة من سكان مكة، أو من المراجع الأوروبية التي كتبت عن هذه الفترة وخاصة نيبور، ودوتي، وبيركهارت، وبيرتون وغيرهم ممن شاهدوا هذه الحوادث. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كثيراً من المعلومات المدوّنة هنا يمكن الاطلاع عليها من خلال كتاب أمراء البلد الحرام الذي كان مؤلفه صديقاً للكاتب.

(٢) انظر الدحلان: مرجع سابق ص٢٥٠.

(٣) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب. ولد ونشأ في العيينة (في نجد) ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مرة قرأ بها على بعض أعلامها. وزار البصرة والأحساء. وعاد إلى نجد، فسكن «حريملاء» وكان أبوه قاضيها. ثم انتقل إلى العيينة، ناهجاً منهج =

جانبه أمراء[1] الدرعية، الذين ساندوه في دعوته، ثم تدريجياً آمنت بدعوته كل مراكز الجزيرة العربية.

موقف الأشراف من الدعوة السلفية

لقد كان هذا المصلح ينوي أن يعيد الحياة للإسلام بكل مالديه من قوة، ليس في الجزيرة وحدها، بل في كل مكان يستطيع الوصول إليه. وعلى مستوى مكة، فقد قدم إليها في أيام الشريف مسعود، ثلاثون عالماً وهابياً (سلفياً)[2] للدعوة إلى التوحيد الخالص، بين أصحاب العلم في مكة.

= السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. ثم قصد الدرعية (بنجد) سنة ١١٥٧هـ فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته وآزره كما آزره من بعده ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز، وقاتلوا من خالفه. وكانت دعوته التي جهر بها سنة ١١٤٣هـ الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله. تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، وعرف مَنْ اتبعه وشد أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد «إخوان مَنْ أطاع الله»، وسماهم خصومهم بالوهابيين (نسبة إليه)، وشاعت التسمية الأخيرة عند الأوروبيين فدخلت معجماتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم فجعلها «مذهباً» جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومه. وكانت وفاته بالدرعية عام ١٢٠٦هـ، وله مصنفات أكثرها رسائل مطبوعة منها «كتاب التوحيد»، ورسالة «كشف الشبهات، وغيرها. (انظر الأعلام، جـ٦ ص٢٥٧).

(١) هو الإمام محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، أول من لقب بالإمامة من آل سعود، في نجد. كان مقامه بالدرعية. وولي الإمارة بعد وفاة أبيه بسنتين ـ أو بأربع سنين ـ سنة ١١٣٩هـ، وحسنت سيرته وقويت شوكته. وكان يساعده أخوه «ثنيان»، وانفرد بعد وفاته بالحكم، وفي أيامه (١١٥٧هـ) وفد على الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية، فتعاهدا على أن يكون محمد بن سعود «حارساً للدين وناصراً للسنة»، وأن يستمر ابن عبد الوهاب على الجهر بدعوته. واتسعت الإمارة فشملت أكثر نجد، ولم يبق خارجاً عن حكمه منها غير الرياض والأحساء والقصيم. وكان شجاعاً حازماً. توفي بالدرعية عام ١١٧٩هـ. (انظر الأعلام، جـ٦، ص١٣٨).

(٢) وفي دراسة ابن عثيمين لهذا الموضوع يذكر:
تختلف المصادر حول الطريقة التي وصلت بها أخبار الدعوة الإصلاحية النجدية إلى الحجاز. فالمؤرخ المكي، أحمد دحلان، يقول: إن الوهابيين ـ يعني قادة الدعوة ـ أرسلوا ثلاثين عالماً إلى مكة المكرمة في عهد الشريف مسعود بن سعيد (١١٤٦ ـ ١١٦٥هـ). وحين باحثهم علماء هذه المدينة، الذين كانوا قد سمعوا بظهور ابن عبد الوهاب، تحققوا جهلهم. وقعدوا أمام قاضي الشرع وأقام الدليل عليهم فكفرهم وحبسهم. ثم منعهم أشراف الحجاز بعد ذلك الحج. وما ذكر الدحلان، يحتاج إلى مناقشة. فعدد العلماء الذين قال إنهم أوفدوا من المستبعد أن يكون حقيقياً؛ لأن الدعوة كانت حينذاك في بدايتها، لا داعي لإكثار العدد =

وكذلك طلب الاعتراف بالحق الشرعي لهؤلاء وأتباعهم، في أداء فريضة الحج، بدون إعاقة. ولقد لقي هذا الوفد معاملة غير لائقة، بحسب مايرويه مؤرخو مكة في هذا الصدد. لقد كان هؤلاء السلفيون يعيدون الكرة كلما تسلم حاكم جديد السلطة في مكة دونما إحراز نجاح كبير. واستناداً إلى التقارير الخاصة بهذا الموضوع، لم يعر المكيون هؤلاء اهتماماً كبيراً. فقد عرض الشريف سرور على هؤلاء أداء فريضة الحج مقابل دفع أموال طائلة، أكثر مما كان يدفعه الآخرون، الأمر الذي حدا بهم إلى رفض هذا العرض بفخر. وكرّر النجديون عرضهم بالسماح لهم بأداء فريضة الحج كلما تسلم الحكم في مكة شريف جديد، غير أن النتيجة دائماً تكون بالرفض. وفي

= إلى هذا الحد على أي حال. ولو أرسل وفد من هذا النوع ـ مهما كان عدد أفراده ـ لما ترك ذكره ابن غنام الذي كان يحرص كل الحرص على تدوين ماله علاقة بالأمور الدينية من حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته.

أما المؤرخ التركي، سليمان عزى، فيذكر في حوادث سنة ١١٦٣هـ أن شريف مكة أخبر السلطنة العثمانية بظهور الشيخ ابن عبد الوهاب في نجد، وأنه سمع أن العلماء في جهته بدؤوا يتّبعونه، وأنه استشار علماء مكة بشأنه، فأشاروا عليه أن يحاول إقناعه بالعدول عن رأيه. فإنْ رفض ذلك فيجب قتاله. وعندما لم يردّ ابن عبد الوهاب على رسالة الشريف قبض ستين رجلاً من جماعته في موسم الحج، ونكل بهم. ثم نفاهم إلى بلادهم.

وواضح من رواية عزى أن معلومات شريف مكة عن دعوة الشيخ محمد مبنية على السماع. وفي رواية دحلان، أيضاً ما يؤيد ذلك. وهذا ينطبق مع ما هو موجود في تاريخ ابن غنام عن الدور الذي قام به بعض العلماء النجديين المعارضين لدعوة الشيخ من تشويه لحقيقتها في الحجاز. ولذلك فإنه من المرجح أن تلك الدعوة قد وصلت إلى الأشراف، أول الأمر، مشوهة عن طريق خصومها في نجد.

ورواية عزى تفيد، أيضاً، أن الذين سجنهم شريف مكة لم يكونوا وفداً من العلماء. وهذا ما تؤيده رواية ابن بشر من أن ذلك الشريف سجن حاج نجد سنة ١١٦٢هـ. وهذا المؤرخ النجدي يقصد، بطبيعة الحال، أن المسجونين كانوا من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومن المحتمل أنه كان من بين أولئك الأتباع من دفعهم حماسهم للدعوة إلى الجهر بمبادئها في موسم الحج.

ولعلهم كانوا غير مؤهلين من الناحية العلمية لإزالة الصورة القاتمة التي سبق أن بثها في الحجاز معارضو الدعوة من النجديين. فلم يكن غريباً إذًا أن يتخذ الشريف حيالهم ما اتخذه من إجراءات ظالمة. (انظر عبد الله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، جـ١. ص١٢٣ ـ ١٢٥).

أثناء حكم الشريف غالب تعدى ذلك إلى قتال هؤلاء. فقد أرسلوا يستأذنونه بالحج فأبى؛ لأنه كان ينظر إليهم نظرة المرتاب، ثم ما لبث أن جهز لهم جيشاً، فحدث الصدام المسلح بين الفريقين[١].

لقد وقفت مكة موقفاً سلبياً من هذه الحركة الإصلاحية. بالرغم من أن بعض مؤرخي مكة كتبوا مؤلفات مفصلة عن هذه الحركة. وهذه المؤلفات تروي سيرة محمد بن عبد الوهاب، وكيف أنه تمتع بأفضل تعليم في المدينة المنورة، وكيف أن أساتذته رأوا فيه عقلية فذة وصريحة؛ لأنه لم يسلّم ببعض الأراء التي أتى بها بعض علماء المسلمين، خلال القرون الثمانية الماضية. ولقد كان المكيون يستغربون قناعة محمد بن سعود بالآراء التي ينادي بها محمد بن عبد الوهاب، والتي تحض على نشر الإسلام الصحيح في الجزيرة العربية أولاً، ثم في بقية البلدان التي تدين بالإسلام ثانياً. ومنذ عام ١٧٤٠م (١١٥٣هـ) بدأت الحركة تحرز نجاحاً كبيراً في وسط الجزيرة العربية. لن نتطرق إلى هذه الحركة الإصلاحية إلا بالقدر الذي أثّرت به في الحجاز عامة، وعلى مكة المكرمة بصورة خاصة.

خصائص الدعوة السلفية

لقد كانت السمة التي تميز بها محمد بن عبد الوهاب كونه عالماً تثقف بالعلوم الإسلامية، وفهم مقاصدها وأسرارها، واستطاع بجدارة تامة أن يبرز

---

(١) كان من الطبيعي أن يهتم الأشراف بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد. ثم قيام الدولة السعودية على أساسها. وما أن قويت شوكة السعوديين حتى منعهم أشراف الحجاز من أداء فريضة الحج، وقد كان ذلك في عهد الشريف مسعود. وهذا الموقف العدائي قد سار عليه خليفته أخوه مساعد الذي حدث في آخر عهده انفراجٌ مهّد الطريق لوصول السعوديين إلى الحج، ولمّا تولى بعده أحمد بن سعيد تحسنت العلاقات نوعاً ما، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فقد أبعد هذا الشريف وخلفه ابن أخيه سرور بن مساعد، الذي قضى على محاولة التفاهم بين الأشراف والسعوديين. فعادت العلاقة إلى سابق سوئها، ولم يسمح لأتباع الدرعية بالحج إلا في سنة ١١٩٧هـ بعد أن تودد قادتها إلى شريف مكة، وأهدوه هدايا ثمينة، على ما يرويه ابن غنام في تاريخه. على أن السماح لهم بالحج لم يكن إلا لسنة واحدة فقط.
وحين توفي الشريف سرور سنة ١٢٠٢هـ خلفه في الحكم أخوه غالب، الذي لم يكتف بمنع الحج فقط، بل قام بأعمال عسكرية عديدة ضد خصومه في نجد. (العثيمين، جـ١ ص١٢٥ ـ ١٢٨).

الإسلام بالصورة الصافية النقية، كما جاء به الرسول ﷺ. هذه الصورة لم تكن واضحة لكثير من علماء عصره، الذين تركوا منابع الإسلام الأولى وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية، واعتمدوا على اجتهادات المتأخرين. وأكثر هذه الآراء والاجتهادات لم تكن زمن الرسول، وإنما جاءت نتيجة التطورات المستمرة لمختلف المذاهب عبر مختلف القرون، مما حال بين المسلم ومنابع التشريع الأولى، الأمر الذي أصبح معه كثير من المسلمين يهتمون بالقيمة الترتيلية للقرآن الكريم والسنة النبوية، دون البحث عن المعاني المستفادة منهما، تاركين ذلك إلى المؤلفات التي تخص علم الفقه وعلم الشريعة، التي تبحث في ذلك من خلال المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة.

لقد كانت فكرة ابن عبد الوهاب أن يربط الناس بمنابع التشريع الأولى، ويتخطى الفجوة التي تشغل الناس في عصره وتبعدهم عن الإسلام الصحيح. ولقد كان المحيط الذي نشأ فيه محمد بن عبد الوهاب في وسط الجزيرة محيطاً مناسباً، إذ لا يوجد محيط آخر مشابه، لم يتغير إلا قليلاً، كما لا يوجد مكان أحسن من ذلك المكان، الذي تقترب فيه اللغة والعادات من تلك التي كانت في الأصل عند ظهور الإسلام.

لقد أدرك محمد بن عبد الوهاب الاختلاف بين الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ، والإسلام الذي يمارسه الناس في عصره. كان هذا الاختلاف يتمثل في نقطتين:

أولاهما: الرخاء وما ينتج عنه من مغريات تؤدي إلى التناقض التام بين تصورات الحياة الموجودة في القرآن، وتصورات الناس القائمة. فإذا دخلت بدعة من البدع ـ ولتكن وسيلة تسلية مثلاً ـ فإن العلماء يقفون منها موقف المعارضة، ولكن عندما يستفحل الداء، فإن العلماء يبدؤون بالتسليم للأمر الواقع. فعلى سبيل المثال حرّم العلماء التبغ منذ البداية بعدّه وسيلة تسلية سيئة، لكنهم فيما بعد تساهلوا في ذلك، وأفتى بعضهم بالسماح به.

لقد كانت المبادئ التي يدعو لها محمد بن عبد الوهاب لاتقرّ مثل تلك الفتاوى التي ظهرت باسم الدين، ففتاوى الشيخ تطالب بتحريم التبغ وغيره من وسائل الترف الأخرى مثل الموسيقا، واستعمال الحرير، والذهب والفضة في الملابس والحلي للرجال، وغيرها من العادات المنتشرة في الأقطار الإسلامية.

النقطة الثانية التي أثارت الغيرة الدينية لدى هذا المصلح هي الخطر الذي تسلّل إلى عقيدة التوحيد، وذلك عن طريق تقديس الأولياء. لقد كانت الاستعانة والاستغاثة بالأولياء خاصة عند كثير من الجهلة الجسر الذي يعبر منه هؤلاء إلى الشرك، أو عبادة أكثر من إله. ولقد كان تساهل بعض العلماء في قبول ذلك من أهم أسباب زيادة هذه المنكرات وانتشارها.

إن رسل الله وأولياءه لا يستطيعون بعد موتهم أن ينفعوا أو يضروا، فهذا أمر لله وحده. وزيارات المقامات والأضرحة هي من عمل الشيطان، وقد كانت المدينة المنورة تدنس من خلال تقديس قبر النبي ﷺ وقبور أصحابه الكرام. ولذا فإن تنقية الإسلام تستلزم القضاء على مثل هذه العادات الشركية، والتخلص من تلك المواضع والمواقع التي تساعد على انتشار الشرك.

ارتباط الدعوة بآل سعود

لقد التزم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة إلى الإصلاح وجعله هدف دعوته، وكان رائده الإخلاص في القول والعمل. وقد سخّر لذلك لسانه وقلمه، بجانب قوة ابن سعود وسيفه الذي تبنى هذه الحركة الإصلاحية ودعمها. لقد كانت مدرسة الإمام أحمد بن حنبل هي التي رفع لواءها الشيخ، وجعلها أساساً فكرياً للإصلاح. وربما تكون هذه المدرسة أكثر المدارس بساطة وقرباً من قلوب السكان، الذين يعيش معظمهم في جهل مطبق، مماثل للجهل الذي كان سائداً في عهد الرسول ﷺ. غير أن هؤلاء السكان لم يكونوا أقل انفتاحاً من ذي قبل، أمام تأثير دين بسيط ميّسر، يثبت كل يوم، وعن طريق الوسائل المادية، أنه يعمل بصفته قوة مؤثرة وحافزة.

لقد كانت العدالة البسيطة المصحوبة بالقوة عند أمراء آل سعود ـ حماة الدعوة السلفية ـ وأيضاً النجاح الباهر الذي أحرزوه، والغنائم الوفيرة التي كانت توزّع على الأتباع، قد أثارت الميل إليهم في مواقع معينة، والخوف

منهم في مواقع أخرى. وفي غضون سنوات قلائل نمت الدولة السعودية لتصبح القوة الرئيسة في جزيرة العرب.

موقف مكة والمدينة من الحركة الإصلاحية

لقد قدّر العالم فرصة قليلة لنجاح الدعوة السلفية. وربما كان تقدير سكان المدينتين المقدستين لنجاح هذه الحركة أقل من غيرهم؛ لأن ما كانت الدعوة الإصلاحية تقوم عليه، وتطالب بإلغائه، كان من بين متطلبات الحياة عند سكان المدينتين المقدستين. فالقبور والأضرحة والبيوت المقدسة كانت تجلب الأموال والفوائد للأدلاء والسدنة. والرسول ﷺ الذي كان يُتغنّى باسمه في كل عيد بأغاني المديح، تعدّ زيارة قبره في المدينة من أكبر الحظوظ. إن كل هذه الأمور تبدو على عكس ما يراه زعماء الإصلاح الجدد، الذين كانوا يرون أن معظم الجاليات الإسلامية في مكة والجنود وكذلك الرعاع تنتاب حياتهم الكثير من البدع. وأن بعض العلماء هنا يتساهل في قبول مثل هذه الأمور البدعية. وفي المقابل كان المكيون ينظرون بتعجب، كيف تجرأ على قول كل ذلك ابن أحد الفلاحين العاديين من داخل الجزيرة العربية، حيث تعدّ القراءة والكتابة أقصى مايستطيع الوصول إليه أحد هؤلاء.

يوجد في الجزيرة العربية العديد من الإمارات الصغيرة. وقد كان لدى حكام مكة الكثير من الإمكانات التي تؤهلهم لترتيب العلاقة مع هذه الإمارات. غير أن هؤلاء لم يفكروا ولو لمرة واحدة بإنشاء ترابط سياسي، يضم شعث هذه الإمارات المتفرقة. وكل ما كان يقوم هؤلاء بعمله، هو إرسال الحملات المتكررة لمعاقبة المذنبين، وكسر شوكتهم، والعودة بالغنائم منهم. وهكذا كان حال الحكام في مكة، يشبه إلى حدٍ ما حال السلطان في إسطنبول فهو صاحب أعلى مقام رفيع للإسلام يتعاملون معه، ويقدمون له الولاء والأعطيات، غير أنهم يقومون بترتيب أمورهم الداخلية بعيداً عن سلطته.

إن وجود قوة أخرى في الجزيرة العربية، تعمل على وحدة بعض أجزائها، كان كافياً لإثارة التنافس بين هذه القوة وحكام مكة، الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي، أو الرغبة، لتحقيق مثل هذه الوحدة. فكيف إذا

بدء الصراع بين الشريف غالب والدعوة السلفية

اقترنت هذه القوة بفكرة دينية لا تقبل أي تحديد لمجال نفوذها. ومع هذا فقد أهمل الشريف غالب ـ وعن غباء ـ الأهمية السياسية لهذه الحركة. وقد قابل ذوو زيد مبعوثي الحركة إليهم بغير ترحاب. أما سرور فقد كان همه زيادة عائدات الحج لنفسه عن طريق فرض رسوم إضافية على هؤلاء، إن أرادوا أداء فريضة الحج إلى مكة، غير مدرك بأن هؤلاء سيرفضون هذا العرض، وأن هذا سيزيد من استفزاز هؤلاء وحملهم على القيام بأعمال معادية. ولا سيما أن فكرة الانتشار والتوسع بالقوة كانت لدى هذه الحركة الإصلاحية، تأسياً بما فعله الرسول ﷺ، حينما نشر الإسلام في حظيرة الجزيرة العربية وخارجها[1]. والفارق الوحيد أن الحركة الإصلاحية كانت تقتصر على البيئة العربية في الجزيرة، حيث لم يفكر ابن سعود وأتباعه بخطط لفتح العالم الخارجي. أما سياسة هؤلاء تجاه المدن المقدسة، فكانت سياسة اللين، وعدم المساس بها، على غرار ما فعله الرسول ﷺ.

في هذه الأثناء كانت الحركة الإصلاحية، وسيادة أمراء الدرعية، تتوسع في جميع الاتجاهات، وفي مناطق كثيرة عدّها ذوو زيد من المناطق التابعة لهم والتي تدين لهم بالسيادة. وهكذا كان على الشريف غالب أن يثبت سيادته ويقوّي سلطته قبل أن يتفرغ لمنازلة أمراء الدرعية المنافسين الجدد لحكمه.

الشريف غالب يقضي على المعارضين لحكمه

لقد كانت الخطوة الأولى التي قام بها الشريف غالب عام ١٧٨٨م (١٢٠٣هـ) هي القضاء على إخوانه المعارضين له، الذين حرّضوا قبائل هذيل وثقيف المختلفة ضده. وفي عام ١٧٩٠م (١٢٠٤هـ) تغلب على أحد الأشراف الطموحين، الذي حاول أن يقود حركة ضده لمصلحة أبناء أخيه سرور غير البالغين لسن الرشد. وما أن تم القضاء على هذه الحركة، حتى قام ذوو حسن في الجنوب، وهددوا سلطة الشريف غالب، مما جعل القيام بحملة تأديبية للقضاء على هؤلاء أمراً ضرورياً.

---

(١) إن الرسول ﷺ لم يقاتل إلا دفاعاً عن النفس، أو مَنْ ناصبه العداء، أو مَنْ منعه من نشر الإسلام.

غـــــزوات الـشـريـف غـــالـــب

تفرغ الشريف غالب بعد ذلك لخصومه الجدد. وقد أمضى الأمير الشجاع ستة عشر عاماً في حروب مع الدولة الفتية، بلغ خلالها عدد غزواته ستاً وخمسين حملة، لم يترك خلالها وسيلة لاسترداد أي منطقة إلا استعملها، غير أن الهجوم المضاد كان عنيفاً لا يكل، يقويه المبدأ الديني الذي يؤمن به الخصوم. ذلك المبدأ الذي واجهه المكيون بتحفظ ليّن. وقد تجاهل المكيون معنى هذه الحركة الإصلاحية حتى أصبح الوقت متأخراً جداً لتوجيهها أو السيطرة عليها. وزاد من نجاحها أن الأمير عبد العزيز وابنه سعود كانا ليّنين في معاملة المكيين، فقد تركا بعد النصر الكامل كل شيء لا يتعارض مع مذهبهما على ماهو عليه، بحيث بدا للأشراف والمكيين أن القتال الدائر هو لمصالح دنيوية فقط. لقد أظهر الأشراف فيما بعد عن طريق الممارسة العملية بأنه ليس المذهب السلفي هو الذي استفز مقاومتهم. كما أظهر بعض العلماء المكيين إعجابهم بشخصية الإمام محمد بن عبد الوهاب، الذي استطاع أن يجعل من البدو الأميين مثالاً يحتذى في النظام والهدوء. لقد برز وبصورة جلية أنَّ دافع البقاء في السلطة هو المحرك الوحيد لهذه الحروب. والناس العاديون والعلماء في مكة وذوو زيد ومواطنوهم أدركوا جميعاً بأن مصالحهم الدنيوية المشتركة لا تتفق مع الحركة الإصلاحية الجديدة.

لم يتوقف الشريف غالب منذ عام ١٧٩١م (١٢٠٥هـ) عن إرسال الحملات إلى المناطق التي كانت تتبع اسمياً إمارة مكة. هذه المناطق التي دانت بالولاء لسلطة الدولة السعودية بسهولة، نظراً لإهمال سادتهم القدامى لهم. فقد أرسل غالب قوات نحو الجنوب اجتازت قوات منطقة بيشة، وقوات أخرى نحو الشمال والشمال الشرقي حتى القصيم وما وراء المدينة، وقوات نحو الشرق تجاوزت حدود منطقة الطائف. وقد أمر أخواه عبد المعين وعبد العزيز وصهره عثمان المضايفي بالتجول باستمرار في مختلف أرجاء البلاد.

غالب يطلب مـسـاعـدة أمـــراء الحج

وقد طلب الشريف غالب المساعدة من أمراء الحج الشامي والمصري، غير أنه لم يجد أذناً صاغية. ففي بلاد الشام والعراق كان يخشى من اسم الوهابيين، بحيث إن الضباط الذين يقومون بمرافقة قوافل الحج، لم تكن لديهم أدنى رغبة في الاحتكاك مع هؤلاء. يضاف إلى ذلك أن البعثتين اللتين أرسلهما إلى

إسطنبول عامي ١٧٩٣م (١٢٠٧هـ) و ١٧٩٨م (١٢١٢هـ) لطلب المساعدة والنجدة عادتا خاليتي الوفاض[١]. فقد كانت سياسة التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام السلطة. فبدلاً من إرسال المساعدة المطلوبة، أرسل السلطان في نهاية عام ١٧٩٨م إلى المدن المقدسة نداء يأمر فيه بالاستعداد لمقاومة أي هجوم متوقع من جهة الفرنسيين، الذين احتلوا مصر، وربما يقومون باحتلال مكة والمدينة.

أمام ذلك كله لم يكن أمام شريف مكة سوى الاعتماد على قوته الذاتية، التي يبدو أنها لم تجد نفعاً. لقد كان بإمكانه فقط الاعتماد على السكان القاطنين في المناطق الشاسعة المتاخمة لحدود الدولة السعودية، لو كان باستطاعته حمايتهم من الهجمات التي تشن عليهم. غير أن الحديث عن ولاء هؤلاء لسلطة الحكم في مكة أمر مشكوك فيه؛ لأن حكام مكة لم يكونوا يقدمون لهؤلاء سوى التأديب المؤثر، عقاباً على أدنى مخالفة تصدر عنهم. لهذا لم يكن هناك أدنى ملامة توجه لهؤلاء إذا استجابوا للدعوة السلفية لأول وهلة، بعد الانسحاب السريع لممثلي السلطة الاسمية في مكة. وبجانب ذلك فقد كان تأثير الحركة السلفية مزدوجاً في هؤلاء، فقد جلب لهم الطمأنينة والأمن في ظل دولة قوية، كما جلب لهم الاحترام والتقدير.

إقبال البدو على الدعوة السلفية

ومنذ القدم لم تستطع المدن المقدسة في الحجاز أن تُخْرِج هؤلاء البدو من حيّز الجهالة، وتربطهم بالتعاليم الإسلامية عن طريق تعليم هؤلاء وإرشادهم، على عكس مافعلته الحركة الإصلاحية، التي تمكنت وخلال سنوات قليلة من بناء مجتمع سليم العادات والطباع من هؤلاء البدو، الذين يئس سكان المدن من تربيتهم وتعليمهم. وهكذا فلم يتم إصلاح البدو عن

---

(١) ذكر الدحلان أنه من شعبان من عام ١٢٠٧هـ أرسل مولانا الشريف للدولة العلية يخبرهم بظهور أمر الوهابية، وأرسل لذلك السيد محسن بن عبد البر الحمدوي والسيد حسينا مفتي المالكية، فلم تكترث الدولة لهذا الخبر ولم تلتف إليه.
كما ذكر في حوادث عام ١٢١٢هـ: أرسل مولانا الشريف الشيخ أحمد تركي للدولة العلية يستنجدهم ويطلب منهم الإعانة على دفع الوهابية فلم يجيبوا دعوته، ولم يلتفتوا لذلك ولم يكترثوا به، فما زال قائماً بدفعهم وحده (انظر الدحلان ص٢٨٤ و٢٨٨).

طريق الحركة السلفية فحسب، بل تم تجديد إسلامهم لأول مرة. فقد كانت جهالتهم الشديدة، هي أشبه ما يكون في العودة إلى الكفر والضلالة.

هدنة بين أمراء الدرعية وشريف مكة

لقد وجد الأمير غالب أن دولة أبناء قتادة ينقصها المال والسلاح في مواجهتها لجماعة دينية فتية ومتماسكة؛ لذا قرر بعد حج عام ١٧٩٩م (١٢١٣هـ) أن يعقد مع الأمير عبد العزيز أمير الدرعية اتفاقية تضمن تحديد الحدود بين القوتين المتحاربتين. وحسب نصوص هذه الاتفاقية اعترف أمير الدرعية بعدم التدخل بشؤون القبائل المحيطة بالأماكن المقدسة، والقبائل القاطنة حول الطائف، وبعض المدن الأخرى، في مقابل السماح له ولأتباعه بالوصول إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج. وهذا الشرط يذكرنا باتفاقية الهدنة بين الرسول ﷺ وقريش (صلح الحديبية) عام ٦٢٨م (٦هـ)، التي كان من أهم بنودها دخول المسلمين مكة لأداء العمرة.

الأمير سعود يؤدي فريضة الحج

في شهر أيار (مايو) من عام ١٨٠٠م (١٢١٤هـ) غادر الدرعية جمع كبير من الناس بقيادة الأمير سعود لتأدية فريضة الحج. وقد استقبلهم الشريف غالب وقدم لهم كل التسهيلات الممكنة. وأسرع بإصدار أوامره لرجاله لتسهيل مهمة هؤلاء. وقد تبادل الأميران الهدايا الجميلة، وبدا وكأن النزاع قد حل بينهما إلى الأبد، بالرغم من بعض المناوشات بين بعض الجنود من كلا الطرفين على جبل عرفات. لكن هذا الهدوء النسبي الظاهري لم يستمر طويلاً، فقد بدا واضحاً التفوق العسكري لأمراء الدرعية على منافسيهم من أبناء قتادة. ماذا كان بإمكان عبد العزيز أن يفعله، إذا كانت القبائل المحيطة بإمارة مكة والتي انضوت تحت راية الدعوة السلفية، وأخذت تمارس الدعاية الناجحة لهذه الدعوة بين جيرانها، غير مبالية بالفصل السياسي بين الإمارتين المتنازعتين؟ لقد تسبب ذلك في الكثير من القلاقل، الأمر الذي عدّه أمراء مكة نقضاً للاتفاقية من جانب أمراء الدرعية. وقد صادف خلال عام ١٨٠١م (١٢١٦هـ) أن قامت قبائل تدين بالولاء للدولة السعودية، باحتلال ميناء حلي، الذي كان يشكل الحدود الطبيعية الجنوبية لإمارة مكة المكرمة. فقام الشريف غالب بطردهم منها، كما قام بتأديب سكان حلي أنفسهم بلا رحمة بسبب عدم إخلاصهم، حيث تم بيع أطفالهم عبيداً لأهل مكة، وكأنّ

عودة التوتر بين أمراء الدرعية وأشراف الحجاز

آباءهم كانوا كفاراً. وفي عام ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) حضر سكان حلي إلى مكة نادمين على فعلتهم متوسلين إلى سادتهم لإرسال حامية عسكرية تصد عنهم الهجمات التي يتعرضون لها. فأمر شريف مكة بإرسال عدد من المحاربين معهم. ولكن هؤلاء طردوا من جديد بعد ثمانية أشهر. وبجانب حلي عانت القنفذة من هجمات قوية ضدها. وبدا واضحاً وجلياً أن بعض قبائل زهران - وهم حلفاء قدماء للأشراف - عملت على الارتباط السياسي مع زعماء نجد. وهكذا بدا وكأن الجنوب بأسره يدين بالولاء لأمراء آل سعود بالدرعية. وعندما كاتب الشريف غالب نظيره أمير الدرعية حول مثل هذه الحوادث، تخلّى الأخير عن مثل تلك التصرفات المنفصلة لبعض زعماء القبائل. أما فيما يخص دعوة القبائل للتوحيد، فقد رفض أن يكون هناك أي اتفاق بين الطرفين حول التخلي عنها. وإزاء ذلك كله أرسل الشريف غالب وفداً إلى الدرعية يضم أشرافاً مرموقين وأحد شيوخ البدو، إضافة إلى صهره عثمان المضايفي ليقوموا بتجديد الاتفاق بين الطرفين.

عثمان المضايفي يؤيد الدعوة السلفية

كان صهر غالب عثمان المضايفي رجلاً نشيطاً ومثقفاً. وقد انحاز عثمان إلى جانب أمراء الدرعية. ولا بد من وجود أسباب مهمة دفعته إلى الانحياز إلى جانب خصمه. فقد يكون الطموح الشخصي، وربما التذمر من الشريف غالب من الأسباب التي دعته إلى ذلك. غير أن من أهم الأسباب هو ميله إلى الدعوة السلفية. لقد عقد عثمان اتفاقات سرية مع الأمير عبد العزيز وابنه سعود. وفي طريق عودة الوفد إلى مكة، انفصل عثمان عن زملائه، واحتل مع بعض رجاله مركزاً قوياً قرب الطائف وأصبح من أكثر العاملين نشاطاً في القضاء على قوة غالب[1].

قام عثمان بالتعاون مع أمير بيشة بهجوم على الطائف في شباط عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ)، وقد أسرع الشريف غالب لمساعدة أميرها أخيه عبد المعين. غير أن عثمان أجبرهما على التخلي عنها؛ لأنهما علما أن القوة

(١) المركز الذي احتله عثمان المضايفي يعرف ببلدة (العبيلاء) بين تربة والطائف (انظر العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية ج١ ص١٣٢).

الرئيسة لعثمان وأمير بيشة هدفها المدن المقدسة وليس الطائف. وهكذا فتحت الطائف وأصبح أميرها عثمان نفسه، الذي أرسل إلى الأمير سعود خبر الانتصار المفرح. فتقدم جيش الأمير سعود حتى وصل على بعد ثلاثة أيام من مكة. وكان ذلك في موسم الحج الذي ضم في ذلك العام الكثير من الحجاج المغاربة، إضافة إلى سلطان مسقط، وكثير من الحجاج الآخرين. وقد قام الشريف غالب بآخر محاولة يائسة حين طلب من أميري المحمل الشامي والمصري تقديم المساعدة، لكنّ الاثنين اكتفيا بتبادل حذر للرسائل مع الأمير سعود، وبذلك سحبا معهما آخر أمل للشريف في الحصول على المساعدة المطلوبة للقضاء على خصومه.

مكة تدخل تحت حكم آل سعود

أمام عدم المبالاة التي أبداها الموظفون التابعون للسلطة العثمانية، في عدم نصرة شريف مكة، قرر هذا الأخير الرضوخ لخصمه، وذلك بأن انسحب إلى آخر حصن لا يمكن احتلاله من قبل الخصوم، ألا وهو مدينة جدة. ففي عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) قرر الشريف الالتجاء إلى جدة. التي كانت تحوي سوراً عالياً تحميه بعض المدافع والجنود. وقد كان هذا كافياً لصد هجمات الخصوم. لقد أدرك الشريف بأن انسحابه من مكة سيتمخض عنه تسليمها. ومن المحتمل أن تكون خطة التسليم قد تم تحديدها من قبل الشريف نفسه. لقد قاد المباحثات الخاصة بمراسيم تسليم المدينة المقدسة الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب، حيث أرسل إلى الأمير سعود وفداً من المكيين المرموقين والعلماء[1]. وقد قدّم هؤلاء الولاء لأمير

(١) ذكر الدحلان أن الشريف عبد المعين أرسل كتاباً إلى الأمير سعود مع القائد حامد ابن سليم آغا وطلب منه أماناً لجيران بيت الله الحرام، وأن يكون هو عامله فيها وأن أهل مكة تحت طاعته. كما أرسل أهل مكة رسلاً من أفاضل العلماء وأهل البيت النبوي لأجل صيانة سكان البلد الأمين فتوجه الجميع واجتمعوا بالأمير سعود بوادي السيل وتحدثوا معه وطلبوا منه الأمان لجيران البيت الحرام وأنهم يدخلون في طاعته، فقال لهم إنما جئتكم لتعبدوا الله وحده وتهدموا الأصنام والطواغيت ولا تشركوا بالله الذي يحيي ويميت، فأجابه الشيخ طاهر بقوله: والله ما عبدنا غير الله. فمد لهم يده، قال: عاهدتكم على دين الله ورسوله، توالون من والاه، وتعادون من عاداه. والسمع والطاعة. فعاهدوه على هذا المقال، فعند ذلك كاد أن يطير من السرور والفرح، وقال: أسجد لله شكراً، فقد أولانا =

الدرعية باسم عبد المعين نفسه وباسم سكان مكة. لقد كانت الكلمات التى ساقها الوفد تعبيراً عن الولاء والطاعة والإيمان بالدعوة السلفية، وكان هذا الإعلان صريحاً وبدون تحفظ، أدرك معه الأمير سعود بأن الخصوم، قد عادوا إلى حظيرة الإسلام الصحيح.

إزالة مظاهر البـدع

في نهاية نيسان من العام نفسه (الثامن من محرم ١٢١٨هـ) دخل الأمير سعود المدينة المقدسة باحتفال بهيج، حيث قدم الشريف عبد المعين وعلماء المدينة البيعة للأمير الجديد، الذي ألقى خطبة أمام الجماهير المحتشدة. وهكذا كان لسيف الأمير الجديد الفضل الأكبر في العودة إلى منابع الدين الأصيل. وفيما تلا ذلك من أيام كان أهل مكة يمدون يد العون للحاكم الجديد، ليقوم بتحطيم وإزالة كل القباب المقامة على المزارات والقبور، وجمع كافة غلايين التبغ، وكذلك الآلات الموسيقية التي كومت ثم أحرقت. وقد منعت ألفاظ التمجيد البدعية كافة، سواء في الدعاء في أثناء الصلاة أو في أي مناسبة أخرى[1]. وقد كان على سكان المدينة المغرورين بعلمهم، أن يصححوا كثيراً من أمور دينهم، ويتعلموا من هؤلاء القادمين الجدد.

= أرضه عزاً لنا وفخراً. وأمر كاتبه أن يكتب الأمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، من سعود ابن عبد العزيز إلى كافة أهل مكة والعلماء والأغاوات وقاضي السلطان. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه، إنما ندعوكم لدين الله ورسولـه ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران، الآية: ٦٣]. فأنتم من وجه الله ووجه أمين المسلمين سعود ابن عبد العزيز وأميركم عبد المعين بن مساعد، فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام» (انظر الدحلان، مرجع سابق، ص٣٠٠ ـ ٣٠١).

(١) ومما عمله الأمير سعود بن عبد العزيز أيضاً أنه قام بإلغاء الضرائب الجائرة. والمناداة بالمواظبة على الصلوات جماعة خلف إمام واحد، ثم كتب رسالة إلى السلطان العثماني سليم الثالث يخبره، بما حدث، ويطلب منه أن يمنع والي دمشق ووالي القاهرة من إرسال المحمل الذي تصحبه الطبول والمزامير (انظر العثيمين، مرجع سابق، جـ١، ص١٣٣ ـ ١٣٤).

حصار جدّة

تقدم الأمير سعود لحصار مدينة جدة لمدة أسبوع، تكبد خلاله خسائر فادحة، فعدل عن خطته، وتوجه في طريق عودته إلى وادي مر الظهران، حيث أخضع الأشراف القاطنين هناك، وعين عليهم أميراً من ذوي بركات، وغادر بعدها إلى موطنه، تاركاً حامية صغيرة في مكة المكرمة.

اعتقد الأمير سعود بأن نواة عقيدة التوحيد، التي غرسها سوف تؤتي أكلها في مكة، دونما إجبار خارجي. وقد تبين له فيما بعد أن هذا الاعتقاد كان خاطئاً. ففي تموز (ربيع الأول) عاد الشريف غالب، وتمكن من دخول مكة المكرمة بسهولة. ثم استأنف القتال منها ضد صهره عثمان وأمير بيشة مرة أخرى. وفي خلال موسم الحج التالي ترك أمير الحج الشامي ١٥٠ جندياً تلبية لطلب الشريف غالب. ومن خلال هذه القوة وبمساندة المدافع التي جلبها من جدة إلى مكة، استطاع الشريف غالب أن يبعد الحصار عن المدينة المقدسة. لا بل تقدم بعد فترة وجيزة لاحتلال ميناء الليث، عن طريق عملية مشتركة في البر والبحر، أعادت الميناء الذي كان منذ القديم تابعاً لإمارة مكة المكرمة. حيث أحرز أحد قواده وهو الشريف راجح من الشنابرة، نجاحاً كبيراً في ذلك، وفي المقابل فقد خسر قبائل حرب في شمال ينبع، لانحيازهم إلى صفوف خصمه. وفي هذه الأثناء قدم الشريف غالب يد العون إلى سفينتين إنجليزيتين رستا في ميناء جدة، ولكنه لم يحصل منهما على مقابل، فقد كانت جدة تحت سيطرته وسلطانه.

محاولة غالب استعادة مكة

ماذا تجدي هذه المكاسب جميعاً، في ظل عدم توافر الأمن السائد في كل مكان؟ إن اضطراب حبل الأمن قد قطع واردات مكة. وأمير الحج الشامي الذي عوّل على نجدته لم يؤمّن قوات جديدة فحسب، بل أمر بعودة القوات القديمة، حيث قام بدفع مبالغ مالية لعثمان المضايفي، أمير الطائف، لقاء حماية عودة هذه القوات. لا بل إن عدداً كبيراً من الأشراف العبادلة وآل بركات والمناعمة وغيرهم قد تركوه وانضموا إلى المعسكر الآخر. وقد وصل الأمر إلى أن أبناء إخوته وأبناء الأمير سرور الغيورين

على قوته قد انفضوا من حوله. وزاد في الأمر سوءًا أنه أمر بقتل بعض قادة قواته من العبيد.

وهكذا أصبحت مكة المكرمة محاطة بجدار من البدو المعادين، الذين لم يكن بالإمكان اختراقهم إلا بصعوبة بالغة. وسبيل الاتصال كان فقط من خلال القوافل الصغيرة التي تذهب إلى جدة، من أجل جلب المواد الغذائية للجياع في المدينة المقدسة. لقد استغل الكثير من المكيين هذه الفرصة للهرب من مكة المكرمة، غير أن الأعداد الكبيرة منهم لم تستقبل بحفاوة في جدة.

حصار مكة

ومنذ آب (أغسطس) ١٨٠٥م (شوال ١٢٢٠هـ) صدرت أوامر الأمير سعود بمحاصرة مكة المكرمة رسمياً. وقد قام بالحصار كل من عثمان المضايفي، وأمير بيشة، وشيخ قبائل عسير، وقد برر الأمير سعود هذا الحصار بأن عدم التزام المكيين بالمواثيق قد أعطى الحق لقواته باحتلال مكة المكرمة. وهذه الحالة حصلت عندما نقضت قريش مواثيقها مع المسلمين، في بداية عهد الدولة الإسلامية، الأمر الذي فرض احتلال المدينة بالقوة. وزاد في الأمر سوءًا وجود المجاعة وتفشي مرض الطاعون. وكل من استطاع أن يهرب بجسده المريض من رقابة غالب أنقذ حياته في المعسكر المعادي.

اعتراف الشريف بسيادة الدولة السعودية

وفي شباط من عام ١٨٠٦م (ذي الحجة ١٢٢٠هـ) فتح الشريف غالب باب المباحثات مع القوة المحاصرة للمدينة. وكان عليه في هذه المرة أن يعترف بسيادة الدولة السعودية، التي أصبحت شرطاً لا مفر منه. غير أن ذلك أفضل له من أن يخسر كرامته. وحسب نصوص الاتفاقية المبدئية، التي تمت الموافقة عليها من قبل الأمير سعود، أعيدت إلى الشريف غالب المناطق التي استولى عليها الأمراء الجدد. غير أن نشر الفكر السلفي والاعتراف بالسيادة لأمراء الدرعية كانا شرطين أساسين لابد من التقيد بهما[١].

(١) ولعلَّ من أهم الأسباب التي ساعدت الدولة السعودية الأولى على تحقيق النصر في نزاعها مع الشريف غالب ما يلي:

١ ـ أن أكثر القوات السعودية كانت تقاتل عن عقيدة آمنت بصحتها ونذرت أنفسها لحمايتها ونشرها.

بعد المعاهدة ذهب الشريف غالب إلى جدة، حيث قام بتقوية الحامية الموجودة في الميناء، كما قام بتحصين ميناء ينبع ومينائي مصوع وسواكن. وربما كان ذلك احتياطاً للأمور الطارئة في المستقبل. ومن خلال وجوده في جدة، دبت الفوضى في مكة المكرمة، حيث حدثت مناوشات في الشوارع بين الأتراك وعبيد الأشراف، مما أوجب سرعة عودته إلى مكة المكرمة.

بدأ أقارب الشريف غالب يتآمرون عليه عند الأمير سعود. فصهره عثمان المضايفي طلب خلعه من السلطة؛ لأنه لا يفهم كيفية المحافظة على النظام. أما ابن أخيه عبد الله بن سرور الذي بقي في إسطنبول أربع سنوات يحاول ـ عبثاً ـ الحصول على لقب شريف مكة الكبير فقد سافر إلى الدرعية. غير أن الأمير سعود لم يلق أذناً صاغية لهذه المؤثرات، لا بل أصدر أوامره بوضع حد لتجاوزات خائب الأمل عثمان المضايفي، حينما قام بشن بعض الغزوات بواسطة البدو في المناطق التي كانت تتبع لسلطة الشريف غالب.

منع المحمل الشامي والمصري

في عام ١٨٠٧م (١٢٢١هـ) صدرت الأوامر بإعادة قوافل الحج الشامي والمصري. وقد كانت هذه القوافل تعاني من السلب والنهب. وقد منع هؤلاء من إحضار المحمل المزركش إلى البلاد المقدسة الأمر الذي عدّه

---

٢ ـ أن الدولة السعودية حينما دخلت مرحلة الصراع المسلَّح مع الشريف غالب كانت قوية. فقد وحَّدت منطقة نجد كلها، ووحَّدت معها المنطقة الشرقية من جزيرة العرب أو كادت توحِّدها، كما انضمت إليها خلال ذلك الصراع منطقة عسير.

وبذلك أصبحت الحجاز ـ باستثناء ساحلها ـ محاطة بمناطق نفوذ سعودية.

٣ ـ أن فئات من القبائل الحجازية انضمت إلى الدولة السعودية، إما لاقتناع زعمائها بمبادئ الدعوة الإصلاحية التي تساندها تلك الدولة، وإما رغبة في مشاركتها غنائم غزواتها الناجحة في أكثر الأحيان، أو خوفاً من التعرض لهجماتها.

٤ ـ تدهور الوضع الاقتصادي للشريف غالب نتيجة الحروب التي كان الإنفاق عليها باهظاً من ناحية، والتي سببَّت قلة الحجاج في تلك السنوات من ناحية أخرى.

٥ ـ عدم مساعدة الدولة العثمانية للشريف غالب لأنها كانت غير مهتمة بالدولة السعودية في بداية الأمر، ثم أصبحت مشغولة بمشكلاتها الداخلية والخارجية، خاصة الغزو الفرنسي لمصر وما تلاه من تطورات (انظر العثيمين، مرجع سابق ج١ ص١٣٥ ـ ١٣٦).

الأتراك تحدياً لسلطتهم. وقد أدرك الباب العالي أن الأمر يتعلق بسمعة الدولة العلية، إذا لم تتم إعادة الأراضي المقدسة، التي فقدت، بدون أدنى تأخير. وأخيراً حصل القائد الداهية محمد علي باشا، الذي كان منهمكاً بإعادة فتح مصر من أيدي المماليك على الأمر بإخراج المنشقين المعادين للأتراك من البلاد المقدسة بمجرد أن تسمح له الظروف بذلك[1].

لقد استغرق القضاء على المماليك حتى عام ١٨١١م (١٢٢٥هـ) حين تفرغ محمد علي لتجهيز قواته للقضاء على الحركة المناوئة للسيادة العثمانية في الحجاز. وهكذا سادت الحركة الإصلاحية مكة لمدة خمسة أعوام كاملة. غير أن تأثير هذه السيادة كان مقتصراً على مظاهر الحياة العامة فقط. لقد باتت الأمور البدعية ممنوعة، بعد أن فقد الكثيرون من سدنة البيوتات المكية، وأماكن الزيارة سلطتهم، وأمر الناس أن يؤدوا الصلاة في المساجد بكل حزم. وقد أعطى هذا فرصة أكبر للإصلاح الداخلي، وقد أسهم ذلك في استيعاب بعض المكيين لبعض التعاليم، التي لم يكونوا يتقيدون بها في السابق.

---

(١) كان من نتائج دخول الحجاز تحت حكم الدولة السعودية الأولى بزعامة سعود بن عبد العزيز ما يلي:

١ ـ أن مساحتها ازدادت كثيراً، فأصبحت تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر.

٢ ـ أن هيبتها ارتفعت في الأقطار الإسلامية، إذ أصبح الحرمان الشريفان في يدها، وهي الدولة المتمسكة بالشريعة إلى أقصى حد، المصمِّمة على منع كل ما من شأنه أن يخالف تعاليم الإسلام.

٣ ـ توقف الحج من بعض الأقطار الإسلامية لعدم رضا زعمائها بالتقيد بما تراه الدولة السعودية من الدين، وعدم إقلاع قادة حجاجها عمّا هو من البدع، وإصرارهم على أن تصحبهم قوات عسكرية؛ الأمر الذي رأته تلك الدولة مهدداً لسلطتها في الحجاز. وقد أثّر ذلك في الأوضاع الاقتصادية للبلاد.

٤ ـ إصابة الدولة العثمانية بضربة معنوية هائلة؛ لأن سلاطينها حرصوا دائماً على أن يظهروا بمظهر حرّاس الحرمين الشريفين وخدّامهما. وفي ذلك ما فيه من كسب زعامة العالم الإسلامي من الناحية المعنوية. وإذا كان السلاطين العثمانيون قد أدركوا خطر الدولة السعودية على نفوذهم قبل استيلائها على الحجاز، وحاولوا القضاء عليها عن طريق باشا بغداد فعجزوا، فإنهم صمموا بعد ذلك الاستيلاء على مضاعفة الجهود والبحث عمّن هو في وضع أحسن من وضع ذلك الباشا ليقوم بمحاربتها. وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في حاكم مصر محمد علي باشا. (انظر العثيمين، مرجع سابق، ج١ ص١٣٦ ـ ١٣٧.

غير أن الحروب، التي لم تنقطع بين الطرفين، وما صاحبها من الجوع والمرض وخاصة مرض الطاعون الذي فتك بالناس، وانقطاع الموارد الخارجية عن المدينة المقدسة، أدت إلى تردي الأوضاع في كافة بقاع الجزيرة العربية على وجه العموم، وفي مكة المكرمة على وجه الخصوص. وقد ازداد الأمر سوءًا عندما وصل الخبر إلى المدينة المقدسة بأن سلطان الإسلام قد وجد الوقت الكافي ليتفرغ إلى مواطن الإسلام الأولى.

فشل الحملة الأولى

لقد فشلت الحملة الأولى التي غادرت مصر إلى الجزيرة في أيلول عام ١٨١١م (رمضان ١٢٢٦هـ) تحت إمرة طوسون بن محمد علي باشا، وكان على أفرادها الانسحاب سريعاً من وادي الصفراء. وقد أسهم الذهب الكثير، الذي قدمه القائد العثماني كأعطيات للبدو، إسهاماً كبيراً، تعادل في أثرها مفعول الأسلحة المصرية، في إنجاح الحملة الثانية، التي سيرت في بداية عام ١٨١٢م (١٢٢٧هـ). وفي بداية عام ١٨١٣م (محرم ١٢٢٨هـ) أرسلت قوات من ينبع في رحلة بحرية إلى مدينة جدة بهدف قتال آل سعود في مكة. غير أن المدينة المقدسة قد تم احتلالها بسرعة كبيرة[١]. ويبدو أن

(١) انطلق طوسون بن محمد علي باشا عام ١٢٢٦هـ بحملته البرية والبحرية إلى ينبع. وكان عدد أفرادها ثمانية آلاف مقاتل. وحين وصلت إلى البلدة الحجازية المشار إليها استولت عليها دون عناء. ثم زحف طوسون من ينبع صوب المدينة المنورة متخذاً إغراء القبائل الموجودة في المنطقة بالهدايا والأموال وسيلة لتمهيد الطريق أمام قواته. واستولى على بدر بسهولة. غير أنه حينما اشتبك مع القوات السعودية الكبيرة بقيادة عبد الله بن سعود في وادي الصفراء تكبّد هزيمة ساحقة. وفرَّ مع من نجا مع جيشه عائداً إلى ينبع. ومن حسن حظه أن السعوديين لم يتعقبُّوا فلول قواته المنهزمة ويقضوا عليها. وبعد عودة طوسون إلى ينبع انتظر حتى قدمت إليه تعزيزات جديدة من مصر، كما وصلت إليه مبالغ كبيرة لتوزيعها على رجال القبائل. وقد نجح في استمالة بعض رؤساء قبيلتي حرب وجهينة الذين كانوا في الجهات المحيطة بوادي الصفراء. وكانت القوات السعودية قد انسحبت من تلك الجهات بعد انتصارها العظيم على طوسون معتقدة، فيما يبدو، أن الحامية التي تركتها في المدينة المنورة كافية لدرء الخطر عنها. إلا أن طوسون نجح في القضاء على الحامية نتيجة انتشار المرض بين أفرادها فاضطرت إلى الاستسلام في ذي القعدة سنة ١٢٢٧هـ. وكان لاستيلاء طوسون على المدينة المنورة دور كبير في رفع معنويته، وبثُّ الحماس والثقة في نفوس أفراد جيشه، وزيادة المنضمِّين إليه من رجال القبائل، مما فتح الطريق =

علاقة الشريف مع محمد علي باشا

الشريف غالب قد تبادل الرسائل السرية مع محمد علي باشا بهذا الخصوص. ويرى بعض مؤرخي مكة بأن الشريف غالب ـ ونتيجة لما لاقاه من الدولة السعودية الفتية ـ بقي موالياً للأتراك. غير أن هذا الادعاء مبالغ فيه على الأرجح. فقد كان غالب وبقية ذوي زيد لا يثقون قط بالسلطة العثمانية. غير أن الشريف غالباً كان ذكياً جداً بإبقاء مثل هذه العلاقة معهم؛ لأنه كان يؤمن بأن الدولة السعودية، قد تستطيع وبمرور الزمن أن تصل من خلال وسائل الحرب العربية التقليدية، إلى مركز الدولة العظمى في المنطقة.

غير أن اعتقاده الجازم بأن الأتراك لن يسمحوا تحت أي ظرف من الظروف أن تؤخذ منهم كل الجزيرة العربية قد شجعه دائماً على استئناف القتال من جديد. ولما كان لا يعرف متى يستفيق الباب العالي من سباته، فقد كيّف نفسه باستمرار مع الأمور التي لا يمكن تجنبها[1].

لقد عرف الأشراف بخبرتهم، ما استنتجه ابن خلدون من دراساته التاريخية، أن منطقة غرب الجزيرة العربية بمواردها المحدودة، والخلافات المستمرة بين أبناء الطبقة الحاكمة فيها، قد جعلتها ذات دور ثانوي محدود. لذا فقد أدرك هؤلاء ضرورة تبعية الحجاز لمصر، والتي أثيرت فعلياً منذ فتح قناة السويس. ومن هنا يمكن تبرير السرعة المذهلة للارتباط مع محمد علي باشا، دون الحاجة إلى أن تكون هناك صداقة حميمة مع الأتراك.

= أمامه للتوغل في بقية الحجاز. وبالاتفاق السّري مع الشريف غالب توجه بقواته إلى جدة، ودخلها دون مقاومة. ثم اتجه إلى مكة المكرمة، ودخلها بمساعدة الشريف غالب بعد أن تركتها الحامية السعودية بأمر من عبد الله بن سعود. وكان دخول طوسون لمكة في شهر محرم سنة ١٢٢٨هـ (انظر العثيمين) مرجع سابق، جـ١، ص١٣٦، ١٣٧).

(١) يذكر الجبرتي أن الشريف غالباً كان ينافق الطرفين اللذين هما العثماني والوهابي ويداهنهما، أما الوهابي فلخوفه منه وعدم قدرته عليه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك، ويميل باطناً للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذاهبهم وتعاقد مع الباشا، [محمد علي] أنه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم ومساعدتهم بكليته وجميع همته (انظر محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، دار اليمامة. سنة ١٣٩٥هـ ص١٢٧ ـ ١٢٨).

الذهب والخيانة هما سبب النجاح

ويعترف المؤرخون الذين سروا بانتصارات الباشا، بأن الذهب والتصرفات الخيانية، كانت الأسلحة الرئيسة التي استعملها الباشا، ضد الحركة الوهابية وأتباعها. لقد استسلمت مكة لجيش محمد علي دون قتال تقريباً. أما الطائف فقد تم فتحها بمساعدة من الشريف غالب، حيث قبض على عثمان المضايفي أسيراً، وحمل إلى مصر، ثم أرسل إلى إسطنبول، لينال عقابه بالموت هناك[1]. وفي نهاية عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) أتى محمد علي باشا، نائب السلطان في مصر إلى مكة، حيث استقبله الشريف غالب بحفاوة بالغة، مشوبة بالحذر الشديد.

لقد كان الانطباع مأساوياً، حين اقتيد زعماء الحركة الإصلاحية أسرى إلى مصر، بعد أن أوهموا أنه لن ينالهم سوء هناك. وقد كان ظهورهم في أسواق القاهرة مثار استغراب الطبقة المثقفة، التي كانت تنظر باحترام إلى الأصل النبيل الذي ينحدر منه هؤلاء، أما الرعاع فقد قابلهم بشيء من عدم التقدير والاحترام. وقد أرسل هؤلاء إلى إسطنبول، التي أمرت بوضع نهاية حزينة لمعاناتهم. لقد عرف الناس في الخارج بقتل هؤلاء، أما ماذا تعني حركتهم الإصلاحية فهذا لم يكن ليعرف عنه أي شيء. لقد كانت تصورات المرء في عاصمة الخلافة مليئة بالحكايات الخيالية عن أحوال الجزيرة العربية. وكل ما ظهر بعد انتصارات طوسون في عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) هو أن مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف عرضت أمام الناس على أطباق ذهبية، من خلال مواكب احتفالية كبيرة، تسير عبر شوارع العاصمة إسطنبول.

عزل الشريف غالب

كانت الشكوك العثمانية تدور حول الشريف غالب. هذه الشكوك وصلت إلى الحد الذي اتهم فيه بأنه عضو سري في الحركة السلفية. لذا قرر محمد علي أن يحقق ضربتين بحجر واحد، وأن يغتنم الفرصة لاستبدال رجل مطواع سهل العريكة بالرجل القوي في مكة. ويبدو أن الشريف غالب قد

---

(١) يذكر الجبرتي في عجائب الآثار، وكذلك الدحلان من أمراء البلد الحرام: أن الإمام سعود ابن عبد العزيز عرض دفع فدية كبيرة تقدر بمائة ألف ريال لإطلاق سراح عثمان المضايفي، كما عرض الصلح مع محمد علي، لكن عرضه لم يقبل. (انظر الدحلان ص٣٣٠، وكذلك محمد أديب غالب، ص١٤٩ ـ ١٥٠).

شعر بذلك، وعلم أن محمد علي يضع له الشراك ليوقعه في الفخ. وكم كان سرور الشريف غالب شديداً حينما أمر محمد علي بإرسال القوات المصرية من جدة إلى الطائف، عبر طرق لا تمر عبر مكة، بحجة أنها لم تجد الماء الكافي في أثناء سيرها. وقد زالت حالة الشك تقريباً بين الطرفين عندما زار محمد علي الكعبة المشرفة، وأقسم له غالب من داخلها، بأنه لن يفعل شيئاً ضده. لكن نائب السلطان فهم هذا الإخلاص بطريقته الخاصة، وخطط مع ابنه طوسون مكيدة يوقع الشريف غالب في شراكها. ويقال إن نزاعاً حصل بين طوسون وأبيه محمد علي، سافر إثره طوسون إلى جدة. وقد رجا طوسون الشريف غالب خطياً، بأن يتوسط له في الصلح مع أبيه. وقد قام غالب بهذه المهمة، ورجا طوسون العودة إلى مكة، بعد أن طيب خاطر أبيه. وعندما عاد طوسون إلى مكة ملبياً دعوة الشريف غالب، أسرع الشريف إلى لقائه واستقباله، إلا أن طوسون أخذ غالباً أسيراً وطلب إليه إحضار أبنائه الأبرياء، وأبلغه بأن السلطان يريد رؤيته، وعليه أن يتوجه إلى القاهرة قبل المثول أمام السلطان بإسطنبول. ويقال إن أحد أتباع الشريف غالب الدهاة والمدعو أحمد تركي، الذي كان الشريف غالب يعتمد عليه كثيراً قد ساعد على خداع سيده، وتسليمه إلى طوسون. وقد تصرف محمد علي بسرعة فائقة إزاء هذا الانقلاب الذي لم يعلن عنه، حتى تم تعيين يحيى بن سرور (١٨١٣ ـ ١٨٢٧م) (١٢٢٨ ـ ١٢٤٢هـ) ابن أخي الشريف غالب مكانه. وكان على الشريف غالب أن يمضي بقية حياته حتى عام ١٨١٦م (١٢٣١هـ) في منفاه في سالونيك، يعيش من تعويض قليل حصل عليه لقاء أملاكه التي تركها في مكة قبل رحيله.

تعيين الشريف يحيى بن سرور

أما الشريف الجديد فلم يكن له أكثر من السيادة الاسمية. لقد أصدر محمد علي أوامره إلى الوالي العثماني الذي عيّنه عند مغادرته للحجاز، بأن يأخذ بنصائح أحمد بن تركي في كل الأمور المهمّة. أما المباحثات التي تتطلب الخبرة مع البدو ومع الأشراف، فعليه ألا يأخذ برأي شريف مكة فيها، بل برأي شريف آخر من الأشراف المناعمة (شمبر بن مبارك)، الذي أسندت له هذه المهمة.

استمر نائب السلطان العثماني محمد علي باشا حتى عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) يشرف بنفسه على تثبيت سيادته على البلاد المقدسة، وإخضاع القبائل القوية في غرب الجزيرة العربية لسلطته، بينما كان ولده طوسون يجوب الجزيرة العربية على رأس ألوية مهمة من الجيش في اتجاهات مختلفة. بعد موت طوسون كان على أخيه إبراهيم أن يواصل سير العمليات التي بدأت ضد الدرعية مركز الحركة الإصلاحية في الجزيرة العربية. وقد تمكن في عام ١٨١٨م (١٢٣٤هـ) أن يقلص نفوذ الدولة الفتية إلى إمارة صغيرة، لا تشكل أيّ أخطار سياسية في داخل الجزيرة العربية. غير أن هذه المهمة لم تكن سهلة. فقد أنفق من أجل الجمال التي استعملت لنقل التعزيزات التي أرسلها والده مبلغاً وقدره مائة وثمانون ألف دولار نمساوي (ماري تريسا). وبالرغم من أن نفوذ الدرعية قد انحسر عن المدن المقدسة، غير أن الجزء الأعظم من وسط الجزيرة العربية، قد شهد انتشاراً واسعاً لسيادة المذهب الحنبلي، الذي تبنته الدعوة السلفية. أما في مكة فقد كان أتباعه قلة، وقد أوردت بعض المصادر أن هناك ترحيباً بين سكان الحرمين بانتشار هذا المذهب، غير أن هذه الآراء هي من نسج الخيال، وخاصة في المدينة المنورة، التي كان الرأي العام فيها متعصّباً ضد الحركة الإصلاحية[١].

إبراهيم باشا يواصل حملاته ضد الدرعية

أعمال محمد علي في مكة

من المعروف أن محمد علي باشا قد فتح مصر والحجاز بتكليف من الباب العالي، لكنه بعد أن أنجز هذه المهمة أدار هذه المناطق، ومن بعده أبناؤه، باستقلال تام عن مركز الخلافة. لقد كان المحملان المصري والشامي يمثلان في الأماكن المقدسة رمزاً للسلطان العثماني. غير أن المكيين كانوا يعرفون أن المحمل المصري يمثل القوة الحقيقية، أما المحمل الشامي فيمثل الظل فقط. ولقد ازداد هذا الشعور عند المكيين، حينما قام محمد علي باشا قبل عودته في نيسان عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) بتنظيم المؤسسات الخيرية في الحرمين الشريفين، والتي كان ينفق عليها من عوائد تأتي من

(١) هذا التعصب مرده إلى أن الدعوة السلفية أزالت معظم المزارات والقباب والأضرحة التي كان بعض الناس يرون فيها مصدر رزق يتكسبون منه، مع علمهم بأن هذا مخالف لقواعد الشريعة الإسلامية.

وادي النيل. وهكذا فقد أصبح لسان حال كل مواطن محتاج في مكة يقول: أنا مدين في مأكلي وملبسي لله، ثم لأفندينا محمد علي. وبالرغم من أن المواطنين المكيين كانوا يحصلون سنوياً من الدرعية على كميات من القمح، وكان الخبز والمرق يوزع من قبلهم يومياً على الفقراء والمحتاجين، إلا أن ذلك لم يكن بمستوى مايقدم من قبل مصر. وحتى هذه الأيام (١٨٨٥م) يتذكر فقراء مكة نائب الباب العالي المؤسس الأول لهذه الهبات، التي لا يمكن الاستغناء عنها. وبجانب هذه الهبات قرر محمد علي صرف رواتب منتظمة للعلماء والوجهاء، وبهذا ضمن سكوت الناس عن التجاوزات التي حصلت من قِبَل الباشا. بعد موت المستشار أحمد تركي البارع ١٨٢٠م (١٢٣٥هـ) بقي الشريف يحيى بن سرور مستثنى من الاشتراك في إدارة الأمور. لقد اختار البشوات المعنيون وسيطاً آخر بديلاً عن تركي، وتركوا أمر تصريف شؤون الأشراف والبدو كما كان سابقاً بيد شمبر بن مبارك المذكور آنفاً. غير أن الشريف يحيى لم يسمح لقريبه - الذي لم يمارس أجداده منذ تولي الشريف حسن السلطة - استغلال محنة ذوي زيد (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣). ففي بداية عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) وفي إحدى الأمسيات قام يحيى بطعن شمبر بن مبارك في المسجد الحرام، وتحصن في بيته، غير أن الباشا نصب المدافع باتجاه بيته، فطلب يحيى من الباشا السفر براً إلى مصر لمقابلة نائب السلطان هناك.

قتل الشريف شمبر

لم يذهب يحيى إلى مصر، بل ذهب إلى الشمال حيث قام بتجميع أنصار له من حرب، ليقوم بمواجهة ضد الباشا وأنصاره. لم يستطع أحمد باشا ممثل محمد علي في مكة أن يعين بديلاً ليحيى، وقام بإخبار والي مصر محمد علي باشا الذي أصدر أوامره بتعيين الشريف عبد المطلب بن غالب، الذي خلف عمه المنفي سابقاً في آب عام ١٨٢٧م (صفر ١٢٤٣هـ). وقام عبد المطلب بالإجراءات الضرورية لمقاومة الحشود من حرب، بواسطة أنصاره وجيرانه من هذيل.

تعيين الشريف عبد المطلب مؤقتاً

لقد علّمت التجارب في الحجاز محمد علي باشا بأن الأَتراك يحتاجون دائماً إلى وساطة الأشراف للتعامل مع البدو. وبسبب الافتقار إلى النفوذ

الشخصي للأتراك، فإنهم يستطيعون الحصول على السيادة من خلال طريقين فقط: الأول هو التفوق العسكري الواضح، والثاني هو صرف كميات كبيرة من الذهب للترضية. ولما كان الأمر الأول شديد الصعوبة بسبب الظروف الجغرافية، فإن الأمر الثاني هو الوسيلة الملائمة لتحقيق الرغبات؛ لذا رأى محمد علي أن أفضل طريقة للتغلب على أي فرقة من بدو الصحراء، يجب أن يكون من خلال إغراء فرقة أخرى من هؤلاء، بواسطة الذهب الأصفر، ومن خلال قيادة الأشراف الذين يدين لهم هؤلاء بالاحترام والتقدير.

محمد علي يعين الشريف محمد

لقد استعمل محمد علي باشا اللعبة ذاتها مع الأشراف. فبالإضافة إلى ذوي زيد، فإن منافسيهم من العبادلة، الذين هم بالمستوى نفسه، يصلحون لهذه المهمة. لقد اغتنم محمد علي الفرصة ليستبدل بيتاً آخر اختير لهذا الغرض بذوي زيد، ألا وهم العبادلة، الذين كانوا في الظل منذ عام ١٦٦٧م (١٠٧٨هـ). لقد كان العبادلة وذوو زيد يحتلون مرتبة أعلى من ذوي بركات الذين دفعهم الأتراك إلى السلطة، وكذلك كانوا أكثر شهرة من العائلات الأخرى المشهورة، مثل: الشنابرة والمناعمة وغيرهم، مع أنهم لم يطالبوا بالحكم إلا نادراً. وكان ذلك من قبل الشريف محسن (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٣٢) في وقت من الأوقات، إلا أنهم كانوا يشتركون في المشاورات في كل المسائل المهمّة، بما فيها اختيار الشريف نفسه. لقد كان على ذوي زيد شراء رضا هؤلاء العبادلة بثمن غال في كثير من الأحيان؛ لأن غضب هؤلاء كان كافياً لإثارة المشكلات، وتدمير التجارة، وتهديد طرق المواصلات.

كان ممثل العبادلة في أثناء وجود محمد علي في الحجاز الشريف محمد (انظر شجرة النسب الثالثة رقم ٥٨) الذي كان في الأربعين من عمره. وقد وقف بشجاعة إلى جانب محمد علي في حروبه، التي خاضها ضد قبائل عسير الصعبة المراس في الجنوب. وقد بقي الشريف محمد أميراً على هذه المنطقة حتى بعد عودة محمد علي إلى مصر. وفي عام ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) أرسلت الحكومة المصرية قوات نظامية من مصر للمحافظة على النظام في عسير. وبعد انحسار سلطة آل سعود على الحجاز، فقدت المنطقة الجنوبية أهميتها العسكرية، وتركت فيما بعد بدون مراقبة.

سافر محمد بن عون (هكذا يدعى لأن جده هو مؤسس العشيرة الجديدة لذوي عون) إلى مصر، وأقام فيها ثلاثة أعوام، تعرف خلالها على فن التعامل مع السادة الحماة الأجانب بدون إثارة المشكلات. هذا الفن الذي نسيه ذوو زيد، فسبب لهم المتاعب، بينما وعيه جيداً حسن عجلان وأبناؤه فاستفادوا منه. لقد كان تصرف محمد بن عون الذكي المعتدل سبباً في وصوله إلى الحكم (١٨٢٧ ـ ١٨٥١م) ـ (١٢٤٣ ـ ١٢٦٧هـ) خلفاً لسلفه عبد المطلب.

وما أن وصل الخبر إلى الطائف حيث يرابط الباشا العثماني مع الشريف عبد المطلب لمطاردة الشريف يحيى، حتى قام عبد المطلب بطرد القوة التركية، وقام بتجهيز جيشه للحرب ضد الجنود المصريين. وكتب إلى ابن أخيه يحيى بأنَّ مصالح الجميع قد توحدت في ظل الظروف الجديدة.

صراع عبد المطلب من أجل البقاء

كسب الشريف محمد بن عون، بعد وصوله إلى جدة من مصر، ولاء كثير من المعارضين لحكمه، من خلال كيس الدراهم المليء، الذي أعطاه إياه محمد علي قبل عودته. وفي هذه الأثناء قبل الشريف يحيى ومؤيدوه الشروط الحسنة المعروضة عليهم من الشريف الجديد، فانصرفوا عن مناوءته. أما عبد المطلب فقد اتخذ موقفاً عدائياً. فقد وحّد أقاربه، بعضهم بالإقناع، وبعضهم الآخر بالقوة، وأرسل أخاه علياً لتحريض القبائل المعادية للحكومة. وقوّى نفسه بكل الوسائل الممكنة في الطائف. وأرسل العبادلة الموجودين هناك كافة إلى السجن. غير أنه بعد حصار استمر ٢٢ يومًا فرضه الشريف محمد وأعوانه والقوات المصرية على معسكر عبد المطلب أذعن هذا الأخير، وتقدم إلى معسكر خصمه، بعد أن حصل على الأمان له ولأقاربه. وهناك قوبل بالترحاب. وبالرغم من ذلك فقد هرب في الليل مع أخيه يحيى. وقد تم القبض على يحيى لاحقاً بوشاية قام بها يحيى ابن سرور. أما عبد المطلب فقد بدأ رحلة تائهة في المناطق المجهولة من بقاع الجزيرة العربية المغلقة أمام التأثيرات الأجنبية، حتى سنحت له الفرصة في عام ١٨٣١م (١٢٤٦هـ) بالسفر إلى دمشق مع قافلة الحج الشامي، ثم واصل سيره إلى إسطنبول. ولم يكن عبد المطلب ليجرؤ على القيام بالرحلة

إلى إسطنبول، لولا أن رأى أن الظروف السياسية في عاصمة الخلافة قد أصبحت مختلفة تماماً عن السابق.

ظهور الكوليرا في مكة

حاول الشريف محمد بن عون في السنوات الأولى لحكمه توسيع منطقة نفوذه إلى الحدود القديمة التي كانت لإمارة مكة سابقاً. وفي منتصف عام ١٨٣١م (١٢٤٦هـ) أصابت الكوليرا سكان مكة المكرمة لأول مرة[١]. وكان من بين ضحاياها أعداد لا حصر لها من الناس، من بينهم الباشا التركي. وقد تولى الأمر نائبه من بعده[٢]. وخاض هذا الأخير في نهاية العام نفسه، هو وجنوده معركة غير متكافئة ضد القوات التركية غير النظامية الموجودة في مكة، والتي طالبت بدفعة مالية متبقية. وقد أجبر نائب الباشا على الانسحاب والعودة إلى مصر في نهاية ١٨٣١م (١٢٤٧هـ)؛ ولأن محاولات الشريف محمد بن عون في الإصلاح بين الطرفين لم تؤت ثمارها، فقد ترك الشريف مكة، وذهب إلى الهدا، وانتظر هناك نهاية هذا الصراع، الذي حسم لصالح القوات النظامية، التي بعد أن أحرزت النصر، قامت بنهب بعض المتاجر المكية، قبل أن تعود إلى ثكناتها.

---

(١) ذكر الدحلان أنه في شهر ذي العقدة من عام ١٢٤٦هـ حصل وباء بمكة لأول مرة، لم يعرفه الناس قبل تلك السنة. ثم بعد هذه السنة تكرر مجيئه بمكة مرات. لكنه ما جاء في السنين التي بعد هذه السنة، فإنه كان شديد الكثرة، مات فيه خلق كثير لا يمكن ضبطهم ولا إحصاؤهم. وكان ابتداؤه من شهر شوال من السنة المذكورة. وكان ابتداء وقوعه في التكرور والجَبَرْت، فلم يكترث الناس به، ولم ينزعجوا منه. ثم إنه في النصف من شهر ذي القعدة أصاب كثيراً من أهل مكة ومن الحجاج ومن كل صنف، ولم يزل يتزايد. واشتد أمره في أيام منى حتى صار الموتى مطروحين في الطرقات. ونزل الناس من منى والجمال محملة من الأموات. واشتد أيضاً بمكة بعد النزول من منى، وامتلأت الأسواق والطرقات من الأموات، وعجز الناس عن تجهيزهم ودفنهم. فخرج مولانا الشريف محمد بن عون بنفسه راكباً ومعه بعض أتباعه وصار يمر على بعض الطرقات والأسواق، ويأمر الناس بتجهيز الموتى ودفنهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه من الأكفان. وامتلأت القبور من الأموات فحفروا حفائر كثيرة، وصاروا يضعون في كل حفرة جملة من الأموات، وقاسى الناس من ذلك الوباء هولاً شديداً. واستمر ذلك الوباء إلى عشرين من شهر ذي الحجة، ثم ارتفع شيئاً فشيئاً (أمراء البلد الحرام، ص٣٤٩).

(٢) اسم الباشا التركي هو عابدين بيك وقد عينه محمد علي، أما نائبه فهو خورشيد بيك.

ثورة عسير

في نهاية عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) قدم من مصر أحمد باشا الذي مثل الحكومة في مكة في وقت سابق. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الخلافات بينه وبين شريف مكة محمد بن عون. وفي هذه الأثناء قام أحد الأمراء الجدد في عسير بعدد من الهجمات على بلاد بيشة وزهران وغامد وبعض القبائل الأخرى. وقد خرج شريف مكة لحسم القضية وكان ـ حسب اعتقاده ـ قريباً من تحقيق هدفه بتخويف الأمير الثائر، غير أن نقص الإمدادات التي طلبها عبثاً من أحمد باشا حالت دون تحقيق هذا الهدف. وفي المقابل اتهم الباشا الشريف وحمله مسؤولية الفشل. وهكذا تبادل الفريقان الاتهامات برسائل بعثوها إلى نائب السلطان في مصر محمد علي باشا، الذي نفذ صبره من الطرفين، فأصدر أوامره إليهما بالمثول إلى القاهرة عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ). وقد ترك كل واحد منهما نائباً له في مكة، وسافر ليعرض مسألته أمام ممثل الباب العالي. وبعد نقاش طويل وافق محمد علي على اقتراح أحمد باشا بعودته أولاً إلى الحجاز ليقوم بإخضاع منطقة عسير خلال ثلاثة أشهر، وهكذا كان على الشريف أن يبقى ضد رغبته في القاهرة.

عاد أحمد باشا إلى الحجاز، وجهز قوة خرج بها إلى عسير، مصحوباً بأحد الأشراف الشنابرة، وأحد شيوخ عسير المطرودين. غير أنه لم يحقق إلا نجاحاً محدوداً. واستمر الوضع إلى عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ). وربما كان الأمر سيطول أكثر من ذلك، لولا أن الأمور السياسية قد تغيرت، حيث تم عقد اتفاقية ربط فيها الحجاز مع سوريا مرة أخرى تحت إدارة الباب العالي مباشرة. وهكذا أصبح هم محمد علي الوحيد، هو ضمان عودة قواته الموجودة في الحجاز. لذلك قام بإعادة الشريف محمد بن عون إلى وطنه ليقوم بهذه المهمة. وقد تمكن الشريف بكثير من الحنكة واللباقة من سحب القوات التي كانت مشغولة بإخضاع قبائل حرب دون خسائر، وضمها إلى الحامية الموجودة في الجنوب، ثم طلب إليها جميعاً العودة إلى مصر. وهكذا عاد الشريف محمد بن عون إلى سدة الحكم في مكة.

في هذه الأثناء كان الشريف عبد المطلب، ذو البشرة السمراء، في إسطنبول منذ عشر سنوات يجرّب حظه في الوصول إلى السلطة. وفي هذه الفترة كانت رحى الحرب تدور بين قوات الباب العالي من جهة وقوات نائبه في مصر من جهة أخرى. وقد وعد السلطان العثماني محمود، الشريف عبد المطلب بالحصول على تركة أجداده، بمجرد أن تنتهي الحرب الدائرة، مع نائب السلطان الثائر في مصر، غير أن الباب العالي لم يف بوعده. وهكذا بقي الشريف محمد بن عون في منصبه بمكة أميراً لمنطقة تتعرض حدودها الجغرافية لتغيرات شبه يومية.

استحداث منصب محافظ مكة

لقد استحدث العثمانيون منصب محافظ مكة، إثر خروج القوات السعودية من الحجاز. وهذا المحافظ هو ممثل لنائب السلطان في مصر (الوالي) في المدينة المقدسة. ويشغل هذا المنصب موظف برتبة باشا. ومنذ ربط الحجاز وبلاد الشام بالباب العالي مباشرة، أرسل العثمانيون حسب تقليد قديم والياً لجدة وشيخاً للحرم. وتتباين صلاحيات هؤلاء تبايناً كبيراً. أما الأوقاف الدينية فلم تكن إدارتها ممكنة إلا من مصر كما كان في السابق.

بالرغم من أن العبادلة سلميون أكثر من ذوي زيد، إلا أن الاتفاق بين شريف مكة ومحافظها كان ضرباً من الخيال في ضوء عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين. في عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) نشب خلاف بين الشريف محمد بن عون ووالي جدة. والسبب المزعوم هو أن بعض الأمراء المعينين من قبل الشريف، قد أخذوا لأنفسهم قسطاً أكبر من أموال الزكاة المفروضة. غير أن سبب هذا الخلاف ربما كان بسبب تحركات عبد المطلب في إسطنبول لتغيير ميزان القوى لصالح ذوي زيد من قِبَل الباب العالي.

وقد أكد هذه المقولة الالتماس الذي قدمه الباشا في مكة، لإرسال الشريف علي بن غالب شقيق عبد المطلب بن غالب إلى إسطنبول، الأمر الذي عدّه شريف مكة تحضيراً لأمور جديدة. فما كان من الشريف محمد بن عون إلا أن أخبر صديقه القديم والي مصر محمد علي باشا بالموضوع طالباً منه المساعدة؛ لأن علياً هذا لا بد أن يسافر إلى إسطنبول

عبر مصر. لم يخيّب محمد علي باشا ظن صديقه القديم، فقد استقبل علياً بحفاوة بالغة، غير أن ضيفه مرض فجأة ثم مات. وكان ذلك عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ). في أثناء ذلك خرج شريف مكة إلى منطقة المبعوث[١] في شمال الطائف. وفي هذه الأثناء راقبت تحركات الشريف كتيبة من القوات التابعة لوالي جدة، الأمر الذي عدّه الشريف تحدّياً له، غير أن (محمد علي باشا) قد عمل على عزل هذا الحاكم، وتعيين حاكم جديد، تفاهم مع الشريف بصورة أفضل من سابقه.

إعلان الحرب على نجد

في عام ١٨٤٦م (١٢٦٣هـ) خرج الشريف محمد بن عون بتكليف من الباب العالي لقتال الأمير فيصل بن تركي في الرياض، التي حلت محل الدرعية، عاصمة للدولة السعودية. فقد اكتسب هذا القائد شهرة كبيرة. ولما رأى الأمير فيصل أن لا قبل له بصد الحملة رضي بأن يبعدها عن عاصمة ملكه بدفع مبلغ عشرة آلاف ريال سنوياً. ويبدو أن الدفع قد تم بانتظام حتى وفاة الأمير فيصل عام ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ)[٢].

(١) أحد الأودية في شمال الطائف يقطعه طريق نجد على بعد ٦٠ كلم، وهو مجمع أودية ذات زراعة وفيرة، وتنصرف مياهه إلى سهل ركبة (البلادي، معجم معالم الحجاز ج٨ ص١٥).

(٢) قصة خروج الشريف محمد بن عون لقتال الأمير فيصل بن تركي اختلفت في دوافعها ونتائجها المصادر التاريخية المختلفة. ويبدو أن المؤلف قد ساق رأي الدحلان في أمراء البلد الحرام المذكور في ص٣٥٧، غير أن ابن بشر في عنوان المجد في تاريخ نجد يروي القصة بشكل آخر، ويتابعه على ذلك عبد الله فيلبي في تاريخ نجد. ودون الدخول في التفاصيل فقد ذكر ابن بشر أن سبب خروج محمد بن عون لم يكن بتكليف من الباب العالي كما ذكر المؤلف، وإنما كان بتحريض من بعض سكان القصيم الذين التجأوا إلى مكة نتيجة لخصومة وعداوة بينهم وبين آل سعود. وقد زين هؤلاء للشريف قتال الإمام فيصل بن تركي. فتوجه الشريف إلى القصيم الذين قدموا له الطاعة، وما أن علم بذلك الإمام فيصل حتى استنفر جيوشه، الأمر الذي أدخل الرعب إلى قلب الشريف، فأرسل الشريف رسولاً إلى الإمام فيصل يطلب الصلح، كما يطلب أن يحضر إليه أحد إخوة الإمام فيصل لينفي عنه ظاهر الفشل، فجهز الإمام فيصل أخاه عبد الله وعدداً من الرجال، ومعهم هدية إلى الشريف، وقد استقبل الشريف الوفد وأكرمهم وأخذ هديتهم وبادلهم بهدية من عنده، غير أن أهل الأهواء والمثيرين للفتن أشاروا عليه برد الهدية ليعلم أهل نجد بقوته.

ولما خرج الوفد وبلغوا مأمنهم ردوا الهدية، واستعد الإمام فيصل للقتال. فلما علم الشريف بذلك داخله الفشل فأرسل رسوله ثانية للمصالحة الأبدية، فوافقه الأمير على مطلبه مشترطاً =

وفي الجنوب عقد الشريف محمد بن عون، بعد بعض الاشتباكات العسكرية مع قبائل عسير، معاهدة وضحت معالم الحدود بين المنطقتين. وهذا لاشك يرضي غرور الأتراك الذين كانوا يعدّون تخليهم عن أي منطقة تابعة لهم، ولو كانت لاقيمة لها، أمراً غير مقبول. لقد مهّد الشريف إلى احتلال اليمن، والذي تم بواسطة العثمانيين في وقت متأخر جداً. لقد استطاع الشريف محمد بن عون استرداد الحديدة ومخا وزبيد وبيت الفقيه من أحد الأشراف [الشريف حسين بن علي بن حيدر] الذي أعلن الثورة هناك، ثم عيّن في صنعاء أحد الموالين من أحفاد الأئمة [محمد بن يحيى] بدل الحاكم الفعلي للبلاد. غير أن الإمام الجديد الذي وصل إلى السلطة قد تم اغتياله بعد انسحاب حماته بوقت قصير[1].

تنظيم الأوقاف السلطانية

حدث في أثناء غياب الشريف الطويل خارج مكة، أن الباشا محافظ مكة، حاول إدخال تنظيمات جديدة للأوقاف السلطانية. وقد ألمحنا فيما سبق لوضع الأوقاف الدينية في المدينة المقدسة. معظم البيوت القيمة التي تم شراؤها بقصد الوقف كانت لأهداف إنسانية نبيلة. ثم جرى بعد ذلك نقل الإشراف عليها من يد إلى أخرى، بحيث لم يبق منها إلا اسم الوقف. غير أن هذا الاسم كان كافياً لمنع أي بيع قانوني لمثل هذه العقارات؛ لأن الوقف لا يباع أمد الدهر. ولما كان نقل الملكية ضرورياً في بعض الأحيان، برز إلى الوجود نوع من اتفاقيات الشراء، عرف باسم خاص، هو «الإفراغ» وهو التخلي عن العقار مقابل مبلغ محدد من المال، بحيث يمكن الاستفادة من العقار، دون أن يكون مالكاً له، وهذا من قبيل وضع اليد، بغرض التصرف دون التملك. ومهما كان نقل الملكية لهذه البيوت غير

= على أن يتخلى الشريف علي عن المطالبة بالقصيم أو أي منطقة في قبائل نجد بلا قيد ولا شرط، وأرسل إليه بعض الهدايا ليحقق عليه وقع هذه المطلب وكذلك أرسل له مبلغاً من المال، وربما عاد الشريف فقدّم هذا المبلغ بدوره إلى الأتراك في مكة على عدّه أنه الجزية التي دفعها له الأمير فيصل. (انظر ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص١١٤ ـ ١١٥، وكذلك فيلبي في تاريخ نجد ص٢٢٣، ٢٢٤).

(١) انظر تفصيلات غزو عسير واليمن واحتلال صنعاء في أمراء البلد الحرام ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.

شرعي، فإنه لا يمكن الإنكار بأن من يضع يده على بيت وقف، مقابل سعر مناسب، فإنه يملك الحق فيه بحسب القوانين السارية. وقد أصدر الوالي أمراً بإلغاء هذه الإجراءات. وقد أدرك الناس أن الهدف ليس حماية الأوقاف القديمة، بقدر ماهي خطوة تتيح لبعض المتنفذين التصرف الحر بأموال كبيرة ودخول عالية.

لقد حاول الباشا أن يكسب العلماء إلى جانب إعلانه لبطلان الأوقاف، حتى إنه أقال المفتي الحنفي، الذي أصر على رفض الفكرة. وقد أدى هذا إلى ذهاب بعثة من معارضي الوالي سراً إلى إسطنبول، حيث أصدروا أمراً بعزله عام ١٨٤٩م (١٢٦٦هـ)[1].

أما الوالي الجديد الذي خلفه في مكة، فقد حصل على تعهد من الصدر الأعظم رشيد باشا تم بموجبه سحب البساط من تحت أقدام الأشراف العبادلة. فقد تمكن الداهية عبد المطلب أن يجعل من حامل المنصب الرفيع في إسطنبول صديقاً شخصياً حميماً. وقد ساعد الوزير الكبير عميد أسرة ذوي زيد على حساب المصالح التركية الحقيقية. ففي بداية عام ١٨٥١م (١٢٦٨هـ) حضر ابنا محمد بن عون؛ وهما عبد الله وعلي إلى جدة بناء على طلب الوزير، للتباحث حول بعض أمور العمل. غير أن الدعوة كانت حيلة، الهدف منها احتجاز الابنين رهينة، تنهي معارضة الأب للبقاء في السلطة. وقد تم ـ في ذات الوقت ـ إرسال رجل من ذوي زيد من خلال دعوة سلطانية إلى إسطنبول في سفارة خاصة.

عبد المطلب يعود إلى حكم مكة

استفاد الأشراف العبادلة من خبرتهم في التعامل مع الأتراك. فما كان من الشريف محمد بن عون إلا أن تخلى وبدون معارضة، عن الإمارة إلى أمير جديد، هو منصور بن يحيى، الذي عُيّن بصورة مؤقتة نائباً لعبد المطلب. ومنصور هذا هو ابن الشريف يحيى الذي عُيّن في البداية أميراً على مكة من قِبَل محمد علي باشا.

---

(١) انظر تفصيلات هذا الخبر في أمراء البلد الحرام ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

تصرفات عبد المطلب مع الوالي

وعندما تسلم عبد المطلب زمام الأمور في مكة (١٨٥١ ـ ١٨٥٦م) (١٢٦٧ ـ ١٢٧٣هـ) أظهرت تصرفاته، أنه لا يحسن تقدير أولئك الأشخاص، الذين كان يتملقهم في إسطنبول كلما لزم الأمر. فما أن وصل إلى مكة حتى توجه إلى بلاد حرب، حيث بنى لنفسه بعض الحصون في هذه المنطقة المحمية من هجمات الحكومة، بقصد اللجوء إليها في حالة وقوع صراع في المستقبل. وقد دخل في خلاف مع الباشا الذي حضر احتفال تنصيبه في السلطة. وتمكن بواسطة نفوذه عند الصدر الأعظم من تغيير الباشا وتعيين باشا آخر. غير أن الصداقة بينهما لم تدم طويلاً أيضاً، فقد انتهت بسرعة. فعندما أطلقت بعض العيارات النارية، التي اخترقت طربوش الباشا، في أثناء وجوده في المثناة بالطائف ـ التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف ـ لم يستطع الباشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمر وقع بتدبير من الشريف نفسه. ومرة أخرى تم تغيير الباشا، والسبب هو شك الشريف بأن الباشا كان يريد اعتقاله. لقد تم إخطار الشريف بواسطة أصدقائه بأن هناك حيلة قد نظمت لإلقاء القبض عليه من قِبَل الوالي في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع الباشا نفسه. لهذا ابتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو الطائف حيث جهز نفسه لمقاومة الهجمات المتوقعة من الدوائر التركية. وبناء على تقرير سريع من الوالي الذي غادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) مبعوث غير عادي من قبل الباب العالي لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود.

الشريف يرفض قرار العزل

رفض الشريف عبد المطلب قرار عزله بإصرار. وأكثر من ذلك غضب على أتباع مُنَافِسِه الموجودين في الطائف. فقد زج في السجن بشيخ السادة[1] المدعو إسحق بن عقيل، والذي يعدّ من أكثر الأصدقاء

---

(١) السيد تعني هنا أحد الأحفاد الذين يعودون بنسبهم إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. ويكون السادة في مكة مجموعة خاصة تحت زعامة واحد منهم، لقد كان يتم اختيار زعيم السادة في السابق من قبل المجموعة نفسها، ويصادق على هذا الاختيار من قبل الدوائر الحكومية. أما =

المخلصين لشريف مكة السابق. وبالرغم من أن ابن عقيل قد استقبل عبد المطلب عند وصوله بقصيدة عصماء، إلا أن ذلك لم يخفف من سوء ظنه به. فقد كان يعتقد أن له يداً طولى في قرارات الباب العالي بتنحيته؛ لذا أمر بعزله من منصب شيخ السادة، ورميه في السجن، حيث توفي بعد يومين من سجنه. وقد ادّعى أصدقاؤه بأن خصيتيه قد مزقتا من الضغط عليهما[1].

منع تجارة الرقيق

قبل أن يتحرك مندوب الباب العالي لتنفيذ الأوامر السلطانية المتعلقة بالعزل والتعيين، حدثت في مكة حادثة كنت قد ذكرتها في مكان آخر. ونقلت في هذا الصدد كلمات أصغر المؤرخين المكيين. فقد وصل إلى جدة أحد الأوامر الذي كان نتاج التدخل الغبي للدبلوماسية الغربية. هذا الأمر يتعلق بوقف تجارة الرقيق. وحسب هذا الفرمان (الأمر) أعطى الوالي أوامره إلى نائبه في مكة، بجمع كل تجار العبيد، وإبلاغهم رغبة السلطان.

لقد قوبل هذا الأمر بعدم الاستحسان. ويستغرب المرء كيف أن هذا الأمر يثير استغراب المكيين بل معارضتهم، الأمر الذي نجم عنه شغب كبير، راح ضحيته عدد من الجنود والموظفين الأتراك. وفي هذه المرة وافق العلماء وعلية القوم على المعارضة التي يبديها الشعب تجاه هذا التصرف[2].

ومن الأشراف الذين حضروا هذه التظاهرة ابن أخي عبد المطلب ونائبه منصور بن يحيى، وعبد الله بن ناصر بن فواز بن عون، المعيَّن ممثلاً مبدئيّاً للشريف الجديد. وقد فعل الاثنان كل ما أمكنهما لتهدئة الخواطر في مكة، ثم سافرا إلى جدة لإبعاد أيّ شبهة حول اشتراكهما.

غير أن زعيم ذوي زيد المسن [عبد المطلب] اغتنم الفرصة لتصوير الأتراك بأنهم مخالفون للقوانين السماوية، بينما عدّ نفسه مدافعاً عن

= اليوم (١٨٨٥م) ومنذ ازدياد مركزية السلطة فيتم تعيينه من قبل الشريف والوالي أو من قبل الأقوى منهما. (المؤلف)

(١) انظر تفصيلات الحادث في أمراء البلد الحرام ص٣٦١.

(٢) انظر تفصيلات الحادث في أمراء البلد الحرام ص٣٦٢.

المقدسات. وقد حضر مع بعض الأشراف وشيوخ البدو إلى مكة، لمقابلة قوة العبادلة والأتراك في بلدة بحرة، على طريق جدة. لكن الوسائل المألوفة قد أدت إلى النتيجة المألوفة. فالكثير من البدو انتقلوا إلى جانب الطرف الآخر، الأمر الذي اضطر معه العجوز إلى التخلي عن هذه المعركة غير المتكافئة. في مثل هذه الظروف لا بد أن يذهب أحد العبادلة إلى إسطنبول. أما عبد المطلب الذي وعد بالسفر براً إلى هناك فقد اتجه إلى الطائف حيث جمع حوله الأنصار والبدو، وقام بطرد القوات التركية من هناك. وخلال الفترة الواقعة بين كانون ثاني (يناير) ونيسان (أبريل) من عام ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) أرسل ثلاث حملات متتالية إلى مكة المكرمة. وعندما وصل محمد بن عون في نيسان (أبريل) إلى جدة، كانت قوات المحاصرين قد دحرت عن مكة، واستطاع بعدها أن يقوم بهجوم على الطائف نفسها. وهنا دارت المسرحية المماثلة تماماً لتلك التي تم عرضها عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) من قِبَل الممثلين أنفسهم في المكان نفسه. غير أن النتيجة كانت مختلفة تماماً. فالابن الأكبر لغالب لم يترك وسيلة للإقناع أو الإكراه إلا استعملها لجمع شمل جماعته وتقوية صفوفهم. غير أن هؤلاء قد ضيّق عليهم الخصوم الخناق، ففتحوا أبواب المدينة للمنتصر وأخذ سيدهم أسيراً. وحسب الخطط الأولى كان من المقرر أن يرسل الأسير إلى سالونيك، ليقضي فيها بقية حياته منفياً، كما حصل مع والده من قبل. غير أنه مدين لنفوذ صديقه القديم رشيد باشا، الذي سمح له في هذه المرة وفي المرة السابقة أن يعيش بقية حياته في إسطنبول. وقد فتحت له هذه المكرمة اللطيفة الطريق لمؤامرات جديدة يحيكها ويقوم بتنفيذها.

عودة الشريف محمد بن عون

من التجارب التي تعلمها الباب العالي في تعامله مع حكام مكة، أنه من الأفضل دائماً أن تحتفظ الخلافة بالمطالبين بالعرش أو ولاة العرش المرشحين لهذا المنصب في إسطنبول، أو في أي مكان آخر من تركيا. فعلى سبيل المثال: إن ترك أحد زعماء ذوي زيد في الحجاز، في أثناء وجود أحد العبادلة في الحكم معناه إغلاق الباب على ديكي قتال في قفص. كذلك أيضاً فإن ابن الأمير الكبير أو أخاه والمرشح بأن يكون الأمير المستقبلي، قد يثير

المشكلات في مكة عن طريق تسرعه. ومن هذا المنطلق احتفظ الباب العالي في إسطنبول بالابن الأكبر للشريف محمد بن عون المدعو عبد الله، والذي كان نائباً لوالده طيلة الفترة الأولى من حكمه، بينما أعاد ولده الأصغر، المدعو علياً إلى مكة. ونظراً لأن الشريف محمد بن عون كان كبير السن في فترة حكمه الثانية (١٨٥٦ ـ ١٨٥٨) (١٢٧٣ ـ ١٢٧٤هـ) فقد كان ابنه علي وابن أخيه عبد الله بن ناصر هما اللذان يقومان بتدبير شؤون الإمارة فعلياً.

أحداث جدة مع الأجانب

لقد تسلم علي زمام السلطة المؤقتة في آذار عام ١٨٥٨م (شعبان ١٢٧٤هـ) بعد وفاة والده، ريثما يصل أخوه من إسطنبول. وقد أخرت الحوادث المؤسفة التي وقعت في ١٥ حزيران في جدة[1] عودة الشريف

(١) وفي عهد وكالة الشريف علي بن محمد بن عبد المعين حدثت حادثة في جدة عام ١٢٧٤هـ، في السادس من شهر ذي القعدة ملخصها أن تاجراً من تجار جدة يدعى بصالح جوهر، كان له مركب بحري، وكان يرفع عليه علماً إنكليزياً، فأراد أن يستبدل به علماً عثمانيّاً، وقد استأذن الوالي التركي نامقاً فأذن له، وقد منعه القنصل الإنجليزي عن ذلك فلم يمتنع، فلما رفع العلم العثماني وأنزل العلم الإنجليزي اندفع القنصل الإنكليزي إلى المركب وأنزل العلم العثماني ورد العلم الإنكليزي مكانه، وشاع بين الناس أن القنصل الإنكليزي بعد إنزال العلم العثماني وطئه برجله، وتكلم بكلام غير لائق، فغضب لذلك المسلمون في جدة، وثارت ثائرتهم، وهجموا على دار القنصل الإنكليزي فقتلوه ونهبوا داره، وفعلوا ذلك بكثير من الفرنجة قناصل وغيرهم في جدة، وأرادوا قتل فرج يسر، أحد تجار جدة المشهورين، لكونه مناصراً لقنصل الإنكليز، ومعدوداً من رعاياهم، فاختفى وأرادوا نهب داره، فمنعهم عن ذلك الشيخ عبد الله نصيف وكيل الشريف بجدة. وكان الشريف علي وكيل الإمارة بمكة غائباً بالمدينة، وكان الوالي التركي نامق باشا بمكة، فلما جاءه خبر هذه الفتنة توجه إلى جدة مسرعاً، وسجن مثيري الفتنة والمتهمين بالقتل والنهب، وبهذا سكنت الفتنة، ثم كتب إلى السلطنة بما حدث، وتوجه إلى مكة في حلول موسم الحج، فلما كان اليوم الثالث من أيام التشريق والناس بمنى وصل الخبر من جدة أن مركباً حربياً إنكليزياً على قرب من ميناء جدة يرمي بالقلل المحرقة عليها، وأن أهالي جدة هربوا إلى مكة، فعم الفزع واشتد القلق، فلما انقضى الحج اجتمع نامق باشا بكبار العلماء والأشراف والأعيان وتشاوروا، فأشار إليه المجتمعون باستنفار القبائل من كل النواحي، لقتال أصحاب المركب الحربي، وأشار البعض الآخر بإغراقه، فأبى نامق باشا المشورتين، وأشار بأن تصحبه لجنة منهم إلى جدة، لمقابلة قبطان المركب ومفاوضته في الأمر فوافقوا، وانتهت اللجنة إلى جدة واجتمعت بالقبطان واستطاعت إقناعه بتأجيل الأمر حتى تصدر أوامر السلطنة فرضي الجميع بذلك.

عبد الله حتى شهر أكتوبر من العام نفسه. لقد ناقشت في إحدى مقالاتي التقارير المعروفة في أوربا عن قتل المسيحيين في جدة. وقد ذكر أسباب ونتائج هذه الحادثة أحد المؤرخين العرب المعاصرين[1]. لقد كان قصف ميناء جدة بالمدافع غير ضروري؛ لأن الهدف منه كان إرضاء خواطر الدول الأوربية. وقد حصلت هذه الترضية عن طريق إرسال مجموعة من الأوربيين والأتراك ومعهم صلاحيات غير محدودة للتصرف. وعلى أيّ حال فإن الانطباع الذي أثاره توسع الإفرنج، بالرغم من تعميقه لزيادة الكره لهؤلاء، لم يكن بدون فوائد. وعلى ما يبدو فإن السياسة المتبعة هي أن يسبق الإرهاب والتخويف أي خطوة تهدف إلى تطبيق أي إجراء تنظيمي للشعب العربي. لكن ياللخسارة فمسحوق البارود والكحول، واستعمال القوة، إضافة إلى سياسة تحرير الرقيق، التي تتصف إما بالغباء أو النفاق، كل ذلك من مؤشرات الحضارة الأوربية المنظورة، والله المستعان.

تعيين الشريف عبد الله بن محمد

تسلم الشريف عبد الله ذو التربية الرفيعة (١٨٥٨ ـ ١٨٧٧م) (١٢٧٥ ـ ١٢٩٤هـ) الحكم بعد أن أخذت العدالة مجراها من المتهم الرئيس فيما يخص المطالب الأوربية. لقد عاش عبد الله في الجزيرة العربية إبان شبابه. وقد ساعده ذلك على حماية بنيته الفكرية أمام تأثير الفساد التركي. وفي الأمور الرسمية اتصف الحاكم الجديد بالمرونة، وخاصة مع العناصر

= وفي أواخر شهر المحرم عام ١٢٧٥هـ وصلت إلى جدة لجنة مختلطة من الأتراك والإنكليز والفرنسيين تحمل أمراً من السلطان إلى نامق باشا بتفويض اللجنة في تحقيق الحادثة وتنفيذ ما تحكم به، فأظهر تحقيق اللجنة بأن باعث فتنة الحادثة هو الشيخ عبد الله المحتسب، وكبير الحضارم الشيخ سعيد العامودي، وقاضي جدة الشيخ عبد القادر شيخ، والشيخ عمر باديب، والشيخ سعيد بغلف، وشيخ السادة والسيد عبد الله باهادون فحكمت اللهجنة بإعدام المحتسب والعمودي ونفي بقية الأشخاص إلى خارج البلاد، كما جرى الحكم بقتل اثني عشر شخصاً من عامة الناس، أدينوا باشتراكهم في هيجان الفتنة الحادثة. وفي أوائل شهر ربيع الأول عام ١٢٧٥هـ نفذ الإعدام فيمن ذكر على ملأ من الناس، كما نفذ حكم النفي في الباقين. (انظر تفصيلات الحادثة، (أحمد دحلان، أمراء البلد الحرام ص٣٦٧)، وكذلك (عبد الفتاح راوه، أمراء مكة عبر عصور الإسلام ص٣٨٠ ـ ٣٨١).

(١) هذا المؤرخ هو الشيخ أحمد دحلان الذي أخذ عنه المؤلف معظم أخبار هذه الحقبة من التاريخ.

الأجنبية. وهذه الصفة في الغالب تميز العبادلة عن ذوي زيد. بجانب ذلك كان الرجل ذا حصافة عالية تعلمها في إسطنبول.

لقد كانت البلاد المقدسة في أثناء فترة حكم عبد الله التي استمرت عشرين عاماً هادئة تقريباً. غير أن ظهور بعض الحوادث بالقرب منه، أدى إلى وجود انعكاسات مشابهة عنده. ففتح قناة السويس قد اعتبر من قبل سكان غربي الجزيرة العربية كارثة حلت بهم. وقد تذكرهم بالرواية التي تقول بأن هارون الرشيد قد وضع خطته لفتح مثل هذه القناة. غير أنه عدل عن الفكرة أخذاً برأي وزيره الكبير الذي نصحه بأن فتح مثل هذه القناة سوف يسهل على النصارى الدخول إلى الموانئ الإسلامية. وفي الواقع أن هذا الإنجاز له أهميته الكبيرة بالنسبة لهذه البلاد، وذلك لأن العثمانيين الآن قد أصبحوا أكثر سرعة وأكثر فعالية في التدخل في شؤون الحياة السياسية في الحجاز. لقد ظهرت الأهمية السياسية لقناة السويس أكثر وضوحاً وفعالية، ومن الجدير بالذكر أن جدة ربطت قبل عدة سنوات مع بقية أقطار العالم بالتلغراف، ثم بعد ذلك اتصلت بالتلفون مع مكة والطائف.

فتح قناة السويس

أثر دخول التلغراف والتلفون

وفي ظل عدم وجود الاتصالات سابقاً، كانت قرارات الباب العالي فيما يخص الحلول المطروحة للنزاعات القائمة بين الأشراف، أو القوات المرسلة لفض النزاع بين الطرفين، تستغرق وقتاً طويلاً. وربما تكون الحاجة الماسة لها قد انتهت عند وصولها؛ لذا كان الباب العالي يترك تصريف كثير من الأمور للوالي العثماني. وقد أعطى التغيير المستمر للولاة، بجانب عدم قدرة بعضهم على تصريف الأمور، المجال الكبير لعناد الأشراف وخروجهم على الأوامر السلطانية في السابق. أما اليوم فإن الوالي العثماني على سبيل المثال قد يواجه الشريف بالتهديد، بأنه سوف يبرق إلى الباب العالي طالباً إقالته، موضحاً الأسباب الداعية لذلك.

في أيام الشريف عبد الله ظهرت الأهمية الواضحة للمناطق الساحلية التي بدأت عصراً جديداً، كما أن إعادة احتلال اليمن من قبل الأتراك عام (١٨٧٢م)

التطوع لمحاربة الروس

(١٢٨٨هـ)، وقضائهم على نفوذ الأئمة في صنعاء، قد أعاد إلى الأذهان إحياء السلطنة الإسلامية، التي بدأ الناس يدركون قوتها ومسؤولياتها. هذا الإدراك لقوة السلطنة الإسلامية لم تخفف من حدته الحرب التركية ـ الروسية. فالشعب هنا لا يصدق أحداً يتحدث عن النكسات التي تلحق بالجيش العثماني. وقد صلى الناس في مكة لنصرة جيوش الإسلام، كما قاموا بجمع التبرعات لصندوق الحرب (أصحاب الألسن الشريرة قالوا إن المشرفين على جمع التبرعات كثيراً ماوضعوا النقود في جيوبهم بدلاً من وضعها في الصندوق)، وأخيراً سمع الناس هنا بأن السلطان قرر أن يقيم سلاماً مع الثائرين الروس.

يمكن للمرء أن يتصور البساطة في المجتمع المكي، فيما يخص بعض الأمور السياسية الخارجية من خلال مايلي: الشريف عبد الله أراد أن يثبت إخلاصه وارتباطه بعاصمة الخلافة الإسلامية، فأمر بإعطاء الفرصة للتدريب على السلاح في مكة. وقد تم التدريب بمشاركة عدد كبير من الشبان والرجال وحتى الشيوخ الضعفاء. ويبدو أن الحاجة العملية لمثل هذا الجيش الارتجالي، قد أثارت بعض التحفظ لدى رجال الحرب. لكن المرء يسمع في مكة بأن هذا الجيش سيشعر الروس بالخوف، ناهيك عن الانطباع الذي سيثيره تسليح المدينة المقدسة في مختلف أرجاء الدول الأوربية.

المجالس البلدية في مدن الحجاز

في عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) حصلت كل من مكة والمدينة وجدة والطائف على حصتها في المجالس البلدية المكونة من الوجهاء والموظفين، التي وهبتها البيروقراطية التركية إلى رعاياها. لقد كان عمل مجلس الإدارة شبيهاً بأعمال المجلس البلدي، أما مجلس التمييز فواجبه النظر في بعض أمور القضاء، ومجلس التجارة (في جدة فقط) مسؤول عن معالجة بعض الأمور التجارية المهمة.

لقد ازدهرت هذه المؤسسات بالجودة نفسها التي ازدهرت فيها زراعة القمح في الأراضي الصخرية في مكة. غير أن الإدارة التركية قد تعلمت أن

الإنجاز يكون دائماً على الورق. لقد ورد في أحد التقارير السنوية للحجاز[1] ذكر أسماء أعضاء المجالس البلدية. غير أن سكان المدن يعرفون بأن كبار الموظفين وأصحاب النفوذ من السكان المحليين، هم فقط الذين يستطيعون فعل ما يريدون، سواء جلسوا داخل المجلس أو خارجه. والدليل على ذلك أنه حتى هذه الأيام (١٨٨٥م) لا يزال الكثير من المكيين، لا يعلمون شيئاً عن وجود مثل هذه المجالس.

مزايا الشريف عبد الله

خلاصة الأمر فإن الشريف عبد الله كان لديه الوقت الكافي ليلعب دور السيد الشريف. وبالرغم مما حدثني به بعض رجالات مكة القدماء عن الحيل التي كان يمارسها لزيادة أملاكه، عندما يفصل في المنازعات التي تقوم حول الأوقاف الخيرية، والتي يدّعي فيها كل فريق أن له الحق في ذلك. ولما كان الشريف يعرف مداخل هذه الأمور فقد كانت النتيجة دائماً أن جزءًا من هذه الأملاك المتنازع عليها تذهب في أثناء الشجار إلى يد الشريف. إن أولئك الأشخاص، الذين هزوا رؤوسهم حول سياسة سيدنا، يتفقون جميعاً في الثناء العام على شخصه. هذا الثناء الذي يطري به عليه كل سكان الحجاز، يعود بالدرجة الأولى إلى عدالته وليونته وشجاعته ووجاهته القوية في التعامل مع التابعين له سواءً أكانوا من البدو أم من سكان المدن. لقد كان يخافه كل ذي ضمير سيئ. وقد قبل بحكمه في القضاء طوعاً أبناء الصحراء الذين تصعب السيطرة عليهم.

حملات الشريف ضد قبائل عسير

لقد أجبرته قبائل عسير على القيام بحملات ضدها مرات عديدة. وفي عام ١٨٦٤م (١٢٨١هـ) وصلت قوات مصرية بناء على أوامر من السلطان العثماني لتساعد عبد الله في طرد قبائل عسير، إلى ما وراء الحدود القديمة. غير أن والي مصر إسماعيل باشا قد طلب إعادة هذه القوات بعد فترة وجيزة، الأمر الذي اضطر معه عبد الله أن يعقد معاهدة غير مرضية مع الثائرين من عسير.

(١) سالنامه الحجاز وكانت تصدر سنوياً على هيئة تقرير سنوي يذكر مجمل إنجازات العام. صدرت عام ١٣٠٣هـ باللغة العربية، وكانت سابقاً تصدر باللغة التركية. وقد رد فيها أسماء أعضاء المجلس البلدي وأسماء مسؤولي الدوائر الحكومية آنذاك.

وفي عام ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) قام بغزوات أخرى نحو الشرق، ثم في عام ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) أعاد الكرة ضد قبائل عسير، الذين أظهروا العنف في المناطق الجنوبية وخاصة في موانئ الحديدة ومخا. وفي السنة التالية وصل فصيل من الجيش التركي لإكمال الفتح الذي بدأه عبد الله. وقد تلا هذه الحملة إخضاع اليمن.

توفي الشريف عبد الله في الطائف عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ). وقد قام الشاعر البدوي، والمدعو بديوي، بنظم قصيدة رثاء جميلة. (يوجد لدي نسخة منها)[١]. ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه القصائد تنشد لكل أمير يفارق الحياة. وكل أمير جديد تتم تهنئته بأبيات من الشعر. وقد سمعت من الكثيرين بأن هذه القصيدة لم تكن شكلاً خالياً من المضمون.

تعيين الشريف حسين

وحسب الأعراف المتبعة آلت الإمارة إلى الأخ الأكبر لعبد الله، وهو الشريف حسين، الذي كان يقيم في إسطنبول، وبالرغم مما يدعيه أهل مكة من أن هذا الأمير وأمثاله يمنحون في إسطنبول ألقاباً مختلفة مثل باشا، أو وزير، أو يعينون أعضاء في مجلس الشورى، إلا أنهم في الواقع رهائن تحتفظ بهم السلطة في عاصمة البلاد، وكان على أخيه عون الرفيق أن يحل محله في إسطنبول ليؤدي الغرض نفسه. بعد وصول الشريف حسين (١٨٧٧ ـ ١٨٨٠م) (١٢٩٤ ـ ١٢٩٧هـ) توافد إلى الطائف الكثير من الزوار الأوربيين، الذين زادوا من شكوك الباب العالي بولاء الأمير نحو الخلافة العثمانية. وعلى أيّ حال لم يستمر حكمه طويلاً. فقد وجه إليه أفغاني فقير خنجراً أرداه قتيلاً، أثناء زيارة كان يقوم بها إلى جدة[٢]. ولما كان مثل هذا الحادث لا يمكن أن يكون الثأر هو السبب الحقيقي وراءه، فإن أيدٍ خفية قد استأجرت هذا القاتل العصري لتحقيق أهداف معينة.

اغتيال الشريف حسين

---

(١) انظر القصيدة المرفقة في الملحق، ومن الجدير بالذكر أن تشارلز دوتي في كتابه رحلات في الصحراء العربية سمع الناس يثنون على الشريف حسين غير أنه يضيف أنه لم يكن مثل عبد الله (المؤلف).

(٢) انظر تفصيلات هذه الحادثة في أمراء البلد الحرام ص٣٧٦.

عبد المطلب للمرة الثالثة في مكة

بعد موته مباشرة تم تعيين الشريف الكهل عبد المطلب للمرة الثالثة، وإرساله إلى مكة من إسطنبول. ومن المعروف أن عبد المطلب هو من ذوي زيد، وهذا يعني أن العبادلة قد رجعوا خطوة إلى الوراء. إن المثل العربي القائل: «لا شيء يملأ عين المرء إلا تراب القبر» ينطبق على الشريف الكهل. ولقد أظهر تنصيب الشريف الجديد الدوافع الكامنة، لحادث اغتيال الأمير السابق. غير أن جميع الوسائل التي استعملت لم تجد نفعاً في فتح فم القاتل قبل إعدامه.

اتجه عبد المطلب (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م) (١٢٩٧ ـ ١٢٩٩هـ) في البداية إلى ينبع والمدينة، ثم قدم إلى مكة عن طريق جدة. وقد أعلن الناس ولاءهم للحاكم الجديد. وقد استقبله معظم الناس بحماس منقطع النظير. لقد ساعدت أمور كثيرة على إضفاء مظاهر العظمة لوجه الشريف الأسمر المتجعد في عيون شعبه، منها كبر سنه، ونسبه إلى زيد الذي حكم أبناؤه الحجاز منذ قرنين ونصف، وحكومتاه السابقتان اللتان لا يتذكرهما سوى كبار السن، وأخيراً المحاباة التي كان يتمتع بها في أعين السلاطين العثمانيين، بالرغم من خروجه عليهم باستمرار، كل هذه الأمور جعلت منه شخصاً غير عادي في خيال كثير من الناس.

إساءة الشريف لأهالي مكة

إن مظاهر العظمة السابقة، لم تقلل منها الأعمال السيئة، التي بدأ الشريف فيها حكمه للمرة الثالثة. لقد كان الشريف الكهل، يخاطب الكثير من المرموقين بخشونة في أثناء المقابلات الرسمية. كما كان يعيّر التجار الحضارمة، الذين أصبحوا أغنياء بنسبهم الوضيع. ولا يتوانى عن شتم الآخرين، بسبب معاملتهم الحسنة مع الإفرنج. لقد اعتقل ثلاثة أشخاص من الأشراف المرموقين؛ لأنه كان يشك في ولائهم له. وقد مات اثنان منهم متأثرين بجراحهما. ولم يستطع أحد الأشراف العبادلة ـ الذي بنى بيتاً مقابل أحد قصور عبد المطلب ـ إلا أن يقوم بهدمه مقابل تعويض بسيط نظير ذلك الهدم.

في أيار عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) سافر بعض نسائه تحت حراسة عسكرية إلى الطائف. وقد أثارت تصرفات الحرس العنيفة سخط قبيلتين من قبائل عتيبة المرابطة على جوانب الطريق. فما كان من الشريف إلا أن جرد حملة على هاتين القبيلتين، استدعى إليها قبائل ثقيف وهذيل وبعض البدو الآخرين، إضافة إلى ثمانين رجلاً من الطائف، ومائة رجل حضرمي من مكة. وكان هذا الحشد لتأديب هؤلاء الذين أهينوا من طرف رجاله وأبدوا بعض التذمر من معاملتهم. وقد طلب هؤلاء وساطة الوالي العثماني. غير أن الشريف لم يقبل هذه الوساطة، وأمضى حملته لتأديبهم. ولقد كان لموقف الشريف من الوالي أثر في إيجاد المؤيدين للوالي من بين الضباط والموظفين الأتراك[1].

حل أعمال الطوافة

لقد اعتبر الشريف عبد المطلب جميع التصاريح السابقة الممنوحة لأعمال الطوافة لاغية. وقام بإصدار تصاريح جديدة بيعت بمبالغ كبيرة. واستفاد من ذلك أقرباؤه وأصدقاؤه. كما فرض دفع مبالغ كبيرة من المال مقابل إصدار الأحكام من قبل القضاة. وقد اعتبر الناس هذه الأمور أكثر سوءًا من أعمال العنف السابقة؛ لأنها ألحقت الأذى بقطاع كبير من سكان مكة. وخاصة قطاع الأغنياء وموسري الحال. ويرى كثير من سكان مكة أن المسؤولية في أعمال الظلم هذه تعود إلى مساعدي الشريف وليس إلى الشريف نفسه. وفي الحقيقة وقف إلى جانبه اثنان من أسوأ المساعدين، أحدهما سوري، والآخر يمني[2]، غير أنه لم يكن ليستطيع أحد من هؤلاء أن يقوم بما قام به لولا مباركة الشريف له وإقراره عليه.

التماسات أهل مكة لعزل الشريف

أصبح الوضع تحت قيادة الشريف الكهل أمراً غير قابل للاحتمال. وقد وجدت المعارضة في العبادلة، وعلى رأسهم عبد الله، الذي يقيم في مكة، دعامة قوية. وفي مثل هذه الظروف يلجأ الناس إلى الالتماسات الخطية. غير أن هذه الالتماسات التي أفلحت مع الولاة الضعاف، لم تفلح في عمل أي شيء ضد الشريف الكهل. فتوجه وجهاء مكة بمعروض موقع بأسمائهم

(١) انظر الملحق رقم (٢) حول هذه الحادثة.

(٢) يذكر السباعي (ص٥٤٤) أسماء هؤلاء وهم جمال أفندي من الشام ومحمد جابر من اليمن.

إلى الحكومة في إسطنبول عن طريق بعض الموظفين المرموقين لدى الباب العالي، الذين حضروا إلى البلاد المقدسة. ويوجد لدي نسخة من ذلك المعروض[١]. لقد تضمن هذا التقرير ثبتاً تفصيلياً بجميع الأفعال المرعبة التي ارتكبت، وأظهر حالة اليأس لدى المواطنين، الذين أصبحوا يفضلون حماية القوى الأجنبية لأرواحهم، على استمرار الأوضاع الحالية التي لاتحتمل. وذكر التقرير عدم نجاح كافة التوسلات التي قام بها الولاة العثمانيون لرفع هذا الحيف عن السكان.

خطة عثمان باشا للتخلص من الشريف

لقد اعتبرت إسطنبول أمر التخلص من الشريف، الذي يحمل عقلية القرون الوسطى، أمراً بالغ الصعوبة. ولتنفيذ أمر العزل الذي صدر بحقه، أرسلت الحكومة عزت باشا، الحاكم العجوز، الذي كان يشاطر الشريف عبد المطلب الحكم قبل عشرين عاماً. وفي الوقت نفسه وصل عثمان نوري باشا على رأس قوات إضافية جديدة، كآمر للحامية العثمانية في الحجاز. وكان وصوله في تشرين ثاني عام ١٨٨١م (١٢٩٩هـ) وبحوزته الأوامر التي تجيز إعادة العبادلة إلى السلطة مرة أخرى. لقد أدرك عثمان باشا أن أفضل طريقة لإنجاز مهمته بتنحية شريف مكة، هي عدم إعطائه الفرصة للهرب نحو الطائف، أو السفر إلى أنصاره في بلاد حرب. لقد حاول عثمان باشا جاهداً ألا يدخل في قتال مع الشريف. وقد خدمت الظروف عثمان باشا في حزيران عام ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ) حين عيّن والياً على الحجاز، فأمر بتطويق البيت الريفي للشريف في المثناة شمال الطائف، وقام بنصب المدافع على الجبال المحيطة بالموقع. وكان يقف خلف الجنود الأشراف العبادلة وأنصارهم من البدو. وعند شروق الشمس دخل قادة الجيش إلى القصر، وأطلعوا الشريف الكبير على الوثيقة الرسمية المتعلقة بعزله. وقد أذعن الشريف لأمر العزل بعد أن رأى الاستعدادات العسكرية، والجموع المحتشدة في الخارج. وقد أخذ أسيراً في بادئ الأمر إلى الطائف، غير أنه سمح له فيما بعد أن يعيش تحت الحراسة في أحد بيوته الكبيرة في البياضية

---

(١) انظر الملحق رقم (١).

بمكة في الطريق إلى منى. وقد بقي تحت الإقامة الجبرية إلى أن مات في كانون ثاني من عام ١٨٨٦م (ربيع ثاني ١٣٠٣هـ). لم يكن أهل مكة يستغربون لو أن ابن غالب وصل إلى أتباعه ومؤيديه لدخل مكة منتصراً مرة أخرى. غير أن عصر الباخرة والتلغراف والبندقية، التي تعبأ من فتحة المجرى الخلفي، لم تترك له ولا لأمثاله من حكام القرون الوسطى أي فرصة للنجاح.

وفاة الشريف عبد المطلب

لقد مشى في جنازة الشريف عبد المطلب، عثمان باشا، وكبير الأشراف الجديد، بينما اندفع الناس بأعداد وفيرة خلف جنازة الفقيد. ومن المرجح أن هذا العمل من قبل عثمان باشا كان خوفاً من إثارة الشعور الديني، وتجنباً لإحراج الفقيد ذي الشهرة الفائقة بين قومه. لقد دفنت جثته بجوار قبر خديجة، حيث يدفن في العادة الكثير من أمراء مكة. وهكذا طويت صفحة رجل وجد جده زيد نفسه فيه، واعترف به قتادة وريثاً فكرياً من بعده.

كان على عثمان باشا الإسراع في تعيين شريف جديد، تفادياً للمشكلات التي ربما سيثيرها ذوو زيد. لذا فقد ادعى أن الشريف عبد الله الموجود في مكة، قد عين من قبل السلطان شريفاً كبيراً. وقد تقبل عبد الله بيعة زعماء البدو وسكان المدن. وحسب رأي الكثيرين من سكان مكة، فقد كان الوالي عثمان باشا يأمل فعلاً بأن يحتفظ صديقه عبد الله بالإمارة، وأن يبقى الأخ الأكبر الشريف عون عند السلطان في إسطنبول. غير أن الباب العالي قرر أن يتولى الرئاسة الشريف عون، وأصبح على عبد الله أن يذهب إلى إسطنبول، ويكتفي بقبول الألقاب المعتادة إضافة إلى العضوية في مجلس الشورى.

تعيين الشريف عون الرفيق

الشريف عون كان لا يزال دون الخمسين من عمره. ويمكن للمرء أن يأخذ فكرة عن مظهره من صورة أخذتها له. كان الشريف ميالا لأن يلبس الملابس العربية، بدلا من الملابس الرسمية المرصعة بالأوسمة. فقد كانت مثل هذه الملابس ثقيلة وغير مريحة. كان لباسه العادي بسيطاً: عبارة عن جبة رقيقة سوداء أو ذات لون غامق مع غطاء للرأس يعرف بالصمادة، إضافة إلى الرباط المسمى بالعقال.

سلوك الشريف عون واتجاهاته

إذا وقع نظرك على الشريف في الديوان أو في صالة الاستقبال، ترى رجلاً رقيقاً دمثاً، تبدو عليه أمارات النبل والشهامة. أما في إدارة شؤون بيته وأسرته فيقال بأنه حاد المزاج. ولم يكن الشريف عون ليطمع بالحصول على الشهرة حتى عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ). لقد كان من عادته أن يستقبل عموم الزوار في يوم الجمعة، غير أنه يميل إلى مجالسة عدد محدود ومخصوص من الناس. وكان يكره الحديث في الموضوعات، التي تخص الأمور الإدارية في مثل هذه اللقاءات العامة. ويصعب الوصول إلى مجلسه في بقية أيام الأسبوع، حيث يتعذر ذلك إلا من خلال أصدقائه ومعارفه. وفي أثناء إقامتي في مكة قدم بعض الأشخاص من الطائف لمقابلة الشريف، غير أنهم انتظروا ستة أشهر قبل أن يؤذن لهم بمقابلته.

يتحدث بعض الناس في مكة عن بعض الاتجاهات الدينية الخاصة بالشريف الكبير. ومثل هذه الأحكام تتردد في الغالب عن بعض الأشراف، الذين يعيشون منزوين عن الآخرين. وفي مكة المكرمة لا يوجد من يتهم بالكفر الحقيقي. وبالرغم مما كان يتظاهر به الشريف من عمق التفكير والميل إلى الشك، لكن هذا لم يكن له سوى أهمية قليلة على طريقة تفكيره.

ومن خلال تعاملي الشخصي مع الشريف، تولد لدي انطباع بأنه يفي بالحد الأدنى المطلوب من تعاليم الإسلام. أما ما يشاع عن اعتقاده بالخرافات، فيبدو أن شيئاً منها لديه، وحاله في هذا حال كثير من رجالنا الأوربيين المعاصرين الذين يعتقدون بالأرواح، ولاتخرج خرافات الشريف عن هذا.

احتكاك الوالي مع الشريف

إن انطواء الشريف وعدم إقبال المواطنين عليه يعزى جزئياً إلى وجود الوالي عثمان باشا في مكة[1] حتى عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ). فقد وضع نفوذ الوالي وقوته العراقيل أمام أمير الحجاز. وقد ألمحنا سابقاً إلى الاحتكاكات التي لا يمكن تجنبها بين الوالي العثماني وشريف مكة. وسبب ذلك يعود

(١) أصبح مكان الوالي العثماني في الحجاز، إضافة إلى شيخ الحرم هو مكة المكرمة. ولايخرج الوالي منها إلا في أيام الصيف، حيث يذهب كما يذهب الشريف إلى الطائف للاصطياف. أما جدة فيسير الأمور فيها ممثل يسمى قائمقام. (المؤلف).

إلى طبيعة اقتسام السلطة العليا في الحجاز. وفي الآونة الأخيرة ظهر بعض الانفراج في هذا الشأن، وخاصة بعد الإشراف المباشر الذي فرضه محمد علي، في أثناء توليه تصريف مقدرات الحرمين الشريفين، نائباً عن الباب العالي. فقد أصبحت الإدارة في أهم الموانىء في ذلك الوقت (جدة) تركية خالصة. وفرضت ضريبة الجمارك على الواردات دونما تدخل من الشريف، الذي خصص له راتب سنوي معلوم. أما قيادة الجيش فقد أعطيت للوالي أو لأحد ضباط الأركان، الذي كان يتلقى أوامره من إسطنبول. غير أن تحديد الصلاحيات وتقسيمها بين الوالي والشريف لم يكن أمراً واضحاً للطرفين. ويبدو أنه أكثر تعقيداً من تحديد الصلاحيات بين المندوب السامي البريطاني وأمراء الولايات الهندية، التي ضمت إلى ممتلكات بريطانيا حديثاً.

ففي الهند هناك أمران أساسان أكثر وضوحاً هما: أولاً: اختلاف الدين، الذي يضم حدوداً خاصة للتدخل الأجنبي، لا يمكن للسلطة أن تتعداها. ثانياً: تتم في الهند صياغة الاتفاقيات بين الوالي المهزوم والسلطة البريطانية بصورة دقيقة، كما يتم تثبيتها كتابياً. وإذا نسي الأمير المهزوم محتوى هذه الاتفاقيات، فإنه يوجد دائماً موظفون مساعدون درسوا في أوربا، لتنشيط ذاكرته بهذا الخصوص. أما في الحجاز فلا يوجد شيء من هذا القبيل. فوحدة الدين تضمن مزيداً من التدخل، والاتفاقيات المكتوبة بين السلطة العليا والأمراء المحليين لاتنفذ بدون تدخل حكومي. كما لا يود أحد أن يرتبط باتفاقيات إلى الأبد. بل يترك الأمر للعرف الذي يعطي للطرفين مجالاً أكبر للتوسع في السلطة. أما مقدار التدريب الذي يتلقاه الولاة الأتراك، فلا نريد أن نخوض فيه. فقد يبدأ أحدهم جندياً، ويبدأ الثاني طالباً في علم الشريعة. وثالث يبدأ خادماً لوزير. ويفتقر معظم هؤلاء إلى الرغبة في إيجاد الثوابت التي تضمن الاستقرار. فالمؤامرات التي تحاك في محيط الباب العالي، والتي لا يمكن السيطرة عليها، قد تتسبب في فصل هؤلاء من وظائفهم دون علمهم وتأتي بآخرين يأخذون مجهوداتهم ويتمتعون بها. كل شيء هنا يعتمد على الأشخاص. وهؤلاء يحتلون في الحياة الرسمية المكان الذي تحتله عندنا القوانين والمؤسسات العامة.

إن التعابير الرنانة وكلمات الإطراء التي تتضمنها كتب تعيين الأشراف والولاة تتجنب أي دقة في تحديد المهام، وتحجب الأفكار عن معرفة مدى الصلاحيات. فمثلا قد يدعي أحد الأشراف الأقوياء أن حدود مملكته تمتد من حلي في الجنوب إلى شمال المدينة المنورة وشرقها في الشمال، طالما اعترف البدو وسكان القرى بذلك. وقد يحدد الشريف مركزه وقوته، بحيث يتحتم على السلطان أن يضع الوالي والحامية التركية تحت تصرفه، لتسهيل ممارسته لسلطاته. وربما يشترط بعضهم عدم سماع الوشايات التي تصل إلى إسطنبول أو التي تفيد بأن الشريف لا يقوم بواجباته، حتى لاتضيع الفرصة منه بحيث يتسنى له ملء جعبته.

وفي المقابل إذا كان الوالي حريصاً على المصالح التركية، فعليه أن يدرك حدود السيادة المتعارف عليها لأمراء الإسلام على هذه البلاد. فليس للحكام الأشراف إلا أن يلعبوا دور المساعدين فقط. والدولة لاتعترف لهم بالسيادة إلا على أفراد عشيرتهم، طالما أن هؤلاء لا يفضلون اللجوء إلى الدوائر التركية. وعلى أيّ حال فقد كان الولاة الأتراك يعدون أنفسهم ملزمين بالتشاور مع أمراء الأشراف، عندما تكون المشورة أمراً مرغوباً فيه أو محتاجاً إليها لأسباب إدارية. وفي حالة اضطرارهم قد يتفاوضون مع وسطاء آخرين مباشرة.

من جهة ثالثة، الحامية التركية الموجودة في الحجاز، تحتاج أيضاً قائداً قوياً يدير الأمور بمفرده مستقلاً عن غيره. غير أنه بجانب هذه الحامية هناك البواردية (الحراس التابعون للشريف والمؤلفون من الأحرار والعبيد) والبيشة (الجند من الذين يعرفون باسم منطقة بيشة الجنوبية) الذين يرون أنه لا يتخلى الشريف عن الإشراف المباشر عليهم، مع العلم أن تسليح بقايا هذا الجيش الأميري ورواتبه يأتي من السلطان.

أعمال عثمان نوري في مكة

إن والياً قوياً مثل عثمان باشا لا يستطيع أن يتعايش إلا مع أحد الأشراف اللينين، غير أن عون الرفيق أظهر أنه لم يكن الرجل الذي يكتفي بالنوم في ظل الأتراك. لقد مضت أربعة أعوام قبل أن تتفجر المنازعات المتزايدة بين الوالي والشريف. وبالرغم من أن الباشا أظهر كل الحفاوة الخارجية للشريف، فقد

كان يزوره أسبوعياً، ولم يمنع عنه أي مبلغ من العائدات المالية المطلوبة للإصلاحات التي اقترحها الوالي، والتي وافق عليها الشريف. وقد اعتاد عثمان باشا مثل بقية من سبقوه أن يأخذ جزءًا من كل مبلغ يخرج من يده، ويحتفظ به لنفسه ولأصدقائه. ومما ميزه عن غيره ممن سبقوه أنه قام بالعديد من الإصلاحات. فقد أصلح شبكة المياه التي بنتها السيدة زبيدة، وجعلها قابلة للاستعمال في مكة المكرمة وفي المشاعر المقدسة. كما قام بإنشاء شبكة مياه جديدة لمدينة جدة. وأقام مبنى ضخماً للحكومة في مكة المكرمة، وشرع في تجديد حصنين من حصونها، وأجرى بعض الإصلاحات في المسجد الحرام. كما قام بإصلاح بعض جوانب النظام الإداري السائد في المدينة المقدسة.

في كل البلدان الإسلامية تظهر في دوائر القضاء أمور محيرة حسب مفاهيمنا، وذلك حين يكون القضاة غير قادرين ولا ميالين لتطبيق الشريعة، بما توحيه عليهم ضمائرهم. فمنذ زمن طويل استغل الأمراء والحكام القانون الجنائي لصالحهم. وبالرغم من أن الحكومة العثمانية أدخلت الكتب القانونية الحديثة، إلا أنها لم تتجاوز حدود الورق المكتوب عليه. اللوائح هنا يجب أن تكون مستمدة من التشريع الإلهي. وأي إضافة أو تعديل في نصوص هذه اللوائح غير ممكن. ولا أحد يستطيع أن يعارض القاضي في قضية يطلب فيها أحد الأطراف استئناف الحكم. وحسب التصورات السائدة فإن القاضي هنا هو قاضٍ ديني، اعتاد أن يطبق فقهه فقط، على بعض المسائل المعروفة. وقد يشتكي إليه الناس الظلم الجائر الذي يحيق بهم في بعض الميادين الأخرى. أما القضاة الدنيويون في مكة فهم اثنان، وذلك من منطلق الثنائية الموجود في الحكم في هذه البلاد. وتتأرجح صلاحية كل منهما حسب أهميته الشخصية.

فعلى سبيل المثال إذا ألقى الجنود الأتراك القبض على أحد مسببي القلاقل، أخذ إلى المكتب التركي، بينما إذا ألقى البواردية القبض على آخر صدفة، أحضر إلى الشريف أو القائم مقام التابع له (أحد الأشراف الذي يمثل سيده في الحالات العادية). وهذا يؤخذ إلى سجن الشريف، وذاك

يرسل إلى سجن الوالي. الأحكام الطويلة في السجن يقضيها المكيون في سجن القلعة. أما الدخول إلى هذا السجن فيمكن أن يكون عن طريق الوالي أو عن طريق الشريف، وذلك بناء على الاختيار الذي يقوم به الفرد بالتوجه إلى الشريف، أو الوالي للفصل في القضية. وهناك بعض القواعد المرعية التي يمكن تطبيقها في هذا الصدد. فقد جرى العرف أن ينظر الشريف في المسائل التي يكون فيها أحد الأطراف من الأشراف أو من البدو أو من مواليد مكة، على ألا يكون تركي الأصل. غير أن الظروف الشخصية كثيراً ما تتدخل لتلغي مثل هذه القواعد العرفية لسبب أو لآخر.

هناك حرية من قبل المواطن باختيار محكمة العدل التي يريدها (محكمة الشريف أو محكمة الوالي). غير أن الأشخاص يختارون القاضي، الذي لا يستطيع الطرف الآخر معارضته. وقلما كان ذلك يجدي نفعاً. فعلى سبيل المثال قد يرى المرء أن خصمه يساق إلى السجن، بعد قرار من قبل الشريف عون. غير أن قراراً آخر من قبل الوالي عثمان نوري كان يخرج ذلك السجين من سجنه في اليوم نفسه. وقد رأيت في أثناء إقامتي في مكة الكثير من هذه الحالات، فالتحيز الواضح في اختيار القاضي، هو السمة الغالبة، الأمر الذي كان يزيد من حدة التناقض والصراع بين طرفي السلطة في مكة.

أراد عثمان باشا أن يتدخل في أمر كان الأشراف يعتبرونه من اختصاصهم، ألا وهو إدارة البدو لأمن طرق القوافل. وقد بينا سابقاً أن الأشراف يستطيعون بوسائل قليلة تحقيق نجاح أكبر في هذا المجال من الأتراك. غير أن الوالي إذا امتنع عن المشاركة في العمليات التي خطط لها الشريف، فإن الأمر يصبح صعباً بالنسبة للشريف. وكذلك العكس بالعكس. ومن هنا نرى أن الوالي إذا كان يريد أن يظهر للملأ عدم جدوى أفعال الشريف، فإن الشريف في المقابل يظهر للوالي أنه بدون المساعدة التي يقدمها الشريف لا يكون للوالي حول ولا قوة. ومثل هذه الغيرة العمياء كانت كفيلة بإفشال الإجراءات التي يقوم بها فريق ما من قبل الفريق الآخر. وينتهي الأمر بأن يلوم كل واحد منهما الآخر إمام السلطة العليا بإسطنبول.

لقد أصبحت الطرق بين مكة وجدة، ومكة والليث غير آمنة. بسبب قطاع الطرق واللصوص الذين يعملون تحت حماية قائمقام مكة السابق علي السروري. وفي عام ١٨٨٦م (١٣٠٤هـ) رفض أحد شيوخ قبيلة حرب المدعو ابن عاصم أن يقوم بحراسة القافلة؛ لأنه لم يحصل على نقوده السنوية المعتادة كاملة؛ لذا أراد عثمان باشا أن يقف ضد هذا وأمثاله، مما أثار مقاومة الشريف، الذي كان يرى زيادة رغبة الباشا في السيادة بمفرده. وهكذا لم تصل القافلة إلى المدينة للزيارة. ثم نفذ عثمان باشا خطته، حيث قام بتأديب الثوار بقوات تركية بحتة، وأعاد فتح الطريق إلى المدينة المنورة، متجاهلاً نصائح الشريف.

لقد أبلغ الطرفان الباب العالي كل بوجهة نظره حول الموضوع السابق. غير أنهما تلقيا الجواب المعتاد، بأن عليهما أن يتحملا بعضهما، ويتعاونا معاً بصورة أفضل.

الشريف عون ينسحب إلى المدينة

إزاء ذلك ذهب الشريف مع كبار الوجهاء من أتباعه إلى المدينة المنورة. وأرسل منها مبعوثاً إلى الباب العالي، يرجوه أن يقيله أو يقيل الوالي، مؤكداً بأنه لن يرجع إلى مكة، طالما عثمان باشا موجود فيها يحيك الدسائس ضده. ومن بين الذين غادروا مكة المكرمة برفقة عون مفتي الشافعية في مكة وشيخ العلماء فيها [أحمد زيني دحلان]. وبالمقابل كان للوالي عثمان باشا أصدقاء من العلماء المرموقين أيضاً.

تشويه سمعة الوالي

حاول أنصار الشريف عون أن يشوهوا سمعة الوالي بين السكان، فقد تم تكبير أخطائه، حتى تلك التي كان الشريف عون شريكاً فيها. ومن بين هذه الأخطاء التي ضخمت وكأنها خطيئة كبرى، محاولة تعيين لجنة في كل حي من أحياء المدينة، من أجل الإشراف على تنظيفها. وفي صباح أحد الأيام ألصق على جدران المسجد منشورات (انظر الملحق) كتب عليها عبارات استفزازية ضد الوالي جاء فيها: أن الدخول إلى الجنة بدون حساب: سيكون من نصيب الذي يستطيع أن يزيل الوالي الملعون من الدنيا. هذا الإنسان الملحد قد تجرأ على القول بأن مكة ليست أفضل من إسطنبول. (انظر الملحق رقم ٤).

نقل عثمان باشا إلى حلب

لم يضع قرار الباب العالي اللوم على أحد من الطرفين، لكنه نقل الوالي إلى حلب، وعين جميل باشا والياً للحجاز. وقبل وصول جميل باشا غادر عثمان نوري (في ديسمبر عام ١٨٨٦م) (ربيع الثاني، ١٣٠٤هـ) إلى مركز عمله الجديد، كما عاد الشريف عون إلى مكة، حيث قام وبسرعة مذهلة بإقصاء أصدقاء الوالي عن وظائفهم وفرض الاستقالة (ماعدا بعض الحالات) على المواطنين الذين يتم تعينهم عن طريق الدوائر الحكومية في إسطنبول، باعتبار أن هؤلاء من أعوان الوالي السابق. وقد أمر بكتابة عبارة «دائرة الإمارة الجليلة والحكومة السنية» على حجر أحمر فوق باب قصره «وهكذا أراد الشريف عون أن يفرض على الوالي الجديد وضعاً لم يكن يستطيع القيام به في ظل وجود الوالي السابق».

تعيين جميل باشا

لقد تصرف جميل باشا بصورة مختلفة كلياً عن سابقه، غير أن حظه من النجاح كان كحظ سلفه. وكان انفتاح جميل باشا على السكان، أقل مما كان عليه عثمان باشا، الذي سمح لجميع الناس الدخول بحرية. وقد تصرف الوالي مع الشريف تصرف الموظف، الذي يود أن يفعل شيئاً لإرضائه، غير أنه لا يريده أن يخطو خطوة تحيد عن الطريق المرسوم. وهذه السياسة لم يكن الشريف عون قادراً على احتمالها ومجاراتها على المدى الطويل.

اضطر الشريف تحت ضغط تهديد الوالي بالكتابة إلى إسطنبول، أن يلغي إعادة تعيين موظفين جدد في المناصب المهمّة، التي أمر بها الشريف عون قبل قدوم الوالي. وقد أثار استغراب الوالي أمر أسر الشريف عبد الله بن زبن الذي عينه عثمان باشا أميراً على وادي فاطمة، الذي احتجزه الشريف عون بواسطة البواردية والبيشة التابعين له. وقد قام الوالي بإطلاق سراحه في اليوم نفسه. وقد أدرك الوالي عدم صدق الشريف بأنه هوجم خلال زيارته للوادي، ولم يقتنع بطلب المساعدة بالقوات والسلاح ضد الشريف عبد الله بن زبن، مشيراً إلى صلاحياته المحدودة في هذا المجال.

إعفاء جميل باشا

لم يعجب الدبلوماسي المتمرس مثل هذا الجو المشحون، المصحوب بحرارة الطقس الشديدة، التي تجعل العمل في هذه المنطقة أمراً بالغ

الصعوبة. وبناء على طلباته المتكررة قام الباب العالي بإعفائه وأرسل بدلاً منه صفوت باشا، الذي كان يشغل المنصب نفسه في الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢م (١٢٩٧ ـ ١٢٩٩هـ).

تعيين صفوت باشا

أخذ صفوت باشا الأمر بسهولة قدر الإمكان، فقد كان مبدؤه ترك الناس يعيشون كما يريدون. ولم يمنعه طموحه من أن يلعب دور الخادم المطيع لأوامر الشريف. وهكذا وجد الشريف عون الفرصة سانحة لإشباع نهمه من السلطة. وفي هذه الأثناء عيّن عثمان باشا والياً على اليمن، بحيث إذا حدثت تعقيدات جديدة في الحجاز، تتطلب حضور رجل قوي، فإن الباب العالي سيعيده إلى مركزه الذي شغله لمدة أربع سنوات متتالية.

موقف أهل مكة من الأشراف والباب العالي

بقي الصراع مستمراً منذ ألف عام تقريباً بين الحكام المحليين، وحماة الديار المقدسة الأجانب. غير أن سكان مكة يقفون في اللحظة الأخيرة إلى جانب الحكام المحليين. ومع هذا لا يجوز أن يتناول أحدُ سلطان الإسلام بسوء. واسم السلطان هنا يلقى الاحترام والتقدير بشكل عام. ويرى الناس أن الفساد مستشرٍ بين ممثلي السلطان الذين يدمر بعضهم بعضاً. المواطن العادي يخشى سيدنا الشريف أكثر مما يخشى أفندينا الوالي؛ لأن سيدنا ينتسب إلى عائلة وطنية كبيرة ويعرف أصول الحياة العامة، وهو يمثل الوسط الطبيعي لمكة القديمة، بينما أفندينا ـ في كل يوم أفندي جديد ـ لا يمكن معرفته إلا من خلال الطربوش، ومن خلال جهله كسلفه باللغة العربية، إضافة إلى تمثيله لرغبات الأتراك بفرض السيادة المركزية.

لسان حال العامة في مكة يقول: سيدنا هو رئيس كل الأشراف، وهو سيد الحجاز، ما لم يعارضه أحد أقربائه أو يثور عليه. وبجانب الأشراف هناك نقابة للسادة الحسنيين الذين يتمتعون على الصعيد الديني باحترام كبير. وهؤلاء السادة لم يطمحوا في الحصول على دور سياسي. كذلك الأمر بالنسبة لبني شيبة الأقل عدداً، وقد بقيت لهم سدانة البيت منذ أيام الرسول ﷺ، التي حصلوا من خلالها على شهرة كبيرة. تأتي بعد ذلك النقابات المختلفة التي يتولى رئاستها أعضاء منتخبون من قبل نقاباتهم. ثم هناك الجاليات

المجاورة، التي وفدت من مختلف بقاع العالم الإسلامي. ولهذه الجاليات زعماؤها الذين يتولون تصريف أمورها، ثم هناك الأحياء المختلفة للمدينة. حيث يشكل كل حي وحدة عضوية تحت زعامة أحد الشيوخ (العمد). وباختصار فإن المدينة مجزأة إلى وحدات أشبه بأمبراطوريات ذات سلطات محدودة. أما إمبراطورية سيدنا فهي إمبراطوية الإمبراطوريات.

لقد كان من السهل على السلطة أن تتعامل مع هذه الفئات المختلفة. فمرة تثير واحداً ضد الآخر، ومرة أخرى تجبر الجميع على الطاعة، عن طريق فرض السيطرة بالقوة، من خلال البدو الذين يسهل استخدامهم لمثل هذه الغايات، وخاصة إذا طلبت السلطة التركية عمل مثل ذلك. وثالثة عن طريق حل النقابات وإعادة تشكيلها بحيث تحقق الغايات المرجوة. وفي كثير من الأحيان لا يحتاج الأمر إلى تدخل السلطة، بل إن أحياء المدينة تسلي نفسها بين حين وآخر عن طريق المشاجرات التقليدية.

إن مثل هذه الطوائف والنقابات والفئات والمؤسسات المختلفة تفقد محتواها قطرة قطرة. ولو كانت الإدارة التركية حازمة لأمكن التخلص، منذ زمن طويل من هذه المؤسسات، التي تعود إلى العصور الوسطى. ومع هذا يشعر المكيون بأن سيادة المفاهيم التركية ستلغي وبمرور الزمن الدور الذي تقوم به هذه المؤسسات، وهذا يجعل مصالح المكيين تتطابق مع مصالح الزعامة المحلية. ولما كانت الزعامة المحلية الممثلة بواسطة الأشراف لها أصولها القديمة، لذا كان يهم الحكومة التركية الاعتماد على السلطات المحلية، إذا أرادت إدخال أي تجديد؛ لأن مثل هذه السلطة قادرة على قمع أي معارضة متوقعة بين صفوف أبنائها.

إنه لمن المؤسف حقاً أن أحداً لم يكن قادراً على ضبط الهدوء والنظام في الأراضي المقدسة منذ تلاشي الدولة العباسية. ولعل السبب في ذلك يعود إلى وجود المشكلات الداخلية للدول الإسلامية، التي تبسط سيطرتها الاسمية على الديار المقدسة، بحيث تفتقر إلى الوقت الكافي اللازم لحل الأمور في المناطق البعيدة. أما اليوم (١٨٨٥م) (١٣٠٣هـ) ومن خلال توفر أجهزة الاتصال

الحديثة، فيبدو أن تنظيم الحجاز بالنسبة لتركيا لا يبدو مشكلة صعبة. غير أن العقبة الأولى في تحقيق ذلك هو الافتقار إلى المال. ومهما قيل في فساد إدارة الأتراك، فإن الدولة ليست مريضة مرضاً مميتاً، ما دامت تظهر أناساً مثل عثمان نوري باشا. ولولا الإفلاس المالي الذي يجبر الموظفين على الحصول على الأموال بالطريقة التي يرونها مناسبة، لكان عثمان باشا مثال الحاكم الناجح الذي يحقق الكثير لشعبه.

الأتراك ممهدون لنقل الحضارة الأوروبية

معظم الأوربيين يرون أن أَوْرَبَة الإدارة (بجعلها على الطريقة الأوربية) وكذلك السكان في الدول الشرقية، هو شرط أساس لسعادتهم. وعلينا أن نتذكر أن الأتراك يقومون بهذا التغيير دون وعي. ويعرف العرب ذلك التغيير بصورة أكثر وضوحاً. وإنك لتسمع دائماً أن الناس يصفون الموظف الذي يتدخل في أمر غير مرغوب «لابس بنطلون»، إنهم حقاً كلاب المسيحيين!

لقد أوضح أحد الكتّاب الإنجليز قبل سنوات قليلة ضرورة إشراف إحدى الدول الأوربية العظمى على شؤون غرب الجزيرة العربية. والسبب في ذلك أن مكة المكرمة، المركز الروحي للإسلام، تجعل من كل الدول التي فيها مسلمون تواقة للإشراف على شؤونها، ومن هنا تأتي ضرورة إشراف الدولة الأوربية عليها بادئ ذي بدء. وفي رأيي إن مثل هذا القول يمكن تحقيقه في القرن القادم، بدون اصطدامات عنيفة، وذلك عن طريق توسط تركي في هذا السبيل.

أخيراً يمكن القول من وجهة نظر رومنسية إن التغيير السريع للحياة المكية أمر مأسوف عليه، غير أن هذه الرومنسية يجب أن تفسح المجال في يوم من الأيام لمتطلبات الحياة العملية.

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧



يقدم هذا الكتاب للمهتمين بدراسة مختلف الجوانب التاريخية والاجتماعية والاقتصادية لمكة المكرمة-منذ ظهور الاسلام وحتى القرن الثالث عشر الهجري-معلومات كثيرة ومتنوعة. وقد ألّفه المستشرق الهولندي كرستيان سنوك هورخرونيه(١٨٥٧م-١٩٣٦م)، الذي دخل مكة المكرمة باسم مستعار، وبقي فيها حتى أغسطس عام١٨٨٥م. وقد ألّف كتابه بجزأيه أثناء إقامته في مكة المكرمة. تناول الجزء الأول من الكتاب التاريخ السياسي للبلد الأمين خلال تلك الفترة. أما الجزء الثاني فتناول الأوضاع الاجتماعية لمكة المكرمة في الفترة التي عاش المؤلف فيها في مكة المكرمة. وقد تضمّن الكتاب في هذا الجزء مجموعة من الصور التي تبرز جوانب عديدة من الحياة في مكة المكرمة في تلك الفترة.

رقم الردمك: ٦-٠
ISBN: 9960-693-40-6
9 999606 9334066